الإمام فيصل عبد الرؤوف

رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين

تقديم: كارين أرمسترونج

ترجمة: محمد فاضل



رؤية إسلامية جديدة
للغرب والمسلمين

هذه ترجمة لكتاب:

WHAT'S RIGHT WITH ISLAM

A New Vision for Muslims and the West

IMAM FEISAL ABDUL RAUF

Arabic translation rights arranged with The Arabic Book Program at the US Embassy in Cairo in collaboration with Shorouk International and the Joy Harris Literary Agency, Inc.

بالتعاون مع برنامج الكتاب العربي بالسفارة الأمريكية بالقاهرة، ووكالة جوى هاريس الأدبية

الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ - يناير ٢٠٠٨ م



٩ شارع السعادة - أبراج عثمان - روكسي - القاهرة
تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٤٥٠١٢٢٨ - ٢٢٥٦٥٩٣٩
المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٣٨٠٧١ - ٢٣٩١٣٠٧٢
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

الإمام فيصل عبد الرءوف

رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين

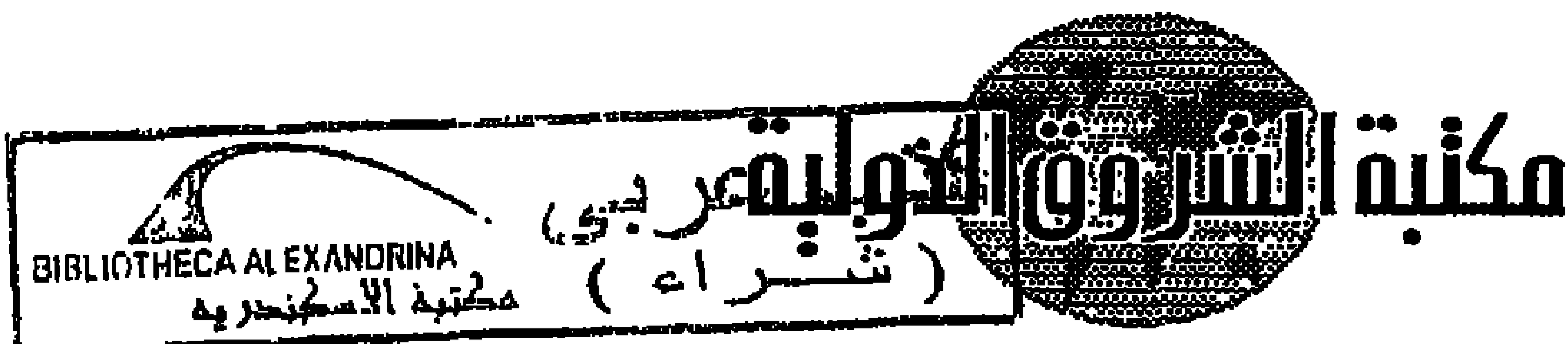
«يتحدث الإمام فيصل عبد الرءوف من القلب عن الأرضية السامية التى يمكننا جميعا أن نتوحد فوقها؛ إنه كتاب مفعم بالأمل»

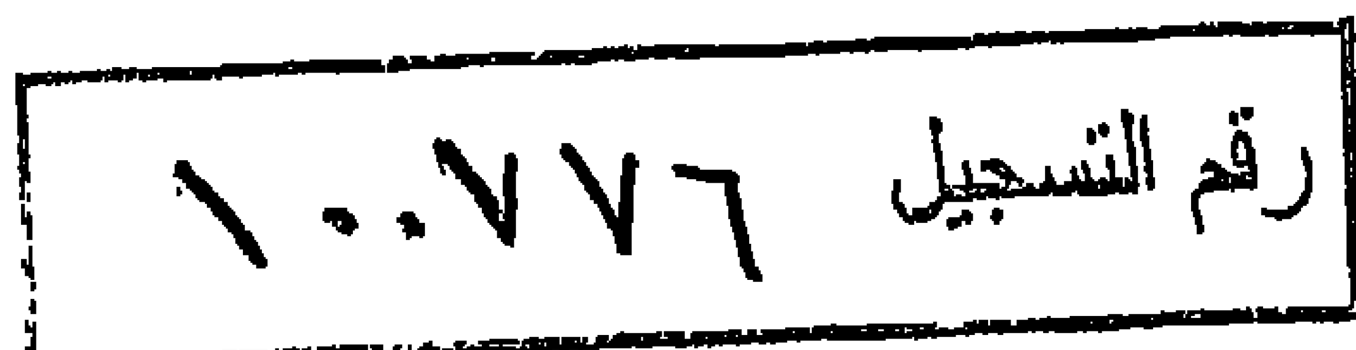
صاحبة الجلالة الملكة نور، ملكة الأردن

تقديم: كارين أرمسترونج

ترجمة: محمد فاضل

مراجعة: كمال سيد محمد





البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

عبد الرءوف، فيصل.
رؤية إسلامية جديدة للغرب والمسلمين/ فيصل عبد الرءوف؛ تقديم كارين أرمسترونج؛ ترجمة محمد فاضل.
ط ١ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨
٣٤٤ ص؛ ١٧ × ٢٤سم
تدمك 8 - 15 - 6278 -977 - 978
١ – الإسلام والعلاقات الخارجية
(أ) أرمسترونج، كارين (مقدمة)
(ب) فاضل، محمد (مترجم)
(ج) العنوان ٢١٤,٣٢٧

رقم الإيداع ٥٠٩٨ /٢٠٠٨م
الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 15 - 8

إهداء ...

إلى أحبائى أبنائى وأسرتى وتلاميذى
الذين أرجو أن يكونوا منارات للحكمة

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه
وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه

الفهرس

تقـــديم

الكاتبـة كارين آرمسترونج

فى مطلع القرن العشرين كان جميع المفكرين المسلمين تقريبًا مولعين بالغرب؛ وكم تمنوا أن تكون بلادهم كبريطانيا أو فرنسا ـ اللتين كانتا فى ذلك الوقت رائدتين للمدنية الديمقراطية العلمانية؛ بل إن بعضهم قد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك قائلاً: إن الأوروبيين كانوا يعيشون الإسلام أفضل من المسلمين أنفسهم؛ وذلك لأن مجتمعاتهم المتمدنة قد اقتربت من مُثل المساواة بين البشر كما يدعو إليها القرآن الكريم بشكل أقرب مما كان سائدًا فى البلدان الإسلامية التقليدية، فبالرغم من أن الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥م) مفتى الديار المصرية كان شديد الانزعاج من الاحتلال البريطانى لبلاده إلا أنه كان متضلعًا فى الثقافة الأوروبية وكان يشعر بارتياح كبير للشعوب الأوروبية؛ فقد ورد عنه أنه قال بعد عودته من رحلة إلى باريس: «لقد رأيت فى فرنسا مسلمين بلا إسلام، وفى مصر أرى إسلامًا بلا مسلمين». فى إيران ناضل الملالى جنبًا إلى جنب مع العلمانيين من أجل تشكيل حكومة نيابية ديمقراطية؛ وحينما تأسس البرلمان الجديد عام ١٩٠٦م نافح عنه الشيخ محمد حسين نينى (١٨٥٠ـ ١٩٣٦م) قائلاً: إنه ثانى أفضل عمل بعد ظهور المهدى المنتظر ليقيم دولة العدل فى آخر الزمان؛ وذلك لأن هذا البرلمان سوف يكبح طغيان الشاه.

ومن الأهمية بمكان أن نستهل هذا التمهيد بالحديث عن تلك الحماسات المبكرة؛ فحينما وجد المسلمون أنفسهم وجهًا لوجه لأول مرة مع الغرب الديمقراطى المتمدين لم يرتدوا على أعقابهم وفيهم قدر من الاحتقار له؛ بل اعترفوا بأنه يتسق مع تراثهم الدينى. أما اليوم، نرى أن هناك قدرًا كبيرًا من عدم الثقة المتبادلة بين كثيرين من

المسلمين والغربيين؛ وكما تنبأ صمويل هنتنجتون، فبعد شناعة أحداث الحادى عشر من سبتمبر أصبح الكثيرون من الغربيين يعتقدون أن هناك صدامًا حقيقيًا بين الحضارات؛ لأن ديانة المسلمين لا تجعلهم أهلاً للتمدن والحداثة؛ فالكثيرون أصبحوا على قناعة بأن «الإسلام» يحض أتباعه بشكل ما على ارتكاب أعمال العنف والإرهاب، ويحتفى بمفجرى القنابل والانتحاريين؛ وأنه بطبيعته اللصيقة به يتعارض مع الديمقراطية الغربية المتحررة. وهذا أمر مفهوم، حيث إن غالبية الأمريكيين والأوروپيين لا يفهمون كثيراً الإسلام أو الظروف السياسية التى أسهمت فى إيجاد المأزق الحالى وما يحف به من مخاطر.

إذا كنا فعلاً نشن «حربًا على الإرهاب» فإننا فى حاجة ماسة إلى معلومات دقيقة؛ فما عاد بوسعنا أن نظل على جهل؛ لأن الرهانات اليوم أضحت جد مرتفعة؛ فمن الحيوى حتمًا أن نعرف من هم أعداؤنا، ولكن من المهم بالمثل معرفة ما ليس فيهم من صفات؛ فالذين يشتركون فى أعمال العنف والإرهاب من بين المسلمين ما هم إلا قلة ضئيلة؛ ولو ظل إعلامنا وسياسيونا يشوهون صورة الإسلام مصرين على نحو قاطع بالصورة النمطية التى سادت فى الغرب منذ عصر الحروب الصليبية، فإننا سننتهى إلى عداوة المسلمين الذين ليس لهم أى نزاع مع الغرب؛ هؤلاء المسلمون الذين يتمتعون أو يتطلعون إلى قدر أكبر من الديمقراطية وينتابهم الذعر من الشرور التى ترتكب باسم عقيدتهم؛ إننا فى حاجة ماسة وعاجلة إلى مد الجسور مع العالم الإسلامى. ويمكننى التفكير فى عدد من المشروعات الأكثر حسمًا فى الوقت الحاضر.

هذا هو السبب فى الأهمية الكبيرة لهذا الكتاب؛ فبدلا من التركيز على «ما حدث من أخطاء» يبين الإمام فيصل عبد الرءوف ما يدعو إليه الإسلام وما يمكن أن يقدمه للغرب؛ بل إن الإمام نفسه أحد الجسور الممتدة بين الإسلام والغرب؛ حيث إن له جذوراً عميقة فى كلا العالَمين؛ حيث تلقى تعليمه فى مصر وإنجلترا وماليزيا والولايات المتحدة، ولا يفصل مسجده فى مدينة نيويورك عن موقع مركز التجارة العالمى إلا بضع بنايات. بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر كان الكثيرون يسألوننى «أين المسلمون المعتدلون؟ ولماذا لا يتحدثون صراحة؟». ونحن نرى فى الإمام عبد الرءوف نموذجًا للمسلم الذى يمكن أن يتحدث إلى الشعوب الغربية باللغة التى يفهمونها.

تعتبر الجالية المسلمة فى أمريكا واحدة من أهم الدعائم التى ترتكز عليها الولايات المتحدة فى صراعها مع الإرهاب. فالكثيرون من الأمريكيين المسلمين يدركون منذ وقت بعيد أنهم يستطيعون أن يمارسوا شرائع دينهم فى الولايات المتحدة بشكل خلاق على نحو أكبر مما يفعلون فى بلدانهم الأصلية؛ فقبل الحادى عشر من سبتمبر بسنوات كانوا يحاولون بناء حضور قوى نابض بالحياة للإسلام فى أمريكا وتربية أبنائهم ليصبحوا مسلمين صالحين ومواطنين أمريكيين أوفياء. عندما قمت بزيارة هذه الجالية فى عام ١٩٩٩م، اقترحت عليهم أن يأخذوا العبرة من الأمريكيين الكاثوليك ولو فى بعض الجوانب على الأقل؛ حيث إن عدد الكاثوليك فى أمريكا وقت حرب الاستقلال ضد بريطانيا لم يكن يتجاوز واحدًا فى المائة من المستوطنين، وكان الكاثوليك أقلية مكروهة ومحتقرة، وكان يعتقد أنهم حلفاء المسيح الدجال، ويسودهم بابا طاغية، ويتأصل فيهم العداء للحرية والديمقراطية، ولم يكن أحد يحلم قط بأن يأتى اليوم الذى يرأس فيه كاثوليكى الولايات المتحدة. ولقد كانت تلك أوقاتًا عصيبة على الكاثوليك الأمريكيين؛ ولكن ما إن جاءت ستينيات القرن العشرين حتى كان أساقفة الولايات المتحدة هم الفئة الأكثر قوة فى دفع عجلة الإصلاح فى المجلس الثانى بالفاتيكان. فقد أنعشت المثل الأمريكية فى الحرية والمساواة وشفافية القيادة عقيدتهم. وكانوا مثل البابا يوحنا پولس الثالث عشر يريدون أن تكتسح نسائم المدنية والحداثة النشطة أرجاء أروقة الفاتيكان العفنة؛ ولو سادت هذه الروح لاستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تتجنب بعضًا من مشاكلها الحالية.

وبوسع المسلمين الأمريكيين أن يمارسوا تأثيرًا مماثلاً على العالم الإسلامى، وأن يثبتوا عمليًا أن الحياة فى الولايات المتحدة حسب المثل القرآنية أمر ممكن. ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً إذا نأى الناس عنهم باعتبارهم إرهابيين محتملين، وظلوا دائمًا فى موقف الدفاع. وإنه لأمر حيوى أن تدرك الشعوب الغربية أن الإسلام ليس عقيدة غريبة، وأن تراثه يتفق بعمق شديد مع المثل التى تعتنقها تلك الشعوب الغربية؛ ولسوف يرى الغربيون بين جنبات هذا الكتاب أن المسلمين أقاموا مجتمعات عاشت قرونًا طويلة تتمتع بالتسامح والتعددية بشكل يتفوق كثيرًا على ما عاشه العالم المسيحى الأوروبى؛ وأن الشريعة الإسلامية تنطوى على مبادئ غاية فى الأهمية تتسق بشكل كبير جدًا مع الديمقراطية؛ وأن القرآن يؤكد على أهمية العدل والمساواة، وهما قيمتان

محوريتان فى المثل الغربية العليا؛ وسيعرف الغربيون أن المسلمين ساعدوا الأوروپيين فى إعادة بناء ثقافتهم بعد نكبتها الطويلة إبان العصور المظلمة، وذلك من خلال تعريفهم من جديد على تراث القدماء الإغريق فى الفلسفة والعلوم والرياضيات.

وهنا تكمن الصعوبة؛ ففى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وحينما كان علماء أوروپا يجلسون عند أقدام العلماء المسلمين فى إسپانيا، كان الصليبيون الأوروپيون يذبحون المسلمين فى فلسطين والشام. وفى تلك الفترة الحساسة فى تشكيل الحضارة الغربية كان يسود أوروپا جو سقيم من اختلال التوازن. فقد كان المسيحيون الغربيون فى ظل جهودهم لبناء هوية جديدة لهم ينظرون إلى المسلمين واليهود ـ ضحايا الحروب الصليبية ـ كنقيض يظهر لهم مزاياهم، وكرمز لكل شىء لم يكن الأوروپيون عليه (أو شىء كان الأوروپيون يخشون أن يكونوا عليه). وانصرف الأوروپيون يردون المخاوف المدفونة من سلوكياتهم إلى هذين النموذجين «المعادين للحضارة»؛ وهكذا، ففى عصر الحروب الصليبية وصم العلماء الرهبان فى أوروپا الإسلام بأنه دين السيف، حتى بالرغم من أن المسيحيين أنفسهم قد حرضوا على شن حروب مقدسة وحشية ضد المسلمين فى الشرق الأوسط. وفى عصر الحروب الصليبية، أصبحت كراهية اليهود داءً عضالاً فى أوروپا، وأدى هذا الموروث المشين إلى وقوع عدد من أسوأ الجرائم فى التاريخ الغربى. غير أن ظاهرة الهلع من الإسلام Islamophobia تأصلت لدينا بنفس القدر، وجاءت شرور الحادى عشر من سپتمبر لتؤكد الكثير من الأحكام المسبقة.

نحن فى حاجة الآن إلى ترسيخ رؤية أكثر عدلاً واتزانًا عن الإسلام. فكراهية القرون الوسطى القديمة يشعلها ويغذيها الرفض. يصعب علينا دائمًا أن نصفح عمن آذيناهم. فالمسيحيون الذين قاموا بالحروب الصليبية رأوا أنه من المستحيل تقدير مواطن القوة فى الحضارة الإسلامية؛ وذلك لأنهم فى عقلهم الباطن يعلمون أنهم أنفسهم قد ارتكبوا الإثم. لقد أوصى المسيح أتباعه أن يحبوا أعداءهم لا أن يبيدوهم؛ واليوم يجب على شعوب الغرب أن يدركوا أن سياستهم الخارجية فى القرن الماضى قد أسهمت كثيراً فى خلق الأزمة الحالية. فمساندة أمريكا وبريطانيا للأنظمة غير الديمقراطية فى الشرق الأوسط ـ كما يشرح لنا الإمام عبد الرءوف على صفحات هذا

الكتاب - على سبيل المثال لم تجعلهما تفشلان فى الالتزام بمثلهما فحسب، بل شجعت عن غير قصد على تعاظم التطرف. ليس هناك مبررات لمذبحة الحادى عشر من سبتمبر أو التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل وفلسطين. لكن الإمام عبد الرءوف يشرح أسباب الانحراف بالدين وسوء استخدامه فى بعض أجزاء من العالم الإسلامى. فإذا كان يحق للشعوب الغربية أن تطالب المسلمين أن يكونوا أكثر انفتاحًا فى نقد الذات، فليس بوسعها لهذا السبب أن تغض الطرف عن مواطن القصور لديها.

يحتوى هذا الكتاب للإمام عبد الرءوف على رسالة إيجابية؛ فهو يساعد المسلمين والشعوب الغربية على حد سواء فى الوصول إلى مخرج من المأزق الحالى، حيث تؤدى الأعمال الوحشية إلى الانتقام، ويؤدى الهجوم إلى هجوم مضاد وضربات استباقية وانفجارات إرهابية جديدة ومباغتة؛ وإذا ما أردنا الخروج من هذه الدائرة المفرغة فعلينا ليس فقط أن نتعلم أن نتسامح مع بعضنا البعض، بل أيضًا أن نقدر بعضنا البعض. فلقد فقد الغرب قدراً كبيراً من الإعجاب الذى حظى به أيام محمد عبده؛ وذلك يرجع جزئيًا إلى سياساته الضالة.

فى منتصف القرن العشرين، أطلق العالم الكندى «ويلفريد كانتويل سميث - Wilfred Cantwell Smith» تحذيراً رزينًا مفاده أن إسلامًا صحيحًا وفاعلاً أمر حاسم للسلام العالمى؛ وذلك لأن الإسلام ساعد المسلمين ولمدة قرون على غرس القيم والمثل التى نتقاسمها نحن فى الغرب؛ لأنها جميعًا تخرج من مشكاة واحدة. وعلى المسلمين أن يتعلموا أن يستوعبوا الغرب ولا يقعوا فريسة فى شراك الرفض المتطرف لقوى الغربية؛ لكن على الشعوب الغربية من الناحية الأخرى أن تدرك «أنها لا تقاسم هذا الكوكب أناسًا دونها ولكن أندادًا لها» وخلص سميث إلى أنه «إذا فشل كلاهما فى إدراك تلك الحقيقة فسيفشلان فى أن يتفهموا حقائق القرن العشرين»[1] وربما كان اشتعال برجى مركز التجارة العالمى رمزاً لفشلنا جميعًا فى اجتياز هذا الاختبار. إن هذا الكتاب يوضح لنا أن الطريق الوحيد للمضي قدمًا لن يأتى إلا بالعمل الجاد على غرس الاحترام المتبادل؛ ولذا فإن هذا الكتاب لا يجب فقط أن يقرأ، بل يجب أيضًا أن يوضع موضع التطبيق.

تمهيــــد

ليس بوسع معظم القراء أن يقضوا وقتًا طويلاً للتمكن من الإلمام بالفوارق الدقيقة في دين آخر غير دينهم، فهذا الأمر لا يهم إلا العلماء. وغالبية الناس يسعون إلى تحصيل المعلومات عن الإسلام التي تشرح وتنير عالم الإسلام في مواجهة القضايا المعاصرة. ومعظم القراء يريدون إجابات مباشرة وبسيطة لأسئلتهم الأساسية الصادرة من القلب.

لماذا تقرأ هذا الكتاب؟

ربما تكون أحد النواب في الكونجرس الأمريكي ويهمك أمر الأمن القومي الأمريكي، وتريد أن تعرف أسباب انتشار الغضب الشديد المعادي لأمريكا في العالم الإسلامي؛ ولماذا تصاغ الحركات السياسية الإسلامية بألفاظ إسلامية، وما الذي يفرخ تلك الحركات؛ وتريد أيضًا أن تعرف ما الذي تستطيع أن تفعله الحكومة الأمريكية على نحو مختلف لتوفير قدر أكبر من الأمن لمواطنيها على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ربما تكون مسيحيًا أمريكيًا ورعًا ويؤذيك ما أطلقه الإيرانيون على بلدك الحبيبة بأنها «الشيطان الأكبر» وتتساءل عما إذا كان الإسلام في جوهره معاديًا للمسيحية!!

وربما تكون متدينًا محافظًا مثل جورج دبليو بوش تؤمن حقًا أن الإسلام دين يدعو إلى السلام، لكن تنتابك الحيرة تجاه رفض المسلمين الكامل لضم إيران لما يسمى «محور الشر».

وربما تكون يهوديًا أمريكيًا لديك ولاء عميق لإسرائيل، ويزعجك تصاعد العداء للسامية فى العالم الإسلامى، ويقلقك أن هناك ١,٢ مليار مسلم يريدون تدمير أرض أشواقك الدينية والتاريخية.

وربما تكون باحثًا عن الروحانيات تتعجب من كون الإسلام أسرع الديانات انتشاراً فى العالم.

وربما تكون أمريكيًا مناصراً لحقوق المرأة يأسرك ما سجلته موثقًا «باربارا وولترز ـ Barbara Walters» عن النساء فى المملكة العربية السعودية، ويدهشك رجاحة عقلهن وقوة إرادتهن المستترة خلف ما يرتدينه من ثياب سوداء فضفاضة.

وربما تكون أمريكيًا مسلمًا ـ شابًا أو فتاة ـ يربكك ما ترى من صورة الإسلام كما تبثه وسائل الإعلام الأمريكية عن أسامة بن لادن، ومن صورة الإسلام الذى تمارسه جدتك الحبوبة التى ما تنفك تجلس على سجادة صلاتها وتدعو لك أن تتزوج مسلمة متدينة، أو تتزوجى مسلمًا متدينًا.

كل الأسئلة الواردة فى هذا الكتاب كانت من بين الأسئلة التى وُجهت إلىّ خلال محاضراتى بعد الحادى عشر من سبتمبر؛ وإننى لأشعر ببالغ الامتنان لمن أثاروا تلك الأسئلة، وخصوصًا أولئك الذين آثرونى بالأسئلة الصعبة.

لماذا أبحث عن رؤية جديدة؟

منذ الحادى عشر من سبتمبر، أصبح التصور السائد عن الإسلام ـ وهو الدين الذى أحبه والذى يشكل هويتى الجوهرية كإنسان ـ لدى قاعدة عريضة فى الولايات المتحدة، أنه تهديد للأمن القومى، بينما أثارت الولايات المتحدة ـ التى أعتز بقيمها ـ قدراً هائلاً من العداء والألم المبرح فى كثير من بقاع العالم الإسلامى. ويتحمل المسلمون الأمريكيون اليوم آلام مشاهدة هذا الانقسام المتنامى، وقد تحدانى رفاقى الأمريكيون لعرض أفكار جديدة تمس الحاجة إليها عن كيفية رأب تلك الصدوع الآخذة فى الاتساع.

إن الانتصار الذى حققته العسكرية الأمريكية على نظام صدام حسين فى العراق يعنى أن أمريكا اليوم الآن مسئولة عن تشكيل عراق جديد، ذلك البلد الذي يرتبط فى

العقل الإسلامى بصورة وثيقة بجزء من تراث التاريخ الإسلامى العظيم؛ فقد كانت بغداد، عاصمة العراق، مقرّا للخلافة العباسية الإسلامية لمدة خمسة قرون - من ٧٥٠م إلى ١٢٥٨ م - وهى الفترة التى شهدت تطوراً هائلاً فى جميع العلوم الإسلامية من الفقه والفلسفة، وحتى العلوم الطبيعية والفنون الجميلة.

عندما عاد رسول الله محمد ﷺ من إحدى الغزوات، قال لأصحابه: «لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» أى من المعركة التى يتم خوضها بالسيوف إلى المعركة التى ندخلها بالعقول والأفئدة حتى نحيا حياة ورعة طيبة؛ لقد ربحت أمريكا الجهاد الأصغر الذى أسقطت خلاله نظام صدام حسين. لكن التحدى الأعظم الذى لا يزال يواجهها هو كسب قلوب العراقيين وأفئدتهم والوصول من خلالهم إلى بقية العالم الإسلامى. لقد أضحى تحقيق السلام هو الجهاد الأكبر أمام أمريكا.

ومن جانبهم أضحى مسلمو أمريكا - أولئك الذين استطاعوا أن يوائموا بين هويتهم الأمريكية وهويتهم الإسلامية ويدمجوهما معًا - فى وضع فريد يتيح لهم المساعدة فى تحقيق السلام. فقد تعلموا كيف يحدثون الأمريكيين عن الإسلام وكيف يحدثون العالم الإسلامى عن أمريكا. وأن يحدثوا كلا الجانبين عن مواطن الاتفاق والاختلاف بين قيم الإسلام والقيم الأمريكية. هناك حاجة ملحة لتدخلهم إذا كنا نريد حقّا أن نرأب الصدع بين العالم الإسلامى والغرب.

ستظل القضية الأكثر تأججًا هى كيفية وقوع رعب الحادى عشر من سبتمبر باسم الإسلام ولدى الأمريكيين مخاوف مشروعة من أن تكون القيم الإسلامية بطبيعتها معادية على ما يبدو للقيم والديمقراطية الغربية.

فى محاولة لفهم أغوار القضايا الأساسية أمطرنى بعض أصدقائى الأمريكيين غير المسلمين بجملة من الأسئلة منها: هل الفقه الإسلامى هو الذى يستحق اللوم؟ هل المشكلة تنجم عن المفهوم الإسلامى للجهاد أو عن الاعتقاد بأن منفذى التفجيرات الانتحارية يجزون باثنتين وسبعين من الحور العين فى الجنة؟ أم أن المشكلة ترتبط بقمع النساء فى بعض المجتمعات الإسلامية، أو عن الاعتقاد السائد بين المسلمين بعدم الفصل بين الدين والدولة، أو تآكل الإسلام المعتدل على يد المتشددين الوهابيين؛ أو الافتقار إلى حركات الإصلاح الدينى مثل التى حدثت فى المسيحية؟

بعد جلسة دامت ساعتين من تلك الأسئلة والإجابة عليها وجدت نفسي وقد ألقى أمامي قفاز التحدى الأكبر لا محالة: حسنًا. كيف لنا أن نداوى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى؟ تلك هى القضية الحاسمة فى عصرنا؛ وباعتبارى مسلمًا أمريكيًا يحمل على عاتقه واجبات الإمام أجد نفسى مضطرًا لمحاولة الإجابة.

على مدى الأعوام الخمسة والثلاثين الماضية، ومن خلال محاضراتى فى المدارس والجامعات والكنائس والمعابد اليهودية، والمساجد أيضًا بطبيعة الحال، كنت أقوم فى يوم الجمعة وأحيانًا فى يوم الأحد بشرح العقيدة الإسلامية للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء؛ فكلا الفريقين كانا فى حاجة إلى فهم ما أشكل عليهما حول الإسلام والفكر الإسلامى الذى تم تشويهه على نحو مجحف على يد غير المسلمين، بل وبعض المسلمين ممن ليس لديهم علم كاف بعقيدتهم. فمما يثير دهشة الكثيرين ـ بالرغم من أن الأمر ليس سرًا كما يرثى له العديد من أصدقائى من مختلف الديانات ـ أن الكثيرين جدًا من أتباع عقيدتنا الإبراهيمية يعانون من قدر كبير من سوء الفهم لدينهم أو لا يفهمونه بشكل كاف. وبينما يصدق هذا على الرغم من التردد على الكنائس ومعابد اليهود والمساجد؛ فإن البعض يرى أن السبب فى ذلك يرجع جزئيًا إلى ذلك. يشعر الكثيرون بعدم الرضا، والنفور والغضب، والرعب، بل والارتباك من تجاربهم فى دور العبادة. وهو ما يحدث فى المساجد أيضًا.

لكن الجهل بعقائدنا وعقائد الآخرين ليس هو المشكلة الوحيدة. فقد أصبح الأمريكيون شعبًا أميًا فى أمور الدين؛ فالأعراض الجانبية لتلك الحقبة من الزمن التى شهدت قدرًا كبيرًا من سوء الفهم الناتج عن فصل الكنيسة عن الدولة أدت إلى مثل هذا الانشقاق بينهما حتى أنه أصبح أمرًا متخلفًا أو محرجًا أن يقوم المرء بممارسة التراث الدينى غير العصرى أو دراسته. وبينما لا تشكل هذه الأمية الدينية أى تهديد لمن لا يمارسون الشعائر الدينية تصبح تلك الأمية خطرًا كبيرًا على من يأخذون دينهم مأخذ الجدّ: فهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون ـ وتلك فئة من المؤمنين نصحنا معلمونا أن نهرب منهم[١]. ! وعندما يصبح هؤلاء هم من يعلمنا الدين، فلم العجب فى أن نرى ضرورة تأليف كتاب هام تحت عنوان «متى يصبح الدين شرًا؟[٢]».

واليوم، لم يعد هناك إلا اليسير من الشك فى أن الأصولية الدينية تمثل رد الفعل الدينى ضد تيارات الحداثة العلمانية المعادية للدين، والتى بلغت ذروتها فى منتصف القرن العشرين.

أنا مسلم ومواطن أمريكى على حد سواء، أفخر بالمبادئ الجوهرية والأساسية التى تنافح عنها أمريكا مثلما أفخر بالمبادئ الجوهرية والهامة التى ينافح عنها الإسلام. فقد ترعرعت فى كنف العالم الإسلامى وأمريكا على حد سواء، غير أننى أشعر بالألم لما فعل كلٌّ منهما بالآخر.

فالحادى عشر من سپتمبر ـ ذلك اليوم الذى سيظل موصومًا فى الذاكرة بالخزى والعار، حيث قاد الولايات المتحدة للدخول فى حرب ـ أربك الكثيرين من الأمريكيين غير المسلمين من الإسلام وأرعبهم منه. فالقول بأن الإسلام دين السلام لن يتفق مع صوره المتحدثين المسلمين وهم يدينون أمريكا بعبارات مقذعة، أو يجاهرون بالهجوم على اليهود والنصارى، أو مع المشاهد التلفزيونية التى تصور الإيرانيين وهم يصرخون «الموت لأمريكا»؛ لم تعد التقارير الإخبارية تغطى تنفيذ تفجيرات انتحارية ضد أهداف عسكرية على بعد آلاف الأميال، فالهجوم فى ذلك اليوم كان فى عقر الدار، ولم يعد فى مقدور الأمريكيين التسامح.

إن الهجوم على مركز التجارة العالمى غير المعادلة بطريقة حاسمة: فالعنوان الرئيسى القائل «أمريكا فى حالة الحرب» الذى بثته شبكة «سى إن إن» أصبح شيئًا مثبتًا فى مكان ما فى البيت الأمريكى، ولأول مرة منذ حرب ١٨١٢م يتم مهاجمة الولايات المتحدة داخل الولايات الثمانى والأربعين المتجاورة. ويتعرض المدنيون الأمريكيون لخطر هجوم خارجى من عدو مجهول يرتبط وبشكل مباشر بدينى ـ الإسلام؛ ولتأكيد الخطر وتعظيم أمره يستهدف الهجوم أهم رموز القوة الأمريكية:

* مركز التجارة العالمى: رمز وول ستريت والقوة الاقتصادية الأمريكية.

* البنتاجون: مقر المجمع العسكرى الأمريكى، أقوى الأجهزة العسكرية فى العالم، والتى تساوى ميزانيتها السنوية الميزانية العسكرية للدول العشرين التالية لها فى الترتيب مجتمعة.

* مبنى الكابيتول الأمريكى: رمز ديمقراطيتنا.

لقد كان الأمر أكثر مما يحتمل، ولا يمكن أن تتعرض أية دولة لمثل هذا الهجوم دون أن ترد بأقسى طريقة ممكنة.

ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف الأنباء عن التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل وفى بعض بلدان العالم الإسلامى مثل پاكستان وإندونيسيا والعراق وأخيراً فى السعودية والمغرب عن ترسيخ الصورة الأمريكية المقولبة عن المسلمين والمخاوف منهم.

وقد ولد هذا الخوف عدة أشياء: كراهية أى شىء ذى صلة بـ «العدو» ـ من المظهر العرقى إلى اللباس إلى الدين ـ وظهور العقلية دائمة التربص بالآخر. وانحرف اتجاه البلد بأسره إلى اليمين متجهاً بين عشية وضحاها من أمة ترى أن حرق الأعلام ـ على ما فيه من إهانة ـ حق يكفله الدستور إلى أمة ترى أن المرء يخطئ سياسيّاً إن لم يتشح بعلمها بتباه. هل كان صمويل هنتنجتون على صواب؟ هل كنا نشهد «صراعًا للحضارات» بين الغرب وما سواه ـ فى هذه الحالة بين الحضارة الغربية والإسلام ـ فى حالتنا تلك؟ يبدو الأمر شديد البساطة: كيف لأمريكا أن تكره من خمسة إلى سبعة ملايين نسمة من أبنائها؟

لقد غيرنى الهجوم على مركز التجارة العالمى والپنتاجون أنا شخصيّاً. فقد كنت قبل الحادى عشر من سپتمبر معلمًا للمعارف الإسلامية أسَخِّر جل جهدى للجانب العقائدى والروحى والفقهى من دينى، وكنت ناشطًا فى مجال التعاون بين الأديان فى مدينة نيويورك سيتى. وخرجت من رفضى الانجرار إلى السياسة؛ لأننى لم أكنْ أرى فيها أى مغنم لأجد نفسى مجبراً على شرح ما لدىّ والدفاع عن عقيدتى. لقد أجبرتنى أحداث هذا اليوم من أيام عام ٢٠٠١م على الخروج من دفء محرابى المصنوع من خشب الماهوجنى فى مسجدى الذى يبعد اثنتى عشرة بناية عن موقع الانفجار فى مدينة نيويورك؛ وفى غمرة المطالبة بـ «شرح وجهة النظر الإسلامية» وجدتنى أهرع مسرعًا من مقابلة مع محطة تلفزيونية أو إذاعية إلى أخرى محاولاً أن أشرح فى عدد ضئيل من وحدات البايت الصوتية أغوار القضايا.

ودفعنى التزامى بتحسين العلاقات بين الطوائف الدينية وبتخفيف الآلام التى نتعرض لها ـ نحن بنى البشر ـ فى حياتنا إلى الانخراط فى جولة من الحوار فى معابد اليهود والكنائس والحلقات الدراسية ومجموعات العمل فيما بين الأديان ساعيًا وراء السبل التى تساعد الآخرين على فهم الأرضية الأوسع التى توحد بين موروثاتنا العقائدية والاعتراف بها.

وجاء هذا الكتاب تكريسًا وتتويجًا لهذا الجهد. وسنقوم بين طياته بتحليل الشقاق بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة، وبتحديد مواطن الثراء فى تراث كلٍّ منهما. كما سنناقش عددًا من القضايا الساخنة التى أثيرت منذ الحادى عشر من سبتمبر حول موضوعات علوم الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس. ومن خلال فهمنا المتزايد للسبب فى أن العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب سارت فى الطريق الخطأ، ويمكننا البدء فى اكتشاف سبل إعادة بنائها.

الإمام فيصل عبد الرءوف ـ نيويورك ٢٠٠٤م

مقدمة

تمهيد : هل يمكن أن تقوم قرطبة أخرى؟

بعد حربين شنت الأولى منهما لإسقاط نظام طالبان الحاكم فى أفغانستان والثانية للإطاحة بالنظام العلمانى البعثى الحاكم فى العراق، تجد الولايات المتحدة نفسها أشد بعدًا عن العالم الإسلامى من أى وقت مضى.

فى شهر يونيو ٢٠٠٣م وتحت عنوان: «المسلمون يعربون عن الخوف والاشمئزاز من أمريكا» نشرت صحيفة «الفاينانشال تايمز - Financial Times» مسحًا جديداً أجراه مشروع لاستطلاع المواقف العالمية بعنوان «رؤى لعالم متغير ٢٠٠٣: الحرب على العراق توسع الهوة بين شعوب العالم». وقد خلص التقرير إلى أن «تأييد أمريكا قد تهاوى فى معظم العالم الإسلامى»(١)؛ وأشار على سبيل المثال أن واحدًا فى المائة من مواطنى المملكة الأردنية يكنون «مشاعر طيبة» تجاه الولايات المتحدة. وفى نفس الوقت، فإن قوس أزمة القرن العشرين، الممتد فى أنحاء العالم الإسلامى من جنوب آسيا إلى البحر المتوسط، يستمر فى الغليان، ويشهد الاستقطاب بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى أسوأ حالاته على الإطلاق. وقد وجدت دراسة پيو أن أسامة بن لادن - حتى رغم أننا لا نعرف ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة - يتلقى دعمًا كبيراً من المسلمين باعتباره القائد الأكثر قدرة على «فعل الشىء الصحيح فى الشئون العالمية». والواضح أن هناك شيئًا خاطئًا بصورة عميقة فى علاقة أمريكا بالعالم الإسلامى.

ومع ذلك، فنحن نتساءل عن كيفية حدوث ذلك؟ ذلك أن جوهر القيم الإسلامية يتوافق مع جوهر القيم الأمريكية. فالديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - تقوم جميعًا على أعظم وصيتين:

١ ـ أن نحب الله من كل أفئدتنا وعقولنا وأرواحنا وقوتنا .

٢ ـ أن نحب إخواننا من بنى البشر كما نحب أنفسنا ، بغض النظر عن أعراقهم أو دينهم أو خلفيتهم الثقافية .

وحيثما احترم كل تراث دينى هاتين الوصيتين ، أسهم فى نمو الإنسانية وتقدمها . وحينما تقاعس أحدها عن ذلك أسهم فى الصراع والشقاق بين طوائف المجتمع الذى يدين به ، وبين هذا المجتمع والمجتمعات الأخرى على حد سواء .

وما فعله المسلمون بشكل صحيح ـ وما زالوا يفعلونه على نحو جيد ـ هو تطبيق الوصية الأولى من خلال العبادات : الأعمدة الخمسة للصلوات المقدسة والزكاة والصيام والحج ؛ وكلها تأتى لتكرس الركن الأساسى من أركان العقيدة الإسلامية وهو عبادة الإله الواحد وذكره تعالى .

وعلى المستوى الاجتماعى ، فإن العالم الإسلامى يقوم فى معظمه بتطبيق الوصية الثانية عبر إحساس قوى بتفضيل المجتمع على الفرد ، وتعليم عميق الجذور للإحساس بالمسؤولية فى مساعدة الآخرين من خلال الإحسان ، وغيره من الأفعال الأخرى . وفى الماضى نجح المسلمون فى إضفاء طابع مؤسسى على الوصية الثانية من خلال إقامة مجتمعات تعددية احترمت الاختلاف فى الدين والجنس والعرق ، واحتوتها جميعًا فى المجتمع الأكبر . و يقدم لنا التاريخ الإسلامى نماذج من التعددية التى يمكن للمجتمع الأمريكى الحديث أن يتعلم منها ، ومن أمثلة ذلك نظام المحاكم الذى كان يفصل فى النزاعات حسب شرائع الديانات المختلفة . وخلال معظم حقب التاريخ الإسلامى كلها ، اختلفت القوانين ليس فقط من إقليم لآخر بل أيضًا داخل الإقليم الواحد ؛ حيث كانت القوانين تطبق حسب معتقدات المتقاضين ، خاصة فى قضايا الزواج والطلاق والوصاية والميراث . وسادت هذه النظم القضائية المخصصة حسب أحوال الأفراد فى الطوائف الإسلامية والمسيحية واليهودية فى الشرق الأوسط ، وعند المسلمين والهندوس والطوائف التى تدين بعقائد أخرى فى جنوب آسيا . فكان الزوجان اليهوديان المتنازعان فى قضية وصاية على سبيل المثال من حقهما أن يختارا أن تنظر قضيتهما حسب الشريعة اليهودية .

لقد ألهم الإسلام على مدى قرون طويلة حضارة كانت تمتاز بشكل خاص بالتسامح والتعددية . ففى الفترة من ٨٠٠ إلى ١٢٠٠ ميلادية على سبيل المثال ، كانت الخلافة

الإسلامية فى قرطبة تحكم معظم أراضى إسپانيا الحالية فى خضم ازدهار الفنون والثقافة والفلسفة والعلوم. وفى تلك الفترة هاجر إلى قرطبة الكثير من الفنانين والمفكرين المسيحيين واليهود هربًا من الأنظمة الأكثر تسلطًا التى كانت تحكم أوروپا إبان العصور المظلمة والقرون الوسطى. ولقد توفرت لكبار الفلاسفة اليهود من أمثال موسى بن ميمون الحرية التى مكنتهم من إبداع أعمالهم التاريخية فى ظل ثقافة الإسلام التعددية.

ولكن بعد القرن الثالث عشر، حتى كانت الثقافة الإسلامية المزدهرة قد وصلت إلى مرحلة الجمود، بينما كانت الحضارة فى أوروپا تدخل عصر التنوير، وشهدت فترة من التطور المثير؛ وأصداء هذا التحول التى انعكست على حظوظ الحضارتين ما زالت محسوسة إلى اليوم فى الشرق الأوسط، وتشكل الخلفية لقدر كبير من اختلال العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب. ومن أهداف هذا الكتاب أن يوضح هذا الانقلاب التاريخى والدور الذى ما زال يلعبه فى حاضرنا.

وفى غضون ذلك، فإنه بحلول القرن السابع عشر ظهرت فى أوروپا فكرتان فى غاية القوة، وهما الفكرتان اللتان شكلتا ـ وبشكل يثير التناقض ـ لب الدعم المؤسسى الأوروپى للوصية الثانية.

* تمثلت الفكرة الأولى فى أن قدرًا معقولاً من الفائدة على القروض النقدية لا يعد ربًا ـ وهى الفكرة التى سهلت ظهور نظام مصرفى معين.

* اختراع نظام الشركات، وخاصة فكرة أن الشركة تعتبر «شخصية» منفصلة، ومالكوها (المساهمون) محميون من أية مسؤولية قانونية، مثل الديون غير المدفوعة أو الجرائم التى ترتكبها الشركة.

والمفارقة أن ابتكار النظام المصرفى والشركات حقق الكثير من الخير ـ بعد أن كان كلٌّ منهما من الكبائر فى ثقافة كافة الديانات السماوية: فرض أية فائدة على إقراض المال، وإلغاء التزام الفرد بسداد كامل ما عليه من ديون. غير أن هاتين المؤسستين تضافرتا مع الديمقراطية الليبرالية الحديثة؛ مما حسن بصورة جذرية من حظوظ ثروات العالم الغربى. وأدت بدايات الرأسمالية الحديثة ـ التى مكنت لها الشركات ذات المسؤولية المحدودة وقدرتها على اقتراض الأموال واستثمارها فى مشروعات عالية الربحية، وإن انطوت على مخاطرة، دون استهلاك أصول الملاك بكاملها ـ إلى خلق ثروات هائلة،

ودعمت صعود الغرب إلى مركز الهيمنة الاقتصادية التى ما زالت مستمرة حتى اليوم. وعدم قدرة العالم الإسلامى على قبول هذه الأفكار هو أحد الأسباب الرئيسية لتخلف العالم الإسلامى عن ركب الغرب ودول آسيا والمحيط الهادئ التى لم يكن عليها أن تصارع تأنيب الضمير الذى يثيره الوازع الدينى والذى عطل مسيرة العالم الإسلامى. وكانت المشكلة هى أن الفقهاء المسلمين عادلوا بين أى قدر من الفائدة ـ مهما كان قليلاً ـ بالربا المحرم على إطلاقه بنص القرآن. وهذا التحريم القاطع لفرض أية فائدة ما زال سائدًا فى العالم الإسلامى، وحرمه بشكل كبير من تحقيق أية تنمية قوية لمؤسسات الأسواق المالية المصرفية وأسواق رؤوس الأموال والبورصات، والتى تشكل الدعائم الأساسية للرأسمالية. ولم تستطع الدول الإسلامية التحكم الفعال فى سياساتها النقدية، حيث إن تغير معدلات الفائدة صعودًا وهبوطًا هو الوسيلة الكبرى التى تمكن البنك المركزى فى أية دولة من السيطرة على التضخم ومقدار الأموال المتداولة.

لقد سار صعود الرأسمالية الأوروبية جنبًا إلى جنب مع انتشار الاستعمار الأوروبى، ومع الاستعمار تظهر قضية العرق التى شكلت عاملاً مهمّاجدًا فى العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب.

فالادعاءات الأوروبية بالتفوق على الشعوب غير الأوروبية شملت إلى جانب الجنس المكونات الثقافية والدينية. وبالرغم من أن صمويل هنتنجتون يطلق على الخط الفاصل للصراع تعبير «الغرب وبقية شعوب العالم» ويرى أنه صراع حضارى، فإننى أعتقد أن الصراع قد انبثق بشكل أكثر دقة من الادعاءات الأوروبية بشأن مسألة العرق، وبيد أنه بشكل عام فإن هذا الاستعلاء من أوروبا على باقى شعوب العالم ـ الذى تنظر إليه أوروبا باعتباره «الآخر» الذى يمكن تسيده واستغلاله وإخضاعه بلا أى رادع ـ يمثل انتهاكًا بالغًا للوصية الثانية التى تشترك فيها جميع الديانات السماوية.

وامتدت الادعاءات الأوروبية بالتفوق على الشعوب غير الأوروبية لتطال الدين؛ مما أدى إلى ظهور خطوط فاصلة فرعية من الصراع. حيث فرقت بين المسيحية الأوروبية الغربية والمسيحية الشرقية (الأرثوذوكسية)، وميزت بين اليهودية الأوروبية الأشكنازية واليهودية غير الأوروبية للسفارديم.

لقد بذرت الجهود التى بذلتها قوى الاستعمار الأوروبى من أجل صبغ المجتمعات الإسلامية وغيرها بالصبغة الأوروبية بذور الصراع من خلال طمس هوية الشعوب المستعمرة بطريقتين: أولاهما الصراع فى هذه المجتمعات ـ أو «التمزيق» كما يسميه هنتنجتون ـ من خلال خلق طبقة جديدة من أبناء البلاد فى صورة أوروبية؛ فالبريطانيون ـ على سبيل المثال ـ حاولوا خلق عرق جديد من «الإنجليز السُّمر» ليسودوا الهند بما يفصل قطاعًا من المجتمع الهندى عن جذوره الثقافية واللغوية والدينية؛ واتبع الفرنسيون نفس السياسة فى مستعمراتهم فى الجزائر وبعض الأماكن الأخرى فى غرب أفريقيا؛ وسار الإسپان على نفس النهج فى العالم الجديد فى أمريكا الوسطى والجنوبية. وأينما فشل الاستعمار الخارجى فى ذلك ـ كما حدث فى تركيا وإيران ـ جاهد مواطنون محليون مستغربون، من أمثال مصطفى كمال أتاتورك (فى عشرينيات القرن العشرين) وشاه إيران (فى ثلاثينيات القرن العشرين) بضراوة من أجل أوربة مجتمعاتهم. وقد أحدثت هذه العملية نوعًا من الشقاق الثقافى بين المجتمع وحكامه الذين كانوا ينتمون على مستوى العرق إلى حضارة بلادهم التى فطروا عليها، لكنهم فى نفس الوقت يتطلعون للغرب من الناحية الذهنية والثقافية ليجدوا أنفسهم فى النهاية لا ينتمون لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك.

ونجم خط الانفصال الثانى الذى خلفه الاستعمار الأوروبى عن إحداث صدع فى الهويات التقليدية بواسطة خلق هويات جديدة للدول القومية تقوم على أساس جغرافى. حيث كان الكثير من الشعوب غير الأوروبية يحددون هويتهم تقليديًا حسب القبيلة واللغة والدين، بينما كان الانتساب للجغرافيا يأتى فى المرتبة الثانية. ومع ذلك فقد قسمت القوى الاستعمارية شعوبًا مثل الأكراد والأوزبك بين دولتين قوميتين أو أكثر. فحرمت الأكراد من إقامة دولتهم، وأجبروا على الانتماء إلى تركيا أو العراق أو إيران. وشتتت الأوزبك بين أوزبكستان وأفغانستان، بينما قسم الطاجيك (وهم شعب إيرانى بالأساس) بين طاجيكستان وأفغانستان. إن تقسيم شعب ينتمى لأمة واحدة إلى قسمين أو أكثر هو وصفة سحرية لإثارة الصراع. وأكمل الاتجاه المقابل ـ وهو توحيد شعوب مختلفة فى هوية جديدة لا أساس لها غير الجغرافيا ـ صورة الصراع التى غرس الاستعمار بذوره، وخير مثال على هذا النموذج هو نيجيريا؛ حيث

جمّع البريطانيون أكثر من مائتين وخمسين مجموعة لغوية وقبلية ودينية لتنشئ الدولة القومية لنيجيريا.

وورث مؤسسو أمريكا الأحكام الأوروپية المسبقة ضد كافة الأعراق الأخرى؛ لكنهم من الناحية الأخرى شاركوا غيرهم من المستعمرات المنتشرة فى أرجاء المعمورة تجربة الاضطهاد فى ظل قوة استعمارية.

فبعد وضع الوثيقتين التاريخيتين اللتين تعكسان مُثُل الحرية والتعددية الدينية - وهما وثيقة «إعلان الاستقلال ووثيقة الحقوق» - دأب الأمريكيون على الانطلاق من المنظور المركزى الأوروپى للعالم؛ حيث حرموا الأمريكيين الأصليين والأفارقة والآسيويين وغيرهم من الأعراق من القبول فى النسب الكريم لحقوق الإنسان ووسائل الحماية حتى القرن العشرين، ولم يسمح لغير المنتمين للتيار السائد من البروتستانت، سواء الكاثوليك أو اليهود أو معتنقى الديانات الأخرى بالاندماج الكامل مع العائلة الأمريكية حتى ذلك الوقت.

عملت الرأسمالية فى أوروپا على سلب احتكار السلطة من الطبقات الأرستقراطية المالكة للأراضى؛ وذلك من خلال خلق ملاك جدد للثروة يستطيعون توفير القروض الضخمة للأرستقراطية - حتى للعائلات الملكية والدولة. وأثارت الرأسمالية - من خلال توفير الثروات للطبقات الاجتماعية غير المنتمية لطبقة النبلاء أو ملاك الأراضى - العداء تجاه الأنظمة الملكية الحاكمة بما يغذى فى نهاية المطاف الرغبة البشرية فى تجريب أشكال جديدة من الحكم: الديمقراطية أو الاشتراكية أو الشيوعية.

وقد أثبتت تجارب القرن العشرين أن الديمقراطية تعمل على نحو أفضل من الحكم الشمولى المستبد، وأن الرأسمالية أفضل من الاشتراكية. وقد أثبتت الرأسمالية الديمقراطية - وهو اصطلاح يشير إلى توليفة قوية من الديمقراطية واقتصاد السوق الحر - تفوقها على الاقتصاد الموجه الذى لايتطلب بطبيعته الحكم الشمولى.

ويعتبر التقدم المادى المثير فى الغرب على مدى القرون الأربع الماضية - الذى استحثه بتطور الديمقراطية والرأسمالية فى نفس الوقت - رفيق النهضة الفكرية وبدايات الفلسفة الإنسانية العلمانية. وقد عزز هذا الاتجاه الفلسفى للعلمانية مفهوم الغرب للحرية الدينية الذى تبلور فى التعديل الأول للدستور الأمريكى فى شكل فصل

الكنيسة عن الدولة . كان الآباء المؤسسون الأوائل لأمريكا يعتقدون بشكل جازم أن الدين لا يمكن أن يعهد إليه بصروح السلطة والحكم ؛ وبلغت نهضة العلوم العلمانية الذروة فى القرن العشرين ؛ حيث أصبحت العلمانية شديدة العداء للدين تعتبر القوة المحركة للحداثة .

ومع ذلك ، فالنظرية الأمريكية لفصل الكنيسة عن الدولة لم يكن المقصود منها خلق مجتمع ملحد أو يؤمن باللاأدرية ؛ بل كان الهدف هو السماح لأى دين وكافة الأديان بأن تزدهر ، مع حرمان الدولة من استخدام سلطتها فى تفضيل أى دين أو مذهب دينى على الأديان والمذاهب الأخرى .

وجاء القرن العشرون ليشهد اكتساب العلمانية الأكثر نشاطًا لأرضية أكثر قوة فى أمريكا ، وأعيد تفسير فصل الكنيسة عن الدولة بطرق تتسم بتصاعد وتيرة العداء للدين . وبمعنى ما ، فإن العداء للدين تسلل بشكل دين جديد للدولة مما يعد انتهاكًا لما قصده واضعو التعديل الأول للدستور[٢] !

وخلق تصاعد المشاعر شديدة العداء للدين بصورة عدوانية فى الغرب ولدى النخب الحاكمة فى كثير من باقى بلدان العالم - بما حرم صوت الدين من المشاركة فى مجالس إدارة الشئون السياسية والاقتصادية للمجتمع - ردود فعل مضادة ومتساوية فى القرن العشرين ، تمثلت فى صعود الأصولية الدينية فى أرجاء العالم ؛ حيث انخرط البعض من مسيحيين ومسلمين ويهود وهندوس وسيخ وبوذيين فى الأصولية وتعبيرات النضال المصاحبة لها ؛ وتقاسمت كل الأصوليات عدواً واحداً هو «الحداثة العلمانية» ليس بسبب العلمانية أو الحداثة فى ذاتها ، بل لأن الحداثة العلمانية كانت تعتبر معادية للدين بصورة نشيطة .

وما زال العالم الإسلامى يرى أن الغرب لا يثق بالأصوات الدينية ، ولا يتحمل وجودها فى الخطاب المعنى ببناء المجتمع الصالح . ويعتقد المسلمون أن أمريكا تحتاج إلى الرجوع إلى فهمها الأصلى للتعديل الأول للدستور الذى يوازن بين فصل الكنيسة عن الدولة وحرية الدين من خلال السماح بفرص متكافئة لكل الأديان ، وإجلال دور الدين فى بناء المجتمع الصالح . وهذا التوازن بالغ الأهمية بالنسبة للمسلمين .

وما زال يتعين على المسلمين دمج التعبيرات المؤسسية للرأسمالية الديمقراطية ـ التى تعرف بأنها توليفة من الديموقراطية والرأسمالية ـ بشكل كامل فى مؤسساتهم الأساسية المختلفة: سيادة القانون (سلطة قضائية مستقلة) وحقوق الإنسان، والعملة المستقرة، والفرص المتكافئة، والأسواق الحرة، وشبكات الأمان الاجتماعى، . . . وما إلى ذلك. وأرى أن هذه المبادئ من أهم التعبيرات المؤسسية التى وضعتها البشرية فيما يتعلق بالوصية الثانية؛ وهى من أهم ما أسهمت به المسيحية اليهودية الغربية لإنشاء المجتمع الصالح بالولايات المتحدة[3]!

تمكنت الرأسمالية الديمقراطية ـ من خلال مساعدة الجماهير على الاستمتاع بقدر أكبر من الرخاء الاقتصادى، وتوفير نوعية معيشة أفضل، ومن خلال السماح لها بالمشاركة فى صنع القرارات التى تنظم حياتها ـ من المساهمة فى تحسين أوضاع «الجيران» ـ أى البشرية جمعاء.

وقد استمرت أمريكا فى تحسين الرأسمالية الديمقراطية والسعى وراء تحقيق الكمال فيها، لكنها كانت غالبًا ما تقصر مثاليتها على الغرب، بينما جاءت جهودها فى تشجيع الرأسمالية الديمقراطية فى المجتمعات الإسلامية أقل من أن توصف بأنها قوية. وإضافة إلى ذلك فإن تحالف الغرب الملحوظ مع الأنظمة الاستبدادية التى تحكم الشعوب المسلمة، والتى أعاقت وقمعت ظهور الأنظمة الديمقراطية، مع الرفض الأمريكى الواضح لدعم قيام أشكال إسلامية من الديمقراطية، قد عمق الشقاق التاريخى بين الغرب والعالم الإسلامى.

والآن يمكننا تحديد عدد من الخيوط التاريخية الرئيسية التى تفسر ظهور الأصولية الدينية الإسلامية، وهذه الخيوط تشمل:

* التراكم السريع للثروة فى الغرب مدعومة بالرأسمالية الديمقراطية، والاعتقاد بأن هذه الثروة تستخدم فى تعميق محنة الفقراء.

* الشعور النفسى بأن العالم الإسلامى قد «تخلف» وأن مؤسساته المدنية لم تخلص للوصية الثانية من حيث كفالة المعيشة للشعوب حتى من المنظور الإسلامى.

* التمزق الاجتماعى وخطوط الانفصال التى حفرت فى المشهد غير الطبيعى الذى خلفه وراءه الاستعمار الأوروبى.

* ظهور تيارات علمانية حديثة «مناضلة» مما هدد الدين الإسلامى وثقافته الإسلامية التقليدية .

* الاعتقاد الذى ساد معظم فترات القرن العشرين بأن الأمم الغربية قصرت دعمها العسكرى والسياسى على الأنظمة غير الديموقراطية .

كل هذه التيارات مجتمعة خلقت تربة خصبة لحالة الإحباط التى نمت فيها الأصولية الإسلامية وترعرعت خلال القرن العشرين .

كيف يمكن أن نعالج العلاقة؟

إذن ، كيف نشرع فى إبراء العلاقة بين العالم الإسلامى وأمريكا من العلل؟

تعكس الإجراءات المؤسسية السليمة التى اتخذتها أمريكا لدعم الرأسمالية الديمقراطية المدى الذى تمكنت به رأسماليتها الديمقراطية من إنجاز الوصية الثانية . وفى حين أن الولايات المتحدة كانت فى الماضى قد حرمت غير الأوروبيين (سكان أمريكا الأصليين والأمريكيين الأفارقة) من كثير من الحقوق والامتيازات ، ولأنها ما زالت تحتفظ بالآثار الباقية من هذا الاتجاه نحو العالم غير الأوروبى ، فإن ما يريده العالم الإسلامى الآن هو أن يدمج كعضو كامل العضوية ، ويلقى الترحيب به فى الأسرة الإنسانية ، ويتمتع بمعاملة متساوية من الولايات المتحدة وأوروبا على حدٍّ سواء . (فعلى سبيل المثال ، يدرك العالم الإسلامى أن تركيا لا يسمح لها بالانضمام للاتحاد الأوروبى لا لسبب غير أنها بلد إسلامى فى الأساس) .

لقد كان لأمريكا تأثير بالغ الأثر فى المشهد الدينى العالمى . فالپروتستانتية الأمريكية خلقت نوعًا من الفصل الإيجابى بين الكنيسة والدولة ، ونقلت تراثها من مُثُل التعددية إلى الپروتستانتية الأوروپية . وبالمثل فإن الكاثوليكية الأمريكية أثرت فى الكاثوليكية العالمية ، مما ساعد على ظهور الڤاتيكان الثانى وما ساده من أفكار أمريكية حتى النخاع فيما يتعلق بالتعددية وفصل الكنيسة عن الدولة . واليهودية الأمريكية عمومًا أيضًا هى التى أعادت اليهودية العالمية ؛ ولقد حان الوقت لظهور إسلام أمريكى يستطيع أن يترجم فى سياق إسلامى ـ للمسلمين وغير المسلمين ـ أفضل ما فى الحلم الأمريكى

الذى يتمثل فى السعى لتحقيق الالتزام بالوصية الثانية من خلال الفوائد التى تحققها الرأسمالية الديمقراطية.

وفى المقابل، نجد أن تراث الحضارة الإسلامية لديه الكثير مما يمكن أن يقدمه للغرب. حيث يمكنه الإسهام بشكل كبير فى توسيع نطاق حوار الحضارات، وتدعيم النزعة التعددية، واستكشاف المزيد من الأفكار الجديدة. فالإسلام يمكنه أن يسهم إسهامات قيمة فيما يتعلق بالقناعات الأمريكية حول الدور المثالى الذى يلعبه الدين والثقافة فى مجتمع صالح متعدد الأعراق. بل إن وجود إسلام غربى إيجابى يمكن أن تكون له أهمية حاسمة فى تسوية الخلافات وتحسين العلاقات بين البلدان الإسلامية وأمريكا.

وإذا ارتكزنا بشكل أعمق فى إطار الأصول الحقيقية لتراثنا الدينى دون إهمال أخلاقيات الفلسفة الإنسانية العلمانية (والتى أعتقد اعتقاداً جازمًا أنها تشكل الفرائض الأخلاقية للوصية الثانية التى ذكرت منفصلة عن الأولى)، فإنه سيكون بوسعنا وضع مسار جديد لتسوية الصراع بين الغرب والعالم الإسلامى. فلم يعد بوسعنا الاستغناء عن المنظور الإسلامى الأمريكى إذا كنا نريد أن ننجح بحق فى رأب الصدع بين أمريكا التى تشكل حاليًا القوى العسكرية والاقتصادية العظمى فى الوقت الحاضر وبين مليار ومائتى مليون مسلم حول العالم.

إننا نكافح من أجل إيجاد «قرطبة جديدة» تستطيع أن تحتوى بداخلها اليهود والمسيحيين والمسلمين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى؛ حيث يعيشون معًا فى سلام، ويتمتعون برؤية متجددة عما يجب أن يكون عليه المجتمع الصالح. وفى هذا المجتمع الصالح تلقى كل الأصوات الدينية ترحيبًا، ويتوافر لها القسط الأوفر من الحرية، ولا يظهر دين (ولا حتى إلحاد) يكبت غيره؛ وما زلنا نصبو إلى تحقيق هذا الحلم!

الفصـــل الأول

الجـذور المشتـركـة

ساد الاعتقاد فى تعدد الآلهة العديد من الحضارات القديمة . فمن أطلال ومعابد حضارة ما بين النهرين [دجلة والفرات] والحضارة المصرية القديمتين فى الشرق الأوسط إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية فى أوروبا إلى الهند والصين فى الشرق الأقصى، كان الناس فى غالبية الحضارات الأولى يعبدون هيكلاً لجميع الآلهة، حيث اختص كل إله بحكم جزء من الكون، بينما كانت جميع الآلهة تخضع لإله واحد أعظم . مَثَّل الأولون آلهتهم فى شكل أصنام، وعبدوا تجسيدها المادى .

من ينحت تمثال بوذا لا يعبده مطلقًا

تلك المجتمعات كانت تخلع على الفرعون أو الإمبراطور أو القيصر أو الملك صفات الألوهية، ابن الإله، وكانت طبقة رجال الدين (مثل البراهما فى الهند) تحظى بقدر واسع من الامتيازات لقاء ما يقدمونه لصاحب السلطة من دعم له بوصفه كائنًا مقدسًا ؛ وكان المجتمع الدنيوى يعكس هيكل البلاط المقدس، حيث كان الفرعون أو الملك وحاشيته يمسكون بمقاليد الحكم فى المجتمع تمامًا كما كان للإله الأعظم حاشية وأبناء، كانوا آلهة بدورهم يحكمون الآلهة الأصغر منهم . وكان الملك باعتباره ابن الإله هو ممثل الرب على الأرض .

ومع هذه المعتقدات الخاصة بعلاقة الإنسان بالإله، جاء اعتقاد آخر يتصل بهيكل المجتمع البشرى . كان الناس يولدون لطبقات أو فئات اجتماعية تعكس هيكل البلاط

المقدس، بما يبين أن «الحياة على الأرض هى كما الحياة فى السماء». فكان المجتمع يضم طبقة الملوك وطبقة النبلاء وطبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين والتجار والمزارعين، وطبقة تضم عامة الذين يقومون بالأعمال الوضيعة وغير المرغوبة. ولم يكن الحراك الاجتماعى هو العرف السائد، فكان المرء يولد ويعمل ويتزوج ويموت فى إطار طبقته؛ وكان وضعه فى الحياة ومهنته واختيار زوجه أموراً تقررها الأسرة والطبقة التى ولد المرء فيها، وكان مصير المرء يعتبر فى بعض المجتمعات قدراً محتومًا.

وفى كثير من تلك المجتمعات لم يكن رفض دين الدولة مجرد مسألة تتعلق بمحاربة حرية الضمير الإنسانى (الأمر الذى نعده نحن اليوم فى أمريكا من المسلمات)، بل كان يعد شكلاً من أشكال الخيانة للدولة، ويستلزم عقوبة القتل، ناهيك عن اعتباره انتهاكًا لهيكل المؤسسة الاجتماعية الذى يقوم عليه المجتمع، وحرفيًا لم يكن للمرء مكان فى المجتمع؛ لأن مثل هذا الشخص كان كنملة ترفض الهيكل البنيوى لمستعمرة النمل ولا يتمتع بالحماية من أىّ من مؤسساته. وكان الشكل الوحيد من أشكال الحرية الذى يمكن للفرد أن يمارس من خلاله هذه القناعات الداخلية ويكون صادقًا مع نفسه هو أن يعزل نفسه عن المجتمع ويعيش كناسك فى كهف. وكان العرب فى الجاهلية يسمون أمثال هؤلاء بالحنفاء الذين اعتزلوا بدافع ضميرهم ورغبتهم أن يعيشوا حسب هذه المعايير.

وهذه القيود الاجتماعية القوية قد تبدو غريبة بالنسبة للقارئ الأمريكى المعاصر؛ ولكن منذ خمسين سنة فقط لم يكن فى أمريكا يساوى شيئًا ما لم يكن بروتستانتيًا أو كاثوليكيًا أو يهوديًا، ومن أجل أن يصبح المرء «شيئًا»، أو يكون له اسم، كان على المرء أن يحدد نفسه لنفسه وأن يحدده الآخرون كأحد المنتمين إلى أىّ من الطوائف الدينية الثلاث الكبرى التى كان يتألف منها المجتمع الأمريكى(١).

إنه لمن الصعب جدًا على الناس أن يستقلوا عن المجتمع وأن ينأوا بأنفسهم عن أعرافه وأنماط الفكر المترسخة فيه. ولو كان ذلك صعبًا فى أمريكا، هذا البلد الذى نجلّ فيه الحرية الفردية، فلك أن تتخيل كم كان صعبًا منذ بضع آلاف من السنين فى ظل أولى الحضارات القديمة التى كانت معروفة فى منطقة الشرق الأوسط التى تمتد بين مصر وفارس.

وفى تلك المنطقة، وفى ذلك المجتمع الذى يتسم بمناخ سياسى واجتماعى ودينى تتعدد فيه الآلهة، ولد فى إحدى مدن ما بين النهرين، التى تسمى العراق حاليًا، رجل حنيف يدعى إبراهيم. وأسس فكرة عدم القبول بالشرك. وكما تخبرنا الروايات من التراث الإسلامى وتراث أهل الكتاب فقد كان والد إبراهيم نحاتًا يصنع الأوثان. ولنا أن نتخيل حال الغلام إبراهيم وهو يراقب أباه وهو يصنع تلك التماثيل من المواد الخام من خشب أو حجارة، وربما يصيح باللعن عندما تتشقق المادة التى يصنع منها تماثيله. وأظن أن الحقيقة التى يعكسها المثل الصينى القائل: «من ينحت تمثال بوذا لا يعبده مطلقًا» كانت دائمًا نصب أعين الصبى إبراهيم الذى ربما لاحظ بالطريقة التى يلحظ بها الأطفال سخافات آبائهم، المخلوق وهو يقوم بخلق الخالق.

ويصور القرآن الكريم إبراهيم وهو يحاجج قومه:

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

[الصافات: ٩٥، ٩٦].

عاد إبراهيم من رحلة بحث روحانية، وبعد أن رفض أن يتخذ الشمس أو القمر أو النجوم آلهة (وهى أشياء عبدها قومه)، أدرك أنه لا بد لهذا الكون من خالق واحد ـ إله واحد (ويصور لنا القرآن بحث إبراهيم عن الإله فى الآيات ٧٥ـ٩١ من سورة الأنعام). وإبراهيم اليوم عند المسلمين واليهود والنصارى هو أب الجنس البشرى المؤسس لمجتمع التوحيد الدائم الذى يؤمن أن هناك إلهًا واحدًا هو خالق الكون وحافظه.

فالتوحيد الذى علمه إبراهيم ودعا إليه لم يكن تغييرًا جذريًا على مستوى العقيدة وحسب، حيث انتقص من شأن تعدد الآلهة وقال ببطلانها، بل كان أيضًا تغييرًا جذريًا على المستوى الاجتماعى. حيث إن فكرة وحدانية الله كانت تحمل فى طياتها أمرين هامين يتعلقان بالإنسانية.

أولاً: انطوت فكرة التوحيد على مبدأ المساواة بين البشر؛ وذلك ـ ببساطة ـ لأننا ولدنا لأب واحد وأم واحدة؛ حيث يقول الله ـ تعالى ـ فى القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا يعنى أن الناس أمام الله سواء، عائلة واحدة إخوة وأخوات، لا فرق بينهم إلا بالعمل الصالح، وليس بشرف النسب والميلاد. وتفضيل إنسان على آخر على أساس من عوارض الميلاد مثل لون الجلد أو الطبقة الاجتماعية أو الانتماءات القبلية أو العائلية أو الجنس أمر لا عدل فيه؛ ولهذا ليس له مكان فى النظرة الإنسانية للعالم. وبالرغم من أن إبداء مثل هذا التفضيل على أساس من هذه البنود يعد انتهاكًا صارخًا للعقل والقواعد الأخلاقية، نجد الناس يجدون فيها الوسيلة التقليدية للحكم على الآخرين وبناء هيكل مجتمعاتهم.

ثانيًا: فلأننا سواء؛ ولأن الخالق أسبغ علينا حرية الإرادة، فإننا نمتلك حريات معينة لا يمكن التنازل عنها؛ ومن أهم الحريات التى منحنا إياها هى حرية القبول والرد فيما يتعلق بشأن الله خالقنا. وكل اختيار بعد هذا يأتى فى مرتبة تالية بعيدة، بما فى ذلك حرية الاختيار بين حشد من أعمال الخير أو الشر، إلى حرية اختيار الزوج أو المهنة، بدلاً من أن يحدد المولد ذلك؛ ولأننا أحرار فى التفكير لأنفسنا، فإن قمع الفكر يعد انتهاكًا صارخًا لحرية الإرادة؛ وحتى اليوم نجد أن الناس فى أنحاء كثيرة من العالم ما زالوا يكرهون اجتماعيًا على اختيار معتقدات دينية معينة أو الوظائف أو الأزواج أو طريقة التفكير؛ وما ولعنا بالأفلام التى تصور قصة حب للأمير الذى يريد الزواج بابنة فلاح فقير إلا شاهد بين على مدى تغلغل الالتزام بحرية الإرادة فينا - و نراه فى تعاطفنا مع الذين تحرمهم الأعراف الاجتماعية من الزواج من غير «طبقتهم».

يؤكد القرآن على تلك الحرية قائلاً: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ بل إن القرآن فى بعض آياته يشدد على أن الله - سبحانه - قد خلقنا ومنحنا الحرية فى الإيمان به أو إنكاره، وذلك فى مثل قول الله - تعالى - ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف: ٢٩]

ومثل قوله - جل وعلا -: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]

إن حرية الإرادة الإنسانية، وحرية الاختيار الفردى، وحرية الخطأ، مسألة جوهرية بالنسبة إلى الكرامة البشرية. ولولا أننا نتمتع بحرية الإرادة تلك ما كنا لنسأل عن أعمالنا واختياراتنا؛ وعند توافر حرية الإرادة فقط يمكننا أن ننمو وننضج ونتعلم كيف نصبح خلفاء مسئولين. فكيف يمكن أن نحاسب بدون أن نتمتع بحرية الاختيار(٢)؟

ولكن نظرًا لأن بعض الأفراد يقومون بممارسة حرية الإرادة بشكل ينشر عدم المساواة ويحد من حريات الآخرين، فإن أخلاقيات حرية الإرادة تقضى بأن هذه الانتهاكات تعتبر ظلمًا وخطأ وطغيانًا؛ ولذلك فإن اليهود والمسيحيين والمسلمين - على وجه الخصوص - يتمتعون بحس عالٍ من العدالة الاجتماعية، وهم حريصون على تطبيق العدالة الجزائية.

سوف نطلق على هذه المجموعة من الأفكار الجوهرية للتوحيد وما يصاحبها من الحرية والمساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية تسمية «ملة إبراهيم». و تشكل هذه الأفكار اللب الأساسى للديانات السماوية المعروفة اليوم باليهودية والمسيحية والإسلام(٣). وتتطلب ملة إبراهيم أن تكفل المجتمعات لأفرادها الحريات التى تقتضيها الكرامة الإنسانية، وحرية أن يقف الإنسان أمام ربه ويمارس اختياراته دون إكراه من المجتمع. بل إن هذا المبدأ لا يتماشى مع التوحيد وحسب - بمعنى أن أفكارنا عن الله يجب أن تقوم على أساس وحدانية الله وسموه وتنزهه عن الوصف - بل يتسق أيضًا مع قضايا علم الاجتماع وعلم السياسة، ومع الكيفية التى يجب أن تبنى بها هياكل المجتمعات، أى أن هيكل المجتمع يجب أن يقوم على أساس المساواة وحرية الإنسان والعدالة الاجتماعية.

ربما يتساءل القراء عن السبب الذى يجعل الموحدين يقولون إن إبراهيم «أبونا جميعًا» دون أن يقصروا ذلك على ديانات التوحيد؛ وبالرغم من حقيقة أن الهند والصين واليابان ليست مجتمعات موحدة فى عمومها، فإنها تعمل على نحو متزايد على تطبيق أنظمة حكم ديمقراطية - وهى أنظمة راسخة فى مفهوم المساواة بين البشر؛ ولذلك فهى تنبثق عن ملة إبراهيم. وهذا المفهوم جوهرى فى فطرة الطبيعة الإنسانية.

لم يكن من الصواب فى مجتمعات الشرك على عهد إبراهيم الزعم بأن الحرية والمساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية كانت أساسية للظرف الإنسانى ، فمثل هذا الحديث لم يكن ثوريًا وحسب؛ بل كان يتطلب تغييرًا جذريًا فى نموذج الفكر الاجتماعى . وفى حين أن النبى الذى كان يدعو إلى تلك الرسالة ربما كان يحظى بالشعبية بين الطبقات الفقيرة والمحرومة فى مجتمعه، فقد كانت الرسالة ذاتها تمثل تهديداً ينذر بحرمان الطبقات العليا فى المجتمع من المركز الخاص الذى تتمتع به؛ وفى معظم الأحوال كانت النخب التى تملك القوة الراسخة الجذور فى تلك المجتمعات تشن حروبًا ضارية ضد أى نبى يدعو لتلك الرسالة . ولم تفلح محاولات إبراهيم فى إقناع قومه بفكرة الإيمان بإله واحد ـ الله الذى لا تحيط به القدرة البشرية، والذى ليس كمثله شىء . ويقرر القرآن بأن أولئك الذى رفضوا دعوة إبراهيم استحثوا أقوامهم للتحرك ضد إبراهيم بدعوى أنه أشرك بآلهتهم، حيث يقول : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] وأنقذ الله إبراهيم بأن أمر النار بقوله : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩]

ويأتى القرآن ليرثى نزوع الناس إلى إنكار أنبياء الله الذين أرسلوا لهداية البشرية فيقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧]

لم يكن الأنبياء موضع الترحاب، بل على العكس كانوا محط الهجوم وإنزال العقاب بهم والنفى من بلدانهم لا لشىء سوى أنهم حاولوا إقناع معاصريهم بحقائق التوحيد . ولم يكن إبراهيم بدعًا من الأنبياء، فقد واجه نفس المصير، واضطر للخروج من بلده ومن تبعه .

ملة إبراهيم: ما هى إلا فطرة بشرية

يقرر القرآن الكريم(٤) أن الإيمان بوحدانية الله وما يعنى ذلك من الالتزامات

الاجتماعية التى يفرضها التدين الحق أو الصادق، هو سنة الله التى فطر الناس عليها كجوهر الضمير الإنسانى، وأن الله أمر البشرية بالاحتفاء بها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(٥) [الروم: ٣٠]؛ والمقصود من هذه الآية الكريمة أن أى إنسان، من ذكر أو أنثى، ينصت إلى صوت قلبه وضميره سيوقن بوحدانية الله، وأن البشر جميعًا أسرة واحدة، وعليهم أن يكونوا أحرارًا، وأن يتعاملوا مع بعضهم البعض بالإنصاف وبمقتضى العدل(٦).

ولذلك فالمسلمون يرون أن دينهم هو «دين الفطرة» بمعنى الصلاح الذى ينبع من الطبيعة البشرية، والأفعال التى نعتبرها صوابًا وأخلاقية كما هى بينة بذاتها، والهبة التى أسبغها الله على البشرية جمعاء، والورع الذى نولد عليه قبل أن يتدخل آباؤنا فى تشكيل معتقداتنا حسب ما تقره الأعراف الاجتماعية. وعلى ذلك يكون الذين يمارسون ما تمليه قلوبهم هم من يتبعون الدين الحق.

«دين الله» (آل عمران: ٨٣، النصر: ٢) هو ما يطلقه الله على التدين الفطرى، وهو شىء منحه الله للملكات البشرية الحاسمة من عقل وفهم. ومضمون هذا الدين ملزم بصورة عامة؛ فعلى جميع البشر تنفيذه؛ حيث إنهم مؤهلون منذ ولادتهم بكل ما يلزمهم لإدراك هذا الدين. وركنه الأساسى هو الإقرار بأن الله واحد، هو الله الحق ولا إله غيره. ثم يدور ما تبقى حول عبودية المخلوقات أمام خالقهم، وهى العلاقة التى لا يمكن أن تكون سوى حب العبادة و إقامة الشعائر الدينية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٧) (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧]. وتتضمن تلك العلاقة ملاحظة النعم الإلهية التى يمكن إدراكها عن طريق العقل الذى ميز الله به جميع البشر. حيث إن التعرف على الله هو مهمة كل فرد وحقه، كما أنه متاح للجميع؛ لأنه أسمى واجباتهم.

يؤكد القرآن على شمولية ملة إبراهيم عندما يوجه السؤال التالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ومضمون الآية هو أن هذه الملة تجل منزلة الإنسان، وتدعو بنى البشر إلى احترام كرامة الرجل أو المرأة كبشر، ولا تؤيد أيًا

من الممارسات الدينية أو الاجتماعية التى تفرق بين البشر عند ولادتهم، والتى تحدد قدراتهم من عدمها تبعًا لطبيعة معرفتهم لله. فمثل هذه المعتقدات تعفى من تراهم غير قادرين على أداء الواجب الأسمى لعبادة الله الواحد والاعتراف بذلك، وهى بذلك تحرمهم من جوهر إنسانيتهم.

هذا التدين أو الورع الفطرى هو المعيار المطلق لكل البشر. وهو بحكم التعريف لا يسمح بأى استثناء. فعلى الرغم من أنه لا يجبر أى فرد على احترام ذلك التدين أو الورع الفطرى، إلا أنه يعارض ويدين بشكل صريح أولئك الذين يقومون أو يسمحون بانتهاك تلك العقائد، وإلا ستفقد انسجامها مع نفسها. «إله الوجود» هكذا يصف الله ذاته العليا فى القرآن، وذلك باستخدام عبارات متنوعة لوصف الوجود، على سبيل المثال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [النبأ: ٣٧]، ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] وغيرها من الآيات. تظهر ملة إبراهيم ـ التى تعد السمة المميزة لليهودية والمسيحية والإسلام فى تطبيقاتها العملية ـ على أنها مطلب طبيعى، كما أنها هى شرط منطقى ضرورى، وحقيقة حاسمة.

لذلك، فإنه لم يكن من الصدفة أن يصبح نداء الثورة الفرنسية: «الحرية، المساواة الإخاء» للبشر، وهى المكونات الأساسية لملة إبراهيم. كما لم تكن مصادفة أن أشار واضعو «إعلان الاستقلال الأمريكى» إلى ملة إبراهيم باعتبارها «حقائق جلية بذاتها: كل البشر خلقوا متساوين، وهبهم خالقهم حقوقًا محددة غير قابلة للتنازل عنها». إن قوانين الإبداع الخاصة بالخالق هى بحكم التعريف قوانين الطبيعة، وبما أن الطبيعة هى تجل لإبداع الله، فإن قوانين تلك الطبيعة هى قوانين الله: إن القانون الفطرى هو قانون إلهى. وهكذا يستمر البرهان على أن ما تشعر به فى قلبك من خير وحق هو بالضرورة أساس القانون الإلهى.

تمييز الخير من الشر

على مدار التاريخ البشرى، كان أساس الاعتقاد الدينى ـ سواء كان يدعو لإله واحد أو يقول بوحدة الوجود ـ هو قناعة البشر الداخلية بأن كل شىء فى الكون هو نتاج قوة مبدعة

واعية تحيط بكل شىء، هى الله ببساطة . إن هذه القوه تقوم بعملية الخلق عن طريق الإرادة، والتى ندعوها الإرادة الإلهية؛ ولذلك فإن كل ما هو موجود يتفق مع هذه الإرادة .

إن الوجود الإنسانى هو نتاج هذه الإرادة والقوة؛ ولذلك فهو خاضع لها . بما يعنى ـ بحكم التعريف مرة أخرى ـ أننا خاضعون لتلك الإرادة والقوة . لقد خلقت وشكلت وجودنا المادى مثله مثل شهوات وجودنا المادى؛ فالشعور بالجوع والعطش من الصفات التى جبلنا عليها، فنعالج الجوع بتناول الطعام، ونعالج العطش بإروائه، وعندما نشعر بالشبع فإننا نخضع لهذا الشعور بالتوقف عن تناول الطعام أو الشراب . وعلى الرغم من أننا نتمتع بإرادة خاصة بنا إلا أن هذه الإرادة لها حدود . إذًا، نحن نستطيع أن نقرر أن نشرب أو لا نشرب، أن نفرط فى الأكل أو الشرب، لكن لا نستطيع عند نقطة معينة تناول المزيد من الطعام حتى إذا أردنا ذلك . وبالإضافة إلى كياننا المادى، هناك أيضا جانب انفعالى أو عاطفى لهذا الكيان، وقدرة عقلية على التفكير تتمثل فى العقل، كما أن لدينا جانبًا روحانيًا لوجودنا يتمثل فى الروح . فنحن نعرف أن الإسراف فى تناول الطعام مضر بالصحة، وحتى دون الحاجة إلى استخدام قدراتنا الفكرية؛ لأننا ندرك أن ذلك ليس فى صالحنا؛ إنه مضر، وبالتالى فهو خاطئ .

إن الخير هو الذى ينفع الخليقة، والشر هو الذى يضرها، ومن ثم فإن مفهومنا عن الخير يتحدد بناء على النفع أو الضرر الذى يعود علينا . فهذه الديناميية لمراعاة المصلحة الشخصية هى التى تثير الخلاف والتضارب عندما يصبح ما ينفعنى يضر غيرى . أما التوافق فيتم بين شخصين أو أكثر عند التوصل إلى وسيلة يشعر من خلالها كل شخص أنه استفاد . إن المصلحة العامة، أو ما هو صواب، هو ذلك الذى يعظم الخير لكل عضو فى الجماعة، ولمصلحة الجماعة بأكملها .

لكن إرادتنا الإنسانية موجودة بفضل الإرادة الإلهية، والتى تمكنها من أسباب القوة وترعاها . والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل للإرادة الإلهية اهتمام ما أو تفضيل لنتيجة ما عندما يمارس البشر إرادتهم؟ والإجابة الموجزة هى : نعم . إن التفضيل الإلهى هو أن يخضع البشر ـ باختيارهم الحر ـ لما أوصانا الله به، وقد تمت صياغة الوصية بإحكام فى أمرين أوصى الله البشر بهما :

١ ـ أن نحب الله الواحد الفرد الصمد الذى لا إله غيره من صميم قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وبكل قوتنا .

٢ ـ أن نحب إخواننا فى الإنسانية ـ بغض النظر عن عرقهم أو دينهم أو خلفيتهم الثقافية ـ كما نحب أنفسنا .

واتباع الوصيتين السابقتين يعنى أننا التزمنا مفهوم الخير كما بينه لنا الخالق . وعدم اتباع هذه المبادئ يعنى أننا التزمنا مفهوم الشر أو السوء كما بينه لنا الخالق . وبما أن الله كامل بحكم التعريف ، فإن تعريف الخالق للخير هو الأقرب لنا ـ نحن الكائنات التى لم تخلق كاملة ـ لكى نستطيع تحقيق الخير المطلق . إن كل الفضائل والخير العام والقيم الأخلاقية تعتمد على تنفيذ هذين المبدأين فى التطبيق .

عندما نحب شخصًا ما ، فإنه من الطبيعى أن نحب ما يحبه ، أى أننا نعبر عن هذا الحب بأن نوفق ما بين حبنا وكل ما يحبه أو يفضله المحبوب ؛ ولذلك فلكى نعبر عن حبنا لله ، الكامل ، علينا أن نحب ما أوصانا به .

يصب الكثير من المتدينين جل اهتمامهم على الوصية الأولى ، وهى التى تدعو إلى حب الله وعبادته ، بينما لا يولون أى اهتمام لإخوانهم فى البشرية . سئل المسيح عيسى ذات مرة عن أفضل الوصايا ، وبعد أن ذكر الأولى أكد على الأهمية ذاتها للوصية الثانية حين قال : «والثانية مثلها . . . بهاتين الوصيتين تتعلق الشريعة وكتب الأنبياء» [متى : ٢٢ : ٣٩ـ ٤٠].

عندما قام أحد الوثنيين ذات مرة بتحدى «هليل» وسأله أن يلخص التوراة بأكملها وهو واقف على قدم واحدة ، أجابه «هليل» : «كل ما تكرهه لا تفعله مع غيرك من البشر ، هذا هو كل ما فى التوراة ، والباقى ما هو إلا تفسير ، فاذهب واقرأه» (شابات ٣١ أ) . وقد أكد الحاخام أكيبا أن المبدأ الرئيسى فى التوراة هو : **«أنك ينبغى أن تحب جارك كما تحب نفسك»**(Bereshit Rabbah 24) [٨]

إن محبة الله لا تكتمل فى قلوبنا إلا عندما نحب ما يحبه الله . كما لا تكتمل بالضرورة إذا لم نحب أنبياءه ورسله ، وهو ما تؤكده الآية القرآنية : **﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾** [البقرة : ٢٨٥] . وهذا يعنى عدم القول بأن «نبيى أفضل من نبيك» . كما تشير الآية إلى أننا لا يجوز أن ندعى أن الأنبياء بعثوا برسالات مختلفة ، بل أن نؤكد أنهم جميعًا بعثوا برسالة واحدة .

لقد أخبرني والدي ذات مرة أنه عندما كان طفلاً صغيراً، سأله والده: «محمد، يا بني، هل تستطيع أن تتخيل أن يحب شخص ما شخصًا آخر أكثر مما يحب نفسه؟» وإذ حير السؤال والدي ولم يعرف له جوابًا، فوجئ بإجابة جدي عندما أضاف: «أنا أحبك أكثر مما أحب نفسي»؛ هذا هو الحب الأبوي الذي يضحي بنفسه من أجل مصلحة ابنه.

إن علاقة الوالدين بالأبناء تعكس حب الله لعباده[٩]. فالوصية الأولى هي أمر الله للبشر أن يتبادلوا الحب الإلهي الموجه لهم، أما الوصية الثانية فهي أن يتعاملوا مع بعضهم البعض بحب متبادل. إن الله كامل، أما نحن فكائنات عارضة؛ لذلك فعلينا بقدر استطاعتنا أن نحب الله بشكل مطلق «من صميم قلوبنا وعقولنا وأرواحنا وبكل طاقتنا»؛ ولأننا جميعًا ولدنا متساوين، ولنا حقوق متساوية، ومن رجل واحد وامرأة واحدة، فعلينا أن نسعى إلى أن نحب بعضنا البعض تمامًا كما نحب أنفسنا.

إن الرسل هم قدوتنا، فهم النافذة التي نبصر من خلالها الوجود الإلهي والإرادة الإلهية متمثلين في أنقى وأرقى صورة للسلوكيات والأخلاق الإنسانية؛ ولذلك فإن الأنبياء يمثلون أفضل ما في الإنسانية، وهم مجموعة منتقاة ممن يطلق الله عليهم في القرآن «أولياءه»، وهم أيضا الذين نطلق عليهم في اللغة الإنجليزية «قديسين». ومن بين جميع البشر، علينا أن نحب ونكرم الأولياء أكثر من أية فئة أخرى من البشر؛ ولأنهم تشربوا الوجود الإلهي فلهم حب أكثر من البشر الذين لم يتشربوا هذا الوجود، وقد قال الرسول ذات مرة: **«إذا كنتم تحبوني، فأحبوا من أحب»**، وهي الدعوة التي تنبع من مبدأ أننا إذا كنا نحب الله فإن ذلك الحب لا يكتمل إذا لم نحب من يحبه وما يحبه الله عز وجل.

لن يتوقف الصراع الديني بين اليهود والمسيحيين والمسلمين - وأي من أصحاب الديانات الأخرى - إلا عندما يتوصلون جميعًا إلى وسيلة تساعدهم حقًا على الالتزام بهذه التعاليم الدينية المشتركة، وأن يعاملوا بعضهم البعض بالطريقة التي يحبون أن يُعامَلوا بها.

رؤية نبى الله إبراهيم للمجتمع الصالح

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآية القرآنية: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة: ١٣٠] التى توضح أن من أراد أن يتخذ شيئًا آخر غير دين إبراهيم فقد جلب الخزى لنفسه أيضًا. إن الله أمر إبراهيم قائلا: «أسلم»، فأجابه «أسلمت لرب العالمين»، كما يصف القرآن الكريم إبراهيم بأنه «مسلم» (البقرة: ١٣٠ـ١٣٦ والحج: ٧٨) ويُعرف الإسلام بأنه التسليم لله باتباع المبادئ التى تم شرحها سابقًا، والتى تُشكِّل الملة الإبراهيمية[١٠]؛ ويواصل القرآن فى الآيات التالية تأكيد الحديث عن الإسلام: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢ـ١٣٣]

وقد أمر إبراهيم ابنه إسماعيل (ولده من زوجته هاجر) وإسحاق (ولده من سارة) بأن لا يعبدا إلا الله الواحد، وبدورهما أمرا أبناءهما بنفس الأمر، وكان ليعقوب (ابن إسحاق والذى عرف فيما بعد بإسرائيل) اثنا عشر ولدًا، وهم الذين أسسوا القبائل التى عرفت مجتمعة ببنى إسرائيل؛ لذلك فإن العرب يأتون من نسل إسماعيل، واليهود يأتون من نسل إسرائيل أو أبنائه.

إن مبدأ التوحيد محفوظ فى العبارة التى علمها النبى موسى لأتباعه ونصها: «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد»، وعلى الرغم من أن موسى كان يخاطب بها بنى إسرائيل، إلا أن الخطاب فى الواقع موجه لبنى آدم جميعًا، ويؤكد أن إلهنا واحد. كما تظهر الاستجابة الإنسانية لهذه الدعوة بصورة قاطعة فى الشهادة التى علمها محمد ﷺ أصحابه: «أشهد أن لا إله إلا الله».

ينظر القرآن لكل الأنبياء الذين ذكروا فى الكتاب المقدس والذين جاءوا لإعلان هذه التعاليم ـ مثل هارون وموسى ويحيى وعيسى المسيح ـ على أنهم أسلموا كلية لله؛ إذًا فهم مسلمون. لقد بعث الله الأنبياء جميعًا ليكرروا نفس الرسالة التى تدعو إلى التسليم

لله الواحد، ويحكموا بما أنزل من معايير وشرائع كما جاء فى سورة المائدة (الآيات: ٤٤، ٤٧، ٤٨) وهى كلها تشمل تنفيذ خير وصيتين دعا لهما كلٌّ من موسى وعيسى ومحمد وكرراهما وأكداهما: «أحبوا الله لأقصى درجة، وأحبوا إخوانكم من بنى آدم بنفس الدرجة».

بعد أن هجر إبراهيم موطنه، سافر خلال البلاد التى تعرف الآن بالعراق والأردن وفلسطين والجزيرة العربية ومصر، ساعيًا إلى إنشاء مجتمع يقوم على عقيدة التوحيد، ويكون تحت حكم الله، الذى يقيم هذه المبادئ ويضفى عليها طابعًا مؤسسيًا، ولكن إنشاء هذا المجتمع لم يكن مهمة سهلة فى المحيط الاجتماعى لهذا الوقت، فكان لزامًا عليه أن يبدأ سجل أعمال من جديد فى مكان على التخوم، حيث لا تسود أى أعراف اجتماعية سابقة.

وتوضح قصة أبناء إبراهيم ـ كما أوردتها الأخبار فى الكتاب المقدس وذكرها القرآن والحديث ـ الصعوبات التى واجهتها عملية إرساء عقيدة التوحيد فى عالم يسيطر عليه الشرك بمجتمعه المنقسم إلى طبقات.

أخذ إبراهيم هاجر وطفلهما الرضيع إسماعيل وتركهما وحيدين فى واد غير ذى زرع. وطبقًا للروايات الإسلامية، فهذا المكان فى وقتنا الحاضر هو مكة، والتى تقع فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة العربية على بعد ٤٠ ميلاً إلى الداخل من الساحل الشرقى للبحر الأحمر. وسألت هاجر إبراهيم عما إذا كانت إرادة الله أن يتركهما فى هذا المكان، وعندما رد عليها بالإيجاب، استسلمت لهذه الإرادة الإلهية ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ولما نفد منها الماء أخذت تروح وتأتى بين تلين صغيرين باحثةً عن الماء حتى اكتشفت بمعجزة إلهية البئر التى تعرف الآن ببئر «زمزم»(١١)، ولاحظ بعض المارة من البدو طيوراً تحلق فوق البئر، فتوقفوا ليستكشفوا الأمر، ولما وجدوا هاجر طلبوا منها السماح لهم بالسقاية من البئر؛ لأنه كانت لبئر الماء فى الصحراء آنذاك قيمة أكبر من قيمة من بئر البترول فى وقتنا الحالى، ولم يكونوا ليسمحوا لأنفسهم أن يأخذوا الماء من هاجر دون موافقتها،

وسمحت لهم هى بالسقاية من البئر، ومكث بعضهم معها ليصيروا بذلك أول سكان لمكة، وهذه هى القصة التى تخبرنا عن تأسيس إبراهيم وهاجر وإسماعيل لمدينة مكة.

وكان إبراهيم يقوم بزيارة هاجر وإسماعيل من وقت لآخر؛ لكى يطمئن على حالهما، وبعد مرور السنوات، عندما كبر إسماعيل وبلغ سن البلوغ، عاد إبراهيم والتقى بإسماعيل وأمرهما الله ببناء بيت يعبد فيه الله الواحد وهو الكعبة التى بنيت على شكل مكعب بسيط، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[البقرة: ١٢٥-١٢٩]

ويستشهد القرآن بإبراهيم وهو يصلى إلى الله قائلاً: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

المثالية فى مواجهة الواقع: الإمساك بالدين أمر صعب

على الرغم من أن ملّة إبراهيم فطرية فى الطبيعة الإنسانية إلا أن هذه الطبيعة لديها ميول قوية لانتهاكها. وقد استشهدت فى السابق بالنقد الذى وجهه القرآن الكريم لأولئك الذين عاصروا الأنبياء، والذين ادعوا فى الظاهر أنهم أتباعهم لكنهم خالفوا ما تدعو إليه رسالتهم.

تطلبت مهمه الحفاظ على التوحيد الخالص والمبادئ الأخلاقية للعقيدة الإبراهيمية تتابع الأنبياء؛ لكى يذكروا ويؤكدوا على رسالة إبراهيم الأساسية. لكن لم هذا التذكير؟ لأن النسيان من صفة البشر، كما ينص القرآن الكريم، فإن كان هناك شىء فى وجهة النظر الإسلامية يقترب من الفكرة المسيحية عن الخطيئة الأصلية، بمعنى أنه شىء يمكن أن يوصف بأنه عيب البشر أجمعين، فهو أن جميع البشر يسهون. وهذا لا يعنى زللاً فى الذاكرة بمقدار ما يدل على زلل فى تطبيق ما نعرفه، فنحن ندرك الصواب، ولكننا على أية حال نفعل ما نعرف أنه خطأ ـ وربما أيضًا نستمتع بفعله.

وبصورة عامة، وعلى الرغم من أننا ندرك أن الوصايا المرسلة إلينا صحيحة من الناحية الأخلاقية، إلا أننا لدينا نزعة قوية نحو عدم اتباعها، فحبك لشخص ما «كحبك لأخيك» لن يساعد أحدًا إذا كان هذا الحب كحب قابيل لأخيه هابيل، والذى أدى إلى قتله؛ لذلك فإننى أنصح جماعة المصلين بأن يتحققوا من الشخص الذى يقول لهم «إننى أحبك مثل أخى»، ولقد فهم الأنبياء هذا جيدًا؛ ولهذا السبب فإن القاعدة الذهبية تقول: أن نحب الآخرين كما نحب أنفسنا، وما دون ذلك فلا جدوى منه. ولأن نبينا محمدًا ﷺ أيضًا كان يدرك أن حب البشر لبعضهم البعض كأنهم إخوة وأخوات لم يكن كافيًا، وربما لأننا أحيانًا ما نعامل جيراننا بصورة أفضل من معاملتنا لأشقائنا، فقد صاغ الوصية الثانية لصحابته فى الحديث التالى: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١٢]. من مفارقات القدر، أننا كلما زاد قربنا من شخص ما، زاد التوتر والخلاف، وأدى إلى زيادة الحاجز بيننا على نحو مؤكد. كم عدد الذين يشعرون بالسعادة منا وليس بالحسد عندما ينجح الآخرون، أو عندما يحصلون على شىء لم يعط لنا؟

وهناك عامل يسهم فى تحدى تطبيق ملة إبراهيم هو الصعوبة التى يواجهها الناس فى عدم فهم الأشياء إلا عند ربطها بأنفسهم فرديًا أو جماعيًا. فعلى سبيل المثال، تثير كلمة «المسيح» صورًا مختلفة عند البشر المختلفين، حيث يصوره المسيحيون الأوروبيون عادة على أنه أزرق العينين وأشقر الشعر، أما المسيحيون فى المكسيك فيصورونه على أنه كان أسود العينين وأسود الشعر، والواضح أنه لا يمكن أن يكون المسيح فى هاتين

الهيئتين فى وقت واحد، ولكن المقصود هو أن الناس يميلون إلى أن يشكلوا فى ذهنهم صورة خاصة بهم للشىء كما يتراءى لهم من منظورهم الشخصى، وهى صورة عادة ما تكون غير دقيقة مفروضة على فهمهم لهذا الشىء. بيد أنه لن يشكل هذا المثال أى ضرر طالما قرر المسيحيون الأوروپيون والمكسيكيون أن شكل المسيح عنصر غير حيوى لفهم حقيقته، وهو بذلك لا يستحق أن نتقاتل عليه.

وتثور قضايا أكثر أهمية حول كيف ينظر المسيحيون إلى المسيح من الناحية الروحانية، فالكاثوليك يعتبرونه «ابن الله الذى لم يولد»، والذين أنكروا بنوة المسيح لله وفندوها حتى القرن السابع عشر كان يتم إحراقهم باعتبارهم ملحدين بسبب هذا الخلاف فى الرأى.

وعندما يتعلق الأمر بالدين، يحتفظ كلٌّ منا فى ذهنه بصورة ما حول ماهية ربه ودينه. وفى هذا، فإننا لا نختلف كثيراً عن الطفل «جونى» الصغير الذى كان يرسم على السبورة، وعندما سألته المعلمة: «ماذا ترسم؟» أجابها بأنه يرسم الله، فردت المعلمة سريعًا: «ولكن لا أحد يعرف ماهية الله»، فأعلن جونى بزهو نافخًا صدره: «سيعرف الجميع بعد أن أنتهى من الرسم». فنحن ـ على ما يبدو ـ نحاول على الرغم من علمنا أن رؤيتنا لن تفى الذات الإلهية حقها، فإننا لا نستطيع مقاومة هذه الرغبة العارمة. عندما يناقشنا شخص ما فى مفهومنا عن الله، فإننا نستاء للغاية من ذلك، ولكن عندما يبعث الأنبياء ليصححوا مفاهيمنا فإننا نعاملهم بصورة أكثر سوءاً، مثلما حدث مع إبراهيم ومحاولة حرقه، أو عيسى ومحاولة صلبه باعتبارهما مهرطقين.

يشير القرآن الكريم لهذه النزعة الإنسانية، عندما يسأل: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الحجرات: ١٦].

ونجد فى قصة بنى إسرائيل خير مثال على ميل البشر هذا لابتداع صورة الله على صورتهم الخاصة. فعندما دعاهم يوسف لكى يفروا من المجاعة التى اجتاحت فلسطين، هاجروا إلى مصر؛ حيث عاشوا فى رخاء لعدة قرون إلى أن جاء عهد رمسيس، الفرعون الظالم، الذى استعبدهم. بعد ذلك، أرسل الله لهم نبيه موسى ليحررهم، وهو إسرائيلى، ولكنه نشأ وترعرع كأمير فى قصر فرعون. وبعد بعض

المعجزات المثيرة للغاية، مثل تحول مياه النيل إلى دم، والتهام الجراد للمحاصيل، وغيرها من المعجزات، سمح أخيرًا ـ وعلى مضض ـ لموسى أن يحرر بنى إسرائيل من نيره. كان فرعون غاضبًا من موسى؛ لأنه كان يرى أنه ابن الله، فكيف لهذا الشخص مجهول النسب، هذا الذى يعانى صعوبة فى النطق (كان لديه لثغة) والذى قام بتربيته على أنه أخوه غير الشقيق، أن يكتسب نوع القوة التى كان فرعون يفترضها لنفسه؟ ولما اكتشف فرعون أن قوة إله موسى تفوق قوته كان ذلك كافيًا ليجعله يبدو شاحب الوجه. وفى النهاية، استطاع موسى أن يعبر ببنى إسرائيل إلى سيناء، وخلال الرحلة تركهم تحت إمرة أخيه هارون؛ لكى يصعد هو إلى جبل سيناء ليشكر الله ويكلمه.

وسيجد القارئ فى عصرنا الحديث أنه من العجب أن بنى إسرائيل، بعد كل هذه المعجزات ـ التحرر من العبودية وخروجهم من مصر ـ قد جادلوا هارون ليبتدعوا ويعبدوا عجلاً من ذهب (الأعراف: ١٤٨، طه: ٨٣ ـ سفر الخروج، ٣٢). لقد أرادوا أن يقدسوا الله بالطريقة التى اعتادوا عليها بعد أن أدت القرون التى عاشوها فى مصر إلى تشكيل نظرتهم الثقافية وذوقهم فى الطعام، فقد تعبوا من المن الذى أرسله لهم الله من السماوات، و أخذوا يتذمرون منه!

الحفاظ على الإيمان عبر الثقافات والأجيال

لقد واجه أتباع موسى ـ أثناء فترة الشتات التى قضوها فى صحراء سيناء ـ اختبارًا صعبًا يتطلب منهم الاكتفاء بالأكل من المن الذى أرسل إليهم من السماء. ، كما يرسم لنا الكتاب المقدس صورة واضحة فى الإصحاح الحادى عَشَرَ من سفر العدد: فعاد بنو إسرائيل يبكون قائلين: «من يطعمنا لحمًا؟ لقد تذكرنا سمك مصر الذى كنا نأكله مجانًا، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم، أما الآن فقد فقدنا شهيتنا وهزلنا، وليس أمام أعيننا سوى هذا المن» [العدد: ١١: ٤ ـ ٦]. ويصف القرآن الكريم شكوى بنى إسرائيل فيقول: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [البقرة: ٦١]. أى أنهم كانوا يريدون طعام الدنيا وليس طعام الجنة.

قبل أن نتسرع فى إلقاء اللوم على بنى إسرائيل بسبب هذا، فلنلقى نظرة على الجيل الأول من المهاجرين من الأمريكيين والذين عرفوا بالتدين الشديد. أعرف صديقًا رفض والده ـ الذى كان قد هاجر من النرويج وكان يؤمن بالمذهب البروتستانتى ـ الذهاب إلى الكنيسة بعد وفاة كاهنه ومجيء كاهن جديد من ألمانيا، فقد كان يريد أن يعبد الله بالطريقة التى اعتادها، وهناك أيضًا العديد من المسلمين الذين هاجروا من الهند وپاكستان ويصلون فى مسجدى، يصرون على رفع أطراف سراويلهم إلى أعلى الكاحل؛ وذلك لأنهم تعلموا فى بلادهم أن صلاتهم غير صحيحة إذا لم يفعلوا ذلك (وهذا غير صحيح). ولقد لاحظت أن المسلمين الأمريكيين الأشد ورعًا والذين هاجروا من مصر وتركيا وپاكستان والسنغال وإندونيسيا غير راضين بالمرة بوجبة شريحة اللحم والبطاطس وفطيرة القرع، ويمكن استخدام لغة الكتاب المقدس فى وصف حالتهم بالقول إن «أرواحهم سوف تيبس» وربما صلاتهم وصيامهم فى رمضان أيضًا، إذا لم يأكلوا وجباتهم المفضلة مثل الفول والكباب ولحم الحمل مع الكارى (من التوابل) وبريانى الدجاج (وجبة هندية) والسوبو دى كنجة والإربيان مع صلصة السمبلس (وجبة من جنوب شرق آسيا)، ناهيك عن البقلاوة الشهيرة والتى تم إعدادها تمامًا كما نعدها فى أوطاننا، وأيضًا أطباق رس ما ليس وجولاب جامونس الشهية.

كان لى زميل أمريكى عملت معه لفترة، يسافر كثيراً فى رحلات عمل إلى باريس، وبعد تناول الطعام الفرنسى لمدة أسبوع شعر بالحنين لتناول وجبة شطيرة «بيج ماك» الخاصة، فكان يسعى إلى أقرب محلات ماكدونالدز لتناول الهمبورجر والبطاطس المقلية مع مشروب الكولا الكبير. لقد كان يشعر بالسعادة الغامرة التى تبدو فى عينيه عند تناوله تلك الوجبة والتى لم تكن لتقارن بأى شىء موجود فى محلات «فوشون» الفرنسية. كما أعرف أيضًا زميلاً مسلمًا آخر يصلى الجمعة فى مسجد معين فى منطقة «كوينز» بمدينة نيويورك حيث كان باستطاعته أن يشترى بريانى الدجاج، وهو ما يعتبره أفضل وجبة، والتى يحصل عليها عادة بعد الصلاة بثلاثة دولارات. إن الطريق إلى أنفسنا يمرّ عادة عن طريق قلوبنا، والطريق إلى قلوبنا يمرّ عن طريق المعدة وحاسة التذوق.

وخشية أن لا يصدق القارئ أننى أتحدث جديًا، دعونى أذكركم بأن هذه حقيقة مقدسة ذكرت فى كلٍّ من الكتاب المقدس والقرآن الكريم، فإطعام الفقراء عمل خيّر فى جميع الأديان، وهو واجب تقوم به كل حكومة تتميز بالحكمة والاهتمام بشعبها؛ وذلك لأن الناس عندما يعانون من الجوع فإنهم يثيرون تمردات معادية تجاه الحكام الذين يتسببون فى موت شعوبهم من الجوع. نحن لا نشعر بالرغبة فى تناول الطعام فقط، بل إننا نريد تناول أنواع معينة من الطعام.

ربما كانت مدة الأربعين عامًا التى تاه فيها بنو إسرائيل فى صحراء سيناء مطلوبة لإتاحة الفرصة لأن ينشأ الجيل الجديد من بنى إسرائيل فى بيئة التوحيد الخالصة تحت رقابة مشددة من موسى أكثر من أهميتها للقضاء على ارتباطهم بالشرك والوثنية. ولكى نعيد صياغة المثل الأمريكى فإن موسى استطاع أن يخرج بنى إسرائيل من مصر، إلا أنه لم يستطع أن يخرج مصر من بنى إسرائيل. إن العادات القديمة تموت بصعوبة، وربما لا تموت أبدًا؛ ولذلك فربما يقتضى الأمر اختفاء جيل ما والانتقال إلى الجيل التالى؛ لكى تتغير عادات المجتمع وأحواله التى تتصل بقضايا حيوية.

ومن مثل هذه الحكايات، يتضح لنا أن تطور أى مجتمع دينى يتطلب عملاً شاقًا، فالمجتمع الأمريكى المسلم اليوم - وفى مطلع القرن الحادى والعشرين - لا يختلف عن بنى إسرائيل الذين أمضوا أربعين سنة من الشتات بحثًا عن أرض الوعد؛ حيث يكافح قطاع عريض يقارب ٧ ملايين شخص من شتى أنحاء العالم الإسلامى من أجل أن يضربوا بجذورهم فى أرض أمريكا، ويلد المجتمع الإسلامى الأمريكى حاليًا جيلاً ثانيًا راسخًا فى الثقافة الأمريكية. إن تشكيل مثل هذه الهوية الأمريكية الإسلامية من خلفيات المهاجرين والأفارقة الأمريكيين يتطلب حكمة تشبه حكمة الأنبياء لكى نستطيع أن نجتاز الصراعات وتباين الآراء ولحظات اليأس الشديد والتحديات الكبيرة على طول الطريق.

على مدار حياتنا فرادى عادة ما يتطور تصورنا وفهمنا للذات الإلهية وللدين. ويحدث نفس الشيء على مستوى المجتمع، فكل مجتمع باعتباره جماعة يطور أفكاره الخاصة عن الله وعن الدين. وفى أفضل الأحوال فإننا نعبد الله ليس كما يعرف نفسه،

بل كما نتصوره فى أذهاننا؛ ولهذا فإن من الضرورى وصف الله بأنه غير معلوم لنا فى الأساس.

وعندما يرسل الله لنا نبيًا ليعلمنا ما نحتاج أن نعرفه، فإن رسالته تصل فى السياق الثقافى واللغوى والفكرى الخاص لبيئة السكان المحليين التى بعث إليها، وتظهر الأخطاء خلال عملية الترجمة هذه، وتتكرر هذه المشكلة من جيل إلى آخر، فالجيل الجديد برؤيته المختلفة نسبيًا، يبدأ فى إدراك الرسالة باختلاف بسيط، وبعد عدة أجيال يمكن أن ينحرف المفهوم الأصلى تمامًا.

يواجه كل تراث دينى التحدى الدائم الذى يتمثل فى ترجمة عقيدته إلى المفردات المناسبة لوقتها. والمشكلة فى شكلها الأعم هى: «ما هى المبادئ الخالدة لعقيدتنا، وكيف يمكن أن نعيد صياغتها فى ظل التغيرات الحالية؟». إذ يجلب كل عصر تحدياته التى تتعلق بالطريقة التى نؤدى بها الأمور، أو الطريقة التى نفكر بها ونفهم بها الأمور تاريخيًا.

لقد واجه المجتمع الإسلامى أول التحديات الحرجة بعد وفاة النبى ﷺ. فكيف سيتم الحفاظ على العقيدة؟ من سيقود المجتمع؟ فقد توفى الكثير من الصحابة من حفظة القرآن الكريم خلال بضع سنوات بعد وفاة النبى ﷺ، وقد كانت المشكلة تتمثل فى كيفية الحفاظ على القرآن المحفوظ فى الذاكرة الجماعية للمجتمع من الضياع. كيف يضمنون أنه سيُتلى بطريقة سليمة على ألسنة الأعداد المتزايدة من الشعوب التى لا تتحدث العربية (من المصريين والسوريين والإيرانيين) الذين يمكن أن تحرف لهجاتهم صفاء الكتاب الإلهى المنزل ومعانيه؟. كل ذلك قاد إلى جمع القرآن الكريم وكتابته فى مخطوط صحيح متفق عليه، وتم إرساله فى النهاية لجميع الأمصار مع حافظ معتمد لتعليم التجويد الصحيح، وظن البعض فى البداية أن هذا الأمر بدعة وهرطقة، فالرسول ﷺ- لم يفعل ذلك. كيف يمكن تعليم الأعداد المتزايدة من المسلمين أركان الدين والتفريق بين السلوك الحلال والحرام؟. أدى هذا إلى نشأة علم التفسير وعلم الفقه خلال القرون الثلاث الأولى بعد وفاة النبى ﷺ، ولكن مرة أخرى اعتبر البعض أن فى التفسير جرأة واقترابًا من الهرطقة، فكيف يجرؤ مجرد إنسان على التعليق على كلام الله؟

إن هذا التحدى الدائم موضوع مهم فى تاريخ تراث كل الأديان، ففى كل مرة يرسل فيها الله نبيّا كى يكرر ويصحح رسالة إبراهيم، كان أتباع هذا النبى ينتهون إلى اختلافات جوهرية فى الرأى كانت كافية لتقسيمهم إلى طوائف متعددة، ومن أشهر الانقسامات التى حدثت بين ورثة تراث إبراهيم، انقسام المسيحية من اليهودية الذى جاء كنتيجة غير مقصودة لبعثة نبينا عيسى ﷺ. ولأن نبينا محمداً ﷺ بعث لإحياء ملة إبراهيم ﷺ فى ثقافة ولغة فرع إسماعيل من أبناء إبراهيم خلص معظم الناس إلى أن النبى محمداً ﷺ قد بُعث لكى يدعو إلى رسالة تختلف عن رسالات كلٍّ من عيسى ﷺ وموسى ﷺ، واعتبروها دينًا مختلفًا ومنفصلاً.

من الأمور الجديرة بالملاحظة فى أيامنا هذه هى كيف ينظر اليهود الملتزمون لليهود الإصلاحيين على أنهم ليسوا من اليهودية فى شىء، وكيف يرى المسيحيون الكاثوليك فى أيزلندا أن البروتستانت ينتمون إلى معسكر الأعداء، وكيف أن المسلمين السنة فى پاكستان قد فرقوا بين الشيعة والسنة بصورة حادة، لدرجة أننا أصبحنا نقرأ أن الشيعة فى پاكستان يتم إطلاق الرصاص عليهم ويُقتلون فى المساجد أثناء تأديتهم لصلاة الجمعة.

والقرآن الكريم ـ الذى يؤمن كلٌّ من السنة والشيعة بأنه كلام الله ـ يؤكد أن الله يقول[١٣]: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ٤٢] وطبقا لهذه الآية، فإن المواقف والممارسات المسببة للخلاف ما هى إلا إشارات تدل على عدم التوحيد والعداء له ولملة إبراهيم، فالتصرف الدينى الصحيح لا يسعى إلى انتصار دينى وتعظيم الذات، بل يسعى إلى التمسك بتعاليم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢] وبقوله أيضًا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [المائدة: ٦٩].

لقد واجهت ملة إبراهيم ﷺ التوحيدية فى بدايتها صعوبة الاستمرار فى الحضارات القوية التى كان يسودها الشرك والوثنية، وكما أشرت فيما سبق فإن الشرك لم يكن يمثل سوى نصف الصراع لبناء مجتمع صالح، أما النصف الآخر فقد تكون من البقايا الاجتماعية الخاصة بالمجتمعات المشركة: وهى تقسيم المجتمع على أساس القبيلة والعرق والطبقة ونوع الجنس والرق، والتى كانت تناقض مبادئ الحرية والإخاء بين البشر، كما لم تكن محاولات استغلال عقول البشر والسيطرة عليها أقل ضرراً.

لقد كانت الحروب فى سبيل الله، على مر العصور والحضارات، فى أفضل أحوالها هى الكفاح من أجل إنشاء مجتمع إنسانى صالح، أى يعكس بصورة حقة ملة إبراهيم ﷺ، وخاصة الوصنية الثانية، ولكن البشر أيّا كانوا وجدوا تنفيذ هذا أمراً فى غاية الصعوبة. وظلوا يعودون إلى أشكال العبادة الخاصة بالفترة التى سبقت إبراهيم ﷺ، فمن الناحية العقائدية رجعوا إلى الشرك وعبادة الله بطريقة خاطئة، فى حين من الناحية الاجتماعية حرموا الآخرين من حرية العَمل، بل وحرية التفكير، وأخذوا يعاملون البشر على أنهم غير متساوين، وحرموهم من حقوقهم.

ولقد ذكرنا بالفعل قصة قوم موسى ﷺ والصعاب التى واجهتهم لعدم العودة إلى الممارسات المصرية الخاصة فى قضية هامة مثل عبادة الله؛ وفيما يلى المزيد من الأمثلة من التاريخ المسيحى والإسلامى:

* فى الوقت الذى كان ينتشر فيه الدين المسيحى فى روما، لم يتوقف الكثير من الرومان عن إصباغ المسيحية بالصبغة الرومانية، بما فى ذلك ترويع الكثير من أتباع المسيح الآخرين، خاصة الذين يعيشون فى العواصم المسيحية القريبة من القدس مثل أنطاكية. كما أنهم نسبوا للمسيح الكثير من صفات الأباطرة، إذ كانوا ينظرون إلى عيسى ﷺ على أنه ملك الملوك، على الرغم من أنه اعترض على هذا الأمر حين قال: «ليست مملكتى من هذا العالم» (يوحنا، ٣٦:١٨). كما نُسب له المفهوم الذى يفترض أن الإمبراطور ينصب من قبل الله أو بطريقة تتصل بالله، على الرغم من أنه لم يعرف عن المسيح أنه ادعى هذا لنفسه. وأصبح الدين المسيحى هو الدين الرسمى للدولة فى القرن الرابع، وفيما تلا ذلك من قرون كان أى تفسير يخالف

تفسير الكنيسة يعتبر بدعة ضد الدولة، وبالتالى خيانة تستحق عقوبة الموت. أما المسيح وعلى الرغم من أنه هاجم النفاق والأفكار الخاطئة بشدة، إلا أنه كان يدعو الناس إلى تصحيح معتقداتهم عن الله، وأن لا يعرضوا حياة أى شخص للخطر لتبنيه وجهة نظر مختلفة أو رأيًا خاطئًا، ناهيك عن إحراقهم لاتهامهم بالزندقة.

* بعد وفاة النبى محمد ﷺ عام ٦٣٢م، تسللت بعض مظاهر العقلية التى سادت الفترة التى سبقت الإسلام (التى كان يسميها المسلمون بالجاهلية) التى كانت تتناقض مع ملة إبراهيم من جديد إلى المجتمع الإسلامى، إذ تدخلت القبلية العربية فى السياسة الإسلامية، وفى غضون خمسة وثلاثين عامًا تم التخلى عن نظام اختيار خليفة المسلمين على أساس الجدارة، مما أدى إلى سخط المجتمع الإسلامى لصالح نظام التوريث الذى اتُّبع بدلاً منه (كما سنشرح بطريقة أكثر تفصيلاً فى الفصل الخامس). ففى عام ٦٥٦م، أقام الأمويون ـ قبيلة بنى أمية الذين كانوا أشرس خصوم لبنى هاشم (قبيلة النبى ﷺ) منذ الجاهلية ـ حكمًا وراثيًا عاصمته دمشق. وما أن تم تأسيس هذا الحكم الوراثى بدأت كثير من المظاهر الأخرى لعقلية الشرك هذه تعود للظهور مرة أخرى: فأصبح هناك أسرة ذات امتيازات، ثم طبقة من النبلاء (ذوى الامتيازات)، وهذا بدوره أدى إلى وجود طبقة محرومة، وفقدان تدريجى للحريات لصالح طبقات معينة من المجتمع البشرى، وتقسيم المجتمع إلى طبقات بما يتعارض مع ملة إبراهيم ﷺ. تفجر أول الخلافات التى ظهرت بين المسلمين عندما انقسم المجتمع الإسلامى إلى سنة وشيعة، حيث يؤمن السنة بأن خليفة المسلمين لا يشترط أن ينحدر من نسل النبى ﷺ، بينما يرى الشيعة وجوب ذلك؛ ثم توالت الكثير من الأفكار التى تعود بأصولها إلى فترة الجاهلية لتقوض التحرر والحرية الإنسانية مثل:

* فقدان سيادة القانون وسلطة القضاء المستقلة.

* اعتبار الردة مرادفة للخيانة، وبالتالى فعقوبتها الموت.

* استمرار الرق، على الرغم من وجود العديد من الآيات القرآنية التى توصى بعتق العبيد.

* سوء معاملة المرأة واضطهادها.

تواجه المجتمعات والأفراد التحدى الذى يطرح نفسه دومًا والخاص بسد الفجوة بين المُثل والواقع. يمكننا الاعتقاد بأننا نقدر مُثلنا إلا أننا غالبًا ما نكون غير قادرين أو غير راغبين فى أن نجعل واقعنا يتماشى مع هذه المُثل. وحتى إذا كانت لدينا الرغبة فى تحقيق ذلك، وأن الأمر يتطلب عملاً شاقًا.

لذلك، فإن الصحيح فى أى دين أو بناء اجتماعى هو مدى ما يصل إليه الأفراد والمجتمعات من إظهار مبادئ ملة إبراهيم ﷺ بصورة كاملة. والنتيجة الطبيعية لن تقل صدقًا عن ذلك: فالفرد أو المجتمع لا يتسمان بالعدل أو التطور طالما ملة إبراهيم تنتهك أو لا تنفذ بشكل كامل. كما أن القرآن الكريم أكد مرارًا وتكرارًا أن مهمته هى إعادة ترسيخ ملة إبراهيم ﷺ وأن محمدًا ﷺ وكل الأنبياء السابقين قد بعثوا لنفس الغرض، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [آل عمران: ٦٨]. إن الإسلام، كما سيتضح لنا فيما بعد، يُعرف نفسه على أنه النسخة أو الإصلاح الأخيرين لملة إبراهيم ﷺ. فالإسلام ليس دين محمد ﷺ (ولذلك يرفض المسلمون تسميتهم بالمحمديين، وهو الاسم الذى يطلقه عليهم الأجانب) لكنه دين الله الذى أقامه إبراهيم ﷺ وطهره محمد ﷺ من أدران الوثنية والشرك التى ظهرت فيما بينهما من القرون.

إن رسالة الله للبشرية ليست واحدة جوهريًا فحسب، بل إن القرآن الكريم يصف المؤمنين بأنهم هم من آمنوا بـ ﴿ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، لا نفرق بين أحد من رسله: تتضمن أننا ينبغى أن لا نسعى إلى خلق اختلافات عنيفة بين الرسالات التى جاء بها كلٌّ من هؤلاء الرسل، فالاختلافات تظهر بوضوح أكثر فى التفاصيل عنها فى الجوهر. ويعلق الله فى القرآن الكريم على تاريخ أتباع موسى ﷺ وعيسى ﷺ ومحمد ﷺ فى الآية التالية، يقول فيها الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٢-٥٣]، (انظر أيضا الآيات من ٤٤ إلى ٥٤ لمعرفة أسماء الرسل). إن التحدى الذى

لا يزال يواجه المجتمع الإنسانى إلى يومنا هذا هو كيفية عبادة الله دون تقسيم أنفسنا، وكيف نضفى طابعًا مؤسسيًا على مثل هذا الفهم الموحد.

يمكن تلخيص ما سبق بالقول بأن ملة إبراهيم ﷺ تجسد التعبير المؤسسى الفردى والاجتماعى الأكثر كمالاً وتوازنًا لهاتين الوصيتين بأفكارهما المحورية التالية:

* التوحيد الجوهرى الذى يتم التعبير عنه من خلال حب الله الواحد بكل كياننا ومن صميم قلوبنا.
* الحرية والمساواة والإخاء بين البشر، والتى يُعبر عنها عندما نحب للآخرين ما نحب لأنفسنا (بمعنى العدالة الاجتماعية)، والعمل على ضمان وحماية هذه المبادئ.

وحيثما يساهم أى موروث دينى - سواء أكان إسلاميًا أو غير إسلامى - فى تعظيم هذه الوصايا، فإنه يساهم فى نمو وتقدم الإنسانية؛ أما إذا لم ينجح فى تحقيق ذلك، فإنه يساهم فى خلق صراع و مرض داخل مجتمعه وبين مجتمعه والمجتمعات الأخرى.

هل هناك مسلم بين أصدقائك المقربين؟

يتعلم الإنسان المتدين بصدق والذى تربطه علاقات صداقة قوية بأصدقاء مخلصين ينتمون لديانات أخرى كيف يتخلصون من الأخطاء الشائعة. وأبرز هذه الأخطاء هو أن جميع الأديان الأخرى باستثناء دينه الذى يؤمن به يمكن تجاهلها، وأن تكون كل الأديان متماثلة بالضرورة فى أن جميع الأديان على خطأ ما عدا دين المرء الشخصى، أو أن أصحاب الأديان الأخرى فاسدون وآثمون.

يقضى علينا المجتمع المتناغم المتعدد أن نتعرف على أنفسنا وعلى الآخرين الذين يعيشون بيننا. فلا يستطيع أى مسيحى - ذكرًا كان أو أنثى - أن يدعى أنه يتبع سوابق المسيح إلا عندما يتقبل وجود أناس آخرين، أذكياء، مرهفى المشاعر، ومثقفين، سواء كانوا مسلمين أم يهودًا أم هندوسًا أم بوذيين أم ملحدين. ونفس الأمر ينطبق على أتباع الديانات الأخرى، كما ينطبق أيضًا على الملحدين الذين يعتبرون أنفسهم أصحاب

حركة إنسانية علمانية مهذبة ومستقيمة. إذا لم يرتح المسلم إلى عالم يعيش فيه مسيحيون ويهود وهندوس وبوذيون ولاأدريون، فإن هذا الشخص لا يستطيع أن يدعى أنه يتبع تعاليم القرآن والنبى محمد ﷺ.

فى أوقاتنا هذه، لا مفر من التعامل مع المسلمين سياسيًا واقتصاديًا وعلى المستوى الاجتماعى؛ ولذلك سيكون من المفيد أن ندرس الإسلام، ونفهم أن المسلمين أيضًا يشاركون فى الاهتمام بشواغل الوجود الإنسانى الجوهرية.

المسلمون: وافدون جدد على الطريق

يرى المسلمون أن الإسلام هو أحدث نسخة من الدين الذى غرسه الله فى الأرض عندما خلق البشرية. ولأنهم يؤمنون بأن دينهم قصد به أن يكون دينًا للبشرية جمعاء فإنهم يرتبطون بالبشرية على ثلاثة مستويات: للإنسانية كلها كبشر، وللجماعات الدينية كلها كورثة مشتركين لموروثات دينية أنزلها الله، ولليهود والمسيحيين باعتبارهم متلقين مباشرين لملة إبراهيم. إن هذه العلاقات أساسية فى الطبيعة الأصيلة للدين الإسلامى. ولا يقوم الإسلام بدونها. إن دافع الإسلام الطبيعى هو أن يكون دينًا معولمًا يقوم على مجموعة من المبادئ العامة، والتى يمكن للبشر جميعًا الاتفاق عليها.

والمسلمون يعتبرون أن البشرية كلها من خلق الله الذى أنعم عليهم بالعقل والفهم لكى يتعرفوا عليه، فبمثل هذه الهبة لابد لهم أن يعرفوا أن الله هو الواحد المتعال والآخر. و بالإضافة إلى ذلك، فإن المسلمين يؤمنون بأن جميع البشر قادرون على معرفة الله، وأن الناس جميعًا جبلوا فى قلوبهم على دين الفطرة؛ وإذا خالف أى مسلم أيًا من حقائق الكون هذه فإنه بذلك يخالف تعاليم القرآن، وبالتالى يخرج عن تعاليم الإسلام، والتسليم بهذه الحقيقة أمر جوهرى فى إيمان المسلم.

إن شمولية دين الفطرة يدعمها فهم القرآن للتاريخ. فهى تؤكد أن الله لم يتخلّ عن البشرية ويتركها لمصادرها الذاتية لكى تتعرف عليه باعتباره الله الخالق. إن الله برحمته بعث الأنبياء؛ ليوصلوا لهم رسالة الله المقدسة التى تقرر أن الدين لله وحده،

﴿ ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ويغض النظر عن محاولة البشر خذلان إنسانيتهم برفضهم استقبال حقيقة الله، وتعاليه ووحدانيته، فإنهم كانوا يُبلغون ويُحذرون فى حينها عن طريق الرسول الذى بعثه الله ليعلمهم تلك الحقيقة بلغتهم وأسلوبهم، وقد ورد هذا فى سورة (إبراهيم: ٤) لقد كان المضمون واحدًا دائمًا ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]؛ ويفند هذا كل الأعذار لمحاولة إنكار الله، سبحانه وتعالى.

الهندوس والبوذيون: وافدون قدامى على الطريق

كما يؤمن الإسلام، فقد استمرت عقيدة التوحيد المتوارثة من آدم عن طريق نوح؛ حيث يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣] ويقول أيضًا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

نظرًا لأن القرآن يخبر قراءه عن العديد من الرسل الذين لم تذكر أسماؤهم، وأن الله قد بعث فى كل أمة رسولاً ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾ [النحل: ٣٦] فإن المسلمين يؤمنون بأن الله قد أرسل لكل البشرية أنبياء، قال تعالى: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾ [مريم: ٥٨]؛ يشير قوله تعالى «ذرية آدم» إلى الأنبياء الذين بعثوا للبشرية بأكملها، وأما قوله تعالى «وممن حملنا مع نوح» فيشير إلى فئة أقل، وهم الأنبياء الذين جاءوا من نسل نوح، ثم يشير

إلى الفئة الأقل فى عبارة «ذرية إبراهيم» وهم الأنبياء من ذرية إسماعيل وإسحاق، و«ذرية إسرائيل» تعنى بالطبع هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا من نسل يعقوب بن إسحاق والذى عرف فيما بعد بإسرائيل.

لذلك، فقد أرسل الله وبلا شك، أنبياءه إلى الهند والصين، ولكل الناس فى شتى أنحاء العالم، وعلى الرغم من أن هؤلاء الأنبياء ربما لا يكونون بالضرورة من نسل إبراهيم، إلا أنهم بالتأكيد من نسل آدم، وفى الأغلب ضمن نسل نوح. وبناءً على هذه الحجة التى جاءت فى القرآن، فإن الهندوس والبوذيين ينحدرون من تعاليم دينية دعا إليها فى الأساس أنبياء جاءوا من نسل آدم ونسل نوح.

لذلك، فإن هذا الدين الذى دعا إليه جميع الأنبياء فى شتى بقاع الأرض - وهو دين عالمى من المنظور الإسلامى - يتكون من خمسة مبادئ تم التأكيد عليها مراراً فى كل الوحى الإلهى:

١- أن وحدانية الله وتعاليه مؤكدان فى انفصال الذات الإلهية عن الوجود، وأنه ليس كمثله شىء، لا يمكن الإحاطة به من قبل مخلوقاته؛ وهذا يعنى أن ذراع الإنسان أقصر من أن تستطيع أن تحيط بالله، وأننا مهما حاولنا التحدث عن الله أو فهمه، فإنه - سبحانه وتعالى - أجلّ من أن يوصف. إنه المجهول الأعظم.

٢- أن الله الحى، رب الخلق، وأن الله الخالق هو سبب وجودنا فى هذا الوجود، وهو الذى جعل لحياتنا هدفًا، وصاغ المعايير والأخلاق التى يعيش بها كل مخلوق حياته. وهذا يعنى أن الله هو أهم ما فى حياتنا، ومنه نستطيع أن نميز بين الخير والشر.

٣- أن هذا شأن إلهى يمكن إدراكه بالنسبة لنا - نحن البشر - ويمكن أن يتجلى لنا من خلال واحد أو كل الوسائل الثلاث الآتية: العرفان (أى عن طريق استقراء أو استنباط وجوده فى بشائر الطبيعة، والتى تشتمل على دخائل أنفسنا وحالة الوعى)؛ أو عن طريق العلم والمعارف التى جمعها (التاريخ) من أسلافنا بما فى ذلك اكتشافها فى الأنماط الفريدة أو فى قوانين الطبيعة، أو عن طريق النبوة وهو الوحى المباشر بإرادة الله عن طريق كلمات يسهل استخدامها لتحقيق الفهم الإنسانى.

٤ـ أن البشر لديهم القدرة على تنفيذ الأوامر الإلهية؛ وذلك لأن لدينا المعرفة، ولأننا نتصرف من منطلق إرادتنا الحرة مسترشدين بمعلوماتنا المسبقة الواعية، وأيضًا لأن الله قد أخضع لنا الطبيعة؛ فعندما نمارس إرادتنا بما يتوافق مع الوصايا الإلهية نكون قد فعلنا الصواب وتجنبنا الخطأ.

٥ـ أن البشر مكلفون؛ ولذلك فإنهم يجب أن يتحملوا المسئولية التى تعنى أننا سنحاسب؛ فمن أطاع سيجازى خيراً، ومن تحدى أو انتهك سيعاقب.

إن هذه المبادئ الخمسة هى جوهر وأساس التدين الحق كله؛ فقد أقر كل من ينتمون إلى عقيدة دينيه ثابتة فى أى مكان فى العالم بهذه المبادئ بغض النظر عما إذا كانوا يمارسونها فى حياتهم اليومية، وبذلك فقد التزموا بدين الله. إن هذه الحقائق متكاملة فى عقيدة الإسلام، وهى تصف دينًا عالميًا.

اليهود والمسيحيون: أشقاء على الطريق

يطلق القرآن على اليهود والمسيحيين «أهل الكتاب». ويؤمن المسلمون بأن الله قد أنزل إليهم عن طريق الأنبياء كلماته، أى الكتب المقدسة التى تحتوى على التعاليم الدينية لرسالته. وإذا افتقد البشر ـ لسبب ـ ما يعد طبيعيًا، وبالتالى ضروريًا لهم، فقد منحوا تلقائيًا الكتاب المقدس هدية السماء، ومعه النبوة. وبالتالى فإن اليهود والمسيحيين أيضًا أصحاب دين فطرة، دعمته الكتب السماوية وجاء به الأنبياء. وأى مسلم ينكر هذا فإنه يخالف القرآن؛ لذلك فإن المسلمين ـ من وجهة النظر الدينية ـ يقرون بأن كلاً من المسيحية واليهودية قد وهبتا دين الله مرتين، مرة من خلال الفطرة الضرورية والشاملة، ومرة أخرى من خلال نعمة الله التى تجلت فى الكتب المقدسة وأنبيائهم.

لا يشك المسلمون ولا يجادلون فى هذه المسلمات السابقة؛ ذلك لأنها جاءت باعتبارها بيانًا إلهيًا فى القرآن، لكن تم التأكيد عليها بشكل أكبر من خلال وسيلة ثالثة للتبرير، وهى وسيلة مباشرة فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ**

عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] وقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

إن هذه الآيات لا تعترف فقط بتشابه اليهود والمسيحيين مع المسلمين، بل إنها تعرف الإسلام عن طريقهما؛ إن هذا التكامل بين الأديان الثلاثة يجعل المسلمين يعتبرون اليهود والمسيحيين إخوانهم فى الإيمان، وفى التسليم بإله واحد للجميع. وبالتأكيد هناك خلافات بينهم، إلا أنها لا تتعدى الخلافات العائلية البسيطة.

كما يفرق القرآن بين الصالحين والطالحين من أتباع النبى محمد ﷺ فإنه أيضًا يفرق بينهم عند كلٍّ من اليهود والمسيحيين، وذلك لتبديد أى سوء فهم عن فكرة سمو المسلمين على غير المسلمين، (وهذا ينطبق على كل الطوائف الدينية أيضًا) قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

فى الواقع ربما تكون الخلافات الأسرية سيئة للغاية، ولكننا يجب أن نضع فى الاعتبار أن القرآن لم يوجه أى نقد لليهود أو المسيحيين لم يكونوا هم قد وجهوه لأنفسهم ولأعرافهم من قبل. ولا يستطيع أى مسلم أن ينكر أن هذه الأخطاء شائعة، وهى نواقص موجودة فى أية جماعة دينية، وموجودة أيضًا فى المجتمع الإسلامى.

فالقرآن - على سبيل المثال - ألقى اللوم على اليهود لتقاعسهم عن التمسك بالتوراة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، وكذلك لتقيدهم المفرط بالحرفية على حساب الجوهر والمغالاة فى سلطة بعض أحبارهم فى قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ

﴿ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

[آل عمران: ٥٠]

ولقصرهم عقيدة التوحيد عليهم فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

كما يؤكد القرآن فى التفريق بين الصالح والطالح من أمة محمد ﷺ فيما يلى:

﴿ الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ٩٧ - ١٠١]، وإذا كان هناك منافقون فى المدينة فى عهد رسول الله ﷺ، فلماذا نظن بأن هذا الواقع قد تغير؟ ولكن القرآن قد فرق بين هؤلاء المنافقين وبين الصالحين فى الآية التالية، وهى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩]

أما فيما يتعلق بالمسيحيين، فقد عاب القرآن عليهم تأليه المسيح عيسى عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم

بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ [التوبة : ٣٠]؛ وعقيدة التثليث والمغالاة فى أمور الدين فى قوله تعالى : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾ [النساء : ١٧١]؛ ويلوم القرآن المسيحيين أيضًا لعدم إظهارهم القيمة الكاملة للوحدانية، ولإحلالها أو خلطها مع رسالة أخرى. كما يؤكد القرآن أن المعرفة والوعى والتسليم بوحدانية الله هى التى تنجى، أى أن البشرية ستنجو بهذا الإيمان، وبالأعمال التى تعتمد على وجود هذا الإيمان والإخلاص فيه. ربما يقول المرء إن المسيحيين أقاموا عقيدة تعتمد على معجزة الله للخلاص التى تمثلت فى شخص المسيح وحده، وهى عقيدة لا يستطيع المرء أن يتقرب إلى الله فيها إلا من خلال المسيح.

ويختلف كلٌّ من الدين المسيحى والإسلامى عن اليهودية فى اعتقادها بأن الإنسان يجب أن ينحدر من نسل يعقوب لكى ينتمى إلى الله، وأن إتمام الأعمال المفروضة هو كل ما يطلبه منا الله. ولكن الإسلام والمسيحية أطاحا بحدود إسرائيل الإثنية. فالمسيحية أحلت مكانها فكرة إسرائيل الروحانية، وأعطت أسبقية لحب الله (أن نعبد الله بالروح والحقيقة) على جميع الأعمال المفروضة. ولكن المسيحية أكدت أن الخطيئة أفسدت الإنسانية، وأن المسيح وحده يستطيع إنقاذنا من هذه الحالة. أما الإسلام فإنه قائم على بديهية أن الإنسانية خلقت من روح إلهية، (وهى الحقيقة التى يوافق عليها كلٌّ من اليهود والمسيحيين)؛ ولذلك فهناك شيء موجود بداخلنا يشارك بدوره فى الحقيقة المطلقة - بدونه لا يصبح البشر آدميين - يجعل الخلاص ممكنًا بشرط أن تمتلك المعرفة اللازمة، وهذه المعرفة هى ما يزودنا به الوحى الإلهى (القرآن)؛ ولذلك، فعلى الرغم من احتياجنا إلى مبلغ بشرى للوحى، إلا أن هدف هذا المبلغ هو إيصال الأمور الأكثر أهمية فى الوحى الإلهى التى تشتمل على المعرفة التى تتعلق بالمحتوى الجوهرى غير القابل للتغير لعلاقة البشر بالله، الذى أصبح حقيقة واقعية من خلال القدرة التحولية للذكر ﴿فاذكروني أذكركم﴾، وهو الذكر المتبادل بين الله والبشر.

لكن القرآن ـ وبنفس القدر ـ أثنى على المسيحيين لتواضعهم وإيثارهم للغير، ولخوفهم من الله، وقد أعلن أنهم الأقرب للمسلمين لمشاعر الحب الدافئة التى يكنونها لجيرانهم فى قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النساء: ٨٢]؛ حقًا، لقد رفض القرآن ادعاءهم بأن نصوص الكتاب المقدس سجلات متكاملة للرسالة التى بلغها المسيح ﷺ، بيد أن القرآن ليس وحده فى هذا، حيث أقر علماء الكتاب المقدس واللاهوت نفس الرأى. ولقد تبنى نفس رأى القرآن أو على الأقل رأيًا قريبًا منه بعض الآباء الرسوليين خاصة فى نيقية وآباء ممن كانوا معها أو ضدها، وعدد غير محدود من علماء المسيحية.

ومع ذلك، فلم يوجه القرآن إدانة تامة لأى إنسان، حيث تقف الآيات التى تشتمل على النقد جنبًا إلى جنب مع الآيات الأخرى التى تظهر وتبين الصالحين، وكلٌّ منها يمتلك نفس المصدر الإلهى، ولكى نعبر عنها بلغة دارجة، نقول إننا قد ارتكبنا جميعًا ـ نحن المسلمين واليهود والمسيحيين ـ بعض الأخطاء فى فهمنا لله وممارستنا للطقوس الدينية، إلا أنه فى الأساس فإننا جميعًا على صواب طالما أننا جميعًا نؤمن بإله واحد، ونحاول أن نحب الله قدر الاستطاعة ونبذل قصارى جهدنا لنعامل البشر بصورة إنسانية. لن يرفض الله أحدًا وفقًا لما تدعيه، ولكننا جميعًا سنحاسب على شخصياتنا وطبيعة معتقداتنا وأفعالنا.

ولتلخيص ما سبق، فإن القرآن يعلم أتباعه أن يعاملوا البشرية كلها بطريقة طيبة، خاصة اليهود والمسيحيين الذين يشاركونهم أعرافًا دينية واحدة ترجع إلى إبراهيم ونوح، ومن قبلهم آدم عليهم الصلاة والسلام. ويقول القرآن إن تراث إبراهيم ﷺ السامى للدين، يمنح الحياة لمبدأ أن الله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذا أمر لأهل الدين جميعًا، وخاصة هؤلاء الذين يعملون فى قطاع حوار الأديان ـ لأن يعبدوا الله بشكل صحيح، وألا يقوموا عن عمد بتفريق المجتمعات إلى طوائف متخاصمة بسبب الدين.

وبالأخذ فى الاعتبار مواقف المسلمين السابقة تجاه اليهود والمسيحيين، وهى المواقف التى اتضحت تاريخيًا، لا يمكن ولا ينبغى أن تعتمد المواقف الأمريكية تجاه المسلمين الذين يشكلون تقريبًا ربع الجنس البشرى على آراء قلة من الأمريكيين أو على وسائل الإعلام محدودة المعرفة بالإسلام أو غير القائمة على تعاليم الوصية الثانية. فوسيلة الإعلام الأمريكية التى تضع المسلمين دائمًا على قدم المساواة مع المعادين للسياسة الأمريكية ومع الإرهابيين، وأن لهم أسلوب حياة يخالف أعمق القيم الأمريكية، تتسبب فى ضرر كبير لأمريكا. وهو نفس الضرر الذى تتسبب فيه وسيلة إعلام إسلامية تجعل أمريكا دائمًا معادلاً للقيم التى تعارض الإسلام بصورة جوهرية.

ستظل دعوة الله فى القرآن لليهود والمسيحيين باقية بقاء الدعوة الإسلامية، وهى دعوة سليمة مناسبة وذات صلة بظروف الحياة، وضرورية فى وقتنا الحاضر كما كانت عندما نزلت منذ أربعة عشر قرنًا خلت، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولن يجدى شىء أقل من ذلك فى هذا المقام، ألا وهو أن يعترف الأمريكيون ـ وخاصة اليهود والمسيحيين منهم ـ بأن المسلمين مجتمع دينى عالمى شرعى جدير بالمشاركة فى ملة إبراهيم التى تعتبر أساس إعلان الاستقلال الأمريكى، وجعل هذا المبدأ أساسًا للسياسة الأمريكية تجاه المسلمين فى العالم.

الفصــل الثــانـى

ما هى إيجابيات الإسلام؟

فى التجربة الإسلامية ونظرتها للعالم هناك الكثير من الحقائق القيمة التى تحتم على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعرف عليها وأن تضعها عين الاعتبار، كما أن هناك الكثير من الحقائق القيمة عن الولايات المتحدة الأمريكية التى سيستفيد بها العالم الإسلامى إذا تعرف عليها وقدرها وتبناها. ولإلقاء النظر على هذه الحقائق، فقد وضعت لهذا الفصل والذى يليه العنوانين التاليين: «ما هى إيجابيات الإسلام» و «ما هى إيجابيات أمريكا».

لم يعتبر محمد ﷺ الذى ولد فى العام ٥٧٠ م نفسه مؤسسًا لدين جديد، بل كان يعيد دين الله الأصلى - الذى بدأه إبراهيم ﷺ - على نحو يجعل استيعابه أكثر يسرًا لكل البشر. ولذلك فإن القيم التى دعا إليها النبى محمد ﷺ لم يكن مقررًا لها أن تكون جديدة، بل هى قيم أبدية سابقة الوجود تعبر عن حقائق خالدة.

كان لدى العرب مفهوم المروءة الذى يشمل مجمعًا من الصفات كالكرم والشجاعة والأمانة والوفاء بالعهد والقدرة على تصحيح الخطأ وحماية الضعيف، وغيرها من الصفات - وهو مفهوم يماثل التعبير الألمانى «menschlichkeit» وتعبير لهجة اليارين «sei a mensch» لهجة اليَديش. المروءة هى التى تجعل من المرء إنسانًا مهذبًا، ويرى المسلمون فى الرسول ﷺ المثال للإنسان الكامل.

تُوفى عبد الله، والد محمد ﷺ، قبل مولده، وتُوفيت أمه آمنة عندما كان فى السادسة من عمره؛ وعلى غير عادة العرب فى ذلك الوقت، كان محمد ﷺ طفلاً وحيداً أولاه جده عبد المطلب رعايته بحب وحنان حتى وافته منيته وهو بالكاد فى الثامنة من عمره، وبعد وفاة جده قام برعايته عمه أبو طالب الذى كان يعده فى مرتبة أبنائه.

وعندما أصبح فى الخامسة والعشرين من عمره، انجذبت إليه السيدة خديجة وهى أرملة ثرية فى الأربعين من عمرها وكان يعمل لديها، ونظراً لشخصيته التى تتميز بالأمانة وكفاءته فى إدارته لشئونها التجارية، فقد عرضت عليه الزواج، و قبل محمد ﷺ عرضها وعاشا حياة زوجية سعيدة استمرت طيلة خمسة وعشرين عامًا إلى أن تُوفيت خديجة فى نفس العام الذى تُوفى فيه عمه أبو طالب. كانت السيدة خديجه أولى زوجاته ﷺ وأنجبت له ستة أبناء، أربع بنات وولدين. ومات الولدان فى طفولتيهما.

وأصبحت صفات محمد ﷺ فى الصدق والتواضع والأمانة والسمعة الطيبة وحسن الخلق مضرب الأمثال حتى أصبح يلقب بالصادق الأمين، وكان كل من يريد السفر يودع أمواله وممتلكاته القيمة لديه ليحفظها له. ظهرت رجاحة عقله فى التحكيم من خلال القصة الساحرة التى حدثت عندما كان النبى ﷺ فى الخامسة والثلاثين من عمره، وكان يتم فى ذلك الوقت إعادة بناء الكعبة، فعندما بلغت عملية البناء مرحلة وضع الحجر الأسود (وهو الجزء المتبقى من الهيكل الأصلى، والذى يقع فى الركن الجنوبى الغربى) فى مكانه، نشب خلاف حاد بين قبائل مكة حيث طالبت كل قبيلة بأن تحصل على شرف وضع الحجر. فاحتكم الناس إلى النبى محمد ﷺ حتى يفصل فى هذا الخلاف، فطلب قطعة من القماش ووضع الحجر فى منتصفها، وطلب من ممثل كل قبيلة أن يمسك طرف القماش، ثم قاموا بحمله معًا ووضعوه فى مكانه، وهكذا تشاركت كل القبائل فى شرف حمل الحجر الأسود.

وإذ أزعجته وثنية قومه، كان محمد ﷺ يعتزل مجتمع مكة ليتأمل، متردداً على غار خارج مكة (وكان قد أتم الأربعين من عمره فى ذلك الوقت)، وكان يقضى هناك أوقاتا طويلة كانت تصل إلى عدة أسابيع فى المرة. وقد نزل عليه جبريل رئيس الملائكة

أثناء اعتكافه فى الغار وضمه ثلاث مرات وهو يقول له فى كل مرة: «اقرأ»، فكان النبى ﷺ يجيب وهو خائف ومتحير فى كل مرة قائلاً: «ما أنا بقارئ»، فعندئذ تلا عليه جبريل أولى آيات نزلت فى القرآن: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]؛ وهذا الحدث يجعلنا نستحضر بشارة جبريل رئيس الملائكة لمريم بالمسيح ﷺ؛ وألقى جبريل بالقرآن فى قلب محمد ﷺ تمامًا كما نفخ روح المسيح فى رحم مريم؛ فقد كانت مريم عذراء وكان محمد ﷺ أميًا، وقد أبلغ جبريل محمداً ﷺ، عندما نزل عليه مرة لاحقة أنه سيكون نبيًا ورسولاً من الله لقومه.

وبعد أن شعر بالخوف على سلامة عقله، هرع محمد ﷺ إلى منزله عند السيدة خديجه وهو يرتجف ويصيح: «دثرونى! دثرونى!»، فطمأنته السيدة خديجه وكلها ثقة فى أصالة شخصه ورجاحة عقله، ولكى تزيد من اطمئنانه، اصطحبته معها إلى ورقه بن نوفل، ابن عمها لاستشارته، وكان ورقة قد تنصر، وكان على دراية جيدة بالتوراة والإنجيل، فلما أخبره محمد ﷺ بما قصته له، قال له: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن»، ثم تنهد وقال: «ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه»[1].

كانت السيدة خديجة أول من آمن بدعوة محمد ﷺ للإيمان بإله واحد، وكانت سنداً له وملاذاً لراحته ومعينًا له فى كل المحن حتى موتها، وقد آمن بعدها كلٌ من على، ابن عم النبى ﷺ (كان فى العاشرة من عمره حينها)، وأبى بكر الصديق، صديقه الحميم.

ولخوفهم من غضب أهل مكة، مارس المسلمون الأوائل دينهم الجديد فى الخفاء لمدة ثلاث سنوات، بينما كان الإسلام ينتشر بهدوء بين سكانها، إلى أن نزل الأمر الإلهى للرسول بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٥].

اعتبر كفار مكة أن هذا الدين الجديد يمثل تهديداً لأسلوب حياتهم واقتصادهم الذى كان يقوم بالأساس على رحلة الحج السنوية لمكة، فحاولوا إثناء الرسول ﷺ عن هذا

الدين فعرضوا عليه أى شىء يريده ـ أموالاً أونساء، حتى أنهم عرضوا عليه السيادة عليهم ـ إذا كف عن الاستمرار فى دعوته، فأجابهم ﷺ بقوله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وبعد ثلاثة عشر عامًا من إيذائهم للنبى ﷺ حاول أهل مكة أن يقتلوه، فهاجر ﷺ هو وأتباعه إلى يثرب، وهى مدينه على بعد مائتى ميل شمال مكة، وقد أطلق عليها فيما بعد (مدينة النبى أو المدينة). واستمرت الحروب مع مكة لمدة عشر سنوات أخرى إلى أن عاد إليها النبى ﷺ فى النهاية منتصراً. وخاطب أعداءه السابقين يوم دخوله مكة قائلاً: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ وبذلك كسبهم بكرم أخلاقه.

عمل الرسول جاهداً للقضاء على التمييز القائم على الطبقة الاجتماعية أو نوع الجنس أو الحالة الاقتصادية، وقد جذبت دعوة الإسلام إلى المساواة والصلاح والحرية الكثير من أفقر فقراء مكة. ولقد نادى الرسول ﷺ بقوة بتحرير العبيد، فبلال الذى كان عبداً حبشيّا (جرى عتقه) كان من أصحاب الرسول ﷺ وكان أول مؤذن فى الإسلام؛ كما حدد رسول الله ﷺ مقدار ورع المرء بمقدار حُسن معاملة المرأة، حيث قال: «خيركم خيركم لأهله».

وحيث إنه لا يمتلك المسلمون صوراً تجسد النبى محمداً ﷺ، فإنهم يفضلون وصفه من خلال الوصف التقليدى الوارد عن على بن أبى طالب له ﷺ فى «الحلية»:

«لم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط، كان جعداً رجلا، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان أبيض مشربًا، أدعج العينين أهدب الأشفار، جليل مشاش الكتد، دقيق المسربة، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبيين، أجود الناس كفّا، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ».
صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله(٢).

ولأنه ﷺ أثرى حياة قومه إلى حد بعيد، كانت لوفاته وقع شديد عليهم فلم يحتملوا سماع خبر وفاته ﷺ؛ وعند سماع الخبر، ذهب أبو بكر - الخليفة الأول - إلى المسجد وخطب فى الناس قائلا: «أيها الناس من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ وبهذه الكلمات أغلق أبو بكر الباب تمامًا أمام المسلمين من أن يعبدوا النبى ﷺ، إلا أنهم يتخذونه قدوة ويلتزمون بسنته.

النبى كقدوة

يرى المسلمون أن النبى ﷺ، يلخص ويوجز كل الرسالات التى أتى بها الأنبياء السابقون، تمامًا مثلما تلخص خاتمة الكتاب الموضوعات التى تناولها الكتاب كله؛ فقد أوضح وتبين عقيدة التسليم المطلق وتوحيد الله التى دعا لها إبراهيم ﷺ، كما كانت لديه القدرة على تفسير الأحلام التى تميز بها يوسف، وروح (الملك المحارب التى منحها الله لداود، وحكمة سليمان، وشرائع موسى، وروحانية عيسى صلى الله عليهم جميعًا وسلم؛ وتحمل الابتلاء وصبر خلال فترة انقطاع الوحى المؤقت مثل أيوب ﷺ. لقد اجتاز النبى ﷺ الطريق الذى يسلكه كل الباحثين عن الله والذى يبدأ من الجهل بوجود الخالق إلى أن يصل إلى مرحلة التنوير واكتشاف وجوده، وهو طريق يرتاده كل الباحثين عن الروح. كان محمد ﷺ نبيًا وهاديًا روحانيًا، كان رئيسًا للدولة وزعيمًا للقوم، كان قاضيًا أعلى وحكمًا فى الخلافات، كان مصلحًا اجتماعيًا، كان ربًا للأسرة وزوجًا وأبًا محبًا؛ لذلك يرى المسلمون فى رسول الله ﷺ عند قيامه بكل الأدوار السابقة القدوة والمثال الذى يجب أن يحتذى به كل رجل و امرأة عند قيامهم بهذه الأدوار فى حياتهم الشخصية بأسلوب يتوافق مع الإرادة الإلهية؛ لقد كان محمد ﷺ هو الإنسان الكامل الذى خاض رحلة الوصول إلى أقصى مراحل التطور الإنسانى، ولذلك فهو يستطيع إرشاد الإنسانية إلى كيفية خوض تلك المراحل.

ولأنه يتعين على المسلمين أن يتبعوا سنة النبى ﷺ، فقد وضع المعلمون الروحانيون المسلمون عدة صفات للنفس تتحلى بها الروح البشرية فى طريقها للوصول

إلى الكمال. ومن المفيد عدم الاعتقاد بأن هذه الصفات للنفس تمثل تسلسلاً مستقيمًا تضيع فيها المراحل السابقة عند الوصول لمرحلة جديدة، لكنها طبقات تضاف إلى شخصية الفرد، وهذه الصفات هى:

١ ـ **النفس الأمارة:** وهى النفس الضالة المفرطة الدنيا، التى توسوس لنا بارتكاب المعاصى.

٢ـ **النفس اللوامة:** وهى التى تدرك أخطاءها وتلوم نفسها على الأخطاء التى ترتكبها وتسعى إلى إصلاحها. وبإمكاننا أن نطلق عليها ضميرنا الإنسانى، وهى التى تساعد على صد الوساوس السيئة التى تبعثها النفس الدنيا.

٣ـ **النفس الملهَمة:** وهى التى تميز الإلهام المرسل إليها من الله، وتنسبها له، ثم تستجيب. وبهذا يصبح المرء أداة واعية للأفعال الإلهية على الأرض.

٤ـ **النفس المطمئنة:** وهى التى حققت الرضا التام والمتبادل مع الله؛ فأصبحت راضية مرضية ويُنادى الله على هذه النفس يوم القيامة: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: ٢٧ـ٣٠].

٥ـ **النفس الكاملة:** عند هذه الدرجة من التطور الروحى تصبح النفس شديدة الشفافية بالنسبة لإرادة الله وخاضعة لها خضوعًا كاملاً. فهى تحب الله والله يحبها، وقد وصف حديث للرسول إحدى علامات هذا الحب فى قوله فيما يرويه عن رب العزة سبحانه: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه**[٣]».

ولكن كيف يبلغ المرء هذه الدرجات المتعددة؟ كيف يتمكن المرء من «اقتفاء أثر النبى ﷺ» حتى يصل إلى درجة الإنسان الكامل؟ لقد سعى معاصرو النبى ﷺ إلى تحقيق هذا عن طريق مصاحبته (أصحاب النبى ﷺ) مما جعلهم يكتسبون منه طاقة روحانية خاصة جعلت حب الله يشع من قلوبهم. إن الإسلام بأكمله هو فى الواقع السعى لاتباع سنة الرسول ـ أى أن نصبح من صحابة الرسول لكى ننشر الوجود الإلهى فى الكون، مثلما كان يفعل ﷺ.

وليحذو حذوه، يستطيع هؤلاء الذين لم يعيشوا فى زمن ومكان الرسول مصاحبته باتباع الرسالة التى جاء بها للبشرية كلها. ولأنها آخر نسخة لرسالة إبراهيم فإن رسالة محمد ﷺ تخبر الإنسانية بوجود الله، وذلك من خلال الرؤية الإلهية للدين الحق ﷺ.

رسالة محمد ﷺ: التقرب إلى الله

تبدأ رسالة النبى محمد ﷺ بوصفه بسيطة، فهى تتحدث عما يشكل العمل الصحيح والمعرفة الصحيحة والفضيلة الصحيحة، أى الإسلام والإيمان والإحسان؛ حيث يشير **الإسلام**، أى الخضوع لله، إلى الجهد الذى نبذله فى مجموعة من الشعائر الدينية الصحيحة، بينما يشير الإيمان إلى الاعتقاد الصحيح فى وجود الله، أما **الإحسان** فهو الحياة وفقًا لأسلوب مدرك لله، وهو ما يطلق عليه البوذيون اليقظة؛ وهى تجمع بين حالتين: حب الله من صميم قلوبنا، وانشراح النفس نحو التقرب من الله.

ولذلك فإن الرسالة المحمدية تخاطب جميع الأجزاء المتميزة للنفس البشرية:

١ ـ **الإسلام**، اختيار طاعة الله بحريه مطلقة (الإرادة).

٢ ـ **الإيمان**، السعى لمعرفة الحقيقة الإلهية عن طريق العقل (التفكر).

٣ ـ **الإحسان**، حب الله دون سواه (القلب) وتوق النفس للاتحاد مع الله (الروح).

إن الإسلام ليس عبادة موسى أو عيسى أو محمد ﷺ، أو عبادة التعاليم التى بُعث كلٌ منهم ليدعو إليها، بل إنه يدور حول استخدام كلٍ من هذه التعاليم وأى تعاليم أصلية أخرى أنزلها الله للبشرية، لعبادة الله فى خشوع و التقرب منه سبحانه وتعالى.

وهناك حديث مشهور للنبى، يروى أنه ﷺ كان يجلس يومًا بين أصحابه فدخل عليهم غريب ـ عُرف فيما بعد بأنه جبريل ـ جلس أمام الرسول مباشرة وسأله عدة أسئلة، وفى البدء سأل وقال: يا محمد أخبرنى ما الإسلام؟ ورد الرسول بما أصبح يعرف بعدئذ بأركان الإسلام الخمسة قائلاً: **الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان**، قال: **إذا فعلت ذلك فقد أسلمت**، ولدهشة من كانوا يراقبون المشهد، قال السائل المجهول: نعم، قال صدقت،

فلما سمعنا قول الرجل «صدقت» أنكرنا. قال يا محمد أخبرنى ما الإيمان؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته والكتاب والنبيين وتؤمن باليوم الآخر. قال فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال نعم، قال صدقت. قال يا محمد أخبرنى ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٤]...

يرى المسلمون أن هذا الحديث يوضح مسار التطور الدينى، والتى تبدأ من مجرد ملاحظة خارجية للتدين، ثم تتحوَل إلى تعبير داخلى عن الإيمان إلى حالة من التقرب من الله. وحتى فيما بين المتدينين لا تنزع كل الأرواح إلى التقرب من الله، ليس أكثر من أولئك الذين يظهرون ميلاً لأن يصبحوا خبراء فى الطب؛ أما فيما بين أولئك الذين يتوقون إلى التقرب من الله، فإن قليلين منهم هم الذين يستطيعون ضبط النفس والجدّ فى العمل المطلوبين لتحقيق ذلك، تمامًا مثلما أن القليلين ممن يرغبون فى أن يصبحوا أطباء على استعداد لبذل الجهد المطلوب لتحقيق ذلك

رسالة محمد ﷺ

الجزء الأول: افعل الصواب

إن أفضل ما قام به المسلمون ـ وما زالوا ـ هو تنفيذهم للوصية الأولى من خلال تأديتهم لعباداتهم والتى تعرف بالأركان الخمسة. إن الشريعة الإسلامية تطلق على هذا الجانب البعد الرأسى من العقيدة (وهو العلاقة بين الخالق ـ الخلق) لفظ العبادات التى تتضمن مجموعة معتقدات واجبة وشعائر العبادة التى تساعد النفس البشرية الساعية للحقيقة على اكتشاف الوجود الإلهى بمفردها وتُعلمها كيف تعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظمه.

الجهد الصحيح: أركان الإسلام الخمسة

يتكون الإسلام من الأركان الخمسة المعروفة، وهى الواجبات التى يجب أن يقوم بها كل إنسان مطيع يؤمن بالله، والتى يطلق عليها علماء الفقه «العمل الصالح» وهى ممارسات الشعائر التى يجب على الفرد القيام بها كى يصبح ملتزمًا بالدين[٥].

وقد علمنا رسول الله ﷺ الأركان الخمسة على النحو التالى:

١ ـ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله : هذه هى الشهادة التى يؤدى النطق بها إلى دخول الفرد فى دين الإسلام وفى أمته ، وهى تشبه «عهد الولاء» الذى يقدمه أى مهاجر جديد للولايات المتحدة ؛ وقد أكد الرسول ﷺ بقوة على أن من ينطق بالشهادة يأمن على نفسه وماله ، ولا يحل لغيره من المسلمين إيذاؤه .

والقصة التى تجسد هذه التعاليم وقعت أحداثها فى فترة الخلاف بين الرسول ـ الذى انتقل إلى المدينة ـ وأهل مكة ، الذين نبذوه وحاولوا قتله ، حيث التقت فرقة استطلاع إسلامية بأخرى غير مسلمة ، نشب على إثر ذلك قتال بينهما ، انتهى بانتصار المسلمين ، فقام أحد الناجين المتبقين من أهل مكة بالركوع على ركبتيه ونطق بالشهادة ، ولكن قتله أحد الصحابة ، وعندما عادوا وسمع الرسول ﷺ بما حدث سأله عن سبب قتله فأجاب الرجل بأنه نطق بالشهادة فقط لكى ينقذ نفسه من الموت وليس عن صدق إيمان ، فسأله الرسول : «هلا شققت عن صدره لتعلم صدق إيمانه ؟» وظل الرسول ﷺ يكرر عليه السؤال بشده حتى شعر الصحابى بندم شديد .

دائما ما أنصح تلاميذى من غير المسلمين بأن يتعودوا نطق «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ، فهى مناسبة عند زيارتهم لأى بلد إسلامى ، خاصة البلاد التى تتحدث العربية ، حيث يمكنك أن تستخدم «لا إله إلا الله» لإنهاء أى مقايضة فى السوق لصالحك ، أو لوقف مجادلة وتهدئة النفوس ، أو للتعبير عن مواساتك ، كما أن باستطاعتك أيضًا أن تنطق بها بعد زفرة للتعبير عن إحساس اليأس .

عند نطقهم بالشهادة لا يسلم المسلمون بوحدانية الله فقط ، بل إنهم أيضًا يعترفون ضمنيًا بجميع الرسل المعروفة أسماؤهم مثل إبراهيم وموسى وعيسى ، وأيضًا غير المعروفة أسماؤهم بالنسبة لنا . كما أن فى الشهادة استجابة بشرية للبلاغ الإلهى فى اليهودية الموجه لكل البشرية : «إن الله يأمر البشر جميعًا أن ينتبهوا إلى حقيقة أن الله واحد ، فيجيبوا بدورهم : لا إله إلا أنت» .

إن ترديد «لا إله إلا الله» فى تضرع لها نتائجها الإيجابية ، خاصة عندما يتم ذلك بشكل جماعى . فذلك يجعل الناس يشعرون بالنشوة والطمأنينة والسكينة وتجدد النشاط ، وتساعد البعض على جعل الحجاب بينهم وبين الله أكثر شفافية . وهى من

الأذكار الرئيسية للطرق الصوفية، التى ترددها بصورة جماعية أسبوعيًا، مائة مرة أو أكثر ـ و بمفردهم يوميًا؛ إلى عشرات الآلاف من المرات. إن كلمة «إله» تماثل الكلمة العبرية «el» أو «eloh» والتى تعنى الله، ولفظة «الله» هى اختصار «ألا له» أو «الله»، وطبقًا للعهد الجديد، كانت كلمات المسيح على الصليب: «ألوى، ألوى، لما شبقتنى؟» (إنجيل مرقس ١٥ : ٣٣، إنجيل متى ٢٧ : ٤٦)، تنطق بالعربية كالتالى: «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟.»

٢ ـ **الصلاة**: تعظيم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من خلال أداء الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فى اتجاه الكعبة فى مكة؛ ومواقيت الصلاة تتوافق مع الساعة الكونية؛ مع الفجر، والظهر، وبعد الظهر «العصر»، والغروب «المغرب» وعندما يزول الشفق من السماء فى الليل «العشاء»، وتتكون من مجموعة من الحركات الإيقاعية؛ القيام، ثم الركوع، ثم الرجوع إلى القيام، ثم السجود، والوجه للأرض، ثم الجلوس، ثم السجود مرة أخرى، وهكذا تتم ركعة واحدة، وبعد إتمام ركعتين يقرأ المرء التشهد أثناء الجلوس. وتبدأ الصلاة بالتكبير، ثم قراءة الفاتحة، وهى أول سورة فى القرآن: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٧]، آمين، ثم قراءة سورة قصيرة أو أى آية من القرآن.

وفى الركوع يقول المرء «سبحان ربى العظيم»، ثم يرفع من الركوع للقيام ويقول «سمع الله لمن حمده»، ويسجد مرتين فى كل مرة يردد «سبحان ربى الأعلى». ويجب أن يكون الإنسان طاهرًا عند تأدية الصلاة، وتتحقق هذه الطهارة بالوضوء (غسل الوجه واليدين حتى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل أو مسح القدمين)، وفى حالة عدم وجود الماء يمكن التيمم، وذلك عن طريق لمس تراب أو رمل جاف ثم مسح الوجه واليدين به.

وقد تحددت الطريقة التى تؤدى بها الصلاة فى رحلة الرسول، إلى الحضرة الإلهية، حيث اطلع ﷺ على آيات الله: ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [النجم: ١٨].

وقد رأى النبى ﷺ طوال الرحلة أعداداً كبيرة من الملائكة يقفون صفوفًا ويسبحون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصورة دائمة بأوضاع مختلفة، ولأنه ﷺ رأى أن هذه المشاهد تبدو مؤثرة بقوة (تمامًا كما يشعر غير المسلمين عندما يشاهدون جموع المصلين تتحرك كجسد واحد)، ثم دمجت هذه الأوضاع لتصبح هى حركات الصلاة التى نعرفها. ومن معراج الرسول ﷺ ونزول الصلاة فى هذه الليلة، شاع القول بين المسلمين بأن «الصلاة معراج المؤمن».

يتضمن التشهد الذى يقرأ فى الجلسة الأخيرة الصلاة على محمد ﷺ وآله (التى تعنى وفقًا لبعض التفسيرات كل أتباع محمد ﷺ وعلى إبراهيم وآله)، وذريته (آل إبراهيم تمثل حسب أحد التفسيرات التضرع لكل اليهود والنصارى والمسلمين) وكل الصالحين من البشر (الصالحين فى كل الأديان)، وتختتم بالسلام على الملائكة حيث يؤمن المسلمون أنهم يجلسون على الكتفين الأيمن والأيسر لكل إنسان يسجلون أعماله اليومية. تعكس الصلاة لغة جسدية موحدة تدعو إلى الاحترام. فالناس كانوا فى المجتمعات القديمة، وحتى وقت قريب فى اليابان، يسجدون احترامًا لسادتهم ورؤسائهم، وحتى الآن يقوم الناس فى اليابان بالانحناء أمام بعضهم البعض للدلالة على الاحترام، ويقوم الشخص الذى ينتمى لطبقة اجتماعية أقل بالانحناء بدرجة أكبر أمام الشخص الذى يعلوه فى الطبقة الاجتماعية؛ والألفاظ الواردة بالتشهد بسيطة، حتى أن أى يهودى أو مسيحى أو أى شخص يؤمن بالله يستطيع ترديدها بدون أن يتعارض ذلك مع مبادئ عقيدته.

أينما ذهب المرء فى أى مكان فى العالم الإسلامى، من إندونيسيا إلى السنغال، يستطيع المسلم أن يدخل إلى المسجد ويقف ملتصق الكتف بجوار أى مسلم ليؤديا آخر الصلاة بنفس اللغة ونفس الحركات، وقد يحمل الشخص المجاور لك فى الصلاة آراء مختلفة فيما يتعلق بماهية الدولة الإسلامية، وربما يكون منتميًا إلى مدرسة فقهية مختلفة، وربما يرى أن الحرب على العراق صائبة أو خاطئة، وربما يكون جمهوريًا أو ديمقراطيًا، سنيًا أو شيعيًا، إلا أن المسلمين فى النهاية يصلون كجسد واحد. فكما يعتقد المسيحيون أنهم يتحدون فى جسد المسيح، فإن المسلمين يتحدون فى تأديتهم لعباداتهم؛ لأن الصلوات الخمس هى عمل يقوى أواصر العلاقة بين المسلمين.

٣ ـ **الزكاة**: وهى أن يخرج المرء من أمواله ما لا يقل عن ٥ , ٢ فى المائة سنويًا إذا بلغت النصاب، بقصد تطهير هذه الأموال وتحويل العمل إلى عبادة؛ وتختلف الزكاة تبعًا لطبيعة العمل الذى يزاوله الفرد ويحصل منه على الدخل، فالدخل الذى يأتى من التعدين (مثل النفط والألماس) تقدر نسبة الزكاة عنه بـ٢٠ فى المائة، والهدف من ذلك بصفة خاصة هو مساعدة الفقراء وتوفير حد أدنى من مستوى المعيشة لهم، كما يمكن أيضًا إنفاقها فى تحقيق أغراض أخرى تنفع الرفاهية العامة.

لقد جعل الإسلام الزكاة واجبًا دينيًا؛ ولذلك يرى الكثيرون أن ذلك يربط بين الإسلام والدولة. ويرى بعض العلماء أن الدخل والضرائب الأخرى التى تفرض حاليًا على المسلمين تفى بشرط الزكاة؛ وذلك أن نسبة الضرائب المفروضة فى وقتنا الحاضر ليست فقط أكثر من الـ ٥ , ٢ فى المائة، بل إن المسلمين فى الولايات المتحدة يدفعون نسبه تزيد على ٣٠ فى المائة؛ لذلك فهم يطالبون بتخفيض هذه النسبة، يرفض علماء آخرون هذا المبدأ ويطالبون بأن تكون الزكاة فرضًا دينيًا منفصلاً ويُدفع تبعًا للنسبة التى حددها الشرع، وهو رأى صحيح إذا كان الفرد يؤمن بفكرة انفصال الدين عن الدولة.

٤ ـ **الصيام**: وهو الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين والنشاط الجنسى من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طوال شهر رمضان (الشهر التاسع فى التقويم الهجرى)، فكما يصوم المسيحيون لمدة أربعين يومًا، وهو ما يسمى «الصيام الكبير»، يصوم المسلمون شهر رمضان، ورمضان ميقات زمنى معلوم، كما أن المسجد والكنيسة والمعبد مواقيت مكانية معلومة؛ ولذلك فالاحترام الذى نوليه لدور العبادة يجب أن نوليه أيضًا لشهر رمضان، فهو شهر للتدبر وتطهير النفس والابتعاد عن صخب الحياة الدنيوية إلى وقت التأمل الأكثر عمقًا، لا يحل لنا أن ندخل دارًا للعبادة بغرض النميمة أو ارتكاب المنكرات، أو لقراءة مجلة «بيبيول»، رغم أنى على ثقة من أن هناك من يفعل ذلك؛ والصيام دون الامتناع عن المنكر، مثل النميمة واللغو فى الحديث، يكون غير مجد، فقد أخبر الرسول ﷺ أن من صام دون أن يحفظ لسانه ويمتنع عن فعل المنكر، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وقد ذكر ﷺ ذات مرة أن سكوت الصائم تسبيح لله ونومه عبادة.

إن الهدف الأساسى من صوم شهر رمضان هو الوصول إلى تقوى الله، فهو ليس عقابًا، بل تدريبًا يعجل بالتقدم الروحى لدى الإنسان؛ وهذا التدريب يعلمك سريعًا أن لك روحًا، فبعد عدة أيام من الصيام يبدأ نشاط النظام الجسمانى يهدأ، وتنفصل الـ «أنا» عن جسدك ومشاعرك لتعلو عليها، فالإحساس بالجوع لا يصبح «أنا جائع» بل «إن جسدى جائع»، أى كأنك تشاهد كلبك المدلل وهو جائع أو حين يحاول أن يجذب انتباهك فى موعد طعامه. وإذا أثار أحد غضبك فإنك تشعر كأنه استثار كيانك العاطفى، وتلاحظ وجود فاصل زمنى بين الفعل المثير والرد عليه، تفكر خلاله فى رد فعلك الانعكاسى وما إذا كنت ترغب فى رد الفعل هذا أم لا. وبالتالى، فإن الصيام يساعدك على معرفة مختلف مكونات كيانك (الجسد والعاطفة والعقل و «الأنا» جوهر الروح)، وستلاحظ اشتداد عزيمتك عند نهاية الشهر وقدرتك على أداء أشياء أكبر مما كنت تظن، وستصبح أقل تأثرًا بأعراض «لا أستطيع التحكم فى نفسى»، والمأمول أن هذا يساعدك على تحقيق المزيد من التقدم فى رحلتك الروحانية.

٥ ـ **الحج**: وهو مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلاً ماديًا وجسديًا؛ والحج هو السفر إلى مكة قبل التاسع من ذى الحجة (الشهر الثانى عشر فى التقويم الهجرى)، يوم الوقوف بعرفات، ويستغرق الوصول إليه من مكة عشرين دقيقة بالسيارة عندما يقل الزحام، ويستغرق ساعتين بالسيارة عندما يسدّ مليونا حاج الطريق إليه. وإذا شهدت هذا اليوم فقد تمت حجتك، وإذا لم تشهده فقد ضاع عليك الحج هذا العام؛ ويفضل معظم الحجيج الوصول إلى مكة فى اليوم السادس من الشهر على الأكثر، ثم يقضون ثلاثة أيام فى منى (إحدى ضواحى مكة) قبل أن يستكملوا الصعود إلى عرفات؛ يرتدى الرجال إزارين من القطن غير المخيط، أحدهما حول الخصر والآخر حول الكتف، وذلك تأكيدًا لمبدأ المساواة بين الناس أمام الله. أما الحاجات من النساء فيرتدين ملابسهن كاملة ويكشفن عن وجوههن وأيديهن فقط. ويتم تأدية العديد من الشعائر خلال هذه الأيام، ويكون أكثرها إثارة الطواف سبع مرات حول الكعبة التى أسسها إبراهيم وابنه إسماعيل صلى الله عليهما وسلم.

وقد بدأ إبراهيم هذا الحج السنوى، عندما أمره الله ببناء الكعبة، أول بيت بنى لعبادة الله الواحد كما ورد ﷺ فى سورتى (البقرة: ١٢٥ـ١٢٧ والحج: ٢٦ ـ ٣٣)، فقد

أمر الله إبراهيم بقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧]؛ إن شعيرة الحج السنوية هذه فى وقتنا الحاضر تجذب أكثر من مليونى حاج يأتون من شتى أنحاء العالم، وهو تكرار لبعض الشعائر التى كان يؤديها إبراهيم عليه السلام ؛ فاستعداده التضحية بولده يتم استحضارها بتقديم هدى عادة ما يكون من الخراف، كذلك هرولة هاجر بين الصفا والمروة قرب الكعبة يتم استحضارها عندما يهرول الحجيج أيضًا بينهما سبع مرات عقب الطواف بالكعبة، والجلوس أمام الكعبة والنظر إليها هو تجربة تجعل المرء يشعر بالسكينة.

إن الحج هو زيارة لبيت الله، يعود الحاج بعده وقد تغير، وجزء من سبب هذا التغير هو أن الذهاب للحج أكثر من مجرد قرار شخصى، ذلك أن تجربة الذهاب إلى الحج على عكس شعائر العبادة الأربع السابقة ـ ربما مع استثناء الشهادة ـ تجعل المسلم يشعر بأنه مدعو من قبل الله، فعلى الرغم من أنك قد تتخذ قرار الحج مع اقتراب موعده، إلا أنك تجد نفسك داخل دوامة من الأعمال التى تحملك فى الرحلة إلى مكة فى موعد الحج؛ فتزول العوائق المادية، ويتم تأدية الالتزامات العائلية والمهنية، وتُرفع موانع الحصول على تأشيرة السفر، أى أن الحاج يشهد سلسلة من المعجزات الصغيرة التى تمكنه من القيام بالرحلة، وللغرابة قد لا تبدو الرحلة شاقة، إلا أن الحاج ما إن يصل إلى مكة فإن الجغرافيا المقفرة للمشهد الصحراوى والطبيعة الشاقة للرحلة، كلها تجعل الحاج يدرك أن رحلة الحج ليست لمتعة وراحة الجسد؛ أى ليست نزهة ترفيهية. إن المرء إذا تخيل مدى قوة الوحى الإلهى الذى أنزل على النبى ﷺ فى مكة والمدينة، مثلما حدث مع موسى عليه السلام فى سيناء، فسيشعر بفطرته أن الأرض، دون ذكر ما عليها من نباتات وحيوانات، لن تحتمل القوه الخارقة لهذا الوحى؛ فالحاج يقوم بهذه الرحلة فى سبيل مرضاة الله، لا ريب فى ذلك، وهذا ما يشغل فكره طوال الرحلة.

لقد كان الحج، ولقرون عديدة، هو المؤتمر الإسلامى السنوى قبل أن تصبح المؤتمرات السنوية الحالية هى العادة. ففيه يتعارف الناس من شتى أنحاء العالم ويتعلمون من بعضهم البعض، ويتبادلون الأفكار والمنتجات. فحتى وقت قريب، ربما كان الحاج يشترى أثناء رحلته سجادة عجمية من أحد الحجاج الإيرانيين، أو بخوراً من أحد الحجاج العمانيين، إلا أن العولمة فى وقتنا الحاضر قد أدت إلى تغير الأوضاع :

فجميع سجاد الصلاة والسبح والساعات التى تنبه لمواقيت الصلاة وحتى السجاد العجمى يتم إنتاجه فى الصين .

وفى أداء الحج يقترب الحجاج من الكعبة ، المكان الذى بدأ فيه إبراهيم ﷺ شعائر عبادة الله الواحد ، وهى القبلة التى يستقبلها المسلمون خمس مرات يوميًا فى صلواتهم ، وفى كل صلاة يصلّون على النبى ﷺ : «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» ؛ فالمسلم الذى لا يصلى سوى الصلوات الخمس المفروضة ، يذكر اسم إبراهيم ﷺ أربع مرات فى كل فرض ، أى عشرين مرة فى اليوم الواحد ، وإذا أضفنا صلاة السنن سنجد أن المسلم يذكر اسم إبراهيم ﷺ ما قد يزيد على أربعين مرة فى اليوم الواحد . وبذلك نجد أن شعائر الصلاة والحج يؤكدان على أن الإسلام هو دين إبراهيم ﷺ .

رسالة محمد ﷺ

الجزء الثانى: البحث عن الحقيقة الإلهية بالعقل

يتجسد الإيمان بالله فيما نطلق عليه جوهر الدين أو العقيدة ؛ وهو ما يطلق عليه علماء الفقه «الدين القيم» ، وهو مجموعة المعتقدات التى يجب أن تؤمن بها إن أردت أن تكون من أتباع هذا الدين .

الإيمان الصحيح: أركان الإيمان الخمسة

علمنا رسول الله ﷺ أن الإيمان الصحيح يتكون من الأركان الخمسة التالية :

١ ـ **الإيمان الراسخ بالله وحده لا شريك له ولا مثيل :** على الرغم من أن ذات الله غير معلومة للبشر ، إلا أنه ﷺ قد وصف ذاته بتسع وتسعين اسمًا «أسماء الله الحسنى» ، ومن بين هذه الأسماء التى أمر المسلمون باستخدامها عند ذكرهم لله : الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، القادر ، المقتدر ، السميع ، البصير ، العليم ، اللطيف ، الرءوف ، الودود ، الكريم ، الغفور ، المجيد ، مالك يوم الدين ، المنتقم . إنها «أسماء الله الحسنى» التى تصف علاقة الله بالبشر وسائر الخلق .

وجوهر ذلك هو أن علينا أن نقدر الله تقديراً خاصًا، فتصور الله بصورة خاطئة أو الافتراء عليه يعد إثمًا، فالقول بأن الله ضعيف، أو أنه غير قادر على فعل هذا الشيء أو ذاك، يعتبر بالنسبة للمسلمين تدنيسًا شديداً للإيمان، فالله كامل مطلق، ولأنه هو الخالق والمبدئ والحافظ للكون، فهو يحفظ كل الكائنات؛ وما لا يحفظه الله لا يمكن أن يستمر فى الوجود، فقواعد الطبيعة ما هى إلا مجموعة السبل التى وضعها الله لعمل العالم المادى. سلسلة المسببات التى تدير العالم وتعمل فى الكون متناهية فى الزمان والمكان؛ فالله حى قيوم، وهو مسبب الأسباب. فهو يعمل ولا يُعمل به، يرى ولا يُرى، يسبب الحركة ولا يتحرك، يخلق الزمان والمكان ولا يحكمه زمان أو مكان، وعلى الرغم من ذلك فيمكن إدراكه ومعرفته.

عادة ما يشعر المرء بالدهشة عندما نتعرف على زميل لنا فى العمل وبعد بعض الوقت يدعونا إلى بيته ليعرفنا بعائلته، حيث نلاحظ شخصًا مختلفًا فى التعامل مع زوجته وأولاده، مما يدفعنا للتساؤل عما إذا كان هذا هو نفس الشخص الذى عملنا معه طوال هذه السنوات؛ وهذا هو ما يحدث أيضًا للإنسان عندما يتعرض لاسم من أسماء الله الحسنى، مثل الرءوف وآخر مثل المنتقم، حيث يصعب على النفس البشرية أن تدرك أن هذين اسمين لإله واحد. وكثير من الناس يرفضون إدراك هذه الحقيقة، ويظنون أنهم يتعاملون مع إله مختلف، وهناك حديث شريف يتضمن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيعرض كل أسمائه على الناس يوم القيامة، فيستجيب كلٌّ منهم لما أدركه وآمن به فى حياته الدنيا، ولا يستجيب للأسماء التى لم يسلم بها فى الحياة الدنيا، وأحسنهم فى هذا اليوم هو من آمن بأسماء الله كلها، ومن الأخطاء الشائعة التى نرتكبها فى حياتنا هذه أن نعتقد فى وجود آلهة متعددة طبقًا لتعدد أسماء الله، ولا ندرك الإله الواحد الذى يرتبط بخلقه بطرق مختلفة.

٢ ـ **الإيمان بوجود الملائكة:** وهى مخلوقات نورانية [بما يسمح بتأويل واسع لذلك الغيب] خلقت لتنفيذ أوامر إلهية، وأكثر هذه الملائكة شهرة هو جبريل الذى كانت مهمته الرئيسية هى أن يقوم بدور الوسيط بين الله وأنبيائه ـ رسله. وهو الذى بشر السيدة مريم بغلام دون أن يمسسها بشر[٦]، وهو الذى ضم محمداً ﷺ وأخبره بأنه سيكون نبى الله وعلمه أولى آيات القرآن الكريم؛ ومن الملائكة أيضًا، «عزرائيل» وهو

ملك الموت، ومهمته هى أن يقبض الأرواح عندما يحين أجلها، و«ميكائيل» وهو الذى سينفخ فى الصور ليبعث الناس من قبورهم يوم القيامة؛ وقد أشرنا فيما سبق إلى الأعداد الهائلة من الملائكة الذين يعبدون الله أبدًا وفى أوضاع مختلفة قيامًا وركوعًا وسجودًا وجلوسًا، وهى الطريقة التى يؤدى بها المسلمون الصلاة، كما أن هناك ملائكة آخرين يشرفون على سير الوجود.

وهناك الملائكة المكلفون بمهمة مراقبتنا وتسجيل حسناتنا وسيئاتنا، ومن الملائكة من يسألنا بعد الموت ويرافقنا حيث مثوانا الأخير، وفى النهاية هناك ملائكة هم خزنة للجنة والنار، يقومون بإدخال الأبرار إلى الجنة و يلقون بالكفار فى النار، تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

٣ـ الإيمان بأن الله قد أرسل للبشر الكتب السماوية التى جاء بها الأنبياء: والكتب السماوية الأربعة التى ذكرت فى القرآن هى «التوراة» التى جاء بها موسى ﷺ، و«الزبور» الذى جاء به داود ﷺ، و«الإنجيل» الذى جاء به عيسى ﷺ، و«القرآن» الذى جاء به محمد ﷺ، وقد ذكرت أيضًا صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام فى سورة الأعلى الآية رقم ١٩. يؤمن المسلمون أن كل كتاب من هذه الكتب هو كلام الله أنزله على نبى معين، كما يؤمن المسلمون كذلك أن المتشابهات الموجودة فى هذه الكتب المقدسة والإشارات القرآنية لما جاء فى هذه الكتب الأخرى يعود إلى كونها جميعًا ترجع لمصدر واحد وهو الله؛ ولأن بعض العلمانيين من علماء الدين ينكرون فكرة وجود الله تمامًا، كما أن بعض المتخصصين فى الدين الإسلامى من اليهود والمسيحيين ينكرون محمدًا ﷺ، فإنهم مجبرون على التسليم بأن المسيح نقل أفكارًا من العهد القديم أو أن محمدًا ﷺ قد نقل أفكارًا من العهد القديم والجديد، وقد أسهمت مواقف هذين الفريقين فى زيادة العداء بين أتباع ملة إبراهيم ﷺ؛ وبالنسبة لموقف الإسلام من هذه القضية هو أن القرآن يؤكد على الحقائق التى وردت فى جميع الكتب السماوية، وأنه على الرغم من أنها نزلت على كل رسول بلغة قومه، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات فى طريقة العبادات، إلا أن الله قد أنزل هذه الكتب السماوية لغرض واحد عريض: وهو الدعوة للإيمان الصحيح بالله، والتأكيد على الأخلاق الحميدة التى تفيد البشرية.

٤ ـ **الإيمان بالأنبياء والرسل :** ذكر القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولاً بداية من آدم ثم نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وهارون وأيوب ويونس ويحيى والمسيح عيسى وانتهاءً بمحمد عليهم صلوات الله وسلامه ؛ كما أكد القرآن أنه على الرغم من ذكر بعض أسماء الرسل ، هناك الكثير من الأنبياء الذين لم تذكر أسماؤهم ، مثلما جاء فى سورة النساء ، الآيات ١٦٣ـ١٦٤ ، وسورة غافر ، الآية ٧٨ ، وأن الله قد أرسل لكل أمة رسولاً[٧] ؛ فالأنبياء هم النافذة التى ينظر من خلالها البشر فيستشعرون الوجود الإلهى القوى ويمثل سلوكهم أسوة يستطيع الفرد البسيط أن يحتذى بها ؛ كما أن الأنبياء بشر يرتكبون الأخطاء ـ على الرغم من أن بعض المسلمين يرون أنهم معصومون من الخطأ ـ وأخطاؤهم تمكننا من التقرب منهم ، وتعطينا الأمل فى أننا أيضًا نستطيع تحقيق أعلى مكانة روحانية .

يفرق علم الكلام فى الإسلام بين النبى والرسول ؛ فالنبى هو من أوحى الله إليه ولم يؤمر بتبليغ رسالة لهداية البشرية ، أما الرسول فهو الذى أوحى الله إليه وأمر بتبليغ رسالة الهداية لقومه ؛ ولذلك يعتبر بعض العلماء السيدة مريم أم عيسى نبية ؛ لأن جبريل نزل عليها كى يبشرها بغلام ، إلا أنها ليست رسولاً إلى قومها لأنها لم تكلف بالبلاغ ، على عكس ولدها عيسى ﷺ الذى قام بالبلاغ ، والذى يعتبره المسلمون نبيًا ورسولاً من أعظم رسل الله .

٥ ـ **الإيمان بالآخرة ، أو كما يطلق عليها المسلمون اليوم الآخر :** والآخرة عند المسلمين مفهوم مركب ، فهى تعنى أن جميع الخلق سيفنون (وهى نوع من العكس لفكرة الانفجار الكبير للخلق) ، وسيتبع ذلك يوم البعث حين تبعث كل الأنفس ، ثم يوم الحساب حيث تحاسب كل نفس على أعمالها ، وهى اللحظة التى تتحمل فيها كل نفس مسئولية أعمالها الأخلاقية . فهؤلاء الذين اتبعوا الصراط المستقيم سينالون رضى الله ونعيم الجنة ، أما الذين اتبعوا خطوات الشيطان فسينالهم غضب الله ويسومهم سوء العذاب فى نار جهنم ؛ ونحن نشعر بعذاب جهنم فى حياتنا الدنيا عندما يغضب منا الأشخاص الذين نحبهم (مثل الزوجة أو الوالدين أو رؤسائنا) ، ونشعر بنعيم الجنة عندما تجمعنا السعادة معهم . ومما يتفق والمنطق أنه عندما يرضى عنا الله ، خالق الكون الذى لا شريك له ، فإننا نشعر بنعيم جنة الخلد ، وعندما يغضب منا جل شأنه فإننا نشعر

بعذاب الجحيم؛ إن الفكرة الجوهرية فى الإيمان باليوم الآخر هى مسئولية الإنسان عن أفعاله، فنحن سنحاسب على أعمالنا؛ فسنجازى بالخير عما نقوم به من خير وما نظهره من رأفة ورحمة، وسنجازى بالشر عما نقوم به من ظلم وقسوة.

ولقد ذكرت هذه الأحداث بوضوح في مواضع عديدة فى القرآن الكريم، والآيات التالية مثال على ذلك: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ⑫ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ⑮ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ⑯ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١-١٩].

وقد وضح القرآن البر فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[8] [البقرة: ١٧٧]

كما بين القرآن الفرق بين التعبير الخارجى عن الإيمان، والإيمان الداخلى فى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو ما يؤكد أيضًا أن الإيمان محله القلب.

يؤمن المسلمون فى شتى أنحاء العالم بكل العقائد والشرائع السابق ذكرها، فلا يجوز للمرء أن يختار من بين هذه ما يناسبه ويترك ما لا يناسبه ويدعى أنه مسلم، فكما

ذكرت آنفًا، أينما ذهب المسلمون في العالم الإسلامي وعند دخولهم أي مسجد لأداء الصلاة، ووقوفهم بجوار مسلمين آخرين ليبدأ كلٌ منهم الصلاة بقول «الله أكبر»، فإنهم بذلك يدخلون رجالاً ونساءً في حالة اتحاد تام أمام الله؛ كما أن تأدية الصلاة باللغة العربية في شتى أنحاء العالم تساعد على توحيد المسلمين بطريقة يدركها ويقدرها المسيحيون الكاثوليك الذين يتوقون إلى حضور القداس باللغة اللاتينية. ربما نتحدث لغات مختلفة، ونرتدي أزياء مختلفة، وتكون لنا ثقافات وسياسات مختلفة، إلا أننا جميعًا سواء أمام الخالق.

يؤمن المسلمون بقوة أنهم يعرفون كيف يعيشون أبرارًا، وكيف ينفذون وصية موسى ﷺ التي اعتبرها المسيح ﷺ من أعظم شرائع موسى؛ فبعد أن أوصى موسى ﷺ بني إسرائيل أن ينتبهوا إلى حقيقة أن: «الرَّبُّ إلهُنَا رَبٌّ وَاحدٌ. فأحبوا الرب إلهكم من كل قلوبكم ونفوسكم وقوتكم». أضاف موسَى ﷺ قائلاً: «وضعوا هذه الكلمات التي أوصيكم بها على قلوبكم، وقصوها على أولادكم، وتحدثوا بها حين تجلسون في بيوتكم، وحين تسيرون في الطريق، وحين تنامون، وحين تنهضون، اربطوها علامة على أيديكم، واجعلوها عصائب على جباهكم. اكتبوها على قوائم أبواب بيوتكم وبوابات مدنكم» [سفر التثنية ٦ : ٤ ـ ٩].

يبدو لي واضحًا من قراءة هذه الآيات من «سفر التثنية» أن هذا هو بالفعل ما يقوم به المسلمون، فالآباء المسلمون دائمًا ما يذكرون أبناءهم بأن لا ينسوا الله، وبأن الله واحد، وأن عليهم اتباع أوامر الله، ولقد اخترع المسلمون فنًا من فنون الخط، يكتبون فيها الكلمات المحببة لهم مثل الله ولا إله إلا الله، وآيات قرآنية أخرى، يتم تعليقها على أبواب منازلهم وبوابتهم. وقد يعلق المسلم هذه اللوحات من الخط على باب المنزل للتبرك بها، كما تتزين النساء المسلمات عادة بارتداء قلادة أو سوار كتب عليهما آية الكرسي[٩]، وقلما يخلو مسجد من هذه الكتابات، كما تلاحظ سعادة المسلمين عند تجميلهم للمنزل أو للسيارة أو الحاسبات الآلية أو الحاسبات المحمولة في وقتنا الحالي بمثل هذه الكتابات التي تذكر اسم الله ووحدانيته. إن الكثير من المتاجر والمطاعم التي يمتلكها مسلمون، والتي قد تزورها في مدينة نيويورك، يتم تزيينها بقطع من السجاد معلقة على الجدران كتبت عليها آيات قرآنية، وقد وجدت أن بعض بائعي الشطائر المسلمين في أركان نيويورك قد وضعوا مثل هذه اللوحات على عرباتهم.

واكتسبت هذه الأفكار والعقائد وبشكل سريع طابعًا مؤسسيًا فى المجتمع الإسلامى. فالمسلمون يقومون بأداء الصلوات الخمس اليومية فى مساجد تقوم بإدارتها سلطة مركزية تابعة للحكومة، بالإضافة إلى تأديتهم لصلاة الجمعة التى تسبقها خطبة، وفى بعض مساجد المدن الكبرى، هناك من يدرس الفقه وعلم الكلام وعلوم الدين. وإذ يجتمع هؤلاء الدارسون حول أستاذ يتحلق حوله حشد من الطلاب، فقد تطورت هذه المجموعات من الدارسين إلى مدارس فكرية[١٠]، وكان هؤلاء الدارسون الذين يسافرون طلبًا للعلم من هؤلاء الأساتذة يقيمون فى المسجد أو فى أماكن ملاصقة له، وفى وقت ما أصبحت المدرسة القريبة من المسجد مظهرًا شائعًا. وأصبح بعض هذه المساجد، كالأزهر فى القاهرة، من المراكز الرئيسية لتعليم الإسلام. وبالتالى، فقد ارتبط المسجد منذ البداية بالتعليم ومما منع ظهور الانفصال بين الدين والعلم فى الإسلام كما حدث فى العالم الغربى، ويعود هذا فى الأغلب إلى أن القرآن لم يذكر أية معلومات عن طبيعة الخلق أو العلوم الطبيعية، وأنكرها العلم[١١].

رسالة محمد ﷺ

الجزء الثالث: حب الله والتواصل معه

يمكن أن نتصرف بسلوك قويم ونؤمن إيمانًا صحيحًا، ولكن نبقى موتى روحانيًا، أى أن نقيم الشعائر الصحيحة، ولكن لا تفعمنا بالنشاط الحياة الروحية فى الصميم. يشير القرآن لهذه الحالة عندما يأمر النبى ﷺ بأن يرد تأكيد الأعراب بأنهم أصبحوا مؤمنين، وأن يعلمهم بأنهم ما زالوا مجرد مسلمين، فيقول ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

يمكن أن يمارس الإيمان ظاهريًا، أى على مستوى الإسلام، بينما نكون غائبين أو ميتين داخليًا، أى على مستوى الإيمان، بل يمكن أن نتمتع بالتدين بهذين المعنيين ولكن تنقصنا النشوى بجمال الدين، والإحسان.

يوحى الإحسان بالجمال والتمكن والإتقان؛ ويتحقق بالاحتفاظ بالوعى الشديد بأننا نرى الله وأنه يرانا. والإحسان يعنى فضيلة حسن الطاعة التى تشمل حالتين: **الأولى** حالة حب الله سبحانه وتعالى، بكل جوانح القلب، **والثانية** حالة القرب أو الأنس بالله سبحانه وتعالى، وهى العيش فى وصال معه، سبحانه وتعالى.

الفضيلة الحقة: حب الله بكل جوانح القلب

إن تطهير النفس من أمراضها كالأنانية والطمع والشهوة والغيبة والحسد أمر ضرورى للوصول لدرجة الإحسان أو الفضيلة الحقة، حيث علمنا النبى ﷺ أن هذه الأمراض جمعيها تحبط من قيمة ما يقوم به المؤمن من أعمال العبادات، فيقول فى حديثة المشهور:

«أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار»(١٢).

يعلمنا هذا الحديث أنه حتى لو أقام المرء شعائر الدين بحماس، قد لا ينجو مع ذلك إذا كانت أخلاقه تنتهك حقوق الآخرين؛ لذا وحتى تكون عبداً رابحًا يجب أن تسلم للنداء الإلهى، أن تسمع وتنتبه إلى أن الله واحد أحد، وأن يظهر هذا الفهم فى عقيدة المرء وأخلاقه؛ كما أن المجتمع الرابح هو المجتمع الذى يتحقق فيه فى نفس الوقت وصيتان هما: حب الله، وحب البشر. إن المسلمين يعتبرون أن النبى ﷺ ـ على المستوى الشخصى ـ إنسان كامل وقدوة يحتذى بها يتعلمون سلوكه ليقلدوه؛ وعلى المستوى الاجتماعى، يرى المسلمون مجتمع النبى ﷺ فى المدينة المجتمع المثالى، ويسعون لمحاكاة معاييره على مستوى المجتمع.

تساءل الناس على مر التاريخ الدينى، بما فيه التاريخ الإسلامى، عن معنى التقوى الدينية أو الروحية، وما هى العملية التى يصير البشر من خلالها أتقياء روحيًا؟ وإذا كانت الطاعة تعنى العيش فى هذه الحالة من «مراقبة الله»، فكيف يمكننا تحقيق ذلك؟

مر معظمنا بتجربة من نوع ما للسمو على الذات جعلتنا نعى أن هناك أمورًا فى الحياة أكثر من مجرد الكدح، حيث تتلاشى حدود الذات فى تلك اللحظات، ونشعر بتوحد مبهج مع الكون ومع الله . وفى تلك اللحظة، تطفو حقيقة الله على السطح بتجليها من اللاوعى إلى الوعى، وعندها نعرف بقناعة مطلقة أن الله موجود، وأنه رحيم عادل قوى عليم بكل شىء، كما ينبغى أن يكون؛ وهذه التجربة تمنحك إحساسًا يشعرك بأن الله يربت بحنو على كتفك ليعلمك بأنه موجود حقًا.

إذا كانت التقوى الروحية هى أن تعبد الله كأنك تراه، كما علمنا النبى ﷺ، فإن السؤال المنطقى هنا هو: هل يستطيع من لم يمر بهذه التجربة بعد أن يستحضرها؟ وهل يمكن لمن استشعروها أن تتكرر لهم، بالجلاء الذى نبصر به الشمس أو القمر؟(١٣).

إن من أسعدهم الحظ وعاشوا فى صحبة النبى ﷺ، كانوا مباركين لوجودهم فى المعية الساحرة لمن يتحدث الله إلى البشرية من خلاله؛ لذا كان صحابة النبى ﷺ يشعرون بالقوة الروحية والمعية والحيوية التى تتدفق من النبى ﷺ، وبالتالى كانت لديهم قناعة بوجود الله؛ ففى أحد الأحاديث: جاء صحابى إلى النبى ﷺ يشكو له بأنه عندما يكون فى صحبته ويحدثهم عن الآخرة يكون كمن يراها رأى العين، ولكن إذا رجع إلى أهله وعمله، يفقد هذا الشعور؛ لذا أهمه هذا الأمر مخافة أن يكون ارتد إلى النفاق - وهو أحد الكبائر فى الإسلام - فطمأنه النبى ﷺ وقال له: لو أنه ومن معه داوموا على الحالة التى يكونون عليها فى صحبة النبى ﷺ لنزلت الملائكة وحيتهم فى والسر العلن (أى كما قال ﷺ على فرشهم وفى طرقهم)(١٤).

تلك هى الحالة التى ترنو إلى استشعارها أرواح كثيرة - ألا وهى استحضار صحبة النبى ﷺ؛ ويسمى الصوفيون المسلمون هذه الحالة «المعية» أو «الحضرة»، ويمكن الوصول إليها بالذكر (ترديد اسم الله وآيات قرآنية أخرى)؛ يخاطب القرآن المؤمنين بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال ٢٤].

بدأ النبى محمد ﷺ بالدخول فى هذه الحالة من المعية الإلهية عندما كان مستغرقًا ذات ليلة فى عام ٦١٠ م فى التأمل العميق وهو فى غار حراء فى أطراف مكة، حيث

دخل عليه جبريل وضمه ثلاث ضمات بقوة متزايدة وقرأ عليه الآيات القليلة الأولى من القرآن؛ كانت كل ضمة تصب قدراً كبيراً من القوة الروحية فى محمد ﷺ الذى عاد إلى بيته مرتجفًا ومرتعداً ظانًا بأنه قد فقد عقله، وظل كذلك لعدة أيام. يمكن أن يكون هذا هو الأثر الأولى لتلقى الطاقة الروحية، وكانت الطاقة والقوة الكامنة عند تتالى نزول الوحى تأخذ شكل تصبب النبى ﷺ عرقًا حتى فى الأيام الباردة؛ ويؤكد القرآن على هذه القوة الروحية عندما يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

علّم النبى ﷺ أصحابه ترديد بعض الآيات القرآنية ليثير فى أنفسهم تجربة مشابهة وذلك من خلال أحاديثه وصحبته المباشرة ومعيته واستخدام الانطباعات العقلية التى يخلفها سماع القرآن، وعندما كان ذلك يحدث للمرة الأولى كان يشكل عملية استهلال تتجاوز العقل وتعمل مباشرة على الروح. وبتكرارها فى مناسبات متعاقبة، تُدخل الروح فى حالة من الحضرة الإلهية نناجى فيها الله وتنفث الحياة فى أفعال العبادة؛ قد لا يستغرق الإنسان فى المرة الأولى؛ لأن مثل هذه التجربة تقع بالصدفة فى الغالب، ولكن يمكن أن ندرب إرادتنا وندخل بوعى فى حالة من الاتصال بالله.

عقب وفاة النبى ﷺ تدافعت الأجيال المتتالية للحصول على السلطة، وتغلب هؤلاء الذين يريدون اعتلاء السلطة باسم الدين على صحابة النبى ﷺ القلائل الذين تعلموا العيش فى معية الله. ويسمى هؤلاء الذين يحافظون على القدرة على إظهار العيش فى معية الله «أولياء الله». ويقدم حديث قدسى تعريفًا لكلمة ولى مع وصف الروح التى يعمل صاحبها على تنقيتها، كما رأينا سابقًا، والذى يصير الله له «سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها»(١٥)، وتشعر مثل هذه الروح دائمًا بالله وتتصرف طبقًا لأوامره؛ وفى حين أنه لا يرغب كل البشر فى محبة الله بطريقة تجعل فهمهم وأفعالهم موافقة لما حدده الله، فإن الكثيرين يطمحون فى ذلك. فكيف يستطيع هؤلاء بدء الرحلة والسير على الطريق الروحى الذى يأخذ لدرجة الولاية؟

تتألف آلية هذه الرحلة ـ وهى جوهر الصوفية ـ من عنصرين: **أولهما** ذكر الله أو الذكر، والذى يتحقق على أفضل ما يكون من ترديد أسماء الله أو آيات قرآنية مختارة مثل الله، ولا إله إلا الله، وَغَيرها؛ فالذكر غذاء وقوت للروح، كما أن الشيوخ الروحانيين هم ورثة دور النبى ﷺ فى تغذية الأمة روحانيًا؛ وبالإضافة لذلك، فإن الذكر مصدر قوى من مصادر اكتشاف الذات حيث يأتى العلم والقوة من خلاله، فبدون العلم، قد تكون القوة مصدراً للإضلال أو تكون ناقصة، وبدون القوة على تحدى تقلبات الحياة ومجابهتها، لا يقدر أحد على تحقيق إنجاز له قيمة كبيرة. يشمل الوحى الذى أنزل على النبى ﷺ (القرآن) العنصر الأول من الذكر، أى أن القرآن ذكر الله الذى نزل للبشرية.

أما العنصر الثانى فهو الحاجة إلى معلم روحانى. فإذا اعتبرنا أن الذكر مشابه للموسيقى وأن المريد عازف فى الفرقة الموسيقية، فإن المعلم يشبه قائد الفرقة التى يقودها ويرشدها. يتطلب الذكر ـ كى يكون مؤثراً ـ مذكراً يذكر وينقل الذكر فى هيئة آيات قرآنية ويلقن قلوب من يتأثرون بالذكر مبادئ هذه العملية؛ وكان هذا هو الدور الأول للنبى ﷺ الذى أسماه القرآن مذكراً فى قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وهذا هو دور كل نبى أو رسول على وجه الخصوص.

أنجز النبى ﷺ دوره كمذكر بطريقتين تعكسان الطريقتين اللتين تلقى بهما الذكر: **أولاهما** اجتذاب عقول الناس وإقناعهم، **والثانية** ـ لم تكن أقل قوة ـ تعليم أصحابه كيفية طبع الذكر فى أرواحهم مباشرة، أى تلقى التنزيل الإلهى.

بينما كان النبى ﷺ يقرأ القرآن على أصحابه، كانت أفكار القرآن ومفاهيمه تجذب عقولهم وألبابهم فيجدون أن تعاليمه لها سحر فكرى، ومن ثم كانوا يوظفون الإرادة لتقويم سلوكهم ليتماشى مع هذه التعاليم، فيسمى الذكر فى هذا السياق ذكر العقل أو الفكر، أى التأمل الفكرى والتفكر وما إلى ذلك. وهذا هو المعنى الأكثر شيوعًا ووضوحًا لفهم غالبية المسلمين لمصطلح الذكر.

لكن الصوفية يتحدثون عن ذكر الجوارح المختلفة: ذكر اللسان وهو تكرار ذكر

أسماء الله ؛ وذكر القلب وهو حب الله والعمل على التخلص من أمراض القلوب مثل الأنانية والغيرة والغضب والحسد والشهوة والطمع والغيبة والقذف ، والتمسك بالسلوك الحسن والأدب مع الله والبشر ؛ وذكر الروح وهو الخضوع الروحى ، والإدراك العميق والوعى والتفكر فى الله ، والقرب أو الحضور مع الله والمعلم (المعية) ؛ وذكر البدن ويضم شعائر العبادة : الصلاة خمس مرات فى اليوم مسبوقة بالوضوء ، والزكاة وصوم رمضان والحج ؛ وذكر الإرادة وهو حسن الاختيار وتجنب الآثام ، أى معصية الله ؛ وتعمل كل هذه الوجوه من الذكر معًا فى تعاون وتضافر .

يخبرنا المعلم الروحانى على أبو الحسن الشاذلى ، مؤسس الطريقة التى سميت باسمه ، الطريقة الشاذلية ، بأن المعلمين والمرشدين الروحانيين (الذين أسماهم دعاة) على صنفين : صنف يأخذ دعوته من عالم الفهم العام (إذن عام) ، وصنف يأخذ دعوته من عالم البصيرة الروحانية العميقة (البصيرة) بدعوة خاصة وإذن إلهى .

إن المعلمين الحاصلين على الإذن الخاص هم أولئك الذين دخلوا فى صراع داخلى مع أنفسهم غير المطهرة حتى أصبحت مطيعة ومهذبة ومتنورة ، لكنهم مع ذلك لا يقدرون على تحقيق شىء أو حتى فعل أى شىء دون الحصول على إذن إلهى ؛ ويقوم هؤلاء الدعاة الحاصلون على الإجازة الإلهية بدعوة الآخرين إلى الله بكل كيانهم حتى أن صمتهم يكون دعوة إلى الله ؛ لأن «آيات الله» الغائرة فى أنفسهم ذبذبة رنانة تدعو الآخرين إلى الله ، فأما من يستجيبون بسرعة لهم فهم يفعلون ذلك وفقًا لقدر الخيرية والإيمان فى قلوبهم .

إن المعاناة من السمات المشتركة فى حياة البشرية ، وسببها الأول هو حالة البعد عن الله ، كما يسميها الصوفية ؛ لذا بدأ الرومى شاعر الصوفية فى القرن الثالث عشر رائعته الأدبية كتاب المثنوى بعقد تشبيه بين الإنسان المنفصل عن الله وقصبة لم تكن تصدر صوتًا قبل اقتلاعها من أصلها وتشكيلها على هيئة آلة نفخ :

«استمع إلى القصبة كيف تروى قصة ، تشكو من البعد ـ وتقول : «منذ أن انفصلت عن أرض القصب ، جعل عويلى الرجال والنساء تئن»(١٦) .

تعبر أصوات حياة الإنسان والأغنيات التى نشدو بها والدعاء الذى نتضرع به وحتى

الطموحات التى نتشبث بها عن رغبة فى إعادة الصلة بالله؛ حيث إن كل معاناة البشر تنتج من الانفصال عن الله، وإن سعادة الإنسان الحقيقية تنجم من لمحات الألوهية. يتعلم الصوفية أن يروا الحياة الدنيا على أنها أحد أسباب المعاناة؛ ليعرفوا كيف يعانون حتى لا تؤثر عليهم المعاناة (ويتعلموا أن يموتوا قبل أن يموتوا كى يعانقوا الخلود)، ويعرفوا كيف ينجزون وينفصلون لكى لا يؤثر فيهم اكتساب الممتلكات أو فقدانها؛ فهذه هى التوجيهات الرئيسية لأسلوب حياة يتسم بالتسليم حقًّا.

تمثل الأنا أصعب التحديات القائمة على الطريق الروحى، وأصعب درس فى تعلمه والاستمرار فى ممارسته، هو ضمان أن تكون الأفعال الأخلاقية محكومة بالأنا العليا وليس بالأنا السفلى. روى فى قصة أن علىّ ابن عم النبى ﷺ كان يقاتل كافراً أثناء إحدى الغزوات التى شنها المسلمون على أهل مكة، وكان على وشك التغلب عليه عندما بصق الكافر فى وجه على، فاندهش الكافر لما رأى عليًا يضع سيفه فى الغمد، وعندما سأله عن سبب هذا أجاب على قائلاً: «كنت أقاتلك فى الله، وعندما بصقت علَىّ خفت أن أقتلك غضبًا لنفسى»؛ فهذه هى المعايير التى تحكم عملية صناعة القرار لأخلاق قائمة على الإيمان.

الحب الأعظم حب الله

بعدما خلق الله آدم من طين، نفخ الله فى هذه الهيئة المادية من روحه (الحجر: ٢٩، ص: ٧٢)؛ لذلك ترتبط بيننا وبين خالق الكون علاقة خاصة وحالة من التبادلية الفريدة؛ إن لأرواحنا المخلوقة من روح الله أصل إلهى، ولها جميع خصائص الموجود الأعلى، كما أن لقطرة الماء جميع خصائص الماء المحيط بالأرض؛ لذا تتوق للحاق به، هذه هى الترجمة القرآنية لعبارة التوراة التى تنص على أن الله خلق الإنسان فى صورة إلهية[١٧]؛ وهكذا فإن وجودنا يمثل الكون فى صورة مصغرة، كما أنه يمثل الله بمعنى متفرد؛ لذا فإن الحب الأعظم هو عندما يتوحد حبنا مع أحد سبل الحب الإلهى ذاته.

إن المنظور البشرى العام الذى نعرفه عن أنفسنا هو الرأى الذى قد جاء من العلم الحديث الذى يعرف الإنسان من منظور يركز على الأرض بأنه مخلوق تطور من

البحر ، وبأنه من الناحية الفسيولوچية من الثدييات ذوات الدم الحار التى لها صلة بالإنسان الأول ، لكن لها عقل مفكر ومبدع ، وبأنه حيوان اجتماعى نزاع للعيش مع غيره ، يحتاج إلى العيش فى مجتمعات ؛ ويعتبر هذا التعريف تعريفًا فيزيائيًا وبيولوچيًا واجتماعيًا فى المقام الأول ينقصه المقصد من الوجود غير الأكل والشرب والنوم والتكاثر ، مثله مثل سائر المخلوقات ؛ فمن يسيطر عليه هذا التعريف ، ينظر إلى الحياة الدنيا على أنها مادة فى كافة وجوهها ـ الكل موجود والكل ينتهى . لكن هذا التعريف يدل على جزء من الحقيقة فقط .

أما بقية الحقيقة فهو المنظور الإلهى الذى يرى البشر على أنهم مخلوقات أرضية حقًا ، ولكنهم أيضًا وعاء ومستودع الروح الإلهية حملهم الإله نفسه أمانة وأمرًا ساميًا بوجه خاص (وهذا ما أسماه القرآن أمانة ، الأحزاب : ٧٢) ؛ لذلك فعندما نتخذ هذا الوصف الذى يركز على الله ليكون رؤيتنا عالميًا ، فإنه يعجل بحدوث تحول هام وهو التركيز على المقصد والغاية ؛ ويتجلى هنا الفرق واضحًا ليس فى المعنى الفلسفى فحسب ، بل فى المنظور التجريبى أيضًا . فعلى سبيل المثال ، عندما نقابل شخصًا يعرف نفسه ـ بالمعنى الإنسانى فقط ـ فإن تأثير هذا الشخص علينا يكون ماديًا تمامًا ، بينما عند مقابلة من يعرف نفسه ـ بالمعنى الإلهى ـ فإن تأثير هذا الشخص يدعو إلى التغيير .

الحب الصحيح: أحب مسيحك وليس حماره

يقول الرومى : إن العلاقة بين الروح والجسد تشبه المسيح وهو يركب حمارًا ، فأصحاب الرؤية الدنيوية ـ فحسب ـ الذين يتجاهلون الروح يشبهون من «يستمع إلى أنين الحمار ويشعرون بالشفقة عليه» ، ويتساءل قائلاً : «ألا يعلمون أن الحمار يأمرك بالبله؟» وينصحنا الرومى بقوله : «أشفق على المسيح (الروح المخلوقة فى صورة إلهية بداخلك والتى تسكن جسدك) ، وليس على الحمار (نفسك المادية)»[١٨] لكنى على المستوى الشخصى أرى أن عدم الشفقة على الحمار أمر صعب ؛ فأنا شخصيًا أحب القهوة باللبن والإفطار المكون من قطع سمك السلمون المدخن مع الخبز المصنوع من سبعة أنواع من الحبوب ، لكننى وجدت أنه بالعناية بحمارى ينطلق «مسيحى الداخلى»

بى بسرعة أكبر. إن الحمار الذى يعرف أنه يحمل مسيحًا وليس حزمة قش يكون أكثر رضًا وسعادة.

رأى الرومى مهم، فالسمو الإنسانى يكمن فى روحانيتنا ـ الأصل الأعمق لنفسيتنا ـ وليس فى فسيولوچيتنا، حيث إن هذه الروحانية هى التى جعلتنا خلفاء الله وعبادًا له بالتوافق مع الأمثلة التى قدمها لنا الأنبياء والأولياء. وحيث إننا الصورة الأسمى للخلق، فإننا أكثر المواطن تطورًا التى تتجلى فيها صفات الألوهية، بما فيها رغبتها فى أن تكون معروفة. وإذا اضطررنا لتفضيل واحدة على حساب الأخرى، فينبغى علينا أن نحترم روحنا على حساب أجسادنا وليس العكس ـ وهذا ما نصح به الرومى.

يتجلى التوافق بين أرواحنا وبين الله فى نفسيتنا الإنسانية الخالصة. أى فى ميلنا نحو النظر إلى أنفسنا ككنوز مخبوءة «تحب أن تُعرف». لذلك، فإن صراعنا فى هذه الحياة يأخذنا إلى رحلات من اكتشاف الذات تعكس ذلك، حيث نسعى لمعرفة واكتشاف الغاية من وجودنا، ولكن ما لم نتجاوب مع خلق الله لنا بالاقتناع بوجود الله فى وجداننا، لقُضى علينا بالدخول فى حلقة لا نهائية من العمل الشاق للوصول لهدف مرغوب، ولكن سرعان ما نمل منه بعد تحقيقه، تمامًا مثلما كنا نمل من ألعابنا عندما كنا أطفالاً.

يؤدى اكتشافنا لذاتنا إلى اكتشاف الله، ولا يقل صحة عن ذلك أن اكتشاف الله يقود إلى اكتشاف أكبر وأدق للذات. لذا فإننا نتعرف على الله عندما نعرف من نحن وما ماهيتنا. والمفارقة أنه ليس أقل من هذا صحة أننا نتعرف على أنفسنا عندما نعرف الله، وهذا ما عبر عنه الإمام على ببلاغته فى قوله: «من يعرف نفسه يعرف ربه».

أفضل ما نقدمه لله

صقل مرآتنا

دعا الله الإنسانية إلى الوصول للكمال، ولا يعنى هذا أنه يتعين علينا فقط أن نتخلص من كل ما هو سيئ وحقير فى أنفسنا، بل يجب علينا أيضًا تنمية مهارات أرفع

وأسمى. من بين الصور التى يستخدمها الصوفى فى وصف مهمة اجتياز الطريق هى صقل المرآة ليصير أفضل وأدق وأشف عاكس ممكن للألوهية؛ وهذا هو أفضل طريق لحب الله. فأى شىء نقدمه لله أفضل من أن نكون أفضل مرآة ممكنة يرى فيها انعكاس روحه التى نفثها فينا؟ أى مدلول أفضل يمكن أن نعطيه لكوننا مخلوقين على الصورة الإلهية من أن ندرك أننا مجرد مرايا، ونسعى لإضفاء الكمال على الصورة الإلهية فى داخلنا؟

بمقدورنا بلوغ النضج الروحى باتباع طريق يتصاعد تدريجيًا، لكن يمكننا كذلك اختيار طريق التسلق منحدراً وضيقًا وأكثر اتسامًا بالتحدى على الدوام على نحو أسرع. وهذا السبيل نجده من خلال «الطريق» كما يسميه الصوفية.

ليست كل الأرواح مدفوعة لاتباع هذا «الطريق»؛ إنما هم فقط المختارون كما قالها المسيح، والمقربون كما أسماهم القرآن، والخواص كما يُطلق عليهم فى بعض الكتابات الإسلامية. وهذه الأرواح تتمنى أن تصل إلى الغاية بشكل أسرع ليس لمصلحتها فحسب، بل أيضًا من أجل مساعدة الآخرين على المضى قُدُمًا؛ وشأنهم شأن سائر البشر، يحيا هؤلاء حياة صعبة مليئة بالأحزان والابتلاءات والمشكلات، لكنهم مزودون ببصيرة عميقة وسعادة ساكنة؛ لأن اختبارات الحياة أمدتهم بالبصيرة، فخلال العمر الواحد يكتسبون خبرة عدة حيوات؛ ويتمنون أن يواصلوا السير برغم مشقته. وهؤلاء المختارون دعاهم الله فسمعوا نداءه ولبوه، فهم من يريد المعرفة ويسعى وراء إيجاد إجابة كاملة على السؤال: «من أين جئنا وإلى أين نمضى؟» وحيث إنهم مستعدون لإدخال أنفسهم فى اختبارات ومحاكمات، فهم يصلون إلى النضج الروحى أسرع من غيرهم ويجدون السلام والسعادة حتى فى هذه الحياة من خلال مد اليد بالعون والتأييد والمواساة والمساعدة والرعاية والحب.

وأعظم هؤلاء هم الذين يصلون إلى درجة الولاية (ولى الله). ويمكن لأولياء الله استجلاء الدوافع الخفية فى قلوب الآخرين، كما يشعرون بالألم على الآثار السلبية والصعبة لهذه الدوافع فى الحاضر والمستقبل أيضًا، ويبدو أنهم غالبًا ما يكونون محاطين بجو من المعجزات ـ التى هى فى الحقيقة يد الله الخفية التى تمرر من خلال هذه الأرواح المحبة ما يريد أن يكشفه.

يمكن لكل روح بشـرية، وينبـغى لهـا، أن تعـبـر هـذا الطريق، على الرغـم من أن الوصـول إلى مرحلة الولاية يتطلب التزامًا بنقاء القلب والنية وبجلاء الكلام والأفعال مصحوبًا باستعداد للعمل لسنوات غالبًا ما تكون فى صمت وعزلة حتى يتحقق ما يمكن للفهم البشرى أن يدركه.

يؤكد القرآن أن جميع أرواح البشر وقفت أمام الله قبل الوجود، وأمرت أن لا تنسى الله أثناء إقامتها المؤقتة فى هذه الدنيا، فلماذا لا نذكر هذا الميثاق الذى أخذه الله علينا؟ ولماذا لا نتذكر يوم وقفنا أمامه وسؤاله إيانا «ألست بربكم؟» (الأعراف: ١٧٢). يوجد برزخ بين العوالم المختلفة خفى على نحو يحجب إدراك البشر لمهالك الانتقال من دار إلى أخرى. وتمامًا كما نستيقظ من حلم وتتلاشى أحداثه من الذاكرة، فإننا ننهل من فيض من النسيان يطمس وعينا بالتجربة رغم انطباع الذكرى فى اللاوعى، وتبقى مهمتنا هى تعلم كيفية إزاحة هذا الحجاب، وأن نتذكر فى عالم الشهادة ما شهدناه وفعلناه فى غيره.

خلقنى الله سريع الجرى، وعندما أجرى أشعر برضاه

الغاية من الأخلاق والفضيلة هى أن تقودنا إلى الله وتساعدنا على إبقاء الحضرة الإلهية معنا، وبالأصح على بقائنا فى معية الله[١٩].

يوصينا الشيخ على الحموى فى شرحه لكتاب **رسالة فى التوحيد** للشيخ والى رسلان بأننا ينبغى أن نعطى معية الله حقها، وأن نتحلى بالسلوك الأمثل دائمًا من أجل الله. فإذا نجحنا فى الدخول فى حضرة الله وجعلنا واقعنا مسرحًا مهيئًا للانهائيته وعجائبه مع هوان شأننا، فسوف يستر فقرنا بغناه، وضعفنا بقوته، وعجزنا بقدرته، وجهلنا بعلمه وحكمته، وذلنا الباعث على القنوط بعزته، وعدمنا المتوقع والنسبى بوجوده، ويستعرض عظمته فى لوحتنا[٢٠]، وكما قال العداء فى فيلم عربات النار «Chariots of Fire» خلقنى الله سريع الجرى، وعندما أجرى أشعر برضاه».

وبنفس الطريقة خلقنا الله على صور مختلفة: فنانين وكتّاب عظام يشعرون برضا الله عندما يخرجون لنا أعمالاً فنية؛ ومزارعين أكفاء يشعرون برضا الله عندما يزرعون؛

وآباء رائعين يستشعرون برضاه عندما يمارسون الأبوة، وما إلى غير ذلك. لكن الله خلقنا فى المقام الأول كائنات عابدة؛ لذا فإن سعادتنا العظمى هى بالفعل التفكر فى الله.

يعتقد المسلمون ـ شأنهم فى ذلك شأن كثير من أصحاب الديانات الأخرى ـ أن عبادة الله بإخلاص وعلى نحو صحيح أمر ضرورى لخير المجتمع. فقد جاء النبى محمد ﷺ ليؤكد رسالة إبراهيم عليه السلام بأن لا إله إلا الله، التى حث المسلمين على ذكرها كثيرا (الأحزاب: ٤١) ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ويجد المسلمون فى ذكر أسماء الله راحة عميقة وصلة حقيقية وملموسة بالله، كما يؤكد القرآن فى قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ ويسجد المسلمون الورعون بسعادة على وجوههم أربع أو ست أو ثمانى مرات فى كل صلاة من صلوات اليوم الخمس، تعبيراً عن الخشوع لله، ويرون أن هذا الفعل هو أسمى أفعال الصلاة. كذلك فهم يتوقون إلى صيام شهر كامل هو شهر رمضان الشهر التاسع من السنة القمرية، ولا ينظرون إلى هذا الصيام على أنه مشقة، بل يرونه جائزة روحية يشعرون فيها بسعادة عميقة.

قبل أن يصبح راهبًا من الرهبان الممتنعين عن الكلام، كان الملازم الفرنسى الشاب كريستيان دو تشيرج يشعر أنه منجذب بشدة نحو المسلمين الجزائريين الذين قال عنهم: «إنهم مغموسون فى حس إلهى». فكان يستطيع أن يتحدث معهم «بدون تحرّج عن الله على عكس ما يحدث فى فرنسا؛ حيث كان الحديث عن الله هناك يصيب الناس بشعور من عدم الراحة»[٢١]؛ كما كان الرهبان المسيحيون يشعرون بأن المسلمين الجزائريين «يعيشون فى الإخلاص الذى تتميز به الحياة المسيحية»، فى حين كان جيرانهم من المسلمين يعتقدون أن الرهبان «يحيون حياة إسلامية حقيقية»؛ وهذا يوضح أن الدين ليس بطاقة تعريف نلصقها بأفعالنا، بل هو نوعية أعمالنا التى تفصح عن الإخلاص لله وعن السلوك الأخلاقى تجاه الآخرين من البشر.

التصـوف:

الغـزالى وطـريق قـل من يسلكه

كـانت أبرز التطورات الدينية فى العالم الإسـلامى منذ بضـعة قرون هى إضفـاء طابع مؤسسى على الطرق الصوفية وانتشـارها . فعلى الرغم من أن الصـوفية بدأت مع بداية التـاريخ الإسـلامى، إلا أن الحكمة الصـوفية كـانت ثروة لا يحوزها إلا قلة من صفـوة الأتقياء المنعزلين عن تيار التقدم السياسى الإسلامى، وقد كان الصوفيون ـ الذين كانوا عادة ما يهمشون ويساء فهمهم ـ يتهمون بالإفراط فى أمور العبادة .

ومـا أحدث فـرقًـا هو عـمل رجل واحـد هو أبو حـامـد الغـزالى (١٠٥٨ـ ١١١١م) والمعروف فى الغرب بالغزّال . فقد عاش الغزالى فى عصر ساد فيه الاضطراب والإثارة السياسية، فى وقت كانت فيه ـ حسبما ذكر المؤرخ أبو الفداء ـ «الخلافة العباسية فى حالة من الانحطاط والانحدار؛ وكان الحكم العربى فى بغداد قد انتهى أو أوشك على الانتهاء؛ كذلك كانت إسبانيا فى حالة ثورة ضد حكامها المسلمين، حيث كان الكاهن بيتر يستدعى الرجال للحروب الصليبية، وكان الناس ـ بسبب اختلافات سياسية ودينية ـ منقسـمين إلى سنة وشيـعة، كذلك كان الأشـاعـرة يعـارضـون المعـتزلة بدعـم من السلاجقة الأتراك . يرى البروفيسور إتش إيه آر جيب أن «الغزالى رجل يقف على قدم وساق مع القديس أوغسطين ولوثر فى التبصر الدينى والقوة الفكرية»(٢٢) .

يمر معظم رجال الدين بأزمة، وهى التى أطلق عليها القديس أوغسطين ليلة الروح المظلمة؛ تماثل معايشة زلزال أرضى . إذ يتداعى كل أساس كنا نعتقد أنه كـان متينًا ومدعمًا لرؤيتنا للعـالم ولهويتنا ـ ومع ذلك نظل على قيد الحياة! ـ وبعد وصوله للقـمة فى مسيرة عطائه كمتكلم وعـالم وفيلسوف وفقيه شهير له عـلاقات كبيرة مع ذوى الشأن، مر الغزالى بأزمة وجودية وهى اعترافه لنفسه أنه كان فارغًا من الداخل .

عانى الغزالى الذى كان صـديقًا مقدرًا ومحترمًا لنظام الملك ـ وزير السلاجقة الذى صار حـاكـمًا فيمـا بعـد ـ من أزمته الـوجودية فى منتصف الأربعينيات من عـمره فى الأعـوام التى بدأت من عام ١٠٩٠، فكـما ذكـر أحد رواة سيرته، طغى «شيطان العبث والسعى للقيادة والشهرة» على شخصيته فى ذلك الوقت، كـما كـان يسعد بإحباط

الناس «بسبب الغطرسة والكبر والانبهار بما وهب من ملكات البراعة فى الحديث والفكر والتعبير وطلبه للمجد والمركز المرموق»، وتعقدت أزمة الغزالى بخوف شخصى طغى عليه وجعله عاجزاً عن التدريس أو حتى الحديث، فقد «صار متيقنًا أنه كان على شفا جرف هار، وأنه بالفعل كان على حافة السقوط فى النار، إلا إذا شرع فى إصلاح سلوكه»[٢٣].

عندما شعر أنه لم يعد قادراً على تحمل خوفه، قرر أن يتخذ موقفًا. فحصل على إجازة من منصبه فى التدريس، وقام بترتيب شئونه الشخصية، وأخبر الناس أنه ذاهب لأداء الحج فى مكة وقصد سوريا. وبعد عشر سنوات قضاها فى الدراسة مع الصوفيين وحج خلالها عاد الغزالى لبلده إنسانًا مختلفًا، وألف رائعته كتاب إحياء علوم الدين، كما كتب سيرة ذاتية ممتازة وصف فيها أزمته الروحية وأسبابها، وكيف أنه وجد منهجه فى الصوفية.

يتحدث كتاب إحياء علوم الدين عن «كيف تكون مؤمنًا حقًا»، فهو يأخذ القارئ من فهم للعقيدة إلى الحديث عن أداء الصلاة والزكاة والصيام والحج، كما يتناول السلوك الحسن مع الأصدقاء والأزواج والأسرة، كما يغطى أمراض القلوب وطرق علاجها، وأخيراً يتحدث عن الأمور التى تقود إلى النجاة وهى: التوبة والصبر والشكر وتقوى الله والرجاء والفقر والحب والألفة بالله وصدق النية والوعى والمراقبة الروحية على النفس وذكر الله وكيفيته والتفكر فى الموت والآخرة. ويبقى إحياء علوم الدين دليلاً متكاملاً للمسلمين المخلصين فى جميع مناحى الحياة: بدءًا بالحياة الدينية والعبادة وشعائر التعبد والسلوك الاجتماعى إلى تطهير القلب والارتقاء على الطريق الروحى.

يذكرنا العالم اليسوعى الراحل ريتشارد جيه مكارثى أن أهمية الغزالى لا تكمن كما قلنا فى اتخاذه طريقًا جديداً أخذ يستعر، بل فى دخوله سبيلاً استعر بالفعل (لكنه طريق قل من يسلكه) و«جعله أكثر الطرق العامة شيوعًا»؛ وفى الحقيقة كان هناك رجال آخرون من علماء المنطق أذكى منه ومتكلمون وفقهاء وقضاة أعلم منه وأولياء أكثر منه موهبة، لكنه من خلال تجارب شخصية «توصل إلى إحساس غلاب بالحقائق الإلهية، حول شخصيته التى كانت فيما مضى حادة وعصبية[٢٤] تجتاح كل ما يقابلها» وقاد الإسلام إلى «حقبة جديدة من وجوده».

إن ما يستهوى علماء الغرب فى الغزالى ليس فقط تأثيره العميق على المسلمين، بل أيضًا تأثيره الشديد على غير المسلمين فى عصره، واستمرار هذا التأثير حتى وقتنا هذا؛ حيث يوضح الأب اليسوعى فينزينزو بوجى أن أعمال الغزالى الأخرى كانت معروفة فعلاً لأتباع الفلسفة السكولاستية المتشددين فى التمسك بالأصول بدءًا من النصف الثانى من القرن الثانى عشر(٢٥)، فى حين يعتقد بعض العلماء المسيحيين أن الغزالى أثر على القديس توماس الأكوينى (١٢٢٥ـ ١٢٧٤م) الذى درس الكُتاب العرب واعترف بالامتنان لهم(٢٦)، ويمضى بوجى فى بيان أن بعض الكتاب المسيحيين قد انتحلوا حتى أفكار الغزالى ونسبوها لأنفسهم دون أن يرجعوا الفضل إليه. كذلك درس تأثير كتاب «المنقذ من الضلال» للغزالى على الفيلسوف اليهودى الشهير ابن ميمون (١١٣٥ـ ١٢٠٤م) خاصة فى كتابه الذى ألفه باللغة العربية «دلالة الحائرين» الذى ترجمه صموئيل بن تيبون إلى العبرية. ويقول الكاهن اليسوعى والعالم بشئون الإسلام آر جيه ريتشارد مكارثى إن ابن ميمون تشكل على طريقة الغزالى فى بعض النواحى حين كتب دفاعًا عن عقيدته، وبهذا «قدم لدين قومه خدمة جليلة قدمها الغزالى للإسلام»(٢٧).

ربما تكون أهم الأسئلة وأكثرها إثارة من بين الأسئلة التى طرحها بوجى هو سؤاله عن سبب استمرار الاهتمام الخاص الذى يوليه غير المسلمين ـ خاصة من رجال الدين المسيحى من البروتستانت والكاثوليك ـ للغزالى؟ فيقول بعد استبعاد مجرد المصادفة: إن هذا له علاقة «بشىء حقيقى فى الغزالى يجذب إليه انتباه من ـ وإن لم يكن على دينه ـ **لديه فى قلبه دفاع عن حقوق الله وثقة فى الإحياء الدينى للإنسانية**» (الطباعة بالحرف الأسود من إضافتى)(٢٨).

بعبارة بسيطة، من الضرورى أن يقوم بدراسة الغزالى كل من يؤمن بأن الدين له دور فى حياة الفرد والجماعة، وأنه يجب وضعه فى بؤرة الاهتمام، والمؤكد أن هذا أمر هام لمن يعمل منا الآن فى ميدان حوار الأديان.

تحول الغزالى بعد أن تخلى عن خصال الكبر التى كان يتصف بها إلى شخصية ذات روح هادئة وصفات نبيلة؛ حيث هاجم بشدة الامتثال الذليل (التقليد من أسوأ نوع) وأدرك حقيقة وفاعلية كل مجال من مجالات المعرفة؛ بدءًا بالفلسفة والعلوم الطبيعية وانتهاءً بالدين والروحانية معترفًا بجدوى كلٍّ منها مع وضع حدودها فى الاعتبار. وقد

قاده تركيزه الذى لا يفتر على فهم الحقيقة، ووضع الحقيقة فوق الجميع من حيث الأهمية إلى تطبيق قاعدة «اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال»(٢٩)؛ فعقله المتفتح لغيره من الديانات الأخرى والذى اقترن بكره - للاتهامات الرخيصة - بالهرطقة، جعله شخصية هامة فى أية مناقشة خاصة بالتقريب بين العالم الإسلامى والغرب.

الادعاء الطاغى

يتساءل مكارثى: هل لدى الغزالى ما يقوله لنا بعد مرور أكثر من تسعمائة عام؟ هل لدى كتابه «المنقذ من الضلال» ما يقدمه لرجال ونساء هذا العصر؟ ربما يكون أكثر الأشياء التى يقدمها لنا هو مساعدته إيانا فى أن نكون أمناء روحانيًا مع أنفسنا، وهى مشكلة دينية يعانى معظمنا منها.

ما هى هذه المشكلة الدينية؟ معظم الناس ممتثلون: فنحن نمتثل للموضة فيما يتعلق بالأزياء، وأيضًا فى الأمور التى تتعلق بالأفكار، فمن الصعب عدم الامتثال حتى فى أمور العقائد والأفكار والقيم. لكن الامتثال الأعمى فى ممارسة الدين يؤدى إلى مشكلة دينية واحدة محددة، ألا وهى الادعاء.

إن الادعاء أمر طبيعى فى الشأن الدينى، حيث يدعى الناس أنهم يعلمون، لكنهم فى الواقع لا يعلمون، وهذا نفاق انتقده القرآن على نحو قاطع، وكان صحابة النبى ﷺ دائمًا على حذر منه وقلق عميق من احتمال أن يقعوا فيه. ويسمى القرآن النفاق مرضًا من أمراض القلوب (محمد: ٢٩) ويضيف بأن الله قادر على فضح المنافقين «بسيماهم» (محمد: ٣٠)، ويمكننا بكل تأكيد أن نتعرّف عليهم «فى لحن القول»(٣٠).

استشعر الغزالى فى علماء عصره فساد مقصدهم من العلم الدينى؛ حيث كان يستخدم فى تحقيق نفع دنيوى، فى حين أن المقصد الحقيقى من الدين هو إدراك النجاة في الآخرة. وبالمثل قام مارتن لوثر بمهاجمة الكنيسة وتحدث عن فساد العلم الدينى

عندما يستغل لمكاسب دنيوية؛ ويعتبر هذا الفساد مرضًا متوطنًا فى الوضع الدينى ويجب تحديد منبته والعمل على استئصاله من الأفراد والجماعات، وهذا فى حال ما إذا كان المرء يريد أن يصبح إنسانًا متدينًا حقًا، وإلا سوف يستخدم العلم الدينى فى الوصول لغايات فاسدة.

قال الغزالى: إن التفكير أو معرفة الكثير عن الله الذى يقارن بالعيش فى تجربة حب مع الله - التى تسمى بمصطلحات الصوفية: الكشف - يشبه من عرف كل شىء عن السُّكْر وهو لم يسكر قط(٣١)، ذلك أن التدين الزائف يماثل طبيبًا يعرف كل شىء عن الصحة غير أنه لا يرغب فى تناول الدواء الذى يتعافى به المرء. وبهذا يكون الطريق الصواب هو الطريق الذى يجعل المريد ينهل من كأس الكشف، كأس الصحة الروحية، وتظهر نتائجه ليس فقط فى المعرفة الداخلية أو الدراية بالله، بل فى العمل الظاهرى على تنقية النفس من جميع الأمراض الروحية، وأشدها النفاق والأنانية وخداع الذات، ومن بينها أيضًا الرذائل التى كان يتسم بها الغزالى نفسه قبل أن يشرع فى رحلته الروحية.

استطاع الغزالى بالجمع بين مخاطبة قرائه بلغة أعلى درجات الفكر فى عصره، وبين لغة أبسط ما تكون يسهل فهمها على العامة، أن يؤجج التقوى الحقيقية، التقوى الموجودة فى قلوب العامة على مستوى العالم رغم سقوط وفساد قادتهم السياسيين والفكريين وحتى الدينيين. ربما كان الغزالى أعظم رائد فى المواجهة الدينية للمسلمين مع الفلسفة اليونانية، كما قرب بين التدين القويم والتصوف، فجعلت مصنفاته المتكلمين على استعداد أكبر لقبول واحترام المتصوفة، كما جعلت المتصوفة أكثر حرصًا على اتباع المسلمين السنة. واستطاع الغزالى بالبحث فى جوهر التجربة الدينية أن يظهر الإسلام كدين عالمى يتصل بواقع البشرية، وليس دينًا عربيًا يرتبط بالثقافة العربية؛ وبذا يكون قد قدّم خدمة قيمة فى وقت كان فيه الطابع العربى للعالم الإسلامى قد بدأ فى الزوال مع انتقال القوة السياسية إلى المجتمعات الآسيوية غير المسلمة.

تقول رسالة الغزالى لنا فى الوقت الحالى كيف يجب أن ينهض المسلمون لمواجهة التحديات التى يطرحها الغرب، فيجب على المسلمين أن لا ينبذوا الغرب ولا تراثه

الخاص، بل يجب دراستهما وفهمهما معًا لتقدير ما يمكن تعظيمه وطرح كل ما ليس مفيد، ولإبراز ومناقشة وضعنا بلغة بسيطة وواضحة يفهمها الجميع. يوجد فى التجربة الإسلامية الكثير مما هو قيم فى ذاته ويمكن أن يكون كذلك للغرب، كما أن هناك الكثير فى التجربة الغربية يمكن أن يكون مفيداً للمسلمين. يحتاج المسلمون اليوم إلى إحياء علوم الدين بطريقة تخاطب الحالة الدائمة بنفس عمق خطابها للحالة المعاصرة، وفوق هذا كله يجب على المسلمين أن يفعلوا هذا بأمانة واهتمام بالحقيقة وجمال فى الطبع.



الفصل الثالث

ما هى إيجابيات أمريكا؟

ليس لدى أولئك الذين يعملون ويعيشون فى نقاط التقاطع بين أمريكا والعالم الإسلامى نداء أقوى من إصلاح العلاقة بينهما. فيبدو أن أمريكا والعالم الإسلامى اليوم يقعان فى حيرة مفادها: إننى لا أستطيع أن أتعايش معك ولا أستطيع أن أستغنى عنك. يجب أن نتذكر فى قرارة أنفسنا أننا جميعًا فى النهاية بشر، نشترك فى نفس الأحلام والطموحات، ويعترينا نفس الإحباط، ولنا احتياجات متشابهة، وكما يحدث فى العلاقات الإنسانية، فالأمر يدور حول ما يريده كل طرف من الآخر وكيفية إقامة ترتيب عمل يمنح كل طرف ما يريد.

إذا كان هناك أى صراع بين المسلمين وأمريكا، فالسبب فى هذا هو أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن على مستوى الأخلاقيات والمثل والقيم التى تقرها؛ وباستخدام عبارة القس ويليام سلوانى كوفين، فإن المسلمين يرون أن خلافاتنا تشبه نزاع الأحباء فى مجهوداتنا المشتركة للمطالبة بمستقبل أكثر إشراقًا بين أمريكا والعالم الإسلامى. ونصح بالتالى: «ينبغى أن يعيش المسيحيون الأمريكيون حبّا مشكلاً مع دولتهم ومع العالم، كما عاش كل أنبياء الكتاب المقدس والمسيح نفسه فى خلافات خطيرة مع إسرائيل ومع عالمهم آنذاك». وخيراً يفعل المسلمون الأمريكيون إذا انتبهوا لهذه النصيحة أيضًا، وأضاف القس كوفين: «يجب أن لا يعتقد المسيحيون أبدًا بأنهم يجلون الحقيقة الأسمى التى وجدوها فى المسيح بتجاهل الحقائق الموجودة عند غيره»(١).

ويجب أن لا يتجاهل المسلمون الأمريكيون أيضًا الحقائق المتواجدة خارج تراث عقيدتهم، فقد قال النبى ﷺ : «الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها أخذها»، وحمل الفقهاء معنى هذا الحديث على أن هناك حقائق موجودة فى الثقافات والديانات الأخرى - وقد حرص العالم الإسلامى على العمل بهذه النصيحة طوال الستة قرون الأولى بعد وفاة النبى ﷺ . كما وجه العالم الإسلامى الكندى فى القرن التاسع نصيحة مر عليها اثنا عشر قرنًا حين قال: «وينبغى لنا أن لا نستحى من استحسان الحق، واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة .. الحقيقة لا تهن أحدًا وتعظم الجميع(٢).

يشعر المسلمون بالإعجاب بأمريكا، كما يحبون أمورًا كثيرة فيها؛ وما أهدف الآن إلى شرحه قد يدهش القراء، وهو أن أمريكا هى دولة «إسلامية» جوهريًا، وأعنى بهذا أنها دولة أنظمتها تشتمل وبشكل ملحوظ على المبادئ التى تتطلبها الشريعة الإسلامية فى الحكومة، ومن منظور مختلف، هذا يعنى أن المسلمين فى شتى أنحاء العالم يؤمنون بالمبادئ التى تدعمها الحكومة الأمريكية ويأملون أن تطبق فى مجتمعاتهم. بينما تأتى شكواهم من أمريكا أنها تصرفت تاريخيًا بطريقة منحتهم انطباعًا قويًا بأنها تسعى إلى سلب المسلمين حقوقهم الثابتة فى أوطانهم.

الجناح الغربى فى البيت الأبيض مقابل الأسرة الحاكمة

مثل مكة فى القصص القرآنى، وأرض الوعد فى قصص الكتاب المقدس، فإن أمريكا تشكلت فى ظل تدين مفرط. فقد تدفق وابل من المهاجرين من أوروبا، وتحدوا بشجاعة المحيط الأطلنطى؛ لكى يقيموا ويرسخوا حريتهم وحقوقهم الدينية. فبالهجرة إلى أمريكا رأى المهاجرون قصتهم فى قصة تيه بنى إسرائيل لمدة أربعين عامًا فى الصحراء، فأمريكا هى أرض الوعد، وأصبح مجتمعهم يشبه إسرائيل الجديدة بعد أن اجتازوا حياة الاستعباد الدينى. وتستكمل أمريكا - بإحساس عميق - قصة تأسيس المجتمع الصالح الذى حاول تأسيسه إبراهيم ﷺ ومن بعده أنبياء بنى إسرائيل والنبى محمد ﷺ والخلفاء الأربعة فى المدينة، فهى تعرض نظرية للحكم تضفى شكلاً مؤسسيًا على أفضل المبادئ الأخلاقية لملة إبراهيم، وأعظم وصيتين مشتركتين بين الديانات الإبراهيمية.

على الرغم من أن ملة إبراهيم قد زرعت بذور مفاهيم الحكم الديمقراطى، فإن الديمقراطية التى نعرفها اليوم لم تظهر وتزدهر حقّا إلا بعد بضع آلاف من السنين مع قيام الثورة الأمريكية؛ فباستثناء بعض الخلفاء العدول حقّا، يرى المسلمون أن فترة حكم الرسول فى المدينة وبعده فترة حكم من اشتهروا بالخلفاء الراشدين، وكان مقرهم أيضًا فى المدينة، وهى فترة امتدت ما بين ٦٢٢ و ٦٥٦، هى الفترة التى كان الحكم متوافقًا فيها مع ملة إبراهيم.

يحدثنا التاريخ أن نظام الأسرة الحاكمة كان هو نظام الحكم الذى ساد معظم بلدان العالم المعروف، ومع وصول الأمويين للسلطة فى دمشق فى عام ٦٥٦ م، خضع المسلمون لحكم الأسر الحاكمة، وهو نظام حكم لا يظهر قيم الدين الإسلامى؛ وعلى الرغم من استمرار تسميتها بالخلافة، فقد كانت كل الحكومات التالية ملكية، يحتفظ فيها رجل واحد بكل السلطة، وينقل الحكم إلى ابنه. يصدق هذا على كل الخلافات من الخلفاء الأمويين، والعباسيين الذين أسسوا عاصمتهم فى بغداد (٧٥٠ـ ١٢٥٨) إلى المغول فى الهند (١٥٢٦ـ ١٨٥٨)، والصفويين فى إيران (١٥٠١ـ١٧٣٢)، وأخيرًا العثمانيين فى تركيا (١٢٨١ـ ١٩٢٤)، فقد سعى كل حكام الأسر الحاكمة والاستبداديين دائمًا إلى منع ظهور الأشكال المؤسسية للسلطة التى يمكن أن تقوم بكبح حكمهم وموازنته.

لقد قال محمد أسد، الصحفى البولندى اليهودى الذى أسلم وعاش فى المملكة العربية السعودية، وتحول للإسلام واشترك فى إقامة دولة باكستان عند ميلادها فى عام ١٩٤٨، فى رثاء له: «لم تكن هناك دولة إسلامية حقيقية بعد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين. . . . مهما كان شكل الدولة والحكومة الذى قام فى البلدان الإسلامية بعد تلك الفترة الأولى المبكرة، فقد فسد بدرجة قليلة أو عالية، بسبب الانحرافات الفكرية عن وضوح وبساطة الشريعة الإسلامية فى السابق، أو حتى محاولات صريحة ومدروسة من جهة الحكام المتورطين فى تشويه الشريعة وإضفاء الإبهام عليها لأجل مصالحهم الخاصة»(٣).

وكما نرى، فإن كثيرين من المسلمين يرون أن شكل الحكومة التى أسسها الأمريكيون منذ أكثر قليلاً من قرنين من الزمان كأسلوب حكم تعبر عن أفضل القيم والمبادئ الإسلامية الأصيلة.

في عام ١٧٧٦ ، وبعد قرن ونصف القرن من هبوط المهاجرين الأمريكيين فى العالم الجديد، اجتمع مؤسسو أمريكا فى فيلادلفيا ووضعوا مشروع إعلان الاستقلال، الذى أنهى الروابط السياسية التى كانت تربط الشعب الأمريكى ببريطانيا العظمى. وبعد ذلك بأحد عشر عامًا، اجتمع العديد من هؤلاء المؤسسين مرة أخرى لوضع مشروع خطة الحكم لهذه الأمة الجديدة، دستور للولايات المتحدة؛ وبينما لخص الإعلان الرؤية الأخلاقية للمؤسسين والحكومة التى تتضمنها، وسع الدستور وأعد نظام الحكومة الذى عبر عن قيم الإعلان. وتصف هاتان الوثيقتان معًا قيم أمريكا العليا وقانونها الأساسى، وعلى هذا فهما مجموع المعتقدات والمذاهب أو «الأديان» التى يعمل جميع الأمريكيين بموجبها.

يحدد الإعلان ما يشكل حكومة شرعية، ثم يمضى فى توضيح مدى ابتعاد الحكم الإنجليزى عن هذا الهدف، ويتفق هذا الوصف للحكومة الشرعية فى رأى المسلمين مع مبادئ الشريعة الإسلامية، كما تعد «الأضرار والاغتصابات المتكررة» التى أنزلها الحكم الإنجليزى بالأمريكيين أضرارًا بمقتضى الشريعة الإسلامية أيضًا.

افتتح الإعلان بديهيًا بأهم سطر فى الوثيقة ألا وهو: «إننا نرى أن هذه الحقائق جلية بذاتها»[٤] وذلك أمر يستند إلى العقل مثلما فعل القرآن وملة إبراهيم فى التأكيد على بديهية وحدانية الله، وتستدعى اللغة التى استخدمها الإعلان فى النفس الأعراف المديدة للقانون الطبيعى، الذى يقر وجود قانون أسمى ألا وهو قانون الصواب والخطأ الذى يتم استنباط القانون البشرى منه والذى ربما - وينبغى - أن تقاس عليه القوانين الوضعية، فليست الإرادة السياسية هى أساس النظام السياسى الأمريكى، بل هو الاستنباط الأخلاقى الذى يستطيع أن يدركه الجميع.

لكن تعنى «الطبيعة»، فى عيون المؤمنين بالله على الأقل، مجرد مرادف لـ«خلق الله» وبالتالى يجب أن يعنى القانون الطبيعى «القوانين التى وضعها الله وأقام الخلق عليها، والتى تتسع لتشمل دائرة تمتد ما بين قوانين العلوم المادية مثل الرياضيات والفيزياء والأحياء والكيمياء حتى قوانين علم الاجتماع وعلم النفس التى تحكم العلاقات الإنسانية، والتى عرفها الإنسان جميعًا من خلال العقل؛ لذا افتتحت الفقرة الأولى من إعلان الاستقلال بعبارة «عندما . . . يصبح ضروريًا لوجود شعب واحد . . . أن

يتبوأ . . . المكانة المستقلة والمتساوية التى **خولته لها القوانين الطبيعية وقوانين رب الطبيعة**» (استخدام الحروف السوداء من إضافتى) .

يسمى القانون الذى وضعه الله شريعة عند المسلمين، وعليه فإن «قوانين الطبيعة وقوانين رب الطبيعة» هى الشريعة بحكم التعريف، وهى قانون يجب أن يجذب العقل الإنسانى ويتفق مع طبيعة الإنسان ويبلغنا أن «المجتمع المبنى على أفكار مشتركة هو مظهر لحياة الإنسان أكثر تقدمًا من المجتمع الذى ينتج من عرق أو لغة أو موقع جغرافى»[٥] .

كتب ألكسندر هاملتون عام ١٧٧٥ ، أى قبل بدء الثورة الأمريكية بعام يقول: «إن الحقوق المقدسة للبشرية لا ينقب عنها فى المخطوطات القديمة أو السجلات العتيقة، فقد دونتها اليد الإلهية ذاتها بما يشبه شعاع الشمس فى كتاب كامل هو طبيعة الإنسان، ولا يمكن أبدًا محوها أو إبهامها على يد الإنسان الفانى»[٦] . ولاحظ توماس جيفرسون بعد نحو خمسين عامًا، أى فى ١٨٢٤ فى إشارة إلى مشروع إعلان الاستقلال أنه: «لم تسنح لنا أية فرصة للبحث فى السجلات العتيقة أو للتفتيش فى المخطوطات الملكية، أو لتمحيص قوانين مؤسسات أسلاف شبه برابرة، فقد انجذبنا إلى قوانين الطبيعة، ووجدناها مطبوعة فى قلوبنا»[٧] . فهل يمكن بعدئذ إظهار ملة إبراهيم التى تمثل الدين الطبيعى ـ أو دين الفطرة عند المسلمين كتعريف لجوهر الإسلام ـ بشكل أوضح وأكثر جلاء؟

إن الإيجابى فى أمريكا هو إعلان الاستقلال؛ لأنه يجسد ويردد جوهر قيم ملة إبراهيم والقيم الإسلامية بالتالى، وبما أن حرية الإنسان أحد أهدافها والسبب الذى نبرر به نظامنا السياسى، فإن الحقائق الأخلاقية الأساسية التى تظهر فى إعلان الاستقلال وتفصل ملة إبراهيم هى :

لقدخلق جميع الناس متساوين، وأن خالقهم حباهم حقوقًا معينة لا يمكن التنازل عنها؛ من بينها حق الحياة والحرية والتماس السعادة ـ ولضمان هذه الحقوق تتشكل الحكومات من الشعوب، وتستمد صلاحياتها العادلة من موافقة المحكومين .

إننا متساوون طبقًا لما حددته حقوقنا؛ فلا يتمتع إنسان بحقوق أسمى من حقوق إنسان آخر. فقد ولدنا بهذه الحقوق، ولم نحصل عليها من أى أحد أو من أية حكومة، لكن القضية الحقيقية على العكس من ذلك وهى أن جميع الحقوق التى تتمتع بها الحكومة قد أخذتها منا، نحن المحكومين، وبموافقتنا. يتضمن حقنا فى التماس السعادة، حق كل فرد منا فى أن يحيا الحياة التى يتمناها ـ أن نسعى وراء السعادة بالطريقة التى نراها أفضل ـ بشرط وحيد هو احترام الحقوق المساوية للآخرين فى فعل ذات الشىء وعدم انتهاك حقوقهم فى هذا الصدد؛ وهكذا لخص مؤسسو أمريكا الأسس الأخلاقية لمجتمع حر ـ وفى هذه العملية أسسوا مجتمعًا إبراهيميًا، وتعتبر هذه المعتقدات ركائز أساسية لكل الأمريكيين، ويمكن القول بأنها تشكل «الدين» الأمريكى أو العقيدة الأمريكية التى ينتمى إليها الأمريكيون ويؤمنون بها، كما أنها تعتبر معتقدات أساسية بالنسبة إلى كافة المسلمين الذين يرون أن هذه المعتقدات جوهرية فى الإسلام.

«الدين» الأمريكى الذى يؤمن به حتى الملحدون

تتألف الممارسة الدينية من جزأين: جزء يخص علاقة الإنسان بربه، وطريقة العبادة وما يحدث بعد الموت، وما نحو ذلك، والذى يسميه أصدقاؤنا المسيحيون بـ«البعد الرأسى» للممارسة الدينية الذى تجسده الوصية الأولى بحب الله من جماع القلب والعقل والروح والقوة؛ أما الجزء الثانى فهو الجزء الاجتماعى والذى يتصل بحياتنا الاجتماعية وكيفية التفاعل مع العالم من حولنا، والذى يسميه أصدقاؤنا المسيحيون بـ«البعد الأفقى» للممارسة الدينية. وتجسده الوصية الثانية بأن نحب لجيراننا ما نحبه لأنفسنا؛ وفى حين أن كافة الأمريكيين يعترفون بأن الجزء الأول هو من الممارسة الدينية، لا يعتقد أغلب الأمريكيين أن الجزء الثانى دينى، لكن المسلمين يعتقدون ذلك؛ وهذا ما يجعلهم لا يرون الفصل بين الدين والدولة بنفس الطريقة التى يراها الأمريكيون.

لا يمكن لمجتمع من الناس أن يعمل، ناهيك أن يلتمس السعادة إلا بعد تحقيق درجة عالية من الإجماع حول ما هو صواب وما هو خطأ فى مجال الشئون الإنسانية، ولا يمكن أن يتحقق هذا القدر من هذا الإجماع سوى بموافقة المجتمع على التزام أخلاقى

نابع من قانون أخلاقى دائم ومطلق. إذ يقبل المجتمع على أساس مثل هذا الاتفاق مجموعة من القواعد التى تشكل التزامًا أخلاقيًا يلزم كافة أعضاء المجتمع، وتعكس هذه المجموعة من القواعد البعد الأفقى لدين المجتمع وتجسد وتحدد تفاصيل الكيفية التى يتعين بها التعبير عن الوصية الثانية. وتنبثق هذه المجموعة من القواعد بالضرورة من البعد الرأسى أو تتعلق به على الأقل. فتمنح هذه القيم المعيارية معنى للمجتمع.

ويمكن أن يطلق على ما يسمى بأسلوب الحياة الأمريكى، الدين الأمريكى، حيث إنه يوفر لكافة الأمريكيين هيكلاً من الأفكار والمثل والطموحات والقيم والمعتقدات والمعايير، ويشكل ما يعرض نفسه أمام الأمريكيين باعتباره الحق والخير والصدق فى الحياة، لكن لا يعنى هذا بالضرورة أن تلك القيم يتم الالتزام بها بدقة فى الممارسات اليومية؛ فغالبًا ما ينتهك الأمريكيون هذه المعايير تمامًا مثلما يقع أى من البشر الأتقياء فى ذنب؛ وسواء يتم انتهاك هذه القيم أو لا، فإنها تعتبر قيمًا معيارية وثيقة الصلة بمجال الأعمال والسياسة والحياة اليومية على نحو لا يتحقق للعقائد الرسمية للطقوس الدينية أو للدين ببعده «الرأسى».

الديمقراطية والحرية - خاصة على الطريقة الأمريكية - تمثل تجليًا لملة إبراهيم. فمن الناحية السياسية، تعبر العقيدة الأمريكية عن نفسها فى القيم والحقوق المسرودة فى إعلان الاستقلال والدستور، وتظهر هذه الرؤية للعالم من الناحية الاقتصادية فى المشروع الحر واقتصاد السوق الحرة، وتعنى اجتماعيًا الدعوة للمساواة بين البشر والاهتمام بأعضاء المجتمع المعرضين للخطر. وتنطوى هذه العناصر إجمالاً ضمنيًا على منافسة اقتصادية شديدة وحراك اجتماعى عال. ويعتبر أسلوب الحياة الأمريكى أسلوبًا فرديًا نشطًا عمليًا يؤكد على القيمة السامية للفرد وكرامته، ذلك الفرد الذى يكد ليحقق التقدم ويرغب فى أن يتم تقييمه من خلال إنجازه، فالأفعال وحدها هى التى تهم؛ وعلى الرغم من أن البعض يرى فى هذا البعد الأفقى الأمريكى للدين نوعًا من عقيدة مذهب التطهر العلمانى الذى شكلته البروتستانتية الأمريكية، إلا أنه يمكننا بالمثل التأكيد بصورة مساوية على أنها فى الجوهر تعبر عن ملة إبراهيم والهدى الإسلامى على حد سواء[٨].

أعادت هذه الأفكار بحلول القرن العشرين تشكيل الديانات المسيحية واليهودية التاريخية على الأرض الأمريكية، فيعقب المؤرخ الديني الأمريكي بيري ميلر قائلاً: «كما لاحظ الكثيرون، فإنه على الرغم من مجيء الكنائس البروتستانتية في أمريكا من أوروبا، إلا أنها أظهرت العديد من الصفات الشائعة أكثر من الكنائس التي ظلت في منبتها الأوروبي، كما يشعر اليهود بأن وجود الكنيس اليهودي لم يعد أمراً مستغرباً في أمريكا. حتى أن الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا اكتسبت نغمة مختلفة عن الكاثوليكية في أوروبا»(٩)؛ وفي حين أن الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية تعتبر نفسها **من الناحية العقائدية** الكنيسة الحقيقية الوحيدة، فإن في السلوك **الاجتماعي** الواقعي يميل العديد من الأمريكيين الكاثوليك والأمريكيين البروتستانت والأمريكيين اليهود في نهاية الأمر إلى اعتبار أن جماعاتهم الدينية قائمة جنبًا إلى جنب في تناغم تعددي يدخل بطريقة ما في نسيج الحياة الأمريكية.

لم يكن التعدد الديني الأمريكي الذي يتماشى تمامًا مع ملة إبراهيم مجرد حقيقة تاريخية أو سياسية فحسب، بل أصبح في العقل الأمريكي الوضع الأصلي للأمور، وصار مظهراً جليًا بذاته وأساسيًا في أسلوب الحياة الأمريكي، وبالتالي أصبح هو نفسه مظهراً من مظاهر العقيدة الأمريكية. إن تعدد الديانات والكنائس شيء بديهي تمامًا بالنسبة للأمريكيين، ويمثل أساس الفهم الأمريكي لمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة - وهي الفكرة القائلة بأنه لا يجوز للحكومة فعل شيء يوحي بتفضيل أو شرعية لأية كنيسة عن غيرها؛ كما كان تعدد الأديان ودور العبادة بالمثل أمراً بديهيًا في بلاد المسلمين حتى الثلث الأخير من القرن العشرين؛ حيث يرى المسلمون أن هذه التعددية تنبثق من أوامر نص عليها القرآن.

أمريكا:

دولة تمتثل للشريعة

ينظر العديد من الأمريكيين المسلمين إلى أمريكا على أنها دولة «إسلامية» أفضل من بلادهم الأصلية؛ وقد يبدو هذا أمراً يدعو للدهشة إن لم يكن سخيفًا بالنسبة للعديد من

الأمريكيين، وللمسلمين خارج أمريكا، لكنه قائم على حجة أن الدستور الأمريكى ونظام الحكم يؤيدان المبادئ الجوهرية للشريعة الإسلامية.

حدد فقهاء المسلمين خمسة مجالات للحياة يجب على الشريعة الإسلامية حمايتها ومساندتها، وهى: النفس والعقل [صحته وسلامته) والدين والمال (أو الثروة) والأسرة (النسل والذرية). وبناءً على ذلك فإن أى نظام حكم يصون ويدعم ويقوى هذه الحقوق يعد حكمًا «إسلاميًا» أو ممتثلاً للشريعة فى جوهره؛ ونظرا لأن هذه الحقوق ممنوحة من قبل الله، فهى غير قابلة للتنازل، ولا يمكن تجريد أى رجل أو امرأة منها دون سلبهما إنسانيتهما الأساسية.

إن ما أقوم بإثباته هنا هو أن النظام السياسى الأمريكى ممتثل للشريعة لأن «مجرد وجود دولة، أغلب سكانها من المسلمين لا يكفى لجعلها دولة إسلامية. حيث لا يمكن أن تكون إسلامية حقًا إلا بمقتضى التطبيق الواعى لمبادئ الإسلام السياسية والاجتماعية فى حياة الأمة وبدمج هذه التعاليم فى الدستور الأساسى للبلد[١٠]، وللسبب نفسه فإن الدولة التى تطبق هذه التعاليم السياسية الاجتماعية هى فى الواقع دولة إسلامية حتى لو لم يكن هناك مسلمون بالاسم يعيشون فيها؛ لأنها تعبر عن مثل المجتمع الصالح طبقًا للمبادئ الإسلامية، ومن أجل أن تحرز أمريكا درجة أعلى فى سلم الدرجات «الإسلامى» أو فى «الامتثال للشريعة»، فإنها تحتاج إلى فعل أمرين: دعوة ممثلى جميع الأديان للمشاركة فى حوار عن تشكيل الحياة العملية للدولة، ومنح حرية أكبر للطوائف الدينية فى الفصل فيما بينها طبقًا لشرائعها الخاصة.

ويورد الإعلان بعض الحقائق باعتبارها بديهية فى ذاتها تربط الإعلان بمفهوم القرآن عن دين الفطرة والمعتقدات الراسخة فى أفئدة البشر. وحيث إن القرآن يؤكد أن البشرية خلقت من رجل واحد وامرأة واحدة، فبذلك نحن أسرة واحدة ومتساوون أمام الله لا يميز بيننا سوى التقوى والطبيعة الأخلاقية. وقد سرد المؤسسون فى البداية الحقوق غير القابلة للتنازل عنها مثل الحياة والحرية والمال، مع استبدال كلمة المال بعبارة **التماس السعادة**، وبمقارنة مسرد الحقوق الواردة فى إعلان الاستقلال وقائمة الحقوق الواردة فى الشريعة الإسلامية، نجد أن **الحياة** عنصر مشترك فى كليهما، فى حين يمكننا القول

بأن الحرية والتماس السعادة الواردة فى الإعلان تشتمل على بنود الشريعة المتعلقة بسلامة **العقل والنسل والمال والدين**؛ ألسنا نجد السعادة وتحقيق الذات عندما نحظى بسلامة العقل، ونكون مستمتعين بأوقاتنا مع عائلتنا، ومعتنين ببيوتنا، ومقدمين الخدمة للإنسانية، وممارسين للدين الذى نختاره بحرية؟

ثم اتجه المؤسسون للحديث عن الحكومة، فيقول إعلان الاستقلال بأن الحكومات تقوم من أجل ضمان هذه الحقوق غير القابلة للتنازل عنها حتى يتمكن المواطنون من الحياة بالطريقة التى يختارونها. يجب أن تستمد الصلاحيات التى قد تحتاجها الحكومة من أجل تحقيق هذا الهدف من موافقة المحكومين - حتى تكون عادلة، أما إذا «أصبحت أية حكومة مدمرة لهذه الغايات، فإن من حق الشعب تعديلها أو إلغاءها وإقامة حكومة جديدة تتأسس على مثل هذه المبادئ وتنظيم صلاحياتها بشكل يتراءى لهم أنه الأفضل لتحقيق سلامتهم وسعادتهم»؛ وبذلك يكون إعلان الاستقلال متماشيًا مع متطلبات الشريعة الإسلامية ومعبرًا عنها تمام التعبير.

ومقصد الشريعة هو إشباع لملة إبراهيم؛ فكما قال فقيه أوائل القرن الرابع عشر ابن القيم الجوزية الحنبلى:

[فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلُّها، ومصالح كُلُّهَا، وحكمة كُلُّها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجوْر، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العَبَث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عَدلُ الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظلُّه فى أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتمَّ دلالة وأصدقَهَا، وهى نوره الذى به أبصر المبصرون، وَهُدَاه الذى به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذى به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذى من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل، فهى قُرَّة العيون، وحياة القلوب، ولذَّةُ الأرواح؛ فهى بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة، وكلُّ خير فى الوجود فإنما هو مستفاد منها، وحاصل بها، وكل نقص فى الوجود فسببه من إضاعتها، فالشريعة التى بعث الله بها رسوله هى عمود العالم، وقطب الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة](11)

وتوضح حقيقة أن المثل الأمريكية عن الحكم الصالح تنبع أيضًا من ملة إبراهيم كجزء من الدين الطبيعي المطمور عميقًا في قلب الإنسان، وهو دين يرتكز إلى العقل، مدى تعبير المثل الأمريكية عن الأرضية المشتركة لليهودية والمسيحية والإسلام.

أهمية بيعة الشعب

تسمى موافقة المحكومين على حاكمهم عند المسلمين بيعة. ويستخدم هذا المصطلح العربي ليشير إلى اختيار جماعة المسلمين للخليفة أو مبايعته عليها وللإعلان والإقرار بأنه قائد جماعة المسلمين. نشأت البيعة في الأصل من عادة عربية قديمة وهي توثيق أي اتفاق بالمصافحة، وظهرت في المجتمع الإسلامي عندما بايع أهل المدينة النبي ﷺ عند العقبة، وتكررت عدة مرات، اشتهر منها ما كان بعد ما أراد النبي ﷺ أداء فريضة الحج عام ٦٢٨ م ومنع من الدخول إلى مكة. وانتشرت شائعة كاذبة أن رسول النبي للتفاوض مع القرشيين عثمان بن عفان قد قُتل في مكة، فتأزم الموقف ودعا النبي ﷺ أصحابه إلى مبايعته على المضي معه فيما يقرره، وهذا ما كان بالفعل[١٢].

كما تم استخدام البيعة بعد وفاة الرسول ﷺ في يوليو ٦٣٢ م لاختيار أول خليفة للمسلمين وهو أبو بكر الصديق، حيث تم اختياره في اجتماع في المدينة، ولم يبايعه علي رضي الله عنه ابن عم النبي وصهره إلا بعد بضعة أشهر، كما رفض سعد بن عبادة - سيد قبيلة بني ساعدة الذي أراد أن يكون الخليفة - البيعة لأبي بكر رضي الله عنه ثم رحل إلى سوريا في آخر الأمر.

بعد أن قبل أبو بكر البيعة من الناس، حمد الله وأثنى عليه، ثم خطب في الناس قائلا:

أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله[١٣]، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[١٤].

اختار أبو بكر عند ما جاءه الموت عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين وبايعه الناس على ذلك، وهكذا كانت البيعة تصديقًا على الخليفة.

بعد أن أسس الأمويون أنفسهم كأسرة حاكمة فى دمشق عام ٦٥٦ ميلادية، أى بعد خمسة وثلاثين عامًا من وفاة النبى ﷺ، كان المسلمون مجبرين على مبايعة حكام لا يريدونهم ولا يوافقون عليهم؛ وقد أصدر الإمام مالك بن أنس (٧١٣-٧٩٥م)، الذى ولد بالمدينة وعاش بها طيلة حياته وأسس مدرسة للفقه باسم المذهب المالكى، فتوى بأن البيعة تكون غير شرعية إذا أخذت بالإكراه، فأمر والى المدينة جعفر بن سليمان(١٥) بجلد الإمام مالك على تصرفه انطلاقًا من الإحساس بأنه سلطة قضائية مستقلة، وتمثل هذه الفتوى التى عرقلت الأمويين تعبيرًا مبكرًا لتأييد الحكم النيابى.

تثبت هذه السوابق أنه ليس من الضرورى فى الشريعة الإسلامية أن تكون البيعة بالإجماع، ولا أن تفرض على المجتمع، ولكن المقصود أن تكون فعلاً اختياريًا يشارك فيه كل العامة، وصدر العديد من الآراء حول عدد الناخبين (أهل الاختيار) اللازم كى تكون البيعة صحيحة: وتراوح بين من يقول إنه يشمل «كل الرجال العدول فى الدولة بأسرها، وبين من تجوز تسميته بالنصاب النيابى القانونى». ولكن فى القرون التالية، وعندما عادت أشكال الحكم التى كانت سائدة قبل الإسلام إلى الظهور مرة أخرى استنادًا إلى حكم الطبقة العليا، أصبحت البيعة عملية بعيدة عن الانتخاب وأقرب إلى إظهار الولاء للشخص الذى تم تعيينه.

استخلص الفقهاء المسلمون عددًا من مبادئ الحكم الصحيح من بيعة المسلمين للنبى ﷺ ومن الوقائع التى وقعت أثناء حياته وكان يقبل فيها نصح أصحابه؛ وبالنظر فى هذه المبادئ فى ضوء خطبة أبى بكر للقبول السابق ذكرها، وفى ضوء آراء الفقهاء المتقدمين مثل عينة فتوى الإمام مالك المذكورة أعلاه، استنتج الفقهاء المسلمون وجوب تطبيق المبادئ التالية فى البيعة حتى تكون صحيحة:

* لا يكون الحكم صحيحًا دون موافقة المحكومين.

* لا يجوز أخذ موافقة المحكومين بالإجبار أو بالإكراه.

* يجب أن يظل الحاكم ملتزمًا بالشرائع الإلهية، فإذا لم يلتزم به يتحلل الذين بايعوه من بيعتهم.

* لا يشترط أن يكون الشخص المنتخب هو «الأفضل» من حيث المعايير الدينية أو الروحية، ولكن أن يكون شخصًا قادرًا على الحفاظ على شرعية الحكم عن طريق تأمين وحماية وتعزيز حقوق المحكومين الثابتة التى لا يمكن التنازل عنها.

* تدل عبارة أبى بكر «وإن أسأت فقوموني» على أن الحكومة يجب أن تسمح بمراجعتها؛ لأن البشر يخطئون، أما افتراض أن الحكومة لا تخطئ فيتعارض مع المبادئ والشريعة الإسلامية.

* لا تكون الحكومة شرعية ما لم تعتبر الصدق أمانة، والكذب خيانة، وتحمى حقوق الضعفاء من أن يهضمها الأقوياء فى المجتمع، وتلتزم بالتشريع الإلهى (أى بطاعة الله ورسوله).

وتعتبر الحكومة التى تلتزم بمبادئ البيعة المذكورة آنفًا فقط أهلاً لقوة الله وحمايته، أو بلغة أبسط حكومة شرعية إسلامية، ويخاطب القرآن أصحاب النبى ﷺ الذين بايعوه فى الحديبية قائلاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

ذكاء الآباء المؤسسين: فصل السلطات

نستطيع أن نرى الحكومة الشرعية فى مبادئ الحكم الإسلامى والأمريكى تسمح بنظام الضوابط والموازنات على حكمها؛ لذا فعندما ركز المؤسسون على وضع مشروع الدستور الجديد فى عام ١٧٨٧ كانوا يريدون حكومة قوية بشكل كاف لتأمين حقوق الأمريكيين من القمع الداخلى والخارجى، ولكن ليست طاغية القوة لدرجة تجعلها مستبدة هى نفسها، ولتحقيق هذه الغاية منحوا السلطة لحكومة مركزية فيدرالية وأعطوها صلاحيات معينة، ثم ضبطوا ووازنوا هذه الصلاحيات من خلال سلسلة من التدابير المدروسة بطريقة فائقة.

من المفيد تذكر أنه في عام ١٧٨٩ كانت معظم السلطة فى يد الولايات، أما الحكومة الفيدرالية الحديثة العهد فكان لديها القليل من السلطة. وليس من المبالغة أن نقول إن نفوذ واشنطن العاصمة منذ مائتى عام بالمقارنة بنفوذ الولايات كان مثل نفوذ بروكسل اليوم كمقر للاتحاد الأوروبى.

تبدأ ديباجة الدستور بتذكير القارئ بأن السلطة تأتى من الشعب عندما تقول: «ونحن شعب الولايات المتحدة. . . نفرض ونؤسس هذا الدستور» ولكن السلطة التى وافق الشعب على منحها للحكومة للعمل نيابة عنه محدودة للغاية، ثم يسرد الدستور هذه السلطات مع الاحتفاظ بباقى السلطات للولايات (أو للشعب) حيث لم تُمنح لأى مستوى حكومى؛ وهذا يعنى باللغة العامية أننا «نحن الشعب» نعطى لك «أيتها الحكومة» صلاحيات معينة، ولكن تذكرى أننا نحتفظ بالسلطة كاملة، ونستطيع أن نسحبها منك وقتما نريد.

قُصد من سرد السلطات الحد منها، فلم يمنح الدستور الكونجرس سلطة مطلقة، ولكن مجرد السلطة اللازمة لتنفذ الحكومة السلطات المحددة، أراد المؤسسون من مبدأ سرد السلطات أن يكون الدفاع الأساسى ضد أية حكومة مستبدة؛ لأن الحكومة لن تستطيع إساءة استعمال سلطة لا تمتلكها أصلاً. ولكن لعلمهم أن البشر يميلون لاشتهاء السلطة وربما يسيئون استخدامها عندما يمتلكونها، أضافوا وسائل دفاع أخرى بالإضافة إلى تقسيم السلطة بين الحكومة الوطنية وحكومات الولايات، وقاموا بفصل سلطات الحكومة الوطنية إلى ثلاثة فروع: الرئاسة (السلطة التنفيذية) والكونجرس (السلطة التشريعية) والمحاكم (السلطة القضائية أو القانونية) مع وجود ضوابط وموازنات بينها تضمن وجود تباعد مناسب بين السلطات المختلفة.

لقد شعر المؤسسون بوجود «مسافة ملائمة» أو توازن بين مراكز القوة، ليست بالكبيرة المفرطة ولا بالصغيرة للغاية؛ فلا يعنى توازن السلطات بين الفرع القضائى والفروع الأخرى - على سبيل المثال - وجود فصل تام بينها تعمل السلطة القضائية معه بطريقة مستقلة تمامًا، كما لا يعنى أن الرئيس أو أى عضو بالكونجرس يمكن أن يكون فوق القانون، أو أن الرئيس والكونجرس ليس لهما أية علاقة بالمحاكم، فإن فصل السلطات فى الواقع يحدد العلاقات الخاصة بينها، ويحدد المسافة المناسبة بينها، أو

يوازن بين السلطات بما يسمح لكلٍّ منها بالاستقلال، وفى نفس الوقت يوازن ويكبح هذه السلطة من قبل السلطات الأخرى.

إن الفصل بين السلطات يعنى بالتأكيد أن كل فرع مستقل عن الآخر فى مباشرة عمله اليومى، وتظهر سلطة الرئيس على المحاكم من خلال حقه فى تعيين قضاة لكل محكمة، ولكن للكونجرس الحق فى قبول أو رفض هذا التعيين إعمالاً للكوابح والموازنات على الرئيس، وهى عملية يمكن أن تكون شاقة بالنسبة للمرشح لمنصب قاض بالمحكمة العليا؛ ولكن ما أن يبدأ القاضى عمله فى هذا الفرع، لا يستطيع الرئيس ولا الكونجرس إجباره على الحكم فى قضية ما بطريقة معينة، ولا محاولة معاقبته على حكمه بهذه الطريقة ـ رغم أن بإمكان الكونجرس توجيه الاتهامات إلى القضاة وإقالتهم من منصبهم. وقد تمارس المحاكم أثناء الفصل فى القضايا والنزاعات المعروضة عليها الضوابط القضائية عن طريق مراجعة تشريعات الكونجرس والقوانين التنفيذية لضمان عدم تجاوزها للحدود التى وضعها الدستور(١٦). فهذه هى الطريقة التى تمارس بها المحاكم سلطة مُوازنة للسلطة التنفيذية والتشريعية، وتلك هى الطريقة التى حددت أمريكا بها التوازن الصَحيح بين السلطة القضائية والسلطات الأخرى.

إن مبدأ فصل السلطات فى تاريخ الحكومة الأمريكية يضمن عدم اندماج قدر من النفوذ أكبر من اللازم فى يد فروع السلطات؛ لأن ذلك قد يؤثر سلبًا على حريات الشعب؛ فبعد انتخاب الرئيس فرانكلين روزفلت لفترة رئاسية رابعة، أدرك الكونجرس أن الوجود فى الحكم لوقت أكثر من اللازم قد يسبب زيادة سلطة الفرع التنفيذى لدرجة تخل بالتوازن الذى أوصى به مبدأ فصل السلطات، فقام بإصلاح هذا الخلل بالتصديق على التعديل الثانى والعشرين للدستور فى فبراير عام ١٩٥١م الذى قصر مدة الرئاسة على فترتين كلٌّ منهما ٤ سنوات كحد أقصى، وكان هذا على الرغم من أن رئيس الدولة لا يملك حتى السلطة اللازمة لاستدعاء الجيش أو الحرس الوطنى للقبض على أعضاء الكونجرس الذين لا يتفقون معه فى شئون السياسية. وبالرغم من نفوذ الرئيس الأمريكى، إلا أنه مقيد فى كيفية استخدام سلطاته ـ وهذا جزء أساسى من مبدأ فصل السلطات. ويدرك الأمريكيون أن الحكومة الجيدة ـ وهى الحكومة التى تلتزم عن كثب

بملة إبراهيم عليه السلام في حرية الإنسان والاستقلال والسعادة ـ هي التي توشك على تحقيق التوازن بين المراكز المختلفة التي تمتلك السلطة وتديرها.

لقد نضجت الحكومة الفيدرالية التي كانت لا تزال في المهد في عام ١٧٩٠ وأصبحت أقوى حكومة في العالم، حيث تفوقت في نموها على «آبائها» الولايات، وبينما تظل السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية هي الفروع الثلاثة الرئيسية للحكومة، فإنها لم تعد هي المؤسسات الفيدرالية الوحيدة التي تتمتع بسلطة تجعل العقل يجفل. لذلك أرى أن نضيف إلى هذه المناقشة بعض مراكز السلطة الأخرى في الولايات المتحدة حتى نستطيع أن نعقد مقارنة أفضل بين مراكز السلطة في الولايات المتحدة وبين مراكز السلطة في بلدان أخرى، فبجانب الفروع الثلاثة للحكومة الأمريكية، يمكن إضافة مركزين للسلطة يرفعان تقاريريهما إلى الحكومة وهما: الجيش والبنك المركزي (الذي يطلق عليه في أمريكا بنك الاحتياطي الفيدرالي the Federal Reserve)، كما يعتبر الاقتصاد القومي ووسائل الإعلام مركزين آخرين للسلطة مستقلين عن الحكومة في الولايات المتحدة، وإن كانا يلتزمان ببعض اللوائح الحكومية.

كان الجيش الأمريكي ـ الذي يعتبر أقوى جيش في العالم في الوقت الحالي ـ موجوداً بالكاد وقت صياغة الدستور والتصديق عليه، أما في عام ٢٠٠٤، فقد بلغت ميزانية الجيش ٣٩٩,١ مليار دولار، وهو ما يعادل الميزانيات العسكرية المجمعة للعشرين بلداً التالية في الترتيب(١٧).

إن الكونجرس هو الذي يخصص اعتمادات الجيش المالية؛ لذا فعلاقة الجيش الأمريكي بالحكومة الفيدرالية تشبه علاقة الموظف بالحكومة المدنية، ويتم الإبقاء عليها هكذا عن قصد. هناك «مسافة صحيحة» بين الجيش الأمريكي والحكومة الأمريكية؛ فعلى الرغم من القوة التي يمتلكها الجيش، إلا أنه ليس له رأي من الناحية المؤسسية في شئون الحكم، ولا يمكنه أن يلقي بثقله لصالح أو ضد مرشح معين يخوض الانتخابات للحصول على منصب سياسي، وإن كان الموظفون العسكريون يقومون بالانتخاب. وليس للجيش أية علاقة إذا قام الكونجرس برفع أو خفض الضرائب، أو قضت المحاكم بأن الإجهاض مسموح به أو غير مشروع، أو كيفية ضبط البنك المركزي لعرض النقود؛ وعلى الرغم من أنه أداة من أدوات السياسة الخارجية، إلا أن الجيش لا يستطيع

أن يُقحم نفسه فى تقرير السياسة الخارجية، كما لا يستطيع إعلان الحرب أو التمرد على الرئاسة، بل حتى لا يمكنه رفض خوض حرب صدرت بها الأوامر متعللاً بأنه لا يعتقد بضـرورة هذه الحـرب فى الدفـاع عنا. كمـا أنه ليس بإمكان الجيش زيادة مـوارده لدفع مرتبات العاملين به أو للتسليح العسكرى أو للتزود بمعدات أخرى لازمة، ولكنه بدلاً من ذلك يتقدم بطلب إلى الكونجرس الذى يقرر عندها المبلغ الذى يتعين دفعه، ويقوم بتخصيص الاعتمادات المالية اللازمة. ولا يفكر الأمريكيون فى الغالب فى الجيش عند التـفكيـر فى فـصل السلطات، إلا أنه من منظور شـعـوب تعـيش تحت طائلة النظم العسكرية، يصبح ذلك ميزة كبيرة يتمتع بها الأمريكيون.

من أجل عقد تشبيه، دعنا نتأمل فى هذا السيناريو الخيالى: تخيل أن كولن باول، عندما كان لا يزال الرئيس الثانى عشر لهيئة الأركان المشتركة، أعلى منصب عسكرى فى وزارة الدفـاع، خـلال رئاسـة كلينتـون، يتناقش مع عـدد من الجنرالات فى غـرفـة الطعام بالپنتاجون حـول الفضائح التى تفجرت فى الإدارة الأمـريكية، ولشـعورهم بالضـيق تجاه الطريقـة الفـوضـوية التى تُدار بهـا الأمـور حيث إنهـم يعـيشـون فى ظل الديمـقـراطيـة، يقـررون بأنه بإمكانهم إدارة البـلاد بطريقـة أفضـل من أولئك الذين يديرونها على الجانب الآخر من نهر بوتوماك فى البيت الأبيض والكونجرس.

يقوم الجنرالات بتدبيـر انقلاب عـسكرى ويزحفـون بالدبابات فى اتجاه واشنطن، ويتولى باول منصب الرئيس، ويستولى الجيش مدعمًا بالدبابات المنتشـرة فى وسط واشنطن وشارع وول ستريت على مكاتب جريدة الواشنطن بوست و نيويورك تايمز وغيرها من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، ثم يشرع الجنرالات فى تأميم صناعـة النفط الأمـريكيـة وعـدد من الصناعـات الرئيـسيـة الأخـرى، وإكـراه السلطة القضائية على إصدار حكم بجواز الإجهاض، وإجبار بنك الاحتياطى الفيدرالى على طبع المزيد من الدولارات لزيادة ثروة الأمة.

لن يكون هذا مقبولاً لدى الشعب الأمريكى على الأرجح، فإذا وجدت دبابات فى مـيدان تايمـز سكوير وشـارع وول سـتريت وجنوداً يراقبـونك منتـشـرين فى الأركـان الأساسية، فيا ترى ماذا يستطيع الأمريكى العادى أن يفعله؟ تخيل الضيق الذى سيشعر

به الأمريكيون إذا قال لهم الأجانب: «إذا لم يطب لكم الحكم العسكرى للجنرال باول، فلم لا تطيحون به من منصبه؟»؛ ومع ما يتمتع به الجنرالات من سلطة مُركزة، يمكنهم أن يطوعوا قادة الرأى لإرادتهم، وإذا لم يرق لهم ذلك وقدموا استقالات من مناصبهم، فهل سيجد الجنرالات صعوبة فى إيجاد بدلاء يوافقون على أفكارهم واختياراتهم؟

هذا بإيجاز ما حدث فى مصر عام ١٩٥٢م عندما قام جمال عبد الناصر، الذى لم يكن حتى جنرالاً ولكن مجرد مقدم، بمساعدة عدد من ضباط الجيش بالاستيلاء على السلطة فى القيام بانقلاب ثورى، كانت مصر فى هذا الوقت مجتمعًا تعدديًا، به مسلمون وأقباط ويهود، بالإضافة إلى الكثيرين من المهاجرين اليونانيين والإيطاليين، يناضل ضد استمرار الوجود العسكرى المستمر للاحتلال البريطانى ليصبح مجتمعًا ديمقراطيًا. ومنذ عام ١٩٢٣م، كان فى مصر نظام سياسى متعدد الأحزاب، ولكن عبد الناصر حظر فى عام ١٩٥٣م نشاط جميع الأحزاب السياسية وجعل من مصر دولة ديكتاتورية تحت حكمه الفردى الاستبدادى الأمر الذى أضر بمصر؛ وهذا المثال ليس مثالاً منعزلاً، كما أن هذا السيناريو غير مقصور على بلاد العالم الإسلامى فحسب.

إن ما يجعل المسلمين الذين يعيشون تحت طائلة حكم هذه الأنظمة الاستبدادية يجزون على أسنانهم من الشعور بالإحباط هو أنه عندما قال لهم الأمريكيون الذين يفترض أنهم على دراية أوسع: «حسنًا، إذا كان الحكم العسكرى لصدام حسين لا يروق لكم، فلماذا لا تطيحون به؟» ومما زاد الطين بلّة أن الولايات المتحدة نفسها كانت تدعم حكم صدام العسكرى منذ بضع سنوات مضت من أجل أهداف خاصة بالسياسة الخارجية الأمريكية؛ فأعلن الرئيس جورج بوش الأب عقب حرب الخليج الأولى مباشرة أن الولايات المتحدة سوف تدعم العراقيين إذا ثاروا ضد صدام حسين. وبالفعل أخذ العراقيون تصريحه هذا مأخذ الجد وثاروا على صدام حسين، ولكن بوش تراجع عن دعمه لهم وترك صدام حسين يستخدم طائرات الهليكوبتر فى ذبح الآلاف من العراقيين. ولكن كانت الولايات المتحدة، فى رأى المسلمين، متورطة فى تلك المذبحة كما يقول المثل الألمانى «الذى يحمل السلم كاللص فى الإثم» فكانت الرسالة المؤسفة التى أفادتها هذه المذبحة للمسلمين هى: «أننا لا نريدكم أن تتمتعوا

بالحريات التي نتمتع بها في الغرب»، ولم يكن هذا أيضًا المثال الوحيد، كما استمر هذا النمط في إيقاد مشاعر الغضب ضد الولايات المتحدة.

لا يوجد في معظم بلدان العالم الإسلامي في الوقت الحالي فصل بين السلطات على النحو الذي نتمتع به في الولايات المتحدة وغرب أوروبا، حيث يشيع اعتقاد وإن كان خاطئًا بأن ذلك مكمل طبيعي وتلقائي للديمقراطية. فليس من الضروري أن ينطوي الحكم الديمقراطي على حكم صحيح، حيث تجرى الديمقراطية في صناديق الاقتراع، وذلك التحذير من المفترض أن يكون نظامًا يتمكن من خلاله الناخبون من تغيير الإدارة الحاكمة سلميًا إذا أو متى شعروا بعدم الرضا تجاه حكمها. ويبدو أن التحذير هنا أمر ضروري؛ لأن الشعب لا يستطيع فعل ذلك إلا إذا كان المسئولون في الحكومة يحترمون قسمهم بالمحافظة على الدستور، ولا يحرمون الشعب من حقوقه. ونظرًا لأن الحكام يخضعون بهذه الطريقة للمساءلة أمام الشعب - هؤلاء الحكام الراغبون في الاستمرار في الحكم غالبًا - فإنه يكون لديهم حافز قوي لتحسين نوعية الحكم، أما إذا ما اغتصبت الحكومة السلطة من الشعب واستخدمت قوة الشرطة ضده، فعادة لا يستطيع الشعب فعل الكثير، خاصة إذا كانت الحكومة مدعومة من قبل قوى أجنبية كبرى[١٨].

لقد أشرنا سابقًا إلى البنك المركزي الأمريكي الذي يسمى بنك الاحتياطي الفيدرالي والذي يعتبر في بعض الأحيان السلطة الرابعة في الحكومة الأمريكية؛ وذلك لأنه يضم مجموعة قوية من صانعي السياسة الوطنية المتحررين من القيود المعتادة للإشراف اليومي من قبل الإدارة[١٩]. يُعين الرئيس مجلس محافظي البنك، ولكنه يتمتع بالاستقلال رسميًا وعمليًا عن السلطة التنفيذية، كما أن المجلس محمي بفترة ولاية تتجاوز ولاية الرئيس بكثير، ويجب على بنك الاحتياطي الفيدرالي، المتحرر إلى حد ما من الضغوط السياسية الحزبية، رفع تقارير دائمًا إلى الكونجرس حول سير السياسة النقدية. إن بنك الاحتياطي الفيدرالي يشكل جزءًا جوهريًا من الحق الدستوري للأمريكيين في التماس السعادة، والذي يمثل جزءًا من ملة إبراهيم، ولا يمكن تصور تحقيق ازدهارنا النسبي بدون وجود بنك الاحتياطي الفيدرالي وبدون الأدوار الحيوية التي يلعبها للحفاظ على سلامة الاقتصاد الأمريكي. وقد تأسس بنك الاحتياطي الفيدرالي عام ١٩١٤ ليساعد النظام المصرفي الأمريكي على التجاوب المرن مع دورات

الأعمال والأزمات الاقتصادية التى عادة ما يصحبها انهيار فى النظام النقدى، وكان لبنك الاحتياطى الفيدرالى عندما بدأ عمله تأثير كبير على الاقتصاد الأمريكى من خلال تحديده لأسعار الفائدة، وبالتالى فى أسواق الأسهم والسندات وغيرها من الأسواق المالية، كما يقوم الاحتياطى الفيدرالى أيضًا، بصفته القائم بالأعمال المصرفية لكلٍّ من المجتمع المصرفى والحكومة، بإصدار العملة القومية، وإدارة السياسة النقدية، ويلعب دورًا كبيرًا فى مراقبة وتنظيم البنوك والشركات المصرفية القابضة.

قارن هذا بالنظام المصرفى فى العراق فى ظل حكم صدام حسين أو إندونيسيا فى ظل حكم سوهارتو، حيث كانت العائلة الحاكمة تعتبر النظام المصرفى بنكها الخاص- وهو مثال يوضح المسافة التى تقل عن اللازم بين الزعماء ولب وروح الاقتصاد. لا يمكننا تخيل أن رئيسنا الأمريكى يغترف من الخزانة الأمريكية لبناء مكتبته الرئاسية، ناهيك عن أن يشترى منزلاً للعائلة فى جزر الباهاما. وبالرغم من أن هذه الأمثلة ربما تكون أكثر النماذج الصارخة لسوء الحكم فى العالم الإسلامى، إلا أن السلامة النسبية للأنظمة المصرفية فى معظم بلدان العالم الإسلامى ليست بالقوة التى يجب أو يفترض أن تكون عليها. إذا قرر الأمريكيون الأكثر ثراء إيداع ما يعادل ١٠ فى المائة من الأموال الأمريكية فى البنوك السويسرية لعدم تأكدهم من سلامة البنوك الأمريكية، فما تأثير ذلك على قوة النظام النقدى الأمريكى؟ إن هذا هو أحد التحديات التى تواجه العالم الإسلامى لبناء نظام اقتصادى سليم؛ ولا يبعد العديد من أنظمة النقد والأنظمة المصرفية المسافة المناسبة بينها وبين قادة الدولة بما يسمح باستقلالها وازدهارها؛ لأن الأنظمة المصرفية بها ليست على قدم المساواة مع النظام المصرفى الأمريكى الذى يخضع لإشراف محافظى البنك المركزى.

إن الصورة التى تتضح من خلال هذا الاستعراض للفصل بين السلطات تقول إن العلاقة بين كل مركز من مراكز السلطة وفرع أو أكثر من فروع الحكومة ليست جدارًا فاصلاً، ولكن مجموعة الفروق بينها دقيقة بدرجة عالية من العلاقات التى تحدد ولاية مركز السلطة ومسئولياته وواجباته والحدود المسموح بها لسلطته؛ كما يجب أن تعمل مراكز السلطة دائمًا على حماية وتقدم مصالح المواطنين جميعًا، وليس مصالح قطاعات معينة من الشعب على حساب غيرها، أو حتى مصالحها الخاصة.

هل أستطيع التعبير عن رأيي والعبادة كيفما أشاء؟

خوفًا من أن الحكومة قد تحاول مصادرة بعض حقوق الشعب، جاء فى أول تعديل أجرى على الدستور: «لا يصدر الكونجرس أى قانون خاص فيما يتعلق بتأسيس دين من الأديان أو يمنع حرية ممارسته أو يحد من حرية الكلام أو الصحافة، أو من حق الناس فى الاجتماع السلمى، أو فى مطالبة الحكومة بإنصافهم من الإجحاف».

وقد عرف هذا التعديل فيما بعد باسم «حكم التأسيس» والذى كان ضروريًا لحماية الحق الأساسى فى الملة الإبراهيمية وهو حرية الإنسان فى العبادة، بالإضافة إلى الحق فى معرفة أعمال الحكومة والاطلاع عليها ونقدها إذا لزم الأمر.

ترتبط هذه الحقوق ببعضها البعض ارتباطًا عضويًا؛ فنحن نجتمع فى دور العبادة المختلفة - من الكنائس والكنيسات والمساجد والمعابد ومعابد السيخ - كى نصلى ونردد الترانيم ونرتل كتبنا المقدسة؛ ولفعل هذا يلزم وجود حقين: حرية التجمع وحرية الكلام؛ أما إذا قررت الحكومة أن دينًا واحدًا هو الصواب، وأن الأديان الأخرى بدع، فلا وجود لهذه الحقوق حينئذ.

ترتبط حرية الصحافة عضويًا هى الأخرى بحرية الكلام، حيث إن دور الإعلام فى إعلام العامة وتوعيتهم عن مدى التزام الحكومة المنتخبة بالتفويض الممنوح لها وعدم حرمان الشعب من حقوقه، من أهم وظائف الصحافة لضمان حكم سليم.

يتضح أن المؤسسين لم يريدوا أن تستولى الحكومة على سلطة الدين الرسمى (الكنيسة) أو سلطة الإعلام؛ ولذلك فإنشاء كنائس مملوكة للدولة ليس دستوريًا، فالأمريكيون يتمتعون بحرية ممارسة أى معتقد دينى يختارونه دون التعرض لأى مضايقة من الحكومة التى تتمثل مهمتها - إن وجدت - فى حماية هذا الحق لكل أمريكى طالما لا يتعدى معتقده على حقوق الآخرين، كذلك لا يمكن للحكومة استخدام أىٍّ من قوى السلطة المتاحة لها أو الجيش أو الشرطة أو حتى القضاء لإجبار أى مواطن على اعتناق أو ترك أى معتقد دينى. وكان ذلك هو المعنى الجوهرى لفصل الكنيسة عن الدولة، أى تحديد المسافة المناسبة بين الدولة ومراكز السلطة الدينية.

وهناك عنصر ضرورى للحكم الصحيح هو حرية الصحافة، وتعرف باستقلال وسائل الإعلام - الصحف والكتب والمجلات والراديو والتلفزيون - وإعفائها من سيطرة ورقابة الحكومة، حيث تعتبر حرية الصحافة ركيزة أساسية لحقوق الفرد وكرامة الإنسان واحترام النفس والمسئولية الشخصية، التى تمثل جميعها الملامح الرئيسية لملة إبراهيم ﷺ (القيم التى يحميها الإعلان). وبذلك فإن حماية حرية التعبير - التى قد تكون انتقادية لسياسات الحكومة أحيانًا - من اهتمامات هذا التعديل الرئيسية. كما أن دور الإعلام يكمن جزئيًا فى توعية وإعلام الناس بما يجرى فى عالمهم. وباعتراف الدستور بحق المعارضة، يكفل تشجيع جمهوريته الصاعدة للتغير الاجتماعى والسياسى السلمى المنظم.

يمكن اعتبار وسائل الإعلام مأخوذة معًا، مركزًا من مراكز القوة حيث يؤثر على الرأى العام ويشكله. وبالتالى، يمكننا بحق النظر إليه كمركز آخر للسلطة يصنف تحت مظلة «فصل السلطات»؛ ووسائل الإعلام الهامة فى الولايات المتحدة غير مملوكة فى العموم للدولة، وبالتالى فإن حريتها واستقلالها أمر مفترض ومسلم به فى الغالب؛ ومع ذلك يمكن وجود وسائل إعلامية حرة مملوكة للدولة(٢٠)، ففى بريطانيا - على سبيل المثال - نجد أن هيئة الإذاعة البريطانية (بى بى سى) مملوكة للدولة، لكنها مستقلة وتتمتع بحرية فى نشر ما تراه مناسبًا - كما تجلى فى الغضب الذى ثار عندما كشفت إذاعة البى بى سى عن محاولات مزعومة من قبل الحكومة لإظهار امتلاك صدام حسين لأسلحة دمار شامل زورًا. فالعلاقة بين إذاعة البى بى سى والحكومة البريطانية تشبه علاقة بنك الاحتياطى الأمريكى بالحكومة الفيدرالية الأمريكية من حيث كون بنك الاحتياطى الفيدرالى مؤسسة أنشأتها الحكومة تؤدى مهمة معينة، لكنها تتمتع بحرية القيام بهذه المهمة على الوجه الذى تراه مناسبًا.

يجب أن يتمتع الإعلام المستقل بحرية نشر أى شىء، وخصوصًا عن الحكومة، وأن يعلق على ما يراه صوابًا أو خطأ؛ لقد تعودنا فى أمريكا أن نسمع بانتظام أخبارًا خاصة بغضب الرئيس أو أعضاء الكونجرس من وسائل الإعلام لتصويرهم بطرق لا يحبونها، أو لانتقاد سياساتهم، وهذا يعطى للشعب الحرية فى مناقشة سياسات الحكومة والخيارات المتاحة لهم، الأمر الذى يسفر - كما هو مأمول - عن شعب يفكر على نحو

أكثر نضجًا. ويتطلب المجتمع الديمقراطى مجتمعًا واعيًا، وجزء من دور الإعلام هو توعية المجتمع فى هذا الصدد. كما ينتاب الأمريكيون الشك عادة فى جميع المنافذ الإعلامية التى تحذو حذو الحكومة.

فى العديد من الدول الإسلامية، نجد أن الصحافة والإعلام مملوكتان للدولة ولا يتمتعان بالحرية، وبالتالى نجد وظيفتهما أشبه ما تكون «بالهتيفة» المهللين للحكومة وسياساتها، لكن يختلف هذا فى حالات مثل تلفزيون الجزيرة؛ وهو ما يفسر شعبية هذه القناة فى العالم الإسلامى. ولكن فى العصر الحالى ومع انتشار القنوات الفضائية والإنترنت، أصبح الكثير من المسلمين على وعى بما يجب أن تكون عليه خياراتهم، الأمر الذى يغذى من إحباط الشباب إزاء الوضع الراهن. فهم يشاهدون الحريات التى يتمتع بها الآخرون فى الولايات المتحدة وأوروبا، ولا يفهمون لماذا لا يتمتعون هم بنفس هذه الحريات.

ومع ذلك، فإن حرية التعبير لها حدود؛ حيث إن أى تعبير يمثل تشهيرًا أو قذفًا أو فحشًا أو تحريضًا على الفتنة أو سلوكًا جنائيًا يؤدى إلى انتهاك حقوق الآخرين؛ ولذلك فقد تم التسليم منذ وقت طويل بأن وضع قيود على حرية التعبير أمر ضرورى. وشكلت طبيعة ومدى هذه القيود ـ كيفية فرضها ووسائل إنفاذها ـ تساؤلات هامة أمام القانون والحكومة.

تحظر الشريعة الإسلامية على المسلمين التلفظ بعبارات تشهير ضد الكفار ومن يرفض دينهم، وهى قاعدة مستمدة من قول القرآن: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

من يقل بأن ثمار الأفوكادو توجد فى قسم الخضروات دائما؟

يسلم الأمريكيون بهذا الفصل الهام للغاية بين السلطات، غير أنهم عادة ما يفترضون جدلاً أنه جزء لا يتجزأ من عملية الديمقراطية، فعندما يذهب الأمريكيون إلى بلد تجرى فيها انتخابات، ويرون وسائل إعلام مملوكة للدولة، ويجدون درجة

ضعيفة نسبيًا من الخصخصة الاقتصادية ، ولا يبصرون بنكًا مركزيًا فعالاً ، ويلمسون خللاً فى أداء المجتمع المدنى ، يقولون عندئذ فى أنفسهم « لا توجد هنا ديمقراطية ! » . لكن يمكن أن تجد شبيهًا لهذا فى سوبر ماركت فى منطقة من مناطق المناخ الاستوائى ، والتى تجد فيها المانجو والبابايا والأفوكادو وجوز الهند فى قسم الفاكهة ، ثم اذهب بعد ذلك إلى سوبر ماركت فى منطقة من مناطق المناخ المعتدل ، فسوف تجد مانجو لا تنضج أبدًا ، كما أنك لن تعثر على البابايا ، وتجد الأفوكادو فى قسم الخضروات ، وسترى أن جوز الهند المتاح جاف مشقق ويوجد فى قسم الحلويات ، فعندها ستقول لنفسك : « لا توجد فاكهة هنا » .

وكما أن ثمار الأفوكادو توجد فى قسم الخضروات فى محلات البقالة لأننا نضعها هناك ، فإن فصل السلطات يوجد فى ديمقراطيتنا لأننا وضعناه فيها . حيث إن فصل السلطات لا ينتج بصورة آلية من الديمقراطية . كان هناك بكل تأكيد ديمقراطية فى المشروع الأول من الدستور ، إذا كنا نعنى بذلك سلطة الشعب فى انتخاب الحكومة . لكن فصل السلطات والحريات التى نتمتع بها مثل حرية الكلام وفصل الكنيسة عن الدولة وإلغاء الرق ومنح المرأة حق التصويت وتحديد فترة الرئاسة أمور تم إضافتها إلى الدستور الأمريكى مؤخرًا ؛ أى فى التعديلات التى دخلت عليه ، أى أن هذه الأمور لم تصبح سارية من تلقاء نفسها لمجرد أننا انتخبنا حكامنا بشكل ديمقراطى .

إن الديمقراطية التى ينقصها فصل السلطات والحكم الجيد هى «ديمقراطية غير ليبرالية» كما يصفها محرر مجلة نيوز ويك والمحلل السياسى بمحطة آى بى سى الإخبارية ، وهى بصورة نموذجية «أنظمة منتخبة بطريقة ديمقراطية ، وغالبًا ما يتم انتخابها مرة أخرى أو التصديق عليها من خلال الاستفتاء ، لكنها تتجاهل بشكل اعتيادى القيود الدستورية المفروضة على سلطاتها ، وتحرم مواطنيها من حقوقهم الأساسية»[٢١] ، وضرب أمثلة على هذا بدول غانا وبيرو وفنزويلا والسلطة الفلسطينية .

إن كلمة **الديمقراطية** بمثابة سهم يمكن أن يشير إلى أنواع مختلفة من الواقع السياسى ، فإذا لم ندرك أن فصل السلطات واحترام حقوق الإنسان لا يأتى تلقائيًا من الديمقراطية ، فإننا نواجه خطر الاعتقاد بأن خلق مجتمع جيد مشابه لمجتمعنا يتحقق بمجرد منح الشعب حق التصويت ؛ لذا فإنه من المفيد أن نعرف مصطلحاتنا وأن نفهمها

جيداً. وكمثال على صحة هذا، انظر الأوضاع فى أفغانستان والعراق، فإننا نخطئ عندما نركز فقط على الديمقراطية، ونفترض أن الحكم الجيد ينتج منها تلقائيًا.

يعنى الحكم الجيد ما هو أكثر بكثير من مجرد إجراء انتخابات حرة، فهو يشمل فصل السلطات، خصوصًا وجود سلطة قضائية مستقلة، وسيادة القانون الذى يحترم حريات الإنسان ويحمى حقوق الأقليات من طغيان الأغلبية، وشبكات للأمان الاجتماعى للمحتاجين، وبنية اقتصادية تحتية تعمل على خلق اقتصاد سليم، ونظام سلمى لعزل من هم فى السلطة ولا يحسنون تأدية عملهم. ويمارس جمهور الناخبين، عن طريق إقصاء من هم فى موقع السلطة بطريقة سلمية، سلطتهم فى تقييم النظام الحاكم وتغيير قيادته مع تطور ونضج المجتمع، إن إعطاء مجموعة جديدة من الناس فرصة تولى الحكم، يتيح للبلد فرصة أن يصحح نفسه لمواجهة التوترات ـ التى إذا لم تعالج فإنها تتطور لتصبح ضغوطًا تؤدى إلى ثورات سياسية، تمامًا مثلما تعيد تحميل جهاز الكمبيوتر الخاص بك، فإن بعض أخطاء التشغيل الخفية تختفى من ذاكرة الجهاز.

إن العالم الإسلامى فى حاجة ملحة إلى ما سبق من فصل بين السلطات القضائية والاقتصادية والعسكرية والتشريعية وحماية حقوق الإنسان ـ التى تتوافق جميعها مع الشريعة الإسلامية ـ أكثر من حاجته إلى إجراء انتخابات شعبية.

تحيا حياة طيبة فى ظل الاستبداد
أم حياة فقيرة فى ظل الديمقراطية؟

لو كان للناس أن يختاروا بين العيش فى مجتمع ميسور يعانى من نقص الحرية أو فى مجتمع آخر ديمقراطى لكنه فقير اقتصاديًا، فيا تُرى أيهما سيختارون؟ يسعى معظم الناس وراء أفضل نوعية حياة مادية ممكنة لهم ولأسرهم. فهم يشعرون بمنتهى السعادة عندما يعيشون حياة مريحة ماديًا، لا يهتم معظم الناس بمن ينتخبون للحكم بقدر اهتمامهم بقدرتهم على ضمان عيش رغد لهم. وهذا هو السبب الذى يدفع العديد من المسلمين للمخاطرة بحيواتهم بالهجرة من بلادهم إلى دول أوروبا الغربية والولايات

المتحدة حيث يجدون هناك أن السعادة أسهل منالاً وحتى أن أصدقائى من جنوب أفريقيا، الذين وقعوا تحت نيران نظام الفصل العنصرى أسروا لى أنهم يفضلون الحرية المالية ـ فى ظل نظام استبدادى لحد ما، مثل الموجود فى سنغافورة الذى يقوم بضرب الأطفال بالعصى على سوء سلوكهم عندما يخدشون سيارات الناس ـ عن الديمقراطية الأكثر نقاء التى توقعهم فى مستنقع الجوع والفقر.

يجدر عند بناء وطن أن يتم التركيز أولا على بناء اقتصاد، ومساعدة كل المواطنين فى الحصول على نصيب من الكعكة بأكثر من التركيز على منحهم حق التصويت فى ظل اقتصاد ضعيف، فماذا تعنى الديمقراطية بالنسبة لشخص فقير وجوعان؟ فقد بدأ العديد من الأمريكيين خلال الكساد الكبير (١٩٣٠م) فى الشك فى الديمقراطية، وتحول البعض الآخر بقوة وسرعة إلى الاشتراكية والشيوعية. وقد وفرت الحياة فى ظل الحكومة السنغافورية المتشددة نسبيًا، التى تركز على الرفاهية الاقتصادية لشعبها، للسنغافوريين نوعية حياة أفضل. لم يتمكن بنك الاعتماد والتجارة الدولى، الذى أعلن إفلاسه فى الثمانينيات بعد العديد من الفضائح والذى كانت له فروع فى كل أنحاء العالم بما فيها الولايات المتحدة، من الحصول على ترخيص مصرفى فى سنغافورة بسبب لوائحها المصرفية الصارمة، فبعض الحكومات مثل تلك القائمة التى فى سنغافورة وماليزيا ودول آسيوية أخرى مثل كوريا الجنوبية والصين، يأتى انشغالها بقضية الديمقراطية بمعناها التام فى مرتبة أقل من محاولتها إقامة حكم يُحسن نوعية الحياة المادية لشعوبها.

الكنيسة والدولة فى أمريكا: منفصلتان أم مطلقتان؟

بعدما حللنا عددًا من حالات الفصل بين السلطات، نأتى الآن إلى الفصل بين الكنيسة والدولة، ماذا كان يعنى هذا فى الأصل فى أمريكا، وهل تطور مفهومه التاريخى فى أمريكا عبر القرنين الماضيين؟ ما الذى يفسر الاختلافات الظاهرة بين المسلمين والغربيين بخصوص هذه القضية؟ لكى نجد أوجه التشابه بينها والتى أعتقد أنها كبيرة، فإننا نحتاج إلى النظر فى مقصد هذه الفكرة الأصلى فى كلٍّ من الدستور ونصوص القرآن والحديث، وكيف تطورت أفكار العلاقة بين الدين والدولة تاريخيًا.

تذكر أننا عندما ناقشنا موضوع الفصل بين السلطات، أوضحنا أنها تعنى ضبط المساحة الصحيحة أو تحقيق التوازن الصحيح بين مراكز السلطة؛ بحيث لا تكون أقل أو أكثر من اللازم، وينظر المسلمون إلى العلاقة بين الدولة والكنيسة على ما هى عليه الآن فى أمريكا على أنها علاقة تباعد بأكثر مما يجب (يصل لحد الطلاق بينها)، فى حين يعتبر الأمريكيون أن ما يريده المسلمون هو التقارب لحد أكثر مما يجب (يمثل زواجًا).

إن واحدًا من الاختلافات بين التصورات الإسلامية والغربية فى هذه القضية أن كلاًّ منهما يتحدث عن أشياء مختلفة اختلافًا طفيفًا عندما يستخدمون كلمة الدين، لكن فكرة فصل **الكنيسة** عن الدولة غير مطابقة لفكرة فصل الدين عن الدولة. وبما أن المسلمين ليس لديهم كنيسة بالمعنى التنظيمى؛ لذا فهم لا يرون عادة اختلافًا بين العبارتين: فهم فى العموم يفترضون أن الفصل بين الكنيسة عن الدولة يعنى فصل الدين عن الدولة، وتذكر أيضًا أن المسلمين يعتبرون أن الأمر بمعاملة الآخرين بما نحب أن يعاملونا به هو وصية دينية، بل هو ثانى أهم الوصايا.

تحدثنا سابقًا عن أسلوب الحياة الأمريكية، القائم على إعلان الاستقلال والدستور، والذى لا يعتبره الأمريكيون المعاصرون دينًا، على الرغم من أن بعضهم يسميه «العقيدة الأمريكية»(٢٢) والتى تمثل ترديدًا لعبارة أن: «المسلمين يعتبرون القيم الأمريكية دينًا». ويعتبر أسلوب الحياة الأمريكية المعبر عنه فى إعلان الاستقلال والدستور جزءًا مهمًا فى ذاته - على الرغم من أنه ليس الكل - مما يتضمنه مفهوم المسلمين للدين والشريعة. فلو أننا سلمنا بأن العقيدة الأمريكية هذه تكشف عن طابعها الدينى، يمكن أن نبدأ فى فهم الموقف الإسلامى القائل بأن الدين والدولة لا يمكن لهما فى الواقع أن ينفصلا مطلقًا؛ لأن هذه القيم الأخلاقية والمعنوية «والقوانين الفطرية» «والحقائق الواضحة بذاتها» والتى تُعرف أى مجتمع هى فى واقع الأمر دينه الذى يَدين به؛ لذا عندما يسمع المسلمون «فصل الكنيسة عن الدولة» فإنهم يفكرون فى «فصل الحقيقة القائلة بأن (الكل خلقوا متساوين) عن الدولة، وفصل هذه الحقوق التى تنبع من القوانين الفطرية وفطرة الله عن الدولة»، وهى أفكار ينفر منها المسلمون.

أثارت هذه النقطة الجوهرية خلافات غير ضرورية بين المسلمين وغيرهم الذين يشعرون بالرعب عندما يسمعون المسلمين يقولون بأننا يجب أن نعيش جميعًا «فى

ظلال الإسلام»، مع أن المفاهيم الموجودة فى العقيدة الأمريكية كلها «إسلامية» بمعنى أنها متجانسة ومتوافقة تمامًا مع الشريعة والمبادئ الإسلامية؛ لأنها إن لم تكن كذلك لما تمكن المسلمون من العيش بحرية مثل نُظرائهم فى أمريكا. وكما أوضحنا، فإن الدين الأمريكى الشامل الذى يعيش فى ظله كل الأمريكيين هو «إسلامى» بمعنى أنه يتفق تمامًا مع الشريعة الإسلامية ويعبر عنها، (أشير هنا إلى المُثل التى يشملها إعلان الاستقلال والدستور، وليس بالضرورة إلى الواقع أو إلى الفجوات بين هذه المُثل والواقع فى الولايات المتحدة سواء تاريخيًا أو فى الوقت الحاضر).

ما الذى أقامه المؤسسون: دولة دينية يقبل الدين الرسمى فيها كل الأديان

ما هى الشواغل التى دفعت المؤسسين إلى صياغة حكم التأسيس، القسم الأول من التعديل الأول، الذى ينص على أنه «لا يمكن للكونجرس صياغة قانون يحترم تأسيس عقيدة دينية أو قانون يحرم الممارسة الحرة لأى دين»؟

ساور المؤسسين الذين أتوا إلى أمريكا بحثًا عن الحرية الدينية القلق بشأن احتمال استغلال سلطات الدولة لدعم إحدى الطوائف على غيرها، أو إلحاق الضرر بأية مؤسسة دينية. لذا كان القصد من الفصل بين الكنيسة والدولة جعل الدولة غير متحيزة بأحكام مسبقة مع أو ضد أى دين أو كنيسة، وأن تسمح لجميع الأديان على قدم المساواة بالحرية فى تأدية شعائرها، وأن لا تقحم نفسها فى أى اختلاف فى الرأى حتى ولو كان داخل تعاليم دين واحد.

إن تعددية الأديان والكنائس هى أساس حلم فقرة التأسيس، وهذا مشابه لأمر الإسلام كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١، ٦]. وتوضح هذه الآية وغيرها أن تعددية الأديان حق إنسانى أصلى فى الشريعة الإسلامية.

تطور مذهب التعددية داخل الدين الواحد فى مجال الشريعة الإسلامية عندما أدرك العلماء المسلمون إمكانية وجود تخريجات مختلفة لعدد من القضايا مع بقائها جميعها ملتزمة بروح ونص الأوامر الشرعية من القرآن والسنة والقواعد الجوهرية الخاصة بهما،

فقد اعترفت كل المذاهب الفقهية بصحة بعضها البعض؛ ولهذا السبب فإن المجتمع المسلم المثالى هو المجتمع الذى يقبل مثل هذه التخريجات التعددية فى الفقه الإسلامى.

تماشى مقاصد مؤسسى أمريكا الفكرة الإسلامية، أعنى تأسيس وطن «تحت حكم الله»، حيث ركز واضعو إعلان الاستقلال والدستور بشكل خاص على النواحى الاجتماعية لملة إبراهيم ﷺ وحقوق وحريات الأفراد، وحرياتهم فى ممارسة شعائرهم أو عدم الإيمان بدين على الإطلاق، كما تملى عليهم ضمائرهم، وأن لا تضعفها الدولة، فقد انبثقت هذه الحقوق من ملة إبراهيم ﷺ ومن الوصية الثانية التى تنص على معاملة المرء للبشر بالطريقة التى يحب أن يعاملوه بها. وعمومًا فإن المؤسسين كانوا يؤمنون بإله واحد، الإله الخالق لكل شىء ومن ثم الطبيعة، وكان مفهومهم عن الإله شديد القرابة بالمفهوم الإبراهيمى له، فهو الخالق القادر الرازق، وهو مفهوم يمكن أن تقبله كل الأديان الإبراهيمية(٢٤).

يوضح عالم الدراسات الإسلامية موريه تيتاس أنه حتى وقت المسيح، كانت عبارة «مملكة الرب» تفهم فى اليهودية على أنها المملكة الدنيوية لليهود على وجه الحصر، وحاكمها الحقيقى هو الرب ـ الله. لذا وجه أنبياء بنى إسرائيل رسالتهم إلى بنى إسرائيل وحدهم، كما كان يقصد تصور العهد القديم لمملكة الرب شعبًا واحدًا فقط، بيد أن محمدًا ﷺ جاء برسالة موجهة للأغيار، وكذلك إلى بنى إسرائيل، فقد قصد أن يكون الإسلام دينًا لكل البشر؛ لذا كان يجب أن يكون تصوره لمملكة الرب يستغرق فى نطاقه كل البشر، «حيث إن الله حاكم كل البشر». يوضح تيتاس أن محمدًا ﷺ وسع معنى فكرة مملكة الرب، كما «أعطى الله دلالة عالمية، كما جعل لحكمه تداعيات عالمية، جعلت الإسلام دينًا عالميًا منذ البداية». ثم يضيف: «لذا ترى المثل الإسلامية أن المجتمع البشرى ينبغى تنظيمه على نحو يجعله يقرّ بأن الله هو الحاكم الأعلى له» لكن يجب أن يكون أيضًا، مجتمعًا، تعدديًا يساير ملة إبراهيم(٢٥).

لا يعتبر المسلمون أن هناك دولة إسلامية بشكلها الصحيح غير التى أقامها النبى ﷺ ومن بعده خلفاؤه المعروفون بالخلفاء الراشدين الأربعة. وأظهرت مبادئ الحكم التى أرساها النبى ﷺ وخلفاؤه الأربعة أن المفهوم الإسلامى للدولة هو تصور لا يكون فيه الإسلام، بمعناه الشعائرى، دين الدولة، ولكن تكون فيه الدولة دولة

دينية، دولة يكون الحاكم المطلق فيها هو الله، وهذا الفكر يتماشى مع الفهم المُعبر عنه فى رؤية الدستور الأمريكى للعالم.

يضيف قاضى المحكمة العليا أنطونين سكاليا فى مقالة له فى مايو ٢٠٠٢ أنه حتى لو عرفنا الحكومة تعريفًا محددًا للغاية على أنها «السلطة المشكلة بصورة قانونية» أو «السلطة المشكلة بصوة قانونية التى تحكم بطريقة عادلة»، فإن مثل هذه الحكومة «**تستمد سلطتها الأخلاقية من الله**» (استخدام الحروف السوداء من إضافتى)، كما يعتبر أنه «اتجاه خاطئ الاعتقاد بأن الحكومة الديمقراطية ليست أكثر من الإرادة المركبة للأفراد من مواطنيها، وأنها لا تملك قوة أخلاقية أو سلطة أكثر مما يملك المواطنون باعتبارهم أفرادًا»، وقال مستشهدًا بالرسول بولس فى رسالته إلى الرومان (١٣ : ١ ـ ٥) (لكنه وضع نقطة يوافق عليها المسلمون وأتباع معظم الأديان)، أن كل نفس بشرية خاضعة للقوى التى فرضها الله، وبالتالى فإن مقاومتها تعنى مقاومة أمر الله؛ لذا فنحن نخضع جميعا للحكومة القويمة من أجل الضمير. يقول القاضى سكاليا: «لا ينبغى أن يكون رد فعل أهل الإيمان لنزعة الديمقراطية لإخفاء السلطة الإلهية خلف الحكومة استسلامًا، ولكن تصميمًا على المقاومة الفعالة قدر الإمكان». وهذا ما فعلناه فى هذا البلد (لكن لم تفعله أوروبا) عن طريق المحافظة فى حياتنا العامة على العديد من الأشياء المرئية المذكرة بهذا ـ بالكلمات التى وردت فى حكم المحاكم العليا منذ الأربعينيات ـ والتى تقول: «نحن شعب دينى تفترض مؤسساته وجود كائن أسمى»، كما تشمل العبارات المذكرة ما يلى: «نثق فى الله» المطبوعة على عملاتنا، و«أمة واحدة تحت رعاية الله» الواردة فى يمين الولاء، وافتتاح جلسات مجالسنا التشريعية بالدعاء، وافتتاح جلسات محكمتى بقول «ليحفظ الله أمريكا وهذه المحكمة المبجلة»، والتصريحات السنوية التى يوجهها الرئيس للكونجرس بمناسبة عيد الشكر، والدعاء المستمر فى خطب زعمائنا السياسيين من أجل التأييد الإلهى، والتى تنتهى عادة بعبارة «ليبارك الله أمريكا»[٢٦].

بعبارة أخرى، لقد قصد المؤسسون أن تكون أمريكا مجتمعًا دينيًا ودولة دينية، مجتمعًا تنبع أخلاقه من العقائد الدينية، لم يقصدوا أن يكون الرئيس والعاملون فى الحكومة ملحدين، أو غير مؤمنين بدين، أو أن لا يتردد الرئيس على الكنيسة أو

الكنيس اليهودى أو المسجد أو المعبد، وكل هذا يتماشى مع الشريعة الإسلامية على نحو يبعث على البهجة.

تنبثق السلطة الأخلاقية لحكومتنا من الدستور، والذى أخذ أساسه الأخلاقى من قانون الله - أى بتعبير آخر كما جاء على لسان توماس جفرسون، «قوانين الطبيعة وفطرة الله». وطالما أن مسئولى حكوماتنا، الذين أقسموا على الحفاظ على الدستور وقوانينه يعملون وفق ذلك، تتوافر لهم سلطة أخلاقية - وإلهية، وعندما ينتهكونها يخسرون هذه السلطة الأخلاقية والإلهية.

يتحدث القرآن عن هذا فى قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ويقول أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وحيث إن مبادئ إعلان الاستقلال و الدستور تتماشى مع الأوامر الإلهية، فإن شكل الحكومة المحدد ونظام التعاون الاجتماعى السياسى المعين الذى ينبثق منها ممنوحان من قبل السيادة الإلهية، ويتمتعان بسلطة مصدرها الله.

إن سلطة المجتمع هى سلطة من النوع النيابى، يعهد بها الله لمن يحوزونها، فالدولة التى تخضع للشريعة الإسلامية تملك وجودها من إرادة الشعب، وتخضع لمراقبته، على الرغم من أنها تستمد سلطتها المطلقة من الله، وتتحدث ثلاثة أحاديث نبوية عن هذه النقطة: «لا تجتمع أمتى على ضلالة، وإذا اختلفتم عليكم بالجماعة»[٢٧] و«عليكم بالجماعة والعامة»[٢٨] و«عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة»[٢٩]، فقد دعت هذه الأحاديث علماء المسلمين إلى استنتاج - مثل ما قال محمد أسد: «عندما تقرر الغالبية العظمى من المجتمع أن تعهد بالحكومة إلى حاكم معين، فإن كل مواطن مسلم يجب أن يعتبر نفسه ملتزما أخلاقيًا بهذا القرار حتى لو كان ضد رغبته الشخصية»[٣٠]، وهذا بالضبط ما نفعله فى أمريكا، فعلى الرغم من أننا ربما لا نصوت لرئيسنا، إلا أنه بمجرد ظهور نتائج الانتخابات، ندين له بالاحترام المناسب لمنصب الرئاسة.

تردد العديد من العبارات الأمريكية التقليدية صدى التعبيرات القرآنية:

قارن عبارة «نثق في الله» مع قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] أو قوله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أما بالنسبة لعبارة «أمة واحدة تحت رعاية الله» فإنها تتشابه مع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]. يتحدث سياق هذه الآية عن عديد من الرسل على الرغم من اختلاف شرائعهم الدينية، وهي توحي بأن المجتمع الإنساني ما زال مجتمعًا واحدًا أو أمة تحت رعاية الله، على الرغم من تنوع الشرائع الدينية، وبهذا يحث القرآن المسلمين على أن ينظروا إلى البشرية جمعاء - وبالتأكيد إلى الأديان الإبراهيمية على الأقل - على أنها مجتمع تعددي واحد واقع تحت حكم الله.

قارن دعاءنا بأن يبارك الله مجتمعنا وأرضنا بالآيات القرآنية الآتية: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، انظر الآية ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

أما دعاؤنا بمباركة الله لأنفسنا فيشبه الأمر الموجه للمسلمين: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

ما هي المسافة الصحيحة بين الكنيسة والدولة؟

لخص جورج واشنطن في خطبة الوداع التي ألقاها الدور الذي يمكن للدين أن يقوم به في أمريكا: «**دعنا نكون على حذر من الانغماس في افتراض أنه يمكن الإبقاء على الأخلاق دون وجود للدين**، بغض النظر عما قد نقر به لأثر التعليم الجيد على الأذهان في هيكل معين، فإن العقل والخبرة تمنعنا من توقع انتشار الأخلاق الوطنية في ظل غياب الدين»[٣١] (استخدام الحرف الأسود من إضافتي). ومن الواضح أن مؤسسي

هذا البلد، مثلهم مثل المسلمين المخلصين لدينهم، أرادوا بناء مجتمع أخلاقى فى طابعه تقوم أخلاقه على الأخلاق الدينية، كان المجتمع الأمريكى دائمًا مجتمعًا دينيًا، وهم فخورون بذلك بشدة، وإذا كان التباعد بين الدين والمجتمع فى أمريكا شاسعًا بأكثر مما يجب، كما يراه المسلمون، فكيف لنا أن نتصور فصلاً مناسبًا بين الدين والدولة فى أمريكا ـ فصلاً لا يؤدى لا إلى طلاق ولا إلى زواج؟

يمكن أن يتفق المسلمون والأمريكيون على أن فصل الكنيسة والدولة يختلف اختلافًا جوهريًا عن فصل الدين عن الدولة، كما يمكن أن نتفق أيضًا أن هذا يعنى أنه لا ينبغى استغلال سلطات الدولة لتأييد دين أو عقيدة على حساب غيرهما، ولكن يجب أن تستخدم فى تشجيع وحماية أتباع أى وكل دين لممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة. ولتحقيق هذه الغاية:

١ـ ينبغى أن يكون كل دين مستقلاً ولا يخضع لتدخل الدولة، كما ينبغى للدولة أن لا تتورط فى إصدار أى بيانات بشأن صحة عقيدة أو ممارسة دينية.

٢ـ ينبغى حظر التفرقة الدينية، وكذلك التحريض على جرائم الكراهية.

كيف يمكن لدولة متعددة الأديان أن تضع هيكلاً لنظام المحاكم يتعايش مع رغبة الطوائف الدينية فى المزيد من التحرر والإنجاز الدينى؟

تقسم الشريعة الإسلامية الأحكام الخاصة بأعمال الإنسان إلى فئتين رئيسيتين: أعمال خاصة بالشعائر (العبادات) وأعمال دنيوية (المعاملات). و تتناول الأحكام المتعلقة بشعائر العبادة مثل الصلاة والصيام وتحديد مواقيت الصلاة والصيام، وتفاصيلها.

أما الأحكام الخاصة بالمعاملات فإنها تنقسم إلى ثلاث مجموعات: (١) قوانين الأسرة والأحوال الشخصية، وتتناول بعض القضايا مثل الزواج والطلاق والنفقة والحضانة والميراث. (٢) المعاملات المالية ـ مثل حقوق الملكية والعقود وأحكام البيع والإجارة والهبة والقروض والديون والودائع والشراكات، وإتلاف الممتلكات. (٣) القانون الجنائى، ويتعلق بالقتل والسرقة والقذف وغيرها[٣٢].

من السهولة واليسر بمكان ملاحظة أن المحاكم الأمريكية لا تتفق مع الشريعة الإسلامية فى باب العبادات، فعلى سبيل المثال لا تملك المحاكم الأمريكية أى اختصاص فيما يتعلق بتحديد بداية شهر رمضان. وهذا بدوره يعنى أنها لا تحدد متى يجب على المسلمين الأمريكيين البدء فى الصوم. لكن يتعلق هذا الأمر أكثر بممارسة الشعائر والطقوس التى يمنح فيها القانون الأمريكى كل مجموعة دينية الحرية فى تقرير ما تريد، وبسبب هذه الحريات، ربما يحتفل المسلمون فى أمريكا ببداية ونهاية رمضان فى أيام مختلفة طبقا لتفسيرات فردية حول يمكن فعلا استطلاع الهلال.

أما الآن فدعنا نأخذ مثالا من قانون الأسرة، فلو قرر زوجان أمريكيان مسلمان الطلاق، وفضلا أن يتم الفصل فى قضيتهما وفقا للشريعة الإسلامية، وكانت القضية تشمل موضوعات مثل الحضانة والرعاية، فسوف يتضمن هذا على الأرجح صداما مع تفسير المحاكم الأمريكية لكيفية التعامل مع مثل هذه الحالات. ويمكن أن يحدث الشىء نفسه لزوجين مسيحيين أو يهوديين، قد يفضلان الفصل فى قضيتهما وفقا لشرائعهما.

لن يمثل إنشاء محاكم إسلامية أو يهودية أو مسيحية للأحوال الشخصية؛ تفصل فى دعاوى الأزواج المسلمين أو اليهوديين أو المسيحيين طبقا لشرائعهم ثم تصدق على هذه القرارات المحاكم العلمانية الحكومية، انتهاكا للفصل السابق الحديث عنه بين الكنيسة والدولة، وهذا يحدث بالفعل لدرجة محدودة.

لقد حصلت، على سبيل المثال، على ترخيص من ولاية نيويورك لعقد الزواج طبقا للشريعة الإسلامية. وتعترف الولاية بالزواج الذى أعقده على أنه صحيح وقانونى ولا تعتبره انتهاكا لفصل الكنيسة والدولة، لكن إذا جاء إلىّ زوجان من أجل الطلاق، فعلى الرغم من أنى أستطيع تطليقهما طبقا للشريعة الإسلامية، فإن هذا الطلاق لن تعترف به المحاكم الحكومية. ولا أملك سبيلا يجعل هذا الطلاق ملزما من الناحية القانونية طبقا للقانون الأمريكى. وإذا قرر أحد الزوجين أو كلاهما خرق شروط أحكام الطلاق - ويستطيعان أن يفعلا ذلك، حيث تنامى لدى الناس نزعة لازدراء الأحكام التى لا تتماشى مع مصالحهم - فلا أستطيع إصدار حكم بازدراء المحكمة، أو أن أطلب مساعدة من السلطات المؤسسية للولاية مثل الشرطة لإنفاذ هذا القرار الشرعى.

دعنا نتناول مثالا آخر . تمنع الشريعة الإسلامية أحداً من أن يحرم أحد المستحقين للميراث منه ؛ حيث إن كل شخص من أقرباء الدرجة الأولى له نصيب فى التركة ، كذلك لا يجوز عمل وصية فى أكثر من ثلث التركة . لكن عندما يموت المسلم الأمريكى فى هذا البلد دون أن يترك وصية ، فسوف توزع تركته طبقا للقانون الأمريكى الذى سيعطى التركة للقريب الأقرب فقط ، وليس لكل أفراد الأسرة ؛ لذا قد يحرم بعض المستحقين من التركة طبقا للقانون الأمريكى فى الوقت الذى يكون لهم نصيب مقرر شرعا فى الشريعة الإسلامية . لن يمثل التوزيع التلقائى لتركة المسلمين الأمريكيين ، الذين وافتهم المنية قبل عمل وصية ، طبقا للشريعة الإسلامية ، انتهاكا لفصل الكنيسة والدولة أيضا ..

يمكننا أن نرى من خلال الأمثلة السابقة كيف يمكننا فى أمريكا أن نطور من قدرتنا لإرضاء احتياجات الطوائف الدينية إلى قوانين تعكس الأنظمة العقائدية الخاصة بهم بدون انتهاك للمبادئ الهامة المجسدة فى الفهم الصحيح لما يعنيه فصل الكنيسة والدولة .

ذكرنا سابقا أن خاصية الضوابط والتوازنات فى النموذج الأمريكى لفصل السلطات تسمح للمحاكم أو الرئيس بممارسة السلطة فى مراجعة قوانين الكونجرس أو التى يصدرها الرئيس من الناحية القانونية لضمان دستوريتها . ولن يمثل إنتهاكا للفصل بين الكنيسة والدولة وجود هيئة فرعية داخل السلطة القضائية بها قضاة أو رجال دين من خلفيات دينية مختلفة ليقوموا بالتعقيب على مسايرة بعض القرارات لشرائعهم الدينية وتقديم الإرشاد لطوائفهم الدينية عن مدى مسايرة هذه القرارات للشريعة الإسلامية أو اليهودية . لن تتغير معظم القرارات ، ولكن قد يمنح القليل منها الذى يتعارض مع الشؤون الدينية للطوائف الدينية الأمريكية مزيداً من الوضوح والإرشاد عن القضايا التى تؤثر على عقائدهم وممارستهم الدينية . كما يجعل من أمريكا مثالاً عظيماً أمام العالم عن مقدار تمركز حكم الله فيها ، والأمر الأكثر أهمية ، هو أنه يمكن أن يزود الولايات المتحدة بالتوجيه والإرشاد الأخلاقيين لضمان تمشى سياستها مع القيم والمبادئ الأخلاقية الدينية والتى تقبع فى لب إعلان الاستقلال والدستور الخاصين بنا .

الفصل الرابع

أين ما يدخل الشيطان فى التفاصيل؟

منذ أربعين سنة مضت، كتب البروفيسور الراحل ويلفرد كانتويل سميث - الذى شغل منصب رئيس مركز هارفارد لدراسة الديانات العالمية لعقد من الزمان - عن حاجتنا إلى تنقيح استخدامنا لكلمة دين، حيث نجم العديد من الصراعات بسبب الطرق العميقة التى تغير بها مفهومنا لهذا المصطلح(١).

تعنى كلمة الإسلام فى القرآن - كما شاهدنا - «الخضوع»، كما كان يروق للبروفيسور سميث القول بأن كلمات اليهودية والإسلام والنصرانية كلها فى الحقيقة أفعال وليست أسماء؛ وأوضح ذلك قائلاً: «إن الإسلام اسم فعل: فهو اسم لفعل وليس اسمًا لمؤسسة؛ اسم لقرار شخصى وليس لنظام اجتماعى(٢)؛ وذكر أن كلمة «إسلامكم» فى الآية القرآنية [الحجرات: ١٧] حيث يأمر الله - عز وجل - نبيه بأن يقول للأعراب: ﴿ لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ﴾ تعنى «التزامكم الشخصى بالامتثال لكلمات الله».

يحتل الفعل فى اللغات السامية (واللغة اليابانية الكلاسيكية) المرتبة الأولى، حيث تبدأ دراسة العربية - التى تعد واحدة من اللغات السامية - بدراسة الأفعال وأنواعها؛ حتى أن الصفات فى اللغة العربية تعتبر نوعًا من أنواع الأفعال؛ لأنها تصف الطريقة التى «يعمل» بها الاسم أو «يظهر» بها للرائى؛ مثل الأحمر أو الأخضر. فى حين أن اللغات الأوروبية الهندية وبخاصة اليونانية تعطى الاسم مرتبة أعلى بكثير، «ولذلك ومنذ ذلك الحين يميل **الفكر الغربى لتصور كلمة حقيقة على أنها كيانات، بينما يتم**

تصورها فى العهد القديم على أنها أحداث فى المقام الأول»[٣] (استخدام الأحرف السوداء من إضافتى)».

إذا ما قمنا الآن بتفسير كلمة إسلام الواردة فى الآية ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]، على أنها التزام شخصى فإننا سنفهم «بكل تأكيد أن الدين عند الله هو فعل شخصى: خضوع [الإنسان] لله سبحانه وتعالى»، وأوضح سميث أن هذه الترجمة «مطابقة فعليًا» لتعريف الدين فى الموسوعة الكاثوليكية: «الدين. . . . هو إخضاع النفس طواعية لله»[٤]، ويرده هذا التعريف الموجود بالموسوعة الكاثوليكية عند ترجمته إلى العربية أصداء ما جاءت به الآية القرآنية! تخيل الآن شخصًا عربيًا معاصرًا وهو يمحص هذه الترجمة العربية في القاهرة ويقرأ التعريف بأن «الدين هو الإسلام لله»، فلربما يقول: «الحمد لله لقد تجلى للكاثوليك نور الإسلام».

عندما نفسر استخدام القرآن لكلمة الإسلام لتعنى «نظامًا دينيًا» بدلاً من «فعل شخصى»، فإن المعنى سيصبح أكثر طائفية ومثيرًا للشقاق؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فإذا كان المعنى المقصود هنا هو أن الله لن يقبل أى عمل دينى يتم أداؤه بدون الخضوع لله، فإن أى يهودى أو مسيحى تقى سوف يقبل ذلك. لكن إذا ما تم تفسيره ـ تفسيرًا خاطئًا كما يفعل كثيرون حاليًا لتعنى ومن يبتغ غير النظام الدينى للإسلام فلن يقبل منه، فسوف يصبح للآية معان ضمنية طائفية تتنافى مع المعنى الجلى لآيات قرآنية مثل الآيات (البقرة: ٦٢) و(المائدة: ٦٩) التى تقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾. لذا يمثل تعريف الإسلام بأنه نظام دينى بدلاً من أنه خضوع تام أمرًا خطيرًا، كما أنه قد غذى الشعور بالاستعلاء للدين الإسلامى، وأذكى تشدد الجماعات المسلحة الإسلامية الحديثة، وأوقد نار العنف الطائفى.

وأفاد سميث أن استخدام مصطلحات مثل اليهودية والمسيحية والإسلام للإشارة إلى نظام المعتقدات والشعائر ـ لديانة تاريخية مؤسسية ـ هو استخدام حديث لم يظهر إلا فى القرن السابع عشر. وبدأ ولم يرسخ إلا فى القرن التاسع عشر؛ ومن خلال

دراسته لعناوين الكتب الإسلامية على مرّ القرون، لاحظ سميث أنه «منذ الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر كان هناك تحول كامل بل ومفاجئ على نحو واضح لاستخدام مصطلح الإسلام كاسم لدين»(٥) . وتتمثل المأساة فى أن نماذج الفكر الخاصة بالمسلمين أنفسهم - إطار المفاهيم لديهم - كانت قد تشكلت على يد الغرب ، وفى هذه الحالة وقع الضر عليهما معًا .

يشير سميث إلى أن هذا حدث نتيجة لأن العلماء الأوروبيين الذين جالوا عبر بقاع شاسعة من العالم فى إطار دراساتهم للممارسات الدينية الأخرى ، ويشبههم «بالذباب الذى يحتشد حول إناء به سمكة ذهبية يراقبها وهى فى الداخل بشكل كامل ودقيق ، ويقيسون حراشيفها بمنتهى الدقة . وهم بالفعل يساهمون فى المعرفة بالموضوع ، لكنهم لا يسألون أنفسهم أبدًا ، ولا يكتشفون مطلقًا ، ما هو شعور المرء إن وضع نفسه موضع هذه السمكة الذهبية»(٦) . وإننى كمسلم ، أشعر بالامتنان للپروفيسور سميث لشرحه بالضبط الشعور الذى خلقه المستشرقون لديهم ، حيث يعاملون المسلمين كتحف بيولوجية محفوظة فى مادة كلوريد التريثلين ، ولقد أفضى عمل هؤلاء العلماء الذى دعمته قيم التنوير الغربية إلى تصور للأديان باعتبارها نظمًا عقائدية لا روح لها ، بدلا من أنها أعمال نابعة من تقوى البشر .

أود أن أضيف إلى فرضية سميث أن هذا الاستخدام يعتبر أحد النواتج الثانوية المؤسفة لابتكار الشركات الذى خلق «أشخاصًا» اعتباريين ؛ ففى نفس الوقت الذى كان يمر فيه استخدام كلمة «الدين» بتغيير ، كانت المدن تتحول لشركات الاستثمار ، وأصبح الدين ، الذى كان يشير فيما سبق إلى العمل بمقتضى التقوى ، معروفًا باعتباره هوية . ومن ثم تغير الدين من شىء «كنت تفعله» إلى شىء «أصبح هويتك» ، فبدلاً من امتلاكك لدينك (بكونه عملاً تقوم بممارسته) وكونك مسئولاً عنه (كشعائر دينية تقوم بممارستها) ، أصبحت أنت منتميًا للدين الذى تعتنقه وأصبح الدين شيئًا يتملكك ؛ وتجرى مجموعة كاملة من التغيرات النفسية الدقيقة بين الناس والدين ، وأصبح الدين بنهاية هذا التغيير «شركة مسجلة» تملك الناس ، كما أضحى مسئولاً عنهم على عكس المفترض ؛ وهذا هو تأثير اللغة على طريقة تفكيرنا ، وبالتالى على كيفية تصرفنا .

ماذا تعنى حقًا كلمة يهودى ومسيحى ومسلم؟

لماذا يدور الحديث كثيراً حول شراك اللغة؟ كما سنرى فيما يلى من هذا الكتاب كيف أن تلك الشراك مثلت أحجار عثرة ضخمة فى طريق فهم المسلمين والغربيين لبعضهم البعض. إحدى الطرق التى أربكت فيها اللغة المسلمين وغير المسلمين وأصابتهم بالحيرة هو ما أسميه بـ «افتراض التماثل» وذلك من خلال استخدام نفس الصفة لوصف أسماء متباينة بشكل كبير على نحو ينطوى ضمنيًا على مجموعة مشتركة من القيم.

فعلى سبيل المثال، ماذا تفيد كلمة أمريكى فى الاستخدامات الآتية: الدين الأمريكى، والقانون الأمريكى، والتاريخ الأمريكى، والدولة الأمريكية، والفن الأمريكى، وفن العمارة الأمريكى، والأثاث الأمريكى، والموضة الأمريكية (أسلوب اللبس والملابس) والنظام المصرفى الأمريكى، والاسم الأمريكى، والطعام الأمريكى؟ وما الذى يمكن أن نقوله عن الجامعات الأجنبية التى تدرس الدراسات الأمريكية والأصولية الدينية الأمريكية والسياسة الخارجية الأمريكية؟ فكيف لنا أن نُعرف المقام المشترك فى كل هذه الأمثلة وهو كلمة «أمريكى»؟

كيف يتسنى لنا أن نفترض بأن هناك معنى متماسكًا لكلمة «إسلامى» فى كلٍّ من المصطلحات الآتية: الدين الإسلامى، والشريعة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى، والدولة الإسلامية، والفن الإسلامى، وفن المعمار الإسلامى، والزى الإسلامى، والاسم الإسلامى، والنظام المصرفى الإسلامى، والغذاء الإسلامى؟ ناهيك عن وجود أقسام للدراسات الإسلامية أو المعرفة الإسلامية أو العلوم الإسلامية فى العديد من الجامعات الغربية؛ فكيف يمكن لنا أن نعرّف كلمة «إسلام» و«إسلامى» بأسلوب متماسك فى كل هذه الأمثلة؟

هل يخبرنا تناول الطعام الأمريكى (مثل شرائح اللحم والبطاطس) أو ارتداء الملابس تبعًا للموضة الأمريكية عن مدى قبول الشخص لمثل القانون الدستورى الأمريكى؟ ماذا يكشف لنا النظام المصرفى الأمريكى أو السياسة الخارجية عن القيم الأمريكية؟

وبالقياس، هل يأثم المسلم لعدم إقامته فى دولة إسلامية؟ هل تناول الطعام اليهودى يعد عملاً غير إسلامى؟ هل الاحتفال بعيد الشكر وتناول الديك الرومى من المقبول إسلاميًا؟ هل تخالف المرأة تعاليم دينها ما لم تغط رأسها؟ هل من الإثم القيام بعمل مع أحد البنوك؟

يتمثل الخطر الكامن فى المسميات فى حقيقة أنها تتملكنا وليس العكس، وأصبحت القضايا السطحية تعريفًا للقضايا الجوهرية، ومن ثم ينظر غير المسلمين إلى «النزعة القتالية الإسلامية» على أنها أمر ينبع من العقيدة الإسلامية، بدلاً من كونها شيئًا قام به أناس معينون أطلقوا على أنفسهم مسلمين عادة ما يكون لأغراض سياسية. وبالمثل يمكن أن يرتدى المسلمون زيًا إسلاميًا ويتسمون بأسماء إسلامية من أجل إظهار أوراق الاعتماد الإسلامية، وهم لا يدركون متى يقعون فى مخالفة قواعد هامة من قواعد السلوك الأخلاقى الإسلامى، وذلك لجهلهم بالعقيدة والتعاليم والشريعة الإسلامية.

يعتبر استخدام مصطلح **«الإسلاموية»** (Islamism) الجديد للإشارة إلى النزعة إلى القتال المسلح الذى يتم ظاهريًا باسم الإسلام استخدامًا مضرًا بصفة خاصة للغة. حيث إنه يضم الدين الإسلامى إلى الحركات السياسية الحديثة بطريقة تجعل غير المسلمين يعتقدون أن الإسلام نفسه هو منبع النزعة إلى القتال المسلح. فعندما نستخدم اللغة بشكل يخلق علاقات ليس لها وجود فى الحقيقة، فإن النتائج لا تكون مربكة فحسب؛ بل وخطيرة؛ لأن الناس يمكن أن يتصرفوا ـ ويتصرفون بالفعل ـ بناءً على ما يفهمون.

أطلق الرومان على الحواريين الأوائل فى أنطاكيا اسم «مسيحى»، والتى كانت تعنى فى الأصل «يهوديًا (وفيما بعد أى شخص) آمن بمجىء المسيح»، (فوفقًا لهذا التعريف، يعتبر المسلمون أيضًا مسيحيين لاعترافهم بأن يسوع هو المسيح)(٧). وكما يوضح سميث، فإن أتباع الكنيسة رفضوا هذه التسمية فى البداية ـ لشعورهم بالحرج منها ـ حيث إنها كانت تعنى «شبيهًا بالمسيح» أو «مسيحى Chris_ish»(٨)؛ تخيل أن سؤالاً يقول: «هل أنت شبيه باليسوع أم ذو طبيعة المسيح؟ كان يفهم لديهم بما يساوى المفهوم من السؤال «هل أنت مسيحى؟» ولكن بحلول القرن التاسع عشر أصبحت كلمة «مسيحى» يقصد بها بشكل حصرى «ما يتعلق بالمسيحيين أو بمؤسسة المسيحية».

ولقد مرت كلمة «إسلام» بنفس التغيير فى استخدام المسلمين لها حيث استخدم القرآن والنبى ومن عاصره بل والأجيال اللاحقة كلمة «مسلم» لتفيد «شخصًا خاضعًا ومسلمًا»، وبناءً على هذا اعتبر المسيحيون واليهود الورعون «مسلمين» ولكن بحلول القرن التاسع عشر صارت كلمة «مسلم» تعنى بشكل حصرى «ما يتعلق بممارسات النبى محمد ﷺ»، ويعتبر هذا الفارق بين المعنى والمدلول ضخمًا.

بم يتعلق الصراع حقًا؟

هل الدين يتسبب فى الصراعات؟ هذه فكرة شائعة وتستحق البحث بشىء من التفصيل.

فى الأساس، دائمًا ما يكون السبب الجذرى للصراع تقريبًا هو فقدان أصل من الأصول، شيئًا ثمينًا له قيمة غالية بالفعل. ويمكن أن يكون هذا الأصل أى شىء - فكرة مثل فقدان الشرف والحق فى تعليم أولادك، المذهب القائل بأن الله هو خالق الكون بدلاً من نظرية التطور، أو ربما يكون شيئًا حقيقيًا وملموسًا مثل ميراثك. وتعتبر معتقداتنا من الأصول التى نعتز بها لأقصى حد، ومن ثم فإن ديننا نظرًا لكونه مجموعة فرعية من معتقداتنا، هو أصل نعتز به مثل حريتنا وتحررنا. فربما يغضب الموظف لشعوره بالحرمان من حقه القانونى فى العلاوة، وربما يتخذ الابن إجراءً قانونيًا لاستبعاده من ملكية والديه، وربما قد تحارب البلدان بسبب مياه الزراعة التابعة من نهر على الحدود، وربما يتشاجر رجلان على حب امرأة؛ وتثور ثائرة الناس عندما يشعرون بأن أصلا ثمينًا قد أخذ منهم ظلمًا سواء عن طريق السرقة أو الاستيلاء غير الشرعى أو حتى عندما يشكون فى أنهم دفعوا ما يتجاوز مقابله (كما يحدث عندما يتعجبون قائلين: «لقد سرقنا!»).

تعد قضايا السلطة السبب الجذرى الآخر للصراع - من يتحكم فى القرارات - فيمكن أن يختلف زوجان حول لون سجادة جديدة، أو حول المكان الذى سيقضون فيه العطلة، أو حول من يقوم بغسيل الأطباق؛ وبمرور الوقت، قد يؤدى تراكم هذه الخلافات درجة من الحدة تجعل استمرار العلاقة بينهما متعذرًا؛ وبينما تعتبر الخلافات حول هذه الأمور التافهة نسبيًا مصدرًا للصراع فى العادة، إلا أنها ليست كذلك

بالفعل؛ لأنه عندما يسوى الزوجان هذه الخلافات فعادة ما تأخذهم الدهشة قائلين: «هل كنا نتشاجر بسبب هذا؟» .

لقد كانوا يتنازعون فى الحقيقة على السلطة، على من يقرر كل شىء عن كل شىء، فلم ينجم الغضب بصفة خاصة حول اختيار لون السجادة، ولكن حول حق السيطرة على إصدار القرار. وهذا ما يجعلنا ننفجر قائلين: «لا تمل علىّ ماذا أفعل!» فنحن نتشبث بهذا الحق في اتخاذ قراراتنا وحتى فى ارتكاب أخطائنا.

يشكل هذان السببان الجذريان وهما: سلطة التحكم فى القرارات، وكيفية توزيع الأصول، السبب الجذرى فى كل الصراعات تقريبًا، وتصير القضايا مقداحًا للعنف إذا ترجمت إلى فقدان للسلطة أو الأصول الملموسة.

بمجرد إثارة الجدل، ينشأ نمط نفسى نبحث فيه عما يفرقنا عن الطرف الآخر، وغالبًا ما ينسب الصراع إلى هذا الاختلاف خطأ، وبالتالى يسهم فى النظر إلى خصومنا على أنهم يمثلون «الآخرية» ويغذى إحساسنا بسلامة قضيتنا. ولذا إذا كان الخلاف بين رجل وامرأة، فإننا نندفع فى غضبنا بقول إن: «النساء! عاطفيات للغاية!» أو نقول: «الرجال! وحوش بلا إحساس!» وهكذا نرجع السبب إلى الاختلاف فى نوع الجنس، وعندما يحين الوقت تندلع حرب بين نوعى الجنسين، وتمر الأجيال بينما تؤلف كتب عن كيف أن الرجال من كوكب المريخ وأن النساء من كوكب الزهرة؛ وحيث إننا لا نستطيع العيش معهم أو بدونهم؛ فقد تم التوصل إلى حل وسط بينهما بمقتضاه تكون للنساء الهيمنة على مجالات معينة للحياة، وللرجال السيطرة على غيرها.

وإذا كان الاختلاف نابعًا من لون البشرة والعرق، فإننا نعزو سبب الخلاف لهذا الاختلاف، وينشأ صراع اثنى أو عرقى عاجلاً أو آجلاً؛ أما إذا كان الخلاف فى الدين فسوف نعانى من صراع دينى. وبعد جيل أو اثنين، نعلم الناس أن يفكروا فى هذه الاختلافات بطريقة تجعلهم يعتقدون على نحو صادق أن النساء غير قادرات على الحصول على التعليم العالى، ناهيك عن أن يصبحن قادة، وأن دراسة النساء للعلوم البحتة سوف تفسد عقولهن، وأن العرب أو المسلمين «ليس بمقدورهم أن يتعاملوا مع الديمقراطية»، وأن العرب واليهود كرهوا بعضهم البعض منذ عهد إسماعيل وإسحاق، وأن الهندوس دائمًا ما يكنون الكراهية للمسلمين، وأن المسلمين السنة

والشيعة لا يمكنهم التصالح مطلقًا، وأن السود أدنى من البيض، وأن أهل الشمال أرفع منزلة من أهل الجنوب، وأن سكان المدينة أفضل من سكان الضواحى، وتستمر قائمة الأحكام المسبقة؛ وفى وقت من الأوقات تصير هذه الخلافات معتقدات راسخة الجذور تستمر فى تغذية الصراع، وربما تستغرق أجيالاً لتصحيحها.

تعتبر هذه الصفات التى استخدمت تاريخيّا لمنع جماعات من الناس من المشاركة فى السلطة وفى الأصول الاقتصادية فى الحقيقة أسبابًا ثانوية، وبالأصح ينبغى النظر إليها على أنها مسميات للهوية يمكن أن نجدها مفيدة فى وصف الآخرين فى أى صراع معين؛ يمكننا أن نبتكر أى عدد من تلك المسميات، بما فيها ما يتعلق بنوع الجنس ولون البشرة والنسب للقبيلة أو الطبقة أو العائلة، وبالطبع الدين. ويعد ما نطلق عليه فى الولايات المتحدة «السقف الزجاجى» مثلاً للتفرقة القائمة على نوع الجنس، كما أن المذابح التى تقع بين قبائل الهوتو والتوتسى فى رواندا مثال للصراع القبلى، وتدور التوترات فى الهند حول الدين والتمايز الطائفى (الطبقى) (داخل الديانة الهندوسية)، بينما تمثل الاضطرابات الأيرلندية صراعًا بين الجماعات الفرعية من ديانة واحدة (البروتستانت ضد الكاثوليك). إن كلاً من هذه الاختلافات ليس هو السبب الجذرى للصراع، ولكنها تلك المسميات للهوية التى استخدمت للتفريق بين جماعة وأخرى فيما يتعلق بالسببين الجذريين الحقيقيين للصراع ألا وهما السلطة والاقتصاد.

لإقامة الدليل على أن الدين ليس السبب الجذرى للصراع، ادرس اللاهوت الكاثوليكى والبروتستانتى، وسوف تأسى لاكتشاف سبب الصراع فى مدينة بلفاست؛ وعلاوة على ذلك، تمكن كلٌّ من الحبر الأكبر الإسرائيلى ومفتى مصر ورئيس أساقفة وستمنيستر من الاتفاق فى يناير ٢٠٠٢ على إعلان الإسكندرية المشترك الذى يدعو إلى السلام بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، ولكن ذلك لم يجد شيئًا تجاه تقليل ضريبة الموت الناجمة عن الصراع العربى الإسرائيلى. وجمع مؤتمر الأمم المتحدة لقمة الألفية ما يزيد على ألف ممثل للأديان أصدروا بيانات رسمية نبيلة وصادقة عن الحاجة إلى تحقيق السلام بين الديانات، ولكن دعوتهم لم يكن لها تأثير على ما يحدث فى فلسطين أو على التوتر النووى بين الهند وباكستان؛ وذلك لافتقار الزعماء الدينيين لطرق معالجة قضايا السلطة والاقتصاد.

كانت جماعة طالبان يعتبرون أنفسهم مسلمين مخلصين صالحين . كذلك يرى الپاكستانيون أنفسهم مسلمين صادقين ، كما يعتبر الإيرانيون أنفسهم مسلمين ورعين ، ومع ذلك ، قتلت حركة طالبان العديد من الشيعة ، كذا تعرض الشيعة لهجوم فى پاكستان ؛ ولا تتعلق هذه الصراعات بالتعاليم والمبادئ العقائدية بقدر ما تتعلق بالتعدى الحقيقى أو المحسوس على الأصول .

عندما يستمر أى صراع لأعوام ، ينزع الناس فى نسيان مصدره الحقيقى ويعزونه بدلاً من ذلك إلى أسباب ثانوية للخلاف ؛ لذا يعتقد الأيرلنديون أن الكاثوليك والپروتستانت قد طبعوا على العنف تجاه بعضهم البعض ، كما يتربى اليهود والعرب على الشعور بأن عداوتهم لبعضهم البعض شىء متأصل فى يهوديتهم وعروبتهم ؛ كذا يعتقد العديد من الشيعة والسنة بأن قتال بعضهم البعض أمر مقدر . والواقع أن هذه الخلافات ليست سوى مسميات ثانوية لتعيين هوية الآخر التى تعلمنا أن نجعل منه شيطانًا .

بل إن ما يجعل سوء الفهم هذا أكثر ضرراً هو أنه ليس من الصعب العثور على أسباب للصراع ترجع إلى زمن بعيد فى التاريخ ، فمن السهل أن نجد وقائع حدثت على عهد النبى ﷺ أو آيات من القرآن أو شواهد من التوراة تبرر الرأى القائل بأن اليهود والمسلمين لا بد أن يكونوا أعداء . وفى هذه العملية يتم بصورة ثابتة تجاهل وتناسى القرون التى شهدت علاقات دافئة أثبتت النقيض .

بناءً على ملاحظاتى عن الصراع ، فإننى أرفض نظرية أن الدين هو السبب الجذرى للكثير من الصراعات . لكنه ـ بالطبع ـ أحد العديد من أسباب التفجير أو من الأسباب الثانوية للصراع ، كما أنه سريع التقلب ، لكنه نادراً ما يكون السبب الجذرى أو الرئيسى للصراع . وبالأحرى ـ وكما أوضحت سابقًا ـ فإن الصراع العنيف يتعلق فى الغالب دائمًا بالظلم المتصور فى توزيع السلطة والأصول .

فالصراع الإسلامى الهندوسى القائم اليوم بين الهند وپاكستان أشعله فى الأصل النزاع حول من يملك كشمير (التى تعتبر مورداً اقتصاديًا) ، فى حين نبع الصراع الذى

أدى إلى فصل الهند إلى الهند وپاكستان من الخوف من وجود تباين بين الهنود والمسلمين فى هيكل الحكم (أى أنه نزاع حول السلطة)، وعلى الرغم من أنه تم حل قضية السلطة الأصلية بتقسيم شبه القارة الهندية، إلا أن قضية كشمير (الأصل الاقتصادى) التى لم يتم تسويتها ما زالت تغذى الصراع؛ ومن ثم ففى الوقت الذى تملك فيه الهند وپاكستان أسلحة نووية، موجهة لبعضهما البعض، ليس للهند أسلحة موجهة إلى بنجلادش أو ماليزيا أو مصر أو أى من الدول الأخرى التى غالبية سكانها من المسلمين. كذا ليس لدى بنجلادش، التى كانت فى الأصل جزءًا من تقسيم ١٩٤٨م، والتى كانت تعرف بپاكستان الشرقية، ولا مصر، التى تحظى بعلاقات دپلوماسية ممتازة مع الهند، مطمع فى إقليم كشمير.

لذا يتضح أن الدين ليس هو السبب الجذرى للصراع الإسلامى الهندوسى؛ لأنه لو كان كذلك، لكان للهند علاقة متوترة مع مصر وبنجلادش بالمثل؛ فبإزالة أو معالجة السبب الجذرى وهو السلطة أو الأصول، لن تلبث المسميات الهوية أن تذوى كأساس للعنف؛ وهكذا فبحل قضية كشمير ستكون الهند وپاكستان على الأرجح أكبر شركاء تجاريين لبعضهما البعض.

نشأ الصراع الفلسطينى الإسرائيلى فى الأساس حول توزيع أرض فلسطين (أصل اقتصادى)، فإذا تم حل هذه القضية فسوف تتحسن على الأرجح العلاقات الإسلامية اليهودية؛ (ومن ثم، فإن إسرائيل وفلسطين سيصبحان أكبر شركاء تجاريين لبعضهما البعض أيضًا).

نشأ الانقسام بين السنة والشيعة فى الأصل بسبب السلطة، أى حول من يحكم المجتمع المسلم بعد وفاة النبى ﷺ : هل هم آل بيت النبى ﷺ أم من كانوا يعتبرون الأكثر أهلية لها. واليوم تفاقمت الأمور فى پاكستان، حيث قام السنة بقتل الشيعة أثناء تأديتهم لصلاة الجمعة فى مساجدهم؛ وهو وضع مأساوى ومناف للعقل، ويتعارض مع جوهر مبادئ القرآن وتعاليم النبى محمد ﷺ!

هل العقيدة هى مصدر الشكوى؟

ترجع قوة المعتقدات لسببين :

أولهما : أن لها تأثيراً على نفوذنا أو وضعنا الاقتصادى .

ثانيهما : أنها تشكل أصلاً بذاتها .

سئل الحاخام ديفيد هارتمان مؤسس معهد شالوم هارتمان بالقدس أثناء وجوده فى معهد تشوتوكوا بنيويورك فى صيف ٢٠٠٢ : «هل سيسعد اليهود إذا ما تخلى المسيحيون عن اعتقادهم بأن المسيح إله؟» فأجاب الحاخام بدون تردد قائلاً : «لا يعنينى ما تعتقد ـ طالما أن الاختلاف بين ما تعتقد وما أعتقد لا يخرجنى عن الفريق . . . . . » ويقصد بالفريق فرصة المشاركة الكاملة فى الجماعة الأكبر من المجتمع العالمى ـ مشاركة المواطنين الآخرين فى فوائد الاقتصاد والسلطة ـ لأن هذا الاستبعاد هو ما يرى الفلسطينيون أنه قد حدث لهم بدقة .

يعظم كثيرون منا أفكاراً مثل فلسفتنا فى الحياة أو نظرتنا للعالم أو الميثاق الاجتماعى الذى يربطنا بالآخرين ويحدد كيفية التفاعل معهم؛ وأعتقد أن أهم هذه القيم لمعظم الناس ، بما فيهم الملحدون واللاأدريون ، هى تلك القيم التى تشير إذا ما تم انتهاكها أو مخالفتها ، فإنها عرض الكر أو الفر ؛ فلدى معظمنا مجموعة من المعتقدات الراسخة التى تحدد كيف نتصل بالعالم من حولنا ، ومن ثم ، فبهذا المعنى أود أن أقول بأننا جميعًا «متدينون» ولكن تبقى أسئلة : ما هو ديننا؟ وكيف يختلف عن الديانات الرئيسية الأخرى؟ وكيف يمكن أن نفهم بعضنا بعضًا؟

تعتبر العقائد من بين أغلى ممتلكاتنا قيمة وتلقى إعزازًا خاصًا من قبل هؤلاء الذين استغرقت كياناتهم فى معتقداتهم الخاصة بمسألة معينة . غالبًا لا تمثل ماهية المعتقد أية أهمية ، ولكن ما يهم هو ارتباطك النفسى بأهمية المعتقد ، لا سيما وهو يؤثر عليك شخصيًا .

لن أنسى أبدًا عندما اشترى والد أمى كبدة خروف طازجة من جزار القرية وطلب أن تنقع فى خليط من البصل وعصير الليمون الحامض قبل تحميرها . ثم استشاط غضبًا عندما خالفت أمى وزوجة أبيها أوامره ، لم أره مطلقًا مهتاجًا عاطفيًا بسبب أى شىء

بقدر ما رأيته فى هذه المرة؛ والآن فهمت سبب هذا: فقد تعرض طلبه للرفض (وتعتبر هذه مسألة سلطة لها أهمية خاصة عند الرجل العربى فى بيته)؛ كما أنه رأى الأصل الذى اشتراه (وهو كبدة الخروف الشهية التى كان ينتظرها، فهى أكثر شىء طازج فى محل الجزار) قد تلف.

يكمن دائمًا التحدى الذى يواجه أى شخص يتدخل فى حل صراع فى كيفية تحديد القضايا الرئيسية الكامنة والخاصة بالسلطة والأصول، والتى لا تظهر غالبًا على السطح. أما ما يسهم فى استمرار العنف فهو فى الغالب دائمًا زمرة قوية من الارتباطات العاطفية لدى كل جانب تتجاوز تمامًا الاحتياجات العادية للحياة اليومية، وإن كانت غير منطقية على الدوام تقريبًا.

لا يحتاج المرء إلى درجة علمية متقدمة فى العلوم الاقتصادية أو السياسية ليدرك أن العنف الفوضوى المنتظم يعتبر أمرًا غير صحى بالنسبة للمجتمع؛ فالناس لا يشعرون بالأمان، وتضطرب أسواق المال، بل وتتوقف الحياة تمامًا عند اندلاع العنف، فلتنظر إلى ما يحدث للإسرائيليين والفلسطينيين على مر الأعوام القليلة الماضية. تدهور اقتصاد متزايد لكلا الجانبين. وبينما يعانى الفلسطينيون من سوء التغذية، كان الاقتصاد الإسرائيلى يعانى من السقوط الحر، وظل الجانبان أسرى الشعور بعدم الأمان.

الأصوليون العدوانيون: فريق الدفاع

افترض كونراد لورانز، كاتب أحد أهم المؤلفات بعنوان: «حول العدوان»: «أن العدوان الذى غالبًا ما تعتبر آثاره مماثلة لتلك الناجمة عن الرغبة فى الموت، غريزة مثل أية غريزة أخرى، وأنه مثله مثل غيره، يساعد فى الظروف الطبيعية على ضمان بقاء الفرد والأنواع»(٩)؛ فعندما تشعر جماعة ما بأنها معرضة للهجوم فإن قدرًا معينًا من العدوان قمين بأن ينشأ باسمها لضمان بقائها، وأعتقد أن هذه الغريزة الدفاعية هى التى أدت إلى ظهور جميع الحركات الأصولية الدينية، وهذا بالتأكيد ما حدث مع الإسلام.

لقد كان الخوارج أول ظهور لنزعة القتال العدوانية باسم راية الإسلام، وقد وقع هذا فى خلافة أكثر الخلفاء حبًا وتبجيلاً فى قلوب المؤمنين، ألا وهو الخليفة الرابع على ابن أبى طالب ﷺ، ابن عم النبى ﷺ وزوج ابنته فاطمة، والذى تحداه معاوية(١٠)،

حاكم دمشق في محاولة للوصول إلى السلطة السياسية. فقد عزم علي ﷺ على عزل عدد من الولاة بما فيهم معاوية؛ وذلك لأنهم لا يحكمون حسب قانون العدل الإسلامي. وعجل ذلك بحدوث تمرد ضد علي أدى إلى وقوع معركة صفين بين علي ومعاوية. كان علي ﷺ على وشك الانتصار في هذه الموقعة إلا أن أحد رجال معاوية دبر حيلة ذكية: فقد وضع القرآن على أسنة الرماح، الأمر الذي يعني «دعنا نحتكم إلى القرآن». جعل هذا أصحاب علي يتوقفون عن القتال خالقين جواً من الهدوء المؤقت في المعركة عجل باللجوء إلى التحكيم الذي لم يتمخض عن إعلان فائز صريح؛ ونتيجة لذلك، غضب بعض من أقوى الجنود في صفوف علي نتيجة لتراخيه تجاه متحديه في الدفاع عن الأمة والخروج بها من هذا التحدي إلى مساره الصحيح.

كان الخوارج قبل تسميتهم بهذا الاسم مجرد جنود شعروا بالإحباط لمنعهم من مقاتلة عدوهم - معاوية حاكم دمشق - الذي كان يدمر الإسلام حسب رأيهم؛ لكن هذه الجماعة سطرت في النهاية تاريخاً بحربها المأساوية لقائدهم علي، وكان كل هذا بسبب خلاف عاطفي في الرأي.

انشق الخوارج على علي حتى أنهم اغتالوه في النهاية؛ وفي حين أن معاوية عندما شن - على وجه التأكيد - عدوانه ضد علي فإنه لم يفعل ذلك تحت اسم الإسلام. كانت معركته في سبيل السلطة والحكم. وعلى الجانب الآخر، رأى الخوارج أنهم يدافعون عن الإسلام بقتالهم الزعيم الشرعي للأمة، وكانوا يعتقدون أنه كان لزاماً على الخليفة العادل أن يحارب عن رعيته ويحميهم، وإن لم يفعل ذلك فإنه يصادر حقه في خلافة المسلمين، بل لقد وضعوا نظرية عن الخلافة، وحددوا مؤهلات الإمام (قائد الأمة) بناءً على هذه الأفكار.

يذكرنا هذا الموقف إلى حد ما بالجنرال جورج باتون في نهاية الحرب العالمية الثانية. حيث ترسخ لديه الاعتقاد بأنه كان ينبغي على الولايات المتحدة أن تستمر في زحفها على ألمانيا، وأن تتحدى الاتحاد السوفيتي أيضاً. لكن الرئيس هاري ترومان فرض سيطرته عليه. ولنتخيل الآن لو كان باتون قد اعتبر أن قرار ترومان محاباة للاتحاد السوفيتي «وخرج» على ترومان وشن عليه حرباً؛ لأنه لم يكن عدوانياً بشكل كاف تجاه عدو الولايات المتحدة، عندئذ كان باتون سيصبح بهذا في وضع الخوارج. وبمعنًى ما

فإن مضى باتون إلى حد ما فى طريقه يشبه إلى حد ما ظاهرة الخوارج، وهو ما يجعله ملكيًا أكثر من الملك فى دفاعه العدوانى عن الأمة ضد أعدائها.

تقول نظرية لورنز: إن هذا النوع من العدوان للدفاع عن الأمة ينشأ بيولوچيًا من أجل حماية «الأنواع» والأنواع التى تتم حمايتها قد تكون عرقية، قبلية، أو دينية. فعلى سبيل المثال، مثلت حركة الفهود السود العنيفة فى الستينيات هذا النوع من العدوان فى سياق حركة للحقوق المدنية تسعى للدفاع عن الأمريكيين السود ضد الأمريكيين البيض الذين فرضوا عليهم ظلم العبودية التاريخى (ثم التمييز العنصرى بعد ذلك). ولكن بعدما دفع الرئيس ليندون جونسون بتشريع الحقوق المدنية وأحرز الأمريكيون السود تقدمًا فى معركتهم لاكتساب الحقوق المدنية، سقطت عوائق قانونية وانتخابية، وتم ابتكار خطط للعمل لإثبات الجدارة، وأصبحت التفرقة العنصرية ضد السود انتهاكًا للقانون. ومع حدوث كل هذا، كان من المحتم أن تنحسر نزعة القتال للسود.

فعلى الرغم من أن هذا لا يفسر جميع أسباب العدوان الدينى أو العدوان الذى يرتكب باسم الدين، إلا أننى أعتقد أن جزءًا مهمًا من الأصولية الدينية فى القرن العشرين (الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، والهندوسية، والسيخية) نتجت كرد فعل دفاعى ضد الهجمات الموجهة المتصورة؛ فالأصوليون، طبقًا لنظرية لورانز، هم معتدون أخذوا شكل الخوارج بقصد الدفاع عن جماعتهم الدينية من الهجمات التى يتعرضون لها من أية جهة كانت: فالأصوليون اليهود فى مواجهة اليهود العلمانيين، والأصوليون السيخ تصدوا لهجوم أنديرا غاندى العادى على الموقع المقدس لهم وهو المعبد الذهبى، أو رد فعل المسلمين تجاه الحداثة وما يتبعها من علمانية نزاعة للقتال.

هذا، وقد عرض عالم الوراثة ريتشارد دوكينز بعضًا من الأفكار المثيرة عن العدوان فى كتاب عن الجين الأنانى والتى تكمل نظرية لورانز، ومن بين رؤاه المتبصرة أنه إذا ما توقعنا مساعدة من طبيعتنا البيولوچية من أجل بناء مجتمع يتعاون فيه الأفراد بسخاء وأثرة من أجل تحقيق الصالح العام، فينبغى علينا حينئذ أن نعرف كيف تعمل البيولوچيا غير الواعية لدينا(١١).

وذكر من بين السلوكيات التى نلاحظها فى مملكة الحيوانات سلوك اللدغ لدى النحل الشغال دفاعًا عن الخلية. ونتيجة لذلك تموت النحلة الشغالة، حيث تخرج أعضاء داخلية حيوية من الجسم أثناء عملية اللدغ. وبهذا يحقق «الهجوم الانتحارى» للنحلة الشغالة ضد المعتدى الغرض منه.وهو إنقاذ الخلية، لكن لن يتسنى للنحلة جنى ثمار ما فعلته؛ ولا يعتقد علماء الأحياء بأن النحلة قد فعلت هذا كشهيد يبحث عن الحياة الأبدية فى جنة النحل، ويتساءلون بطبيعة الحال: كيف تحدد جينيّا هذا السلوك اللاواعى المتسم بالأثرة؟

وهو يفترض أن نطاق السلوك فى مملكة الحيوانات، ابتداءً من الإيثار الأبوى وانتهاءً بالاعتداء على الآخرين، والذى ربما يبدو لدينا إما كأمثلة للأنانية الفردية الواعية أو الإيثار الفردى، يمكن تفسيره عن طريق تطبيق فرع من الرياضيات يسمى نظرية المباراة، يقوم بحساب مردودات تشكيلية من الصفات السلوكية المختلفة. وحيث إن هذه المردودات تبدو فى صالح رفاهية الجين أكثر منها فى صالح رفاهية الكائن الحى وتتجاوز على ما يبدو السلوك الواعى المترسخ فى شعورنا بالإرادة والقيم، فقد أطلق دوكينز على هذه الفكرة اسم «أنانية الجين».

كما لاحظ دوكينز وجود ما أطلق عليه «استراتيجية ثابتة للتطور»، فعندما تعايش جماعة ما عدوانًا عليها نتيجة رغبة البعض فى تحقيق منفعة على حسابها، تنشأ أنماط من السلوك العدوانى المتبادل يعكس صوراً ثابتة، وعلى الرغم من أن التعاون المتبادل يحقق أرباحًا أكثر لكلا الجانبين، إلا أن العدوان يستعلى لتحقيق مكسب قصير المدى.

إن جوهر تحليل دوكينز هو أن البشر «خلقوا على هيئة آلات جينية... **لكننا لدينا قوة الانقلاب على الخالقين لنا؛ فنحن الوحيدون على وجه الأرض الذين يمكنهم التمرد على استبداد الناسخين الأنانيين**»(١٢) (استخدام البنط الأسود من إضافتى)، وبقدر ما يتحدد السلوك الإنسانى بيولوچيّا وجينيّا، فإن نظرية دوكينز تفسر لماذا يحارب البشر من أجل الوطن، أو القبيلة، أو من أجل تحقيق التضامن الإقليمى، أو التضامن الأسرى، أو من أجل النفس نشبت الحرب داخل الأسرة. وتشرح أيضًا وإلى حد ما الدور الذى يلعبه الانتحار فى السلوك الإنسانى عندما يكون له مردود لصالح

الجماعة التابع لها الفرد، ويكون من المعقول استنتاج أنه كما تطور النحل ليقوم بعدوان انتحارى لصد الهجوم على نوعه البيولوچى، فإن العدوان الانتحارى سيتطور كإحدى وسائل التصدى لما يعتقد أنه هجوم على الجماعة، وذلك بمقدارما تتبع الجماعات البشرية سلوكًا تطوريًا.

إن الاستسلام «لاستبداد الناسخين الأنانيين» يعنى بالنسبة لى ما يحدث عندما ندع أنفسنا نخضع لاستراتيچيات التطور الثابت للعنف والعدوان الذى توضحه حسابات نظرية المباراة. ويحدث «تمردنا ضد من يقومون بنسخنا» عندما ندرك أنه يمكن تحقيق مردود اجتماعى أفضل، وذلك عن طريق التعاون مع بعضنا البعض فى بناء مجتمع مدنى متجانس وتعددى؛ وتسيطر إستراتيچية التطور الثابت لسلوك العدوان والعنف الإنسانى على الأرجح عندما تهلك أو تهن قواعد التعاون الاجتماعية، كما حدث فى أفغانستان والعراق. وتوضح نظرية المباراة أن المنافع التى تعود على المجتمع من جراء التعاون أعظم بكثير من مردود التطور الثابت الذى يسمح بحدوث السلوك العدوانى. والسؤال الطبيعى هو: كيف نستخدم بصيرتنا الواعية من أجل تثبيت المردود الأكبر للتعاون بصورة مصطنعة؟

إن الجواب المختصر على هذا السؤال هو أنه بتشكيل هيكل حكم المجتمع بطريقة تكون فيها أكثر الاستراتيچيات استقرارًا هى تلك الاستراتيچية التى تعظم المردود إلى أقصى حد، بل وتفرض عقوبات صارمة على من يتسبب فى اضطراب هذا التركيب؛ ونسمى هذا بـ «الحكم الديمقراطى» وتعمل الحكومة فيه «بموافقة المحكومين»، وفى هذا المجتمع، يهتم كل شخص، رجلاً كان أو امرأة، «بالمردود الذى يعود عليه» (كيفما حدد المرء الحياة والحرية والتماس السعادة) ويحاول تعظيمه. وتشير نظرية المباراة بأنه عندما يجد الناس سبيلاً لتحميل الحكومة مسئولية تعظيم المردود، فإن هذا المجتمع سوف يحول استراتيچية التطور الثابت إلى اللاعنف(١٣).

تهدف تعاليمنا الدينية والأخلاقية، لا سيما المبدأ الذى جاء فى الوصية الثانية بأن «حب لأخيك ما تحب لنفسك، ولا تؤذ الآخرين كما تحب أن لا يؤذيك الآخرون» والحث على التعاون وكبح جماح ميولنا العدوانية، إلى توفير مردود أكبر للمجتمع حتى لو كان ذلك بدون المردود الإضافى الذى يتوقعه المتدينون فى الحياة الأبدية فى الآخرة.

أوضح البروفيسور أشوتوش فارشينى ـ الذى درس الصراع بين المسلمين والهندوس والعنف فى المدن الهندية ـ أن العلاقات الشخصية ونوعيتها يمكن دائمًا أن تمنع اندلاع العنف بسبب الانقسام الدينى(١٤).

والقضية المحيرة التى يبحثها هى: «لماذا رغم التنوع العرقى، تتمكن بعض الأماكن ـ مناطق وأمم ومدن وقرى ـ من الحفاظ على السلام فيها فى حين تعانى أخرى من أشكال دائمة من العنف». «ولماذا تنفجر بعض المجتمعات، بعد تحقيقها لرقم قياسى حقيقى فى السلام العرقى، بأسلوب يدهش المراقب لها كما يدهش العالم الباحث فى الغالب أيضا؟»(١٥).

وقد لاحظ البروفيسور فارشينى نوعين من العلاقات بين طوائف المجتمعات المدنية وهما العلاقة **الاتحادية**، والعلاقة **اليومية**؛ ويقصد بالاتحادية الأحزاب السياسية وجمعيات الأعمال والنقابات العمالية والجمعيات المهنية ونوادى القراءة ونوادى الفيديو والنوادى الرياضية ومنظمات احتفالية وما شابهها. ويقصد بالعلاقة اليومية تفاعلات الحياة الروتينية مثل عيش عائلات مسلمة وهندوسية نفس المجاورات وتزاورهم وأكلهم مع بعضهم البعض، ومشاركتهم معًا فى الاحتفالات وسماحهم لأولادهم باللعب مع بعضهم البعض فى المجاورة.

ففى حين أن كلاًّ من نوعى العلاقات صحى ويساعد على تخفيف التوتر، إلا أن العلاقات الاتحادية تكون أفضل بشكل كبير فى مقاومة الصدمات القوية. وفى البيئة الحضرية، تنزع العلاقات الشخصية إلى أن تكون أقل مما يفسر لماذا يميل العنف بين المسلمين والهندوس لأن يكون بصفة رئيسية ظاهرة مدنية بدلاً من أن يكون ظاهرة ريفية. وقد حال وجود علاقات اتحادية دون وقوع العنف فى مدن بها نفس التركيبات السكانية من المسلمين والهندوس التى توجد فى مدن أخرى يقع فيها العنف حيث تغيب تلك العلاقات الاتحادية.

وإذا ما نظرنا إلى طبيّعة العلاقات الاتحادية، فإننا سندرك على الفور لماذا هى ملزمة. فقضايا مثل السلطة والمال تنزع إلى أن تتركز فى الأشكال الاتحادية من الارتباط

المدنى، وليس فى فئة العلاقات اليومية. وتمثل جمعيات الأعمال والنقابات العمالية والأحزاب السياسية الروابط بين المال والسلطة، بينما تسمح نوادى القراءة والفيديو والنوادى الرياضية بتشكيل الهوية الشخصية والروابط التى تتعلق بالمصالح المشتركة. وتبدد هذه العلاقات التوترات - التى تتخلل مواطن أخرى تصل إلى درجة الانفجار - فى مدن قامت فيها شبكة من الروابط الاجتماعية والصلات الاقتصادية وعلاقات مشاركة السلطة على خلفيات دينية. وفى الحالات التى يبدو فيها العنف وشيكًا، استطاع قادة طوائف من المسلمين والهندوس منع اندلاعه، ذلك أن لهم فى ذلك مصالح خاصة، وتبددت الحدود التى فصلت «بيننا» وبين «الآخر» بفعل روابط المصلحة الشخصية.

كيف يمكن تطبيق هذه المعلومات لمعالجة صراع، مثلا الصراع القائم بين إسرائيل وفلسطين؟ يتمثل نهج لذلك فى إيجاد وسائل تجعل من خلالها زعماء الرأى والسياسة شركاء فى التحمل المباشر لمكاسب وخسائر كلٍّ منهما. ربما يبدو هذا المثال غاية فى التبسيط، ولكن إذا ما استطعنا إيجاد صيغة عملية تقضى بتحمل القيادة الإسرائيلية شخصيًّا خسارة مالية فادحة عندما يقتل فلسطينى على يد إسرائيلى؛ وبالمثل تتحمل القيادة الفلسطينية شخصيًّا خسارة مالية فادحة عندما يقتل إسرائيلى على يد فلسطينى، فسيؤدى هذا الضغط على أعلى المستويات للحد من العنف. هذه هى الفكرة وراء الدية التى يدفعها القاتل لعائلة الضحية بموجب الشريعة الإسلامية، كما تم تطبيق هذا المبدأ فى الماضى البعيد، عندما تشكلت الروابط الإلزامية من خلال تزويج الملك أو الأمير من أميرة تنتمى إلى الطرف الآخر، ولكن اليوم لا نتوقع زواج ابن أريل شارون من بنت ياسر عرفات، ولكنك بالطبع قد فهمت ما أقصده، وفى العالم الحاضر، يتطلب الحل مقدارًا كبيرًا من الروابط الاتحادية ما بين المتنازعين شاملة تشكيلة كبيرة من المشروعات التجارية والاجتماعية والمدنية.

عذرًا، ولكن فى سبيل أى إله تقاتلون؟

وعلى النقيض من الرأى المشهور، فإن القرآن بموجب أنه آخر تكرار لملة إبراهيم، حرم بوضوح وجلاء الإكراه فى الدين؛ وذلك لأن الإكراه ينافى حقًّا إنسانيًّا رئيسيًّا

وهو الحق فى حرية العقيدة، ولا يعتبر نظام العقيدة المختلف سببًا مشروعًا للعنف والحرب فى الشريعة الإسلامية؛ وقد جاء القرآن قاطعًا فى هذا الشأن، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

دعونا نبحث هذه القضايا بشكل مستفيض، فالناس يقاتلون من أجل ما يعتبرونه بصفة شخصية قيمًا، حيث إننى سأصبح على الأرجح متورطًا عاطفيًا إذا ما قام شخص ما برمى حجارة على نافذتى بأكثر مما أفعل لو قام برمى نافذة حجرة غريب يعيش عبر المدينة. وعندما يتم الاعتداء على أرضنا الخاصة يضغط هذا على زر غريزتنا الدفاعية والعدوانية، وهذا ما يمثل تطبيقًا للتعليق المشهور للرئيس السابق باسم مجلس النواب تيب أونيل بأن «السياسة بأكملها محلية».

لقد سلكنا هذا السبيل الشاق من أجل الدفاع عن القيم العزيزة علينا. تمامًا مثل أنثى الفيل التى تقاتل حتى الموت من أجل حماية طفلها الذى تعظم قيمته، وربما تقاتل من أجل طفل أنثى غيرها وإن كان بعاطفة أقل، ولكنها بالتأكيد لن تقاتل من أجل طفل اللبؤة؛ أما نحن البشر فلدينا للأسف ميل لاعتبار البشر ذوى الديانات والأجناس والأعراق المغايرة أنواعًا مختلفة عنا، ومن ثم نقيمهم ونعاملهم بشكل يختلف عن الطريقة التى نتعامل بها مع أنفسنا!

دائمًا ما يبرر الناس موقفهم من القتال فى سبيل شىء ما بما يتعلق بقيمهم الدفينة: ألا وهى العدل أو الصدق أو الشرف أو الحرية أو الكبرياء القومى أو حماية شخص عزيز. وبالنسبة للبعض، يعتبر الله - سبحانه وتعالى - هو خالق الناس جميعًا، الذى يستند إليه فهمهم للعدالة المطلقة والصدق المطلق والحب المطلق والحرية المطلقة. ويقاتل الملحدون واللاأدريون، على الرغم من عدم إيمانهم بوجود خالق للناس جميعًا، بل وربما يعتبرون هذا اعتقادًا سخيفًا - فى سبيل قيم مثل العدل والصدق والشرف والديمقراطية. وهكذا، فإنه من الطبيعى والمنطقى تمامًا أن يقاتل الناس، حتى الموت أحيانًا - فى سبيل الإله الخاص به، سواء كان إلهًا شخصيًا أو شيئًا يمثل أعز القيم الإنسانية عندهم.

وكما ذكرنا من قبل، فإن القرآن لا يسمح بالاعتداء على الآخرين بسبب مجرد معتقداتهم، ويمضى القرآن فى آية موحية على وجه خصوص إلى ما هو أبعد من هذا فيحرم العدوان على هؤلاء الذى لا يؤمنون بإله، داعيًا المسلمين بأن يكونوا متقبلين للتعددية، وينفتحوا على الأنظمة العقائدية للآخرين، فيقول تعالى: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦ـ١٠٨].

كما أوضح النبى ﷺ فى أسلوب تعليمى توجيهى رفيع كيف أن التعامل مع الآخرين بطريقة فظة يمكن أن يرد هذه الفظاظة علينا؛ فيقول ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله! وكيف يشتم الرجل والديه ؟! قال: «يَسُبُّ أبا الرجل فَيَسُبُّ أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١٦]؛ وقد استدل الفقهاء بهذا الحديث على أننا مسئولون عن عداوة الغير لنا إذا ما نتج ذلك عن جهلهم وردًّا على الاعتداء على قيمهم.

لقد شرع الإسلام القتال فى حالة الدفاع فقط؛ أى عندما نتعرض للاعتداء، أو نطرد من بيوتنا، أو نحرم من حقوقنا الرئيسية بسبب اختيارنا لمعتقدنا، فيقول تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨ـ٩].

حتى فى الحالات التى يسمح فيها بالقتال، فإن القرآن لا يسمح على الإطلاق بقتل الأبرياء، ويوجه المسلمين إلى أن يضعوا أسلحتهم بمجرد أن يلتمس الطرف الآخر السلام؛ فيقول تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]؛ كما يشدد القرآن فى تحريم العدوان بدون سبب، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠].

إن هذه المبادئ القرآنية غاية فى الأهمية، وينبغى على الزعماء المسلمين إلى جانب زعماء كل الأديان أن يكرسوا الوقت الكافى لفهم هذه المبادئ؛ وينبغى لغير المسلمين استخدام هذه الآيات فى مناقشتهم مع المسلمين؛ حيث إن ما تعنيه هذه الآيات القرآنية ليس فقط أن للبشر حرية الاعتقاد بالطريقة التى يريدونها، بل أيضًا، وربما أهم، أن الاختلاف فى المعتقدات يجب أن لا يكون أساسًا لحرمان أى شخص من حقوقه المدنية والإنسانية، أو من المشاركة الكاملة فى العالم الاقتصادى والاجتماعى الذى يعيش فيه، وهذا هو الشرط الأساسى للتعددية، وهو خلق إسلامى متأصل يؤكد القرآن عليه بقوة.

إياك والعبث بمعتقداتنا الغالية!

توضح الآيات القرآنية التالية الروابط العاطفية التى تقيدنا بمعتقداتنا وتقاليدنا، وكيف نجد أن تغيير هذه المعتقدات والتقاليد فى غاية الصعوبة على الرغم من اقتناعنا بأننا منطقيون وذوو رأى قويم، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١١].

تقصد الآية أنه لا داعى للمناقشة، حيث إن الارتباط البشرى بالأفكار العقائدية والمعتقدات التقليدية معروف، حتى ولو كانت خاطئة، وهناك قصة يهودية عجيبة توضح هذه النقطة جيدًا. ففى أحد اجتماعات الأحبار، كان هؤلاء الحكماء يناقشون

جزءًا من القانون المقدس، ووجد أحدهم نفسه فى تعارض مع باقى الجماعة على إحدى نقاط التفسير؛ ولأنه يعلم أنه على صواب، دعا الله أن يتدخل قائلاً: «أرجوك يا إلهى! إن كنت على صواب، فاجعل جداول إسرائيل تتدفق لأعلى المجرى»؛ فغيرت المياه مجراها على الفور؛ ولكن ولسوء الحظ، لم يُحرك خصومه لذلك ساكنًا، فدعا قائلاً: «أتوسل إليك يا إلهى! إن كنت على صواب، أن تجعل الأشجار تنحنى على الأرض»، فمالت الأشجار إلى الأرض، ولكن ظل قرناؤه على عنادهم؛ فناشد إلهه قائلاً: «يا إلهى! أرجوك تحدث بصوت عال وأيدنى» فانشق السحاب على وجه السرعة وسُمع صوت عظيم من السماء له دوى يقول: «يا أصدقائى! علىّ أن أصارحكم بأنكم مخطئون وبأنه على صواب، وهذا ما قصدته». فتبسم العجوز الوحيد مبتهجًا بالانتصار، ولكن الجماعة لم يؤثر فيها ذلك، وقالوا: «يا صاح! نحن لا نحفل بأصوات السماء؛ وذلك لأن الإجابة الشافية عن هذه النقطة قد دونت وحددت منذ زمن طويل». أفما زلت تتعجب الآن لماذا قوبل حتى الأنبياء المؤيدون بالمعجزات بالرفض؟

إن محاولة إقناع الناس بمحض منطق حجتك فقط لمعركة عصيبة، والأفضل أن تجذب عواطفهم، حيث إذا انجذب الناس عاطفيًا إلى فكرتك، فعلى الأرجح أنهم سيبتكرون حججهم المؤيدة لها. إن من الصعوبة بمكان تغيير المعتقدات العزيزة، والتى تم التمسك بها لفترات طويلة حتى ولو كانت واضحة الخطأ؛ وهذا هو سر الأهمية الحاسمة للدور الذى يقوم به قادة الدين ـ فى جميع الأديان ـ الذين يتميزون بنفاذ البصيرة ورجاحة الفكر.

هل أنت متأكد أن الإله أخبرك بعمل هذا؟

بعودتنا إلى القضية المتعلقة بمتى يكون استعمال القوة مبررًا، دعونا نبحث أهمية نية الفاعل. فالبشر يتأثرون بشكل كبير بالخداع والنية غير الصادقة؛ فالنساء اللواتى يغضبن من أزواجهن سوف يقلن بغير تفكير: «لا تقل لى كلامًا معسولاً!» عندما يحاول الزوج النادم ظاهريًا استرضاءها. وهذا لا يعنى أنها لا تتقبل كلماته المعسولة، ولكنها ترى أن أفعاله تخالف مقاصده. ومن المفهوم أن نتقصى نوايا الناس، لا سيما

عندما يدّعون أنهم يقاتلون فى سبيل قضية معينة . ولقد ثار الغضب ضد رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير فى بريطانيا العظمى وفى الولايات المتحدة بسبب عدم العثور على أسلحة دمار شامل فى العراق ، ومن ثم ظهر أن الدافع الحقيقى وراء الحرب فى العراق كان فى الحقيقة شيئًا آخر ؛ فالناس يكرهون خداعهم ، ولقد تساءل كثيرون هل كان سيتم غزو العراق إذًا ما لم يكن بها نفط . سبب هذا يفسر اعتبار النية أمراً حاسمًا فى المحاكم ؛ حيث لا نحكم بأن ذلك قتل عندما تنزلق سيارة شخص ما على طريق جليدى فتصدم أحد المشاة ، ولكن نحكم بأنه قتل خطأ ، وشتان بين هذا وبين القتل العمد .

ذكر الحديث الأول فى صحيح الإمام البخارى قول النبى ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[١٧] ، ويرى الإمام الشافعى ، مؤسس مدرسة للشريعة فى الفقه الإسلامى سميت باسمه أن هذا الحديث يحتوى على ثلث الحكمة ؛ لهذا لم يكل علماء التربية الروحية الإسلامية على الإطلاق من التنبيه إلى مراقبة النية وتصحيحها فى أعمالنا الدينية والروحانية ، وهذا لا يقل صحة بشأن النوايا العسكرية والسياسية .

عندما يريد الناس القيام بشىء ويسعون إلى الحصول على تأييدك لما يقومون به ، فإنهم بلا شك يقدمون أسبابًا تضرب على نفس وتر الأسباب الذى تضرب عليه . فأى سبب أفضل فى ذكره من القيم التى ترسخت بعمق فى داخلك؟ ومن ثم ، يدعى كثيرون من الناس أنهم يقومون بفعل أمر ما «ابتغاء وجه الله» . وتوضح القصة الشهيرة التالية التى تتحدث عن رجلين متجاورين فى حجرة من عنبر القسم النفسى ، فقد سأل الطبيب أولهما عن السبب وراء ما فعل ، فأجاب المريض : «أمرنى الله بفعل ذلك» ، فرد المريض الثانى قائلاً : «لا لم آمر بذلك» وهنا يطرح السؤال نفسه : هل نقبل ما يفعله الآخرون باسم الله الإله فى الظاهر على أنه هكذا فى الحقيقة؟

لنأخذ مثلاً جماعة أوم شينريكيو التى قام أعضاؤها بإطلاق غاز الأعصاب سارين السام فى شبكة مترو الأنفاق بطوكيو ، مما أودى بحياة العديد من المسافرين بالإضافة إلى جرح الآلاف وذلك فى مارس ١٩٩٥ . إذ يعتبرهم المؤرخ الدينى مارك جيرغنسمير «نبتا من الديانة البوذية اليابانية ، وتساءل قائلا : « لماذا يفضى دين ، فيه أقل قدر من البوذية إلى مثل هذا؟ »[١٨] .

لقد قام جيرغنسمير بإجراء مقابلة مع تاكيشى ناكامورا، أحد أعضاء جماعة أوم، الذى التحق بها لينشد شيئًا له طابع تحويلى على المستوى الشخصى وطابع نبوى على المستوى الاجتماعى، غير معظم أشكال البوذية (اليابانية)، التى اعتبرها «خاصة بالعلماء أو بأنها وجدت لتيسر طقوس الجنازة فقط»؛ وكان يرى أن المجتمع اليابانى قوى وهرمى لا تتمثل فيه مبادئ العدل والحرية بشكل كاف، كما أنه مجتمع لا يسهل تغييره. وقد قدم زعيم جماعة أوم، شوكو أساهارى، من خلال حركته، «ليس فقط تجربة شخصية روحية [يقول جيرغنسمير: إنها تتحقق باحتساء رشفة من شراب الانضمام إلى الحركة من زجاجة مخلوطة بعقار (إل إس دى) المخدر]، بل قدّم أيضًا مجتمعًا يتسم بالمساواة وبرؤية لنظام اجتماعى متغير يهتم بالهموم الاجتماعية لناكامورا». لقد أصبح من الواضح أن أساهارى كان مدفوعًا بغضب داخلى ضد المجتمع اليابانى، وكذلك برغبة داخلية للوصول للسلطة، كان يريد أن «يكون مثل الملك»، «أو مثل المسيح»[١٩]. ولكن هناك تعبير قديم يقول: «إن بوذا والشيطان لا يختلفان عن بعضهما سوى قيد شعرة»[٢٠]. وإذا ما فشلنا فى إدراك هذه الشعرة من الاختلاف، فإننا سوف نخلط التعبيرات الصحيحة للدين بتعبيرات خاطئة، ومن ثم ربما نسىء للآخرين فى هذه العملية. وهذا يفسر لماذا لا يعتبر البوذيون المخلصون أوم شينريكيو تعبيراً حقيقيّاً للبوذية، تمامًا كما لا يعتبر المسلمون المخلصون أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعبيراً حقيقيّاً للإسلام. وهناك مثل قديم آخر يقول: «لقد أعطى كل إنسان مجموعة من المفاتيح بإمكانها فتح أبواب الجنة، ولكن يمكن لنفس هذه المفاتيح أن تفتح أبواب جهنم».

يسعى المريدون الروحانيون لأن يكونوا متدينين بمعنى أن يكونوا أتقياء؛ ولكنهم يمكن بسهولة أن يقعوا تحت تأثير هؤلاء الذين تنصب نواياهم على السلطة والثروة وهما إلهان، لدى قليل من البشر حصانة كاملة منهما، لذا تعلم جميع الطرق الروحية الصحيحة أهمية التأكد على أننا غير مخدوعين، وهى مسألة ليست هينة بالدرجة التى نتصورها، فكما قال جلال الدين الرومى: «يوجد ذهب المغفلين لسبب واحد، وهو أنه يوجد ذهب حقيقى».

فعندما يقتل الناس باسم الله، فإنهم عادة ما يفعلون ذلك فى الحقيقة باسم الأنا الخاصة بهم أو النضال على السلطة، أو الرغبة فى الحصول على أصل آخر. وهذا

الأصلى ربما يتمثل فى رغبتهم فى تحقيق العدل، والذى يصاغ ببساطة فى لغة الدين. ويوضح جيرغنسمير أن بعض البوذيين عرضة لصياغة رغبتهم فى تحقيق العدل فى حجج دينية بتذكير القارئ بأن رئيسة وزراء سرى لانكا، دابيو آر دى باندرانايك، قد قتلت على يد راهب بوذى فى عام ١٩٥٩م. وحيث يعتقد البوذيون فى قانون كارما، فيوضح جيرغنسمير: «أن الساسة الذين وصفوا بالقسوة واعتبروا أعداءً للدين، يتوقع منطقيًا أن إراقة دمهم كنوع من أنواع الانتقام فى عقيدة كارما للأفعال التى قاموا بها»[٢١].

لقد أساء أساهارى زعيم جماعة أوم تفسير مفهوم «فوا» البوذى التبتى - وهو نقل الوعى من الحى إلى الميت من أجل رفع إعلاء جدارته الروحية أثناء عملية التناسخ - ليخلص إلى أنه فى بعض الأحوال كان يقدم مساعدة للناس بقتلهم؛ ويشرح جيرغنسمير قائلاً: «إذا كان المقتولون أوغادًا أو وقعوا فى شراك نظم اجتماعية شريرة على نحو يجعل النظم الاجتماعية فى بيئة وجودهم فى هذه الحياة أكثر من ذلك يفضى إلى إثم قدرى أكثر سوءًا، فإن من يقومون بالقتل يسدون معروفًا لضحاياهم، وذلك بتمكينهم من الموت مبكرًا. وبالتالى، يكون موتهم المبكر نوعًا من أنواع القتل بدافع الرحمة بما يسمح لأرواحهم بالصعود إلى مستوى أسمى، (أو بشكل أكثر دقة، منعهم من الهبوط إلى مستوى أدنى) مما يمكنهم تحقيقه بأية طريقة أخرى[٢٢].

حذر الإمام الشاذلى - شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية - المريدين الروحانيين قائلاً: «تعرف على وسوسة [الشيطان] التى تنقل شيئًا يشبه المعرفة التى تأتى من طريق الإلهام والكشف!»، ونصح السالك الروحى بأن يتجاهل هذا إذا ما تنافى مع «الحقيقة القاطعة المنصوص عليها فى الكتاب وتعاليم النبى ﷺ»[٢٣].

إذا ما قضينا على منابع الصراع الشائعة والمعتادة، أعنى الظلم المتصور فى السلطة والاقتصاد، وإذا ما أنشأنا مجتمعًا يشارك فيه الناس من كل المعتقدات الدينية فى الحكم الجماعى، ويتمتعون بالمساواة فى الحصول على الثمار المادية للمجتمع - المجتمع الذى يجسد مبادئ العدل والإنصاف والحرية - فإننا بذلك سوف نقضى على معظم الأسباب الرئيسية لتقاتل الناس باسم الإله.

أليس المسلمون مطالبين بإعلان الجهاد؟

إن الجهاد يعنى النضال، فبينما يستخدم المسلمون مصطلح **الجهاد الأصغر** للإشارة إلى ما يسميه المسيحيون «الحرب العادلة»، فإن مصطلح **الجهاد الأكبر** يشير إلى الحرب النفسية التى نخوضها داخل النفس من أجل إقامة مملكة الله فى سلوكنا ومن أجل بناء أسلوب للحياة يعكس أوامر الله فى كلٍّ من حياتنا الفردية والجماعية؛ ويدور الجهاد حول بناء ما يسميه الفلاسفة الغربيون بـ«المجتمع الصالح»[٢٤].

تلقى المسلمون حثًا شديدًا على اتباع سنة النبى ﷺ؛ فنحاول على المستوى الفردى تقليد النبى ﷺ روحيًا وفى طريقة تعاملنا مع أسرنا وأصدقائنا وزملائنا، وتلمسًا للهداية فى المواقف المعقدة، يتساءل المسيحيون الأمريكيون فى حيال موقف معين: «ما الذى كان سيفعله المسيح فى ذلك الموقف؟» كذلك يتساءل المسلمون منذ زمن النبى ﷺ إلى يومنا هذا: «ما الذى كان سيفعله النبى ﷺ فى ذلك الموقف؟». ولا تستخدم أقوال النبى ﷺ وأفعاله، التى تسمى مجتمعة بالأحاديث والسنة، فى هداية سلوك المسلمين فحسب، ولكن أيضًا كمصدر رئيسى للتشريع الإسلامى بعد القرآن.

أما على المستوى الجماعى، يحلم جميع المسلمين بأن يعيشوا يومًا ما فى مجتمع يحكم نفسه بالطريقة التى حكم بها النبى ﷺ فى المدينة فى الفترة ما بين ٦٢٢ وحتى وفاته ﷺ فى ٦٣٢ . وهذا عند المسلمين يعادل إرساء أساس مملكة الرب فى الكتاب المقدس عند المسيحيين، ودائمًا ما كانت لدى المسلمين رغبة قوية فى البحث عن سبل من أجل إعادة إرساء أساس هذا المجتمع.

فى بعض الأحيان، نتج عن هذه الرغبة عبارات تنادى بالرجوع لمثل الماضى، ولما كان عليه السلف الصالح، فعلى سبيل المثال أسس الإصلاحيون الجدد دعاة الدين القيّم فى نهاية القرن التاسع عشر جماعة تطلق على نفسها السلفية تهدف إلى تجديد الإسلام بالرجوع إلى التقاليد التى كان يمثلها السلف الصالح، وتحاول هذه الجماعة كغيرها من الجماعات الإسلامية المماثلة إعادة خلق المثل.

لا يختلف هذا كثيرًا عن القانونيين الأمريكيين الذين يتحدثون عن القصد الأصلى للمؤسسين وحاجة الأمة إلى احترام أحكام الدستور المدونة منذ قرنين من الزمان،

وهذا لا يعنى أن هؤلاء الدستوريين لديهم رغبة فى الرجوع إلى ما كانت عليه الحياة فى أواخر السبعينيات من القرن الثامن عشر . ويتشابه النضال الذى يسعى إلى خلق مجتمع ديمقراطى يحترم وثيقة الحقوق مع النضال الذى يسعى إلى إقامة مجتمع عادل والذى يمثل جزءاً من الجهاد الجماعى الإسلامى ؛ وإلى حد ما ، يعنى الجهاد الجماعى فى الفهم الإسلامى لهذا المصطلح النضال من أجل خلق مجتمع دستورى .

وفى كتابه **الجهاد فى مواجهة العالم الكبير** ، يصف بنيامين باربر الأستاذ بجامعة روتيجرز ، جبهتين فى الحرب الأمريكية ضد الإرهاب منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعكسان وتصفان جيداً هذا الفهم الإسلامى . يتمثل الجهاد الأصغر بالنسبة للأمريكيين فى نشر القوات العسكرية المحترفة والاستخبارات والموارد الدبلوماسية من أجل محاربة الإرهاب والمخاطر التى تهدد الأمن الأمريكى ؛ وإذا ما قمنا بتطبيق هذه الفكرة على الجهود الأمريكية الرامية إلى التعامل مع نظام صدام حسين ؛ فإن الجهاد الأصغر هنا هو شن الحرب للإطاحة بنظام صدام حسين عسكريّاً .

أما الجهاد الأكبر فهو «تحقيق السلام» فى العراق وفى باقى دول الشرق الأوسط . وهذا ما يسميه باربر بـ «الجبهة الثانية» والتى يجب أن تروق «لكل مواطن لديه اهتمام بالديمقراطية والعدل الاجتماعى ، داخل الدول على حد سواء وفى علاقاتها ببعضها البعض ، كما أنها ستحول المشاهدين السلبيين والقلقين إلى مشاركين حازمين وجادين ؛ وهذا هو العلاج الأمثل للخوف»[٢٥] .

وفى حين يقدم الجهاد الأصغر باسم عدالة القصاص والمصالح الضيقة (التى تكون علمانية فى حالتنا هذه) ، لا بد أن يُتبعه الجهاد الأكبر الذى يشن باسم عدالة القصاص والتعددية الدينية والاجتماعية[٢٦] . وهذا هو الجهاد من أجل السلام ـ الذى يجرى نيابة عن البشرية جمعاء .

وقد جاء فى أول آية قرآنية أجازت قتال النبى ﷺ وأصحابه لهؤلاء الذين اعتدوا على المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ظلمًا بسبب دينهم قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ

وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً وليَنصُرنَّ اللهُ من ينصُرُه إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ (٤٠)﴾ [الحج : ٣٩ - ٤٠].

إن ذكر القرآن للصوامع والكنائس والبيع والمساجد يثبت بوضوح أن الهدف من الجهاد لا بد أن يكون دفاعيّا فى المقام الأول، وفى المقام الثانى لإقامة مجتمع تعددى دينيّا يذكر فيه اسم الله بجميع الألسن؛ ولذا يشرع الجهاد فقط لتدعيم ملة إبراهيم ولتعزيز العدالة والحرية الدينية والسياسية، فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿لا ينهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتلوكُم في الدّين ولم يُخرجوكُم من ديارِكُم أن تبرُّوهُم وتُقسطوا إليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقسطين (٨) إنَّما ينهاكُمُ اللهُ عن الذين قاتلوكُم في الدّين وأخرجوكُم من ديارِكُم وظاهروا على إخراجِكُم أن تولَّوهُم ومن يتولَّهُم فأُولئك هُمُ الظَّالمُون (٩)﴾ [الممتحنة : ٨ - ٩].

ويحث الله سبحانه وتعالى المسلمين قائلاً : ﴿وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يُقاتلونكُم ولا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتدين (١٩٠) واقتُلوهُم حيثُ ثقفتُموهُم وأخرجوهُم من حيثُ أخرجوكُم والفتنةُ أشدُّ من القتلِ ولا تُقاتلوهُم عند المسجدِ الحرامِ حتَّى يُقاتلوكُم فيه فإن قاتلوكُم فاقتُلوهُم كذلك جزاءُ الكافرين (١٩١) فإنِ انتهوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رَّحيمٌ (١٩٢) وقاتلوهُم حتَّى لا تكون فتنةٌ ويكونَ الدِّينُ للهِ فإنِ انتهوا فلا عُدوانَ إلاَّ على الظَّالمين (١٩٣)﴾ [البقرة : ١٩٠ - ١٩٣].

كما أن الجهاد ليس مقصوراً على المجال العسكرى، فقد قال النبى ﷺ : «أعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند سلطان جائر»[٢٧].

وهكذا يحتوى الفقه الإسلامى على مبدأ الحرب العادلة، كما يتضمنها التشريع والفقه الغربى؛ ويطرح مبدأ الحرب العادلة عدة أسئلة، منها على سبيل المثال، متى يجوز لنا الحرب؟ وتحت أى ظروف؟ وكيف نقرر ذلك؟ ويوجد أيضا لدى المسلمين فهم ووصف تفصيلى لمن يعتبر هدفًا مشروعًا ومن لا يعتبر كذلك؛ ومن الجدير بالذكر أن فقهاء المسلمين أفتوا بحرمة أحداث الحادى عشر من سبتمبر بموجب أحكام

الشريعة الإسلامية؛ حيث لا تدخل هذه الأعمال الإرهابية تحت معايير الحرب العادلة، وقد أعلن هذا عدد من أكبر فقهاء العالم الإسلامي، ولكن لسوء الحظ لم يلق ذلك إلا قليلا من الاهتمام في وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية[٢٨].

الموت من أجل القتل

فى الوقت الذى رأينا فيه مشروعية الجهاد، أى الحرب الدفاعية العادلة، فى الشريعة الإسلامية، فإن الانتحار مهما كانت غاياته محرم صراحة؛ ومن أقوى الأدلة على تحريمه حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه بوضوح: «من قتل نفسه بشىء عذب به فى نار جهنم»[٢٩] كما يقول الله سبحانه وتعالى: «بادرنى عبدى بنفسه، حرمت عليه الجنة[٣٠]»؛ كذلك ذكر النبى ﷺ قصة مؤثرة فى وصف واحد من أهل النار[٣١]، كان هذا الرجل يقاتل مع النبى ﷺ ثم جرح جرحًا شديداً فاستعجل الموت فوضع سيفه على الأرض وسقط عليه فقتل نفسه[٣٢]، ويعقب النبى ﷺ فى رواية لهذا الحديث قائلاً: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة».

ليس هناك من واقعة واحدة أجاز فيها النبى ﷺ الانتحار تحت أى ظرف من الظروف، مهما كانت الأعذار؛ كما أن أقوى أدلة القرآن على تحريم قتل النفس جاء فى آيات الرحمة التالية، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء: ٢٧ ـ ٣٠].

فى الوقت الذى فسر فيه غالبية المفسرين قوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تقتلوا أنفسكم﴾ بمعنى لا يقتل بعضكم البعض، إلا أن بعضهم قد استدلوا به على تحريم قتل النفس؛ فلماذا إذن يقر بعض فقهاء المسلمين العمليات الانتحارية التى ترتكب ضد غير المسلمين، بل وحتى ضد إخوانهم المسلمين حاليًا؟ إن الإجابة القصيرة هى أنهم أعطوا

العمليات الانتحارية اسمًا مختلفًا وهو العمليات الاستشهادية؛ وبهذه الرؤية، فإن منفذى هجمات التفجير الانتحارية هذه مستعدون للتضحية بحياتهم فى سبيل هدف أسمى يؤمنون به بشدة، متبعين بذلك نهج طيارى الكاميكازى اليابانيين وحركة نمور تاميل فى سيرلانكا.

أما الإجابة المفصلة فتقتضى شيئين: أن أقدم عرضًا قصيرًا لمنطق الفقه الإسلامى، وأن نبحث الجانب الاجتماعى للانتحار.

دعونا نناقش أولاً مفهوم الحلال والحرام فى الشريعة الإسلامية.

تنقسم جميع أعمال البشر فى الإسلام إلى صنفين هما الحلال والحرام؛ ولذلك فكل ما لمْ يحرم صراحة فهو فى الحقيقة حلال؛ لذا يحاول بعض الناس وضع قائمة بكل الأعمال الممكنة ويقولون بأنك إذا لم تجدها فى «قائمة الحلال» الخاصة بهم تكون حرامًا تلقائيًا. فى حين يفعل آخرون العكس، فإذا لم تجد العمل فى «قائمة الحرام» التى وضعوها، ، فإنه يكن حلالاً تلقائيًا؛ وعادة ما يعتبر الخيار الثانى أيسر؛ لأن قائمة الحرام أقصر بكثير.

إن قضية ما إذا كان عمل معين حلالاً أم حراما هى مجال وغاية الشريعة الإسلامية ومناطها. والتى يعتبرها المسلمون قانون الله فى الأرض وتتناول أوامر الله ونواهيه؛ إن الشريعة فى المقام الأول الأوامر والنواهى التى ذكرها القرآن الذى يسميه المسلمون حرفيًا «كلام الله»، وفى المقام الثانى الأوامر والنواهى التى ذكرها النبى ﷺ الذى أوضح وفسر وشرح الأوامر القرآنية، بل وشرع بعض الأمور فى بعض الأحيان. وغالبًا ما يسمى هذان المصدران الرئيسيان للتشريع الإسلامى بـ«النص»؛ أما جميع المصادر الفرعية الأخرى للتشريع الإسلامى فهى نابعة من جهود بشرية فى تفسير النص، واستنباط أحكام جديدة متوائمة مع النص أو على الأقل غير متعارضة معه. ومن بين ما تضم هذه المصادر الفرعية هى: الإجماع والقياس والمصلحة والعرف أو العادات وتشريع الدولة والفتاوى الشرعية وغيرها(٣٣).

وخلال ثلاث سنوات من وفاة النبى ﷺ، أنشأ عدد من كبار العلماء علم الفقه

الإسلامى وأقروا جواز وجود أكثر من تفسير حتى فى بعض المسائل الخاصة بالعبادة المأمور بها فى القرآن والموضحة فى أفعال النبى ﷺ .

وكان يمكن أن يحدث ذلك بطرق كثيرة؛ ففى بعض الأحيان، كان النبى ﷺ يفعل شيئًا بطرق مختلفة فى أوقات مختلفة، فقد اعتاد ﷺ، على سبيل المثال، أن يصلى واضعًا يديه متقاطعتين على صدره، ولكنه ﷺ صلى أيضًا واضعًا يديه ممتدتين إلى جانبيه. وبناء على هذا، ففى الوقت الذى اعتبر فيه كلا المدرستين أن هذه الاختلافات صحيحة، إلا أن مدرسة فضلت أحدهما، وفضلت الثانية الأخرى، وفى مثال آخر، سافر فيه النبى ﷺ ذات مرة فى رمضان، فصام بعض الصحابة فى حين لم يصم البعض الآخر بنية تعويض هذه الأيام بعد رمضان؛ حيث رخص القرآن الفطر للمسافرين، فأقر النبى ﷺ فعل الفريقين.

هناك مثال ثان يبين تباين وتطور التفسيرات، حيث يفرض القرآن على المسلمين ترك تجارتهم وأن يسعوا إلى صلاة الجمعة عند دخول وقت معين، ليعودوا لمباشرة أعمالهم بعد انقضاء الصلاة؛ وكان مجتمع المدينة بأسره يفعل ذلك على عهد النبى ﷺ .

لكن باتساع المجتمع وانتشار الإسلام فى بلاد ومجتمعات غير إسلامية، ظهر سؤال حول ما إذا كان هذا الأمر يبطل المعاملات التجارية التى يقوم بها المسلم أثناء وقت صلاة الجمعة أم لا؛ فبينما يفسر أحد المذاهب هذا الأمر القرآنى بتحريم مثل هذه المعاملات التجارية (كما هو الحال الآن فى المملكة العربية السعودية حيث يلزم غلق جميع المتاجر حتى أثناء أداء الصلوات الخمس اليومية)، فإن مذهبًا آخر قد يقول إنه فى حين أن الشخص الذى لا يؤدى صلاة الجمعة يأثم، إلا أن المعاملة التجارية لا تعتبر باطلة. فإذا رفعت قضية أمام محكمة سعودية فى الوقت الحالى تدعى فيها أنك تركت صلاة الجمعة وجلست خلف الباب المغلق الخاص بالمدعى عليه وعقدتما صفقة تنصل منها فيما بعد، فإن القاضى على الأرجح لن يُعجب بنقص دينك، بل ربما ينفر حتى من سماع قضيتك؛ وإذا ما وقفت يومًا ما أمام قاض، تعلم أنه لا تروق له قضيتك، فإنه على الأرجح لن يكون حذرًا فيما ينطق من حكم. إن أقرب نظير لهذا فى أمريكا هو إبرام صفقة يوم الأحد، مخالفًا بذلك لـ«القانون الأزرق» الذى يحرم البيع فى يوم

الأحد، إلا إذا كان القانون قد نص قائلاً: «اترك تجارتك وأقم القداس» وبعده يمكنك أن تعود لعقد الصفقات.

بذلك نرى تطور المسائل الاجتماعية التى يمكن تفسيرها بأكثر من طريقة، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ظهور عدد من المذاهب التى تعتبر كل منها بوجه عام آراء المذاهب الأخرى صحيحة ولكنها أقل تفضيلاً من آرائها(٣٤).

إن معظم المسائل الخاصة التى نص عليها القرآن والسنة هى قضايا واضحة، ولكن وجب على المسلمين فى مجالات أخرى بذل جهد حقيقى من أجل الوقوف على ما هو حلال أو حرام شرعًا؛ وما يتم إقراره فى النهاية على أنه موافق للشرع، يعتبر شرعيًّا وهى الكلمة التى أخطأ المسلمون فهمها على أنها ما نفس ما يطلبه الله بالضرورة.

لتوضيح كيف تختلط هذه النقطة على المسلمين بسهولة، دعونا نقول إنه تم وضع قانون بموجب المصلحة لا يسمح لسائقى السيارات بسرعة تتجاوز خمسة وخمسين ميلاً فى الساعة؛ وذلك من أجل تحقيق السلامة. ويكون هذا القانون شرعيًّا لتوافقه مع الكتاب والسنة حيث ينبثق من الأخلاق التى يدعو إليها القرآن والتى تقدر صيانة النفس البشرية؛ ومن ثم، من الممكن أن يصدر فقيه مسلم فتوى تقضى بشرعية هذا القانون، ولكن لا يعنى هذا أن مخالفة هذا القانون تعتبر إثمًا؛ وهنا تختلط الأمور على بعض المسلمين؛ لأن القوانين الشرعية ليست جميعها قوانين قرآنية، على الرغم من أن جميع القوانين القرآنية هى قوانين شرعية. وفى واقع الأمر، قام فقهاء المسلمين على مر أربعة عشر قرنا وعبر أكثر من خمسين بلدًا بوضع مجموعة كاملة من أحكام الشريعة ليست فى القرآن ولا فى السنة.

ربما كان من اليسير فهم المثال سابق الذكر، ولكن دعونا نبحث مثالاً آخر؛ فبينما صرح القرآن بحرمة شرب الخمر (شاملة كل المسكرات)، لم يفرض القرآن ولا النبى ﷺ أى عقوبة لارتكاب هذا الإثم. ولكن فى خلافة عمر رضي الله عنه (الذى تولى الحكم فيما بين ٦٣٤ إلى ٦٤٤م)، حدث أن مسلمًا مخمورًا تلفظ بصوت عال بكلمات شهر بها ببعض أفراد المجتمع فى شوارع المدينة، فظهرت الحاجة إلى وقف هذا الجرم، فعقد عمر رضي الله عنه جلسة حضرها ذوو الخبرة، وأوصى فيها على رضي الله عنه، الذى أصبح الخليفة الرابع، بجلد المذنب أربعين جلدة، وكانت هذه عقوبة التشهير.

قضت هذه العقوبة بشكل فعال على ألفاظ التشهير التى تنجم عن السكر، ولكنها أصبحت بعد ذلك عقوبة الشريعة على إثم شارب الخمر. دعونا نتخيل إذا ما طلب من قاض مسلم فى بيشاور الحكم على مخمور وقع فى غيبوبة على جانب الطريق لكنه لم يشهر بأحد ولم يرتكب جرمًا آخر. فإذا بحث القاضى فى كتبه وقرأ أن الشريعة «تفرض عقوبة الجلد بأربعين جلدة على شارب الخمر» ولم يكن عالمًا بتاريخ هذا الحكم ولم يضعه فى اعتباره، فماذا تظن أنه فاعل؟.

حرمت المحرمات لأن أنفسنا تميل إليها؛ فلم يحرم علينا الله سبحانه وتعالى أكل عش الغراب السام والأشواك لعدم وجود ضرورة لذلك؛ لأننا نعلم أنها ضارة. ولكن هناك أمورًا ضارة لنا وللمجتمع لكن نشتهيها بشراهة؛ فكم منا يستطيع مقاومة إلقاء نظرة سريعة على صحيفة ناشونال إنكويرر التى تنشر الشائعات أثناء الانتظار عند طاولة دفع الحساب فى متجر البقالة؟ وكم من الناس يجدون طرقًا غير شرعية لتحويل أموال إلى أرصدتهم؟ خاض الناس اختبارات ناجمة عن حب الشائعات والسرقة والزنا بل والقتل - وهذا هو السبب فى أن الأعمال التى تضر المجتمع محرمة.

وعلى الرغم من تحريم الآثام، إلا أن مبدأ الضرورة يجيز رفع هذا التحريم لفترة مؤقتة ومحددة؛ فعلى سبيل المثال، فإنه على الرغم من تحريم القتل صراحة، إلا أنه إذا اعتدى مغتصب على امرأة فقتلته دفاعًا عن نفسها، فإننا نطلق على ذلك قتلاً مبررًا. كذلك فإنه مع أن تناول الكحول محرم، إلا أنه يجوز شرب عقار نيكيل والذى يتكون ثلثه من الكحول لتخفيف آثار البرد وذلك للضرورة، لكن هذا يتوقف على الشفاء من البرد، فبمجرد الشفاء، يزول العذر.

كما رأينا فى الفصل السابق، فقد حدد الفقهاء المسلمون خمسة مقاصد أو حقوق رئيسية يجب على الشريعة صيانتها وهى: النفس والدين والمال والنسل والعقل[٣٥]، فإذا كان تطبيق قانون معين يهدد أيا من هذه المقاصد، فيجوز تعليقه مؤقتًا. ومن هذا المنطلق، عندما منعت الشرطة الدينية (المطوعون) التلميذات من الهروب من حريق شب بالمدرسة لعدم ارتدائهن الحجاب، فإن رجال الشرطة خالفوا بذلك جوهر قيم الشريعة. هذا، وفى الجوهر نسى بعض المسلمين اليوم مبدأ من مبادئ الشريعة الرئيسية وهو - كما ذكر فى تعاليم المسيح عيسى عليه السلام - أن الشرع قد جاء لصالح الإنسان وليس العكس.

ختامًا، هناك عدة تفسيرات لإباحة بعض فقهاء المسلمين للتفجيرات الانتحارية؛ فقد وضع كثيرون من هؤلاء الفقهاء فرقًا عمليًا بين الانتحار والشهادة، ويرى هذا الرأى أنه نظرًا لأن الفلسطينيين ضحايا للاحتلال الإسرائيلى، وأنهم قد عانوا من المستوطنات غير الشرعية وضياع بيوتهم وأراضيهم، فإن لهم الحق بموجب الشريعة الإسلامية فى الدفاع عن أنفسهم عسكريًا. علاوة على ذلك، فمن منطلق أن الفلسطينيين ليس لديهم قوة عسكرية تقليدية يدافعون بها عن أنفسهم، فقد استخدم هؤلاء الفقهاء مبدأ الضرورة لإباحة التفجيرات الانتحارية (العمليات الاستشهادية) ضد أهداف إسرائيلية؛ وتلقى العمليات الانتحارية - التى يعتبر حكمها مشكلة من الناحية الدينية - ترحيبًا فى الأوساط الفلسطينية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لجذب أنظار العالم لمحنتهم.

المنظور الاجتماعى للتفجيرات الانتحارية

تعد التفجيرات الانتحارية ظاهرة مأساوية تؤثر فينا جميعًا حيث تودى بحياة أعداد مرعبة من الأبرياء، كما تعكس مدى الإحباط واليأس لدى الضالعين فيها، وهى ظاهرة لا يقبلها أى مجتمع متحضر سواء أكان فى العالم الإسلامى أو الغرب، وإذ يتطلب حل أى مشكلة فهمها، فإنه لحل مشكلة التفجيرات الانتحارية يجب أن نفهم البعد النفسى والاجتماعى وحتى البيولوچى ونحن نفحص دوافعها الأساسية.

يوضح عالم الاجتماع إميل دركهايم فى مؤلفه الشهير **«الانتحار»** مجموعة هامة من الملاحظات عن الانتحار. وأشهر نتائج دركهايم المناقضة للبديهة هى **أن معدل الانتحار ثابت فى أى مجتمع معين**؛ فالانتحار دالة لقضايا جماعية أو اجتماعية وليس قضايا فردية، ويمكن تفسير المعدل العام للانتحار اجتماعيًا وليس فرديًا؛ ومن الصعب تحديد الأسباب الفردية للانتحار؛ لأن من ينجحون فيه لا يعودون معنا ليفسروا لنا أعمالهم، ولا نستطيع سوى أن نعرف هذه الأسباب من الذين حاولوا الانتحار ولكنهم فشلوا، أو من الذين انتحروا وخلفوا وراءهم تفسيرات تفصيلية[٣٦].

وجد دركهايم أن الانتحار أقل ارتباطًا بالظواهر الفردية عن الظواهر الاجتماعية، مثل الأسرة والمجتمع السياسى والاقتصادى والجماعة الدينية، كما أن هذه تقترن فى

إطار مجتمع معين بالميل الجماعى إلى الانتحار؛ حيث إن «معدل قتل النفس ثابت تمامًا فى كل مجتمع طالما تماثلت ظروف الوجود الأساسية. . . وهذا الميل حقيقة - فى حد ذاتها - خارجة عن الشخص وتمارس تأثيرًا قسريًا عليه»(٣٧).

يقسم دركهايم المنتحرين إلى ثلاثة أصناف:

١ - عندما يندمج الأشخاص بشكل صارم فى مجتمعهم وتحكم حياتهم العادات والتقاليد بقسوة، ربما يكون **انتحارًا متسمًا بالإيثار**؛ وفى هذه الحالة ربما يفقد الشخص حياته أو حياتها بسبب وصايا سامية - سواء كانت متعلقة بالتضحية الدينية أو بالولاء السياسى الأعمى(٣٨)، وهنا يضحى الشخص بنفسه من أجل المجتمع.

٢ - ونقيض الحالة الأولى هو **الانتحار الأنانى** الناجم عن نقص اندماج الشخص فى المجتمع، وهذا يحدث عندما يترك الفرد - الذى لا تحكمه العادات والتقاليد - لموارده فى ظل وجود دعم قليل من الأسرة أو المجتمع؛ ويندر هذا النمط من الانتحار فى الثقافات التى تدمج الشخص فى الحياة الجماعية بصورة وثيقة؛ فإذا كان الشخص فى الحالة الأولى يفرط فى الاندماج فى المجتمع بشكل مبالغ فيه، فإن الشخص فى الحالة الثانية يعانى من نقص فى الاندماج فى المجتمع(٣٩).

٣ - **الانتحار الانعزالى**، ويحدث عندما يشعر الشخص بالاغتراب التام عن المجتمع لحدوث انهيار مفاجئ فى الاستقرار الاجتماعى ومعاييره، وفى هذه الحالة، نلاحظ أن المجتمع كان ينظم احتياجات الشخص ويشبعها فى الماضى، لكن شيئًا ما أحدث اضطرابًا أساسيًا فى هذا النظام مسببًا حالة من الغربة النفسية. ومثال ذلك، هبوط مفاجئ لثروة على امرأة لكنها لا تتمكن من مسايرة فرصها الجديدة، أو سجين يحصل على إطلاق سراحه. بعد أن قضى ثلاثين عامًا فى حياة تدور فى إطار اجتماعى مرتب داخل جدران السجن، فيعجز عن التعامل مع حياة الحرية.

إن المعتقدات والممارسات الاجتماعية الشائعة التى تدعم حياة الشخص تجعله تجسيدًا لما يسميه دركهايم «بالضمير الجماعى»؛ والانتحار الانعزالى «هو انعكاس للمجتمع الذى يؤثر على الشخص؛ ففى المجتمعات المركبة، يصبح بعض الأشخاص معتمدين بشكل كبير على التركيب الاجتماعى التقليدى الذى يعيشون فيه؛ وعندما

يتعرض هذا التركيب لقلقلة جراء حدوث أزمة، فإن الانعزال ربما يبرز نفسه فى تزايد معدل الانتحار، «وحيثما يتزايد معدل الانتحار بشكل سريع، فإن ذلك يمثل عرضًا من أعراض انهيار الضمير الجماعى وخللاً أساسيًا فى النسيج الاجتماعى»(٤٠).

يؤكد دركهايم أن الأشكال الفردية للانتحار يمكن أن تُظهر أنماطًا مختلطة مثل الانتحار الأنانى الانعزالى، والانتحار الإيثارى الانعزالى، والانتحار الأنانى الإيثارى؛ ويعقب جورج سمبسون محرر كتاب دركهايم قائلاً: «إن الرأى الأوسع قبولاً اليوم فى التحليل النفسى هو أن الانتحار غالبًا ما يكون فى شكل «إحلال»، بمعنى أن الرغبة فى قتل من أصاب الشخص بالإحباط ترتد على الشخص نفسه». ففى حالة الانتحار الانعزالى، «يُنزل الشخص على نفسه نتيجة الإحباط والغضب الذى سببه التفكك المتصور فى النسيج الاجتماعى لعالمه».

ومن الجدير بالملاحظة أن المجتمعات مرتفعة الدخل لديها معدلات عالية للانتحار، وهذا يتفق مع حقيقة أن الانتحاريين الذين قادوا الطائرات تجاه مركز التجارة العالمى والبنتاجون، على سبيل المثال، ينتمون إلى أسر غنية نسبيًا؛ ويشرح دركهايم أن: «الذين يعانون أكثر ليسوا هم من يقتلون أنفسهم... فما أسهل أن تُرفض الحياة فى الوقت وبين طبقات المجتمع التى تكون فيها الحياة أقل قسوة»(٤١).

يشير دركهايم أيضًا إلى أن أى شىء يمكن أن يستخدم كفرصة مواتية للانتحار(٤٢). وتعكس الخبرات الخاصة التى دائمًا ما يعتقد أنها أسباب للانتحار الاستعداد الأخلاقى للضحية الذى يعكس هو نفسه الحالة الأخلاقية للمجتمع؛ ويؤكد دركهايم أن الشخص ربما يشعر بالحزن ولكن هذا الحزن لا ينشأ من واقعة بعينها، ولكن من الجماعة التى ينتمى إليها الشخص؛ كما اكتشف دركهايم نقطة ذات أهمية خاصة وهى أن «التعليم أو النصح أو القمع لا يمكنه وقف الانتحار فى منحناه الصاعد... لذلك فإن كل تدابير التحسين يجب أن توجه إلى مسألة التركيب الاجتماعى فى المقام الأول».

وبتطبيق آراء دركهايم المتبصرة على ظاهرة التفجيرات الانتحارية التى ترتكب باسم الإسلام - وخصوصًا التفجيرات الانتحارية فى إسرائيل، وتفجيرات الحادى عشر من سبتمبر، والتفجيرات التى وقعت فى كل من السعودية والمغرب وكينيا والعراق - يمكن أن نستنتج ما يلى:

يرى منفذو العمليات الانتحارية العزم الواعى الذى يختبرونه لديهم بأنه نوع من الإيثار المفرط ، حيث يشعرون بأنهم سيضحون بأنفسهم من أجل قضية ستجعلهم أبطالاً فى مجتمعهم ، مثلهم مثل طيارى الكاميكازى اليابانيين الذين كانوا يفجرون أنفسهم فى الحرب العالمية الثانية ، وحركة نمور التاميل فى سرى لانكا . ولكن يغذى هذا العزم الواعى فى الوقت نفسه وعلى المستوى أعمق ، انعزال شديد ـ شعور قوى بالغربة سببه صدع غائر فى المجتمع والثقافة التقليديين . وبملاحظة أن العمليات الانتحارية لطيارى الكاميكازى ونمور التاميل كانت تتم عندما كان اليابانيون ونمور التاميل يخسرون حروبهم ، يمكن أن نلحظ أيضًا أن العمليات الانتحارية لا تنبع من شعور جماعى بالنجاح .

يوضح روبرت باب عالم السياسة ، الذى درس الإرهاب الانتحارى فى الفترة بين عام ١٩٨٠م وعام ٢٠٠١م ، أن : «الدين ليس هو القوة التى تقف خلف الإرهاب الانتحارى» ، كما يضيف أن «البيانات تظهر وجود علاقة ضعيفة بين الإرهاب الانتحارى والأصولية الإسلامية أو أى دين بالنسبة إلى هذه المسألة» ، ويضيف أن الجماعة المسئولة عن أعلى نسبة ٤٠ فى المائة من إجمالى الهجمات الانتحارية هى نمور التاميل فى سرى لانكا وهى جماعة معارضة بشده للدين ؛ لكنه يشير إلى أن كل الحملات الإرهابية الانتحارية ما هى إلا «حملات سياسية وعسكرية متماسكة» غايتها المشتركة هى هدف خاص واستراتيچى ، أعنى إجبار القوات العسكرية على الانسحاب من أوطانهم ، ومن النادر أن يكون السبب الرئيسى لهذه العملية هو الدين ، على الرغم من استخدامه كوسيلة فى التجنيد ، كما يمكن توظيفه لخدمة هدف إستراتيچى أوسع ؛ «فمن لبنان إلى إسرائيل وسرى لانكا وكشمير والشيشان» كان الهدف هو «إقامة أو الحفاظ على حق تقرير المصير السياسى»(٤٣) .

إن فقهاء المسلمين القائلين بجواز التفجيرات الانتحارية ، مطلقين عليها اسم العمليات الاستشهادية ، قد فرقوا فى الواقع بين الانتحار الإيثارى والأشكال الأخرى للانتحار ، دون أن يدروا بأطروحات دركهايم ، وقضوا بأنها تضحية مبررة من أجل الخير العظيم لمجتمعهم .

هكذا تكون التفجيرات الانتحارية التى تُنفذ باسم الإسلام ظاهرة **اجتماعية سياسية** وليست عقائدية؛ إن اتخاذ الدين كهوية للجماعة يوفر أساسًا لإصدار بيان الضمير الجماعى للمجتمع المسلم؛ حيث إن الانعزال الجماعى بمثابة صرخة للتصحيح، وبيان أن الضمير الجماعى للمجتمع المسلم قد تعطل، وأن الصدع الأساسى يوجد فى النسيج الاجتماعى الحالى؛ لذا فإن أعمال الانتحاريين، التى تعبر للوهلة الأولى عن المزاج أو التعصب الشخصى فقط، تعد حقًا تعبيرًا خارجيًا عن القلق الاجتماعى المترسخ الجذور.

يمد المجتمع المسلم الشاعر بالظلم والألم يده فى صورة جماعية إلى من - وفقًا للغة دركهايم - يراهم سبب الألم. وحيث إن منفذى العمليات الانتحارية لديهم بصفة عامة مستوى أعلى من المتوسط من التعليم وسبل الرفاهية مقارنة ببقية المجتمع المسلم، فلربما تكون رغبتهم فى الانتحار تعويضًا جزئيًا لشعورهم بالذنب تجاه أوضاعهم أو بدافع الخلل الموجود فى مجتمعهم. أى أنهم - باستعمال اللغة المسيحية - يقدمون أنفسهم فداءً لخطايا مجتمعهم وخطايا من يعتبرونهم يعملون ضد صالح مجتمعهم على حد سواء. إن التفجيرات الانتحارية التى تنفذ باسم الإسلام[٤٤] ما هى إلا تعبير عن غضب الضمير الإسلامى الجماعى تجاه من ينظر إليهم على أنهم يحبطون الطموحات السياسية للمجتمع المسلم ويزيدون سوء الجراح والإحباطات النفسية القديمة - تلك الإحباطات والجراح التى تلقى بظلالها على أى شىء يمكن أن تقدمه الحياة فى الوقت الحالى.

وإننى كشخص قدم العون لأناس فى أوقات الشدة مثل أم حزنت على فقد طفلها أو على فقد حملها، أو صديق يعانى من مرض النهاية وألم جسدى يستحيل علاجه، فإننى اكتشفت أن الأشخاص فى مثل هذه الحالات من الاكتئاب واليأس يعجزون عن إيجاد معنى لحيواتهم وحرياتهم؛ فيمكن أن يشعروا بالتعاسة لدرجة أنهم لا يستطيعون تقدير حرياتهم ولا الخيارات المتبقية أمامهم، وفى هذه الحالة، ربما يفكرون وحتى يحاولون إنهاء حياتهم؛ ويمكن لمثل هذا اليأس أن يصيب المجتمعات والأفراد أيضًا؛ فالأمريكيون لديهم تسمية لاذعة لعملية الانتحار هى «شطب الاسم» للخروج من فندق الحياة.

يجب أن يعالج أى حل طويل المدى لمشكلة التفجيرات الانتحارية الألم واليأس الذى يشعر به الكثيرون فى المجتمع المسلم، ويتطلب تخفيف هذا الألم البحث فى القضايا الاجتماعية التى تساهم فيه، كما يجب أن نعالج تلك الجوانب التى تغذى هذه الظاهرة فى المجتمع المسلم، وأن نأخذ فى الاعتبار إحساس الإسلام الشديد بشعور العدالة الاجتماعية، وهو إحساس له تأثير قوى على نفسية المسلمين والمجتمع المسلم ككل.

وهنا يكمن الأمل؛ حيث يمكن تصحيح الظلم الاجتماعى وإصلاح تمزقات النسيج الاجتماعى ومعاجة العزلة الجماعية الذى تغذى العمليات الانتحارية. ولتحقيق ذلك نحتاج إلى أمرين هما: فهم عميق وشامل للأمراض الاجتماعية الرئيسية، ونهج فائق المهارة والحساسية لعلاجها. ويتطلب الأمر الأخير، من بين أمور أخرى، أن يعمل العالمان الغربى والإسلامى معًا لإيجاد سبل لتحسين حياة الأفراد عن طريق فهم المبادئ الرئيسية للحكم القائم على المشاركة فى المجتمعات الإسلامية، ويتطلب هذا الجهد فى الأساس حلاً لقضية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى؛ لأن هذا الصراع أصبح بالنسبة للملايين من المسلمين تعبيراً مجازيًا عن قدر كبير من الأمور السيئة بين العالمين الإسلامى والغربى.

قد لا يكون حل الصراع الإسرائيلى ـ الفلسطينى مستحيلاً كما يبدو؛ حيث يتفق المعتدلون من الجانبين فعلاً على بعض المبادئ الرئيسية، إن لم يكن كلها، والتى سيتم دمجها فى التسوية النهائية متى تم التوصل إليها؛ والأهم هو أن استطلاعات الرأى توضح أن الغالبية العظمى من طرفى الصراع يمكنهم أن يقبلوا هذه المبادئ إذا أدت إلى سلام عادل وأمن دائم[٤٥].

ختامًا، فإن القضاء على ظاهرة التفجيرات الانتحارية يقتضى معالجة أسبابها الاجتماعية الرئيسية، وهذا الجهد لن يكون سهلاً ولا مستحيلاً ـ ولكنه ضرورى للغاية لمستقبل عالمنا، وسوف أقدم أفكاراً محددة فى الفصول اللاحقة يمكنها المساعدة فى تحقيق هذا الهدف.

مصطلح «غير دستورى» بالنسبة للأمريكيين

يساوى «غير إسلامى» بالنسبة للمسلمين

يغرس الإسلام شعوراً قوياً بالعدالة الاجتماعية، فعلى المستوى الشخصى، يطمح كل مسلم أن يكون إنسانًا كاملاً؛ وسبيل ذلك هو أن نحاول الاقتداء بالنبى ﷺ قدر المستطاع؛ وعلى المستوى الجماعى، يتطلع الكثيرون فى المجتمع المسلم إلى بناء مجتمع يجسد القيم التى أسسها النبى فى المدينة عندما كان يحكمها بنفسه ﷺ، فكان الخلفاء الأربعة الأوائل بعد النبى أكثر المهتمين بقضية العدالة الاجتماعية، فلم يكن الخليفة عمر بن الخطاب، على سبيل المثال، يستطيع أن ينام وفى المدينة امرأة جائعة، كما كان يجوب الطرق بالليل ليتأكد من حماية كل من تحت إمارته من ظلم الجوع (وبهذا قدم شبكته للأمان الاجتماعى). وللأسف عاش المسلمون بعد عهد الخلفاء الراشدين الأربعة فى ظل قدر كبير من الظلم؛ وحيث إن هناك شعورا بأن العدل هو منبت الإسلام، فإن محاولات المسلمين فى الحاضر لإعادة خلق مجتمع عادل غالبًا.ما تُصاغ فى إطار إسلامى من حيث المفردات واللغة المستخدمة.

يمكن أن يتحول العقلاء إلى العنف عندما يرون أنه ليس هناك بديل لتصحيح الظلم، فعندما قصفت أمريكا أفغانستان فى رد على هجمات الحادى عشر من سبتمبر، كان هذا عنفًا استهدف من اعتقدت أنهم قد نفذوا أو دعموا هذه الهجمات ضدها - أى أن العنف تم تبريره باسم أعمق القيم الأمريكية.

عندما نشعر - نحن الأمريكيين - بظلم فى قضايانا القومية التى تتضمن قيمنا الديموقراطية الأساسية، فإننا غالبًا ما نقول بدون تفكير إن هذا «غير دستورى»، ورغم أننا قد لا نعرف أى بند من بنود الدستور تم انتهاكه، إلا أننا نشعر بذلك فى أحشائنا، وهكذا فإن هذا القول إنما هو تعبير حدسى؛ لذا يحتاج معظم الأمريكيين إلى مساعدة محامى دستورى لصياغة الحجج القانونية والمنطقية لشعورهم الحدسى بالظلم الواقع.

وبالمثل، عندما يشعر المسلمون بانتهاك الشرع فإنهم يصرخون إن هذا «غير إسلامى»، وربما لا يعرف المسلمون أى آيات القرآن أو تعاليم الرسول هى التى تم مخالفتها، ولكن الفطرة تخبرهم بذلك. عندما يقول المسيحيون إن أمرًا ما «غير

مسيحى» ، فإنهم يقصدون أن هذا العمل قاس أو فظ ؛ وتشمل عبارة «غير إسلامى» عند المسلمين معانى **«غير دستورى ، غير أخلاقى ، خاطئ ، فظ»** ، وتعنى هذه المعانى مجتمعة كلمة «إثم» .

عندما نريد فى الولايات المتحدة أن نصحح أى خلل فى نظامنا الديمقراطى ، فإننا غالبًا ما نعرض القضية بلغة الدستور ؛ لأنه المرجعية العليا التى يمكن أن ندعيها لأنفسنا ، وإن التعبير المفضل للأمريكيين عند رؤية خطأ ما هو «يجب أن يكون هناك قانون يمنع هذا» أما لو شعرت بغضب كاف ، فسوف تبحث عن قانون كهذا وتستخدمه للثأر . وإذا وجدنا بندًا قانونيًا قائمًا فى صالحنا ، ربما نستخدمه لمقاضاة وإثبات أن الشخص الذى ظلمنا قد انتهك القانون أو الدستور ، وإذا لم نجد القانون الذى نحتاجه فإننا قد نحاول إيجاده . ونقوم بهذا فى الولايات المتحدة عن طريق إقناع عضو الكونجرس أو السيناتور النائب عنا بسن تشريع لهذا .

ولا يختلف المسلمون فى ذلك ـ إلا أن المرجعية التى يعودون إليها هى مرجعية دينية ؛ فعندما يشعر المسلمون بالظلم يندفعون إلى القرآن وكتب الحديث بحثًا عن آية وحديث نبوى يؤيد موقفهم ، أو من الأفضل ، قد يطلب الشخص من أقرب مفتى إصدار فتوى بخصوص هذا الموضوع . وفى الغالب يجد المسلمون آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تبرر شعورهم بالظلم ، فيقولون : «انظر ! لدينا قانون يحرم هذا ! فقط لو طبقت شريعتنا ، فإن إحساسنا بالظلم سوف يجد علاجًا» ، وإلا كيف يمكنك أن تحتكم إلى مرجعية أعلى من الله ؟ .

إن كلمة الشريعة تعنى الطريق ، أما المعنى الضمنى المجازى لهذه الكلمة فهو أن حياتنا مثل طريق فى صحراء ، والواحة التى نبحث عنها موجودة مع الله . وهكذا فإن الشريعة الإسلامية تركز فى المقام الأول على رحلة الإنسان فى تقربه من خالقنا ، ومقصدها هو إقامة روابط ومعالم مرشدة على الطريق بين الله والبشرية ؛ حيث إن الشريعة هى جملة الهداية الإلهية وشكلها وتركيبها وبنيانها ؛ وهى هامة للمسلمين لأنها الدليل الذى يُحدد من خلاله المسلم ما هو حسن وأخلاقى ، إن لكلمة «الشريعة» وقع على أذن المسلم يعنى كل ما هو دستورى وأخلاقى وقويم ورحيم ـ وهى الشروط الضرورية بالنسبة لما يسميه الأمريكيون التماس السعادة ، وهذا هو السبب الذى يجعل

العديد من المسلمين يطالبون بإقامة النظم القانونية الوطنية على أساس الشريعة، لأنها المرجعية العليا التى يرجع إليها لتصحيح الأخطاء.

علاوة على ذلك، عندما تدعى أن الله فى جانبك، فإن هذا يمنحك هذا دعمًا شعبيًا، ويصدق ذلك فى كل الثقافات والأديان، كما أنه سبب إضافى يفسر استخدام حركات التحرير السياسى فى العالم الإسلامى لمفردات إسلامية دينية، ويسمون أنفسهم أسماء مثل الجماعة الإسلامية، وحزب الله، وعسكر محمد، . . . وغيره؛ فهم يستخدمون لغة دينية؛ لأنها تبرز بصورة طبيعية مع طرح قضايا العدالة والإنصاف، كما أنها المرادف عند المسلمين لعبارة «ارتداء العلم» باستخدام التعبير الأمريكى.

على الرغم من الأسماء الإسلامية التى تستخدمها جماعات المعارضة العنيفة فى العالم الإسلامى، إلا أن معظم الدعم الذى تحظى به فى الشارع قائم على أمور دنيوية ومادية شعبية. تصف كاريل مورفى مراسلة صحيفة واشنطن بوست فى الشرق الأوسط لعدة سنوات أن الجماعة الإسلامية فى مصر «كانت تعبر عن إحباط وغضب الشعب وكانت تتحدث نيابة عمّن ليس لهم واسطة، تتحدث علنًا عمن تعتقدهم قادة مقصرين وغير مبالين». وذكرت عن أحد سائقى الشاحنات المصريين قوله: «إن الناس لا يتعاطفون مع الجماعة الإسلامية لأنهم يحبونها ولكن لأنهم يكرهون الحكومة. . . إن اليأس هو السبب الحقيقى فى ظهور الجماعة الإسلامية»، فضلاً عن هذا أثمرت مقابلة أخرى أجرتها مع أحد المصريين نفس التحليل السابق عندما قال: «إن جزءًا من أسباب موجة العنف التى تجتاح مصر هو الفقر وقلة الوظائف. . . أى أنها أسباب اقتصادية»، ويضيف قائلاً: «إن الحل ليس فى إلقاء القبض على الناس، ولكن فى إيجاد فرص عمل، ولكن الحكومة لا تهتم بمثل هذه الأمور الخطيرة للغاية»(٤٦).

وباتخاذ مصر كمثال على ما يواجه العالم الإسلامى من تحديات، خصوصًا بالنسبة للفئة العمرية الأقل من الثلاثين والذين يمثلون الغالبية العظمى من السكان، نجد أن معظمهم من العاطلين وشبه العاطلين الذين يعيشون بدون أمل يتراءى لهم فى نهاية النفق؛ وتوضح مورفى أن: **«مشكلة مصر ليست الإرهاب ولكن فى غياب الديمقراطية وغياب احترام المؤسسات القانونية؛ فمثلما أجهض الجنرالات انتخابات**

الجزائر فى عام ١٩٩٢م فى محاولة لمنع الحركة الإسلامية من الفوز بالانتخابات، فإن الحكومة المصرية بعثت برسالة إلى المعارضة الإسلامية المعتدلة مفادها أن صندوق الاقتراع بوابة ضيقة لا يمكنكم عبورها طالما نحن فى السلطة»، وكتبت مورفى فى هامش هذا الاقتباس عبارة شديد الدلالة حين قالت: «إن أيمن الظواهرى الذراع الأيمن لأسامة بن لادن حذر من أن إجهاض الانتخابات الجزائرية عام ١٩٩٢م دليل على أن «الحكومات الغربية وعملاءها» لن يسمحوا للأحزاب الإسلامية بالوصول إلى السلطة من خلال صناديق الاقتراع»(٤٧).

إن جذور ما يسمى بالعنف الإسلامى لا تكمن فى الدين وفى السياسة والاقتصاد الخاصين بالعالم الإسلامى، فبدون مشاركة أكبر فى الحكم وبدون وجود اقتصاد سليم، فإن مشاهد الفقر المدقع وحالة الإحباط الشديدة سوف تستمر مميزة لمساحة كبيرة من بقاع الشرق الأوسط. ويخلق اتحاد هذه الظروف أرضًا خصبة للفلسفات المتطرفة والإرهاب؛ ومما يزيد الأمور سوءا أن الاقتصادات المركزية التى تمتلكها الدولة فى الغالب، تترك معظم المسلمين منعزلين عن الثروة الاقتصادية للأمة. وبهذا فهم يشعرون بالحرمان من حق الحياة والحرية والتماس السعادة المقصورة على ما يبدو على قلة قليلة. يسافر الكثيرون من المسلمين المحرومين من حقوقهم فى بلادهم عبر الصحارى والمحيطات بحثًا عن هذه الحقوق فى الدول الغربية؛ لذلك فمن الطبيعى أن يستخدموا لغة الإسلام فيما يتعلق بالعدالة الاجتماعية ليعبروا عن مآسيهم وطموحاتهم فى الحصول على الحريات والتمكين الاقتصادى من أسباب القوة التى يتمتع بها معظم من يعيشون فى الدول الغربية بشكل روتينى؛ وعندما يبقى الظلم بدون علاج، يصبح الناس فى الغالب مقاتلين.

إن الدرس الحاسم الذى يستفاد من هذه المناقشة هو أن قدرة الجذب الشعبى لدى الجماعات الإسلامية العنيفة له ليست مستمدة من الدين، بل من قدرة تلك الجماعات على استغلال مشاعر الإحباط الشخصية والشعور بالظلم الاجتماعى اللذين يشعر بهما الملايين يوميًا فى المجتمع الإسلامى، فقد أصبحت الجماعات التى تتبنى العنف ماهرة فى الاستفادة من مثل هذه الإحباطات ومن ثم توجيهها بلغة دينية تثير الالتزام الكامل لدى أتباعهم.

لقد استخدم الوعاظ الأمريكيون الأفارقة مفردات دينية لإشعال النضال من أجل الحصول على الحقوق المدنية فى الستينيات والسبعينيات، حيث استخدم القس مارتن لوثر كنج لغة الكتاب المقدس والدستور للحث على تصحيح الظلم الاجتماعى، ولكن مع بدء برامج العمل الإيجابى والحقوق المدنية فى تحسين حياة الأمريكيين الأفارقة ومع بدء تبوئهم مناصب مرموقة مثل العمد ونواب الكونجرس وجنرالات ورجال أعمال وقضاة وحتى وزارة الخارجية، انحسرت عسكرة حركات القوى السوداء(٤٨).

هل الحرب على الإرهاب حرب باردة جديدة؟

إن الولايات المتحدة، طبقًا لمؤسسة «راند»، هى أكثر الدول تعرضا للاستهداف من قبل الإرهابيين منذ ١٩٦٨م، وتقول وحدة مكافحة الإرهاب التابعة للخارجية الأمريكية إن ٤٠ فى المائة من إجمالى العمليات الإرهابية التى حدثت فى العالم خلال فترة التسعينيات كانت ضد مواطنين ومنشآت أمريكية.

يعرف قاموس وبستر الإرهاب على أنه «استخدام الرعب والعنف للتخويف والإخضاع . . . إلخ، واستعماله خصيصًا كسلاح سياسى أو سياسة تؤدى إلى التخويف والإخضاع»، وقد أضفنا فى القرن الماضى معنى آخر هو «رغبة أحد جانبى الصراع فى قتل المدنيين الأبرياء عشوائيّا ـ غالبًا ما يكون الأطفال من بينهم ـ من الجانب الآخر، ومن ثم يشعر المجتمع الواقع عليه هذا العمل بالإرهاب».

ومن الصعب أن نفهم كيف لمجتمع متحضر أن يتغاضى عن القتل العشوائى للمدنيين والأطفال، ولكن للأسف صارت هذه الممارسة متأصلة فى العالم اليوم، فلماذا؟ لا توجد إجابة سهلة لهذا السؤال المرعب، ولكن يمكننا جمع إيماءات قليلة بدراسة بعض نقاط سوء التفاهم العميقة المتقاطعة بين الثقافات؛ إن الكتابة بموضوعية عن الإرهاب قضية غاية فى الصعوبة؛ لأنه من سابق خبرتى ليس هناك قضية مثلها تثير العواطف على الفور بشكل ملتهب للغاية (وهذا أمر مفهوم)، لكنى أستطيع فقط أن أطلب من قارئى ـ سواء من الثقافة الغربية أم الإسلامية ـ تعليق أحكامه الفورية أثناء قراءة هذا الجزء ومحاولة وضع نفسه مكان شخص من الثقافة الأخرى.

يلاحظ المراقبون المحايدون أن كلمة إرهاب تستخدم دائمًا لوصف أعمال يقوم بها «الجانب الآخر» فى صراع معين، وبالتالى لا نكون «نحن» ـ بحكم التعريف ـ إرهابيين حتى لو استخدمنا وسائل عنيفة للوصول إلى أهدافنا، وحتى لو وقع الأبرياء المدنيون والأطفال قتلى أثناء هذه العملية.

لسوء الحظ تستخدم كلمة الإرهاب ـ التى تحمل معانى كثيرة ـ فى الوقت الحالى بمعنى مختلف فى كل من العالم الإسلامى عنه فى العالم الغربى. فقد علمتنى خبرتى فى مجال حوار الأديان على مدار السنين أنه إذا أردنا أن يتوافر لدينا أدنى أمل فى حل الخلافات الناشئة بسبب الفواصل، خاصة تلك التى بين العالم الإسلامى والغربى، فإنه يتعين علينا أن نعرف هذه المصطلحات بطريقة محايدة، وحينئذ يمكننا البدء فى فهم جانبى الفاصل النفسى ومحاولة رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون؛ وباستخدام المفردات المشتركة بيننا والتى تمكننا من فهم سيكولوچية ووجهة نظر الخصم فى الخلاف، قد نستطيع إيجاد سبل لرأب هذا الصدع.

ففى الغرب، يعرف الإرهاب غالبًا بنية الطرف الفاعل فى إلحاق الأذى بالأبرياء، فلو أن القائم بعملية التفجير أفضى عن عمد بحياة الأبرياء، فهو مذنب بجريمة الإرهاب بما لا شك فيه، وعلى النقيض منذ ذلك، إذا قصفت الولايات المتحدة أو قوات التحالف قنابل خطأ على مبانى فى بغداد (أو أى مدينة أخرى) فقتلت مئات بل آلافًا من الأبرياء من بينهم نساء وأطفال، فنحن نُعرف ذلك على أنه أضرار تبعية وليس إرهابًا، فنحن نحدث هذا الفرق لأننا ليس لدينا النية فى قتل الأبرياء، نحن نأسى على فقد الأبرياء لكننا نعتبر هذا ثمنًا يجب دفعه لبلوغ أهدافنا الكبرى التى قد تكون تخليص العراق من قبضة صدام حسين، على سبيل المثال، أو ضمان أمن الولايات المتحدة من هجمات باستخدام أسلحة الدمار الشامل.

وعلى العكس، فإن العديد من المسلمين فى الشرق الأوسط ينظرون فى المقام الأول إلى نتائج أعمالنا وليس إلى مجرد النية التى نعلنها لتبرير تلك الأعمال. ويرجع ذلك جزئيًا إلى حقيقة أن أعدادًا كبيرة جدًا فى الشرق الأوسط لا يثقُون ببساطة فيما تقوله أمريكا، فعلى سبيل المثال، هناك الكثيرون يعتقدون أن حكومتنا بالغت فى التخويف من أسلحة الدمار الشامل العراقية كذريعة تتيح لنا الغزو وبتحقيق النية الحقيقية

لحكومتنا، وهى إنهاء المهمة التى بدأها جورج بوش الأب فى عام ١٩٩١م ولتعزيز أمن أمريكا فى مجال الطاقة عن طريق فرض الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط، ومن هذا المنظور، فإن معظم العرب يصعب عليهم تقبل أن قتل الآلاف من المدنيين العراقيين ما هو إلا أضرار تبعية، وكانت النتيجة هى تشكل رأى شائع فى الشرق الأوسط بأن الولايات المتحدة مستعدة تمام الاستعداد لقتل الأبرياء المدنيين عندما يتفق ذلك مع الأهداف الأمريكية.

يختلف الإسرائيليون والفلسطينيون عادة حول من هو الجانب الأكثر ارتكابًا للإرهاب، فالإسرائيليون يشيرون بعاطفة كبيرة صادقة إلى الأبرياء الذين راحوا ضحية العمليات الانتحارية التى يقوم بها بعض الفلسطينيين، إن مثل هذه الهجمات تعكس شرًا عظيمًا فى رأى الإسرائيليين، وقد تشدد غالبية الإسرائيليين فى رأيهم بأن السبيل الوحيد لوقف مثل هذه الهجمات هو الرد المتزايد والعنيف على المنظمات التى تدير هذه العمليات الإرهابية، فتقذف الطائرات الحربية والدبابات الإسرائيلية المنازل والمجاورات حيث يُشتبه فى اختفاء أعضاء من حماس بها، وتزيل الجرافات الإسرائيلية منازل فلسطينية وقرى بأكملها بحجة حماية أمن إسرائيل، فى الوقت الذى تم فيه بناء جدران فاصلة عبر المزارع الفلسطينية.

بيد أن منظور الإرهاب مختلف تمامًا فى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى المناطق المحتلة، حيث يُنظر إلى الجماعات التى تحارب الاحتلال الإسرائيلى على أنها تقدم أرواحها فى سبيل قضية الشعب الفلسطينى. وفى حين أن بعض الفلسطينيين ينادون بقوة بأنه ينبغى على المقاتلين الفلسطينيين قصر هذه الهجمات على أهداف إسرائيلية عسكرية داخل وحول المستوطنات اليهودية غير الشرعية، يقبل آخرون موت المدنيين الإسرائيليين فى تل أبيب كثمن لنضال التحرير.

يشير الإسرائيليون إلى القتل المتعمد والمتكرر للأبرياء على أنه دليل واضح على أن الفلسطينيين مذنبون بالإرهاب، ولا يمكن إنكار الصور المرعبة لضحايا هذه التفجيرات، غير أن الفلسطينيين يقولون فى المقابل إن القتلى المدنيين فى جانبهم أكبر بكثير وإن لديهم شعورًا بالغضب مساويًا إزاء الإرهاب الإسرائيلى ضاربين مثالاً بالتورط الإسرائيلى فى مذابح عام ١٩٨٢م والتى راح ضحيتها المئات بل الألوف من

الفلسطينيين فى معسكرات اللاجئين فى صابرا وشاتيلا. وفى غضون ذلك تستمر المذابح على الجانبين.

والحقيقة هى أن قتل الأبرياء إثم دائمًا ـ وليس هناك حجة أو عذر على الإطلاق مهما كان الاعتقاد مبهمًا عميقًا، يمكن أن يجعله مشروعًا. فليس هناك دين على وجه الأرض يغفر القتل العشوائى للأبرياء، وليس هناك عقيدة تتسامح فى القتل العشوائى لإخواننا وأخواتنا على هذه الأرض؛ لذلك نهانا الله سبحانه وتعالى عن قتل بعضنا بعضًا، فيقول تعالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، كما حرم الله قتل أعضاء المجتمع الذين لا تتوافر لهم سوى أدنى درجات الحماية.

تقف الشريعة الإسلامية بكل وضوح ضد الإرهاب وضد أى نوع من القتل العمد للمدنيين أو أضرار التبعية الشبيهة، إن جذور الإرهاب لا تنبت من الدين ولكن من السيكولوچية البشرية والكراهية النابعة من الصراع العنيف على السياسة أو السلطة والأصول الاقتصادية مثل الأرض.

يرسل لنا منفذو ما نسميه بالإرهاب الإسلامى فى إحباطهم وغضبهم القول التالى الذى صاغه بنيامين باربر ـ وهو أن: «أبناءكم يرغبون الحياة وأبناءنا مستعدون للموت». ويجب أن يكون ردنا عليهم هو: «سوف نخلق عالمًا ليس للموت إغراءات فيه لأن نعم الحياة متاحة للجميع»[٤٩]، يجب أن تكون تلك هى رؤيتنا العالمية، فإذا نجحنا فى هذا، فعندئذ نكون قد حققنا النصر فى الحرب على الإرهاب.

أسامة بن لادن: «روبن هود المسلمين»؟

شاهدت شريط مسجلاً لمقابلة أجريت مع أسامة بن لادن عام ١٩٩٨م برر فيها هجماته ضد الأمريكيين: فقال: إن الرئيس بل كلينتون قام بقصف العراق لصرف الأمريكيين عن مشاكله الشخصية عندما كان فى خضم فضيحة مونيكا لونسكى. واستشهد بن لادن باستطلاع رأى أظهر أن أكثر من ثلثى الشعب الأمريكى ساندوا هذا القصف الذى لم يؤثر على نظام حكم صدام حسين، ولكنه زاد من معاناة الشعب العراقى حسب قوله، كما ادعى بن لادن أن أكثر من مليون عراقى ماتوا نتيجة

للعقوبات التى قادتها أمريكا، من بينهم ضحايا السرطان الذى سببه اليورانيوم فى الأسلحة الثاقبة للمدرعات المستخدم فى حرب الخليج الأولى. وأضاف بن لادن أن العقوبات حرمت الشعب العراقى من الحصول على الإمدادات الطبية ودمرت الاقتصاد العراقى، ويستطرد قائلاً: إنه نظراً لأن الحكومة الأمريكية تجمع أموالها من الضرائب المفروضة على الشعب، فإن دافعى الضرائب الأمريكيين يمولون العسكرية والقنابل الأمريكية. ويجادل بن لادن بأن هذا يعنى أننا نحن الشعب الأمريكى وافقنا على قتل العراقيين الأبرياء، ولأننا دفعنا أموالاً لشراء الأسلحة، فإننا قد شاركنا فى هذه الجريمة ضد الإنسانية والتى تستهدف المسلمين. وهكذا يخلص بن لادن إلى أن قتل المدنيين الأمريكيين كان أمراً مبرراً. وحاج قائلاً: إن لأمر جوهرى فى أى دولة ديمقراطية أن تكون الحكومة من الشعب وللشعب، وهو ما يعنى أن سياستها تنبع من الشعب وترجع إلى الشعب، ومن ثم فإننا، نحن الأمريكيين، كنا مسئولين عن ذلك شخصيّاً.

تبين استطلاعات الرأى فى أجزاء من الشرق الأوسط أن كثيرين من الناس يعتبرون أسامة بن لادن بطريقة ما روبن هود[٥٠] العصر الحديث، وها هى أوجه التشابه التى يرونها: روبن هود كان إيرل مدينة لوكسلى، أى كان نبيلاً، وبن لادن سليل أسرة سعودية ثرية هى آل لادن؛ تخلى روبن هود عن حياته المرفهة لمساندة الملك ريتشارد الذى كان يحارب صلاح الدين الذى اعتبره المسيحيون كافراً (الحملة الصليبية الثالثة)، وتخلى بن لادن عن حياة الرفاهية لمحاربة الكفار المعادين للدين، الشيوعيين الذين غزوا أفغانستان واحتلوها.

تلقى أسامة بن لادن دعمًا وتدريبًا من كل من الحكومة السعودية والأمريكية. وعندما انسحب الاتحاد السوڤيتى من أفغانستان، وعاد بن لادن إلى وطنه تحدث، مثل روبن هود، عن القضايا التى لم يكن الكثيرون من الشباب المسلم راضيًا عنها، فكان كثيرون من الشباب السعودى الذى تلقى تعليمًا عاليًا على وجه الخصوص يرغبون فى أن يكون لهم دور مهم فى صناعة القرار فى بلدهم ومشاركة أوسع فى ثروة وتنمية الوطن. ولو كانت قد سنحت لابن لادن فرصة للترشيح لمنصب سياسى، فربما كان حصل على منصب بالانتخاب، ومن ثم كانت لديه الفرصة ليشغل نفسه فى محاولة لبناء وطنه وتشكيل مساره؛ إن الفرصة المأمونة فى العملية السياسية تمثل رغبة وحاجة

كبيرة فى العديد من الدول الإسلامية، وعرقلة هذه الرغبة واحد من أكبر الأسباب المساهمة فى ظهور العنف فى هذه البلاد.

لقد حرم بن لادن المقاتل من فرصة خدمة وطنه؛ لذا فإنه من الحكمة دائمًا أن نمنح المقاتلين السابقين فرصة الترشيح للمناصب بالانتخاب. وأن نتيح لمن لهم ميول عسكرية فرصة لتقليم أظفارهم بمحاولة بناء شيء فى العالم الحقيقى. بدأ أسامة بن لادن شاعرًا بالإحباط فى التركيز على ما كان يعتقده من عدم مساواة وجور فى المجتمع السعودى، وهو ما لا يخلو منه أى مجتمع فى العالم. ومثلما تحدث روبن هود عن الظلم الذى كان يمارسه الأمير جون وعمدة مدينة نوتنجهام اللذان كانا يصطادان الآيائل ولا يسمحان للفقراء أن يصطادوها، عبر بن لادن عن قضايا مماثلة فى السعودية. ومرة ثانية، فكما عاش روبن مع عصبته السعيدة من الرجال فى غابة شيرود، فإن بن لادن عاش فى الكهوف مع عصبة من الرجال. يمكن أن تكون هذه الصورة فى أى ثقافة صورة بطولية؛ لذا فهى بالنسبة للكثيرين من المحبطين فى العالم الإسلامى صورة أخاذة.

عندما جئت إلى أمريكا فى أواخر الستينيات للالتحاق بجامعة كولومبيا، فتننى أن أرى طلاب الجامعة من الأمريكيين المنتمين لأسر أمريكية ثرية وهم يعلقون لافتات عليها صور تشى غيفارا على حوائط السكن الجامعى الخاص بهم ويرددون أغانى عن الثورة. فقد كان غيفارا ـ وهو مقاتل ثورى وصديق لفيدل كاسترو ـ يمثل شخصية بطولية للعديد من أصدقائى الكولومبيين، حيث كان يرمز لجهود شخص واحد ناضل من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية كما يراها؛ فهل نندهش لأن بن لادن ترك انطباعًا مشابه فى أذهان العديد من شباب المسلمين وغير المسلمين فى الوقت الحاضر؟

تحدث بن لادن عن قضايا الشرق الأوسط على نحو جعله يكتسب دعمًا وافرًا، وتوضح دراسة أجراها مركز بيو للأبحاث أن «الغالبية العظمى فى السلطة الفلسطينية وإندونيسيا والأردن ـ وحوالى نصف من يعيشون فى المغرب وپاكستان ـ يقولون بأن لديهم بعض الثقة على الأقل فى بن لادن «لفعل الصواب فيما يخص شئون العالم»، كما أنه «لدى ٧١ فى المائة من الفلسطينيين نفس وجهة النظر فى بن لادن»[٥١]؛ ولكن

صعوبة الترشيح لتبوؤ منصب سياسى فى الشرق الأوسط جعل بن لادن يعيش خارج المجتمع ويدعى أنه يمثل كل المسلمين، وهكذا فإن غياب الحكم الديمقراطى يمكن أن يخلق ضغوطًا قد تسبب تصدع هيكل المجتمع ـ إذا لم تعالج. وكما رأينا سابقًا فإن معظم صراعات البشر تنشأ بسبب توزيع السلطة أو الأصول. وفى حالة بن لادن، كان الصراع على السلطة.

نحن نحب سيدة الحرية، لكن يا أمريكا هل تتحدثين إلينا؟

لا نستطيع أن نحل خلافًا مع أزواجنا دون معرفة وجهة نظرهم، وبالمثل، فإن لم نستطع رؤية ما يجعل العالم ككل سواء الإسلامى وغير الإسلامى يغضب منا، فمن المحتمل أن نوسع الفجوة بيننا بدلاً من رأبها. ولأن الولايات المتحدة أقوى مما يتصوره معظم مواطنيها، فإنه ينظر إلينا على أننا مثل رجل شديد الفحولة لم يدرك أن النساء يرونه متبلد الشعور؛ لكننا نتساءل لماذا ينشغل معظم العالم بالأسلوب الذى نستعرض به قوتنا المجردة بطريقة أحادية وبدون الإصغاء إلى أصدقائنا ـ وتصيبنا الدهشة لأننا نكتشف أن معظم العالم يخشانا بالفعل.

تحالفت سياستنا الخارجية لنصف قرن من الزمان مع أنظمة تحرم شعوبها من حقوق الإنسان البسيطة، حتى أننا ساعدنا على إسقاط حكومات ديمقراطية وليدة، وتأتى مساعدة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية على تدبير انقلاب عام ١٩٥٣م فى إيران أطاح برئيس الوزراء محمد مصدق وحل محله الشاه مثالاً نموذجيًا لذلك؛ وفى حين أن غالبية الأمريكيين يجهلون هذه الحقبة الضئيلة من التاريخ، إلا أن الإيرانيين يشعرون بالقلق من أن أمريكا قد تطمح إلى إعادة التاريخ بنفس هذه الطريقة. إننا لم نكن جادين فى استخدام قوتنا لتمكين الشعوب الإسلامية من حقوقها.

إن هذا يشبه قولنا: «إننا لدينا كنز خاص ـ وهو مجتمع حر يعبر عن قيم ملة إبراهيم والتى تعتبر مبادؤها جزءًا من عقائدنا الدينية ـ لكنه ليس لكم، إنه للأمريكيين

والأوروبيين وحتى لليابانيين والروس والجنوب إفريقيين فقط، إننا سوف نقترح الديمقراطية على الصين، ولكننا لن نعير أى اهتمام للديموقراطية ولا لحقوق الإنسان فى العالم الإسلامى. فى حقيقة الأمر، إننا سوف ندعم حتى الحكام الديكتاتوريين الذين يحرمونكم من حقوقكم الإنسانية». ونتيجة لذلك، تعتبر أمريكا فى أذهان الكثيرين فى العالم الإسلامى ممن عاشوا فى ظل أنظمة ديكتاتورية كانت تتلقى دعمًا من الولايات المتحدة شريكًا إما فى خلق المشاكل أو فى إبقاء الوضع الراهن من الظلم؛ وحتى فى المواقف التى لا نعتبر فيها شركاء مباشرين، ينظر إلى أمريكا على أنها مسئولة جزئيًا على الأقل؛ وذلك لأنها القوى العظمى الوحيدة فى العالم والقادرة على تشكيل ما تريد.

ألقى وزير الخارجية الأمريكية كولن باول بعد أسابيع قليلة من أحداث الحادى عشر من سبتمبر بيانًا قويًا خلال كلمته أمام الأمم المتحدة قال فيه: إن الحرب على الإرهاب تتطلب منا دعم الحكومات الديمقراطية، وأضاف قائلاً بأنها حرب على الفقر وانتهاك حقوق الإنسان ونقص التعليم وأمور أخرى تعمل على تخلف العالم الإسلامى.

كتب بنيامين باربر: «إن الذين يعيشون فى العالم الثالث والذين يرحبون، كما يبدو، بمعاناة الأمريكيين هم على أسوأ تقدير خصوم رغم أنفسهم، هدفهم الرئيسى هو إيضاح أنهم يعانون هم أيضًا من العنف حتى لو كان بصورة أقل وضوحًا لكنها تدمر فى سرية أكبر ووقت أطول أكثر مما تدمره تلك العمليات الإرهابية القاتلة. إنهم لا يريدون تخفيف المعاناة الأمريكية لكى يستغلوا الرعب الناتج عنها فى لفت الانتباه إلى معاناتهم... فكل ما يسعون إليه هو العدل وليس الانتقام، إن معركتهم ليست مع الحداثة ولكن مع الأيديولوچية الليبرالية الجديدة العدوانية التى تستمر فى السعى إلى خلق مجتمع السوق العالمى المحقق لمنفعة البعض بدلاً من توفير العدالة للجميع... وهذه خيانة للمبادئ التى يدعى الأمريكيون التمسك بها».

ويضيف قائلاً: «فى النهاية إن النفاق وليس الديمقراطية هو مثار غضبهم»(٥٢).

هناك وفرة من الأمثلة التى توضح اختلاف رؤية كل من الولايات المتحدة والعالم الإسلامى للتاريخ، فعلى سبيل المثال، يؤكد المسلمون أن العقوبات التى فرضتها

الولايات المتحدة على العراق ما بين حرب الخليج الأولى وأواخر التسعينيات أودت بحياة خمسمائة ألف طفل(٥٣)، وبالطبع يرى الأمريكيون الأمر من منظورمعاكس تمامًا، فإن صدام حسين، من وجهة النظر الأمريكية، كان يضع مليارات الدولارات الخاصة بالنفط والتي تشرف عليها الأمم المتحدة في حسابه الخاص في البنوك في الوقت الذي كان شعبه يعاني فيه، فلو كان صدام حسين راغبًا بالفعل في إنهاء العقوبات، لكان كل ما عليه فعله هو الوفاء بعهده والالتزام بالشروط التي وافق عليها عام ١٩٩١م. كانت النتيجة المؤسفة المترتبة على هذا المثال لسوء التواصل هي أن الكثيرين من المسلمين اعتبروا العقوبات المفروضة على العراق مثالاً آخر للظلم الأمريكي، في الوقت الذي كان الأمريكيون يشعرون فيه بالغضب؛ لأن المسلمين ينتقدونهم بدلاً من انتقاد الديكتاتور الذي قتل الآلاف من شعبه؛ وما يجعل الموقف أكثر تعقيداً هو أن الولايات المتحدة التي تحالفت لمدة عشرين عامًا مع صدام حسين ودعمته في حربه ضد إيران، التي تعرض الآن أدلة على إرهاب حكم صدام لشعبه، بل إنها تركته في السلطة بعد حرب الخليج الأولى، ودفع ثمن هذا الآلاف من العراقيين الذين ماتوا إثر تعرضهم لهجمات بالغازات السامة.

وكما ذكرنا آنفًا، فإن الولايات المتحدة ساعدت على الإطاحة برئيس الوزراء الإيراني مصدق عام ١٩٥٣م، وعندما أراد الإيرانيون تغيير الشاه بعد حكم دام أكثر من خمسة وعشرين عامًا، ساندته الولايات المتحدة ضد إرادة شعبه حتى النهاية.

نجد موقفًا مماثلاً مع فردناند ماركوس في الفيليبين الذي كان رجلاً قويًا آخر تحالفت معه الولايات المتحدة، كان الشعب مستاءً من ماركوس أيضًا لدرجة أنهم أرادوا الإطاحة به، وهو ما كان يحظى بدعم الهيئة الدينية الفيليبينية، الكنيسة الكاثوليكية؛ ولكن رد فعل الولايات المتحدة في الفيليبين كان مختلفًا تمامًا وأكثر حكمة. ففي هذه الحالة، ساعدنا بفعالية على إتمام الانتقال، فطلبنا من ماركوس المجيء والعيش في هاواي، ثم ساعدنا كورازون أكينو على الوصول للحكم، وبذرنا بذور الحكم الديمقراطي في الفيليبين.

لو كانت الولايات المتحدة فعلت الأمر نفسه مع الشاه وساعدت آية الله الخميني للوصول إلى الحكم في إيران، فلربما كنا حافظنا على علاقات ممتازة مع إيران، ولكان

لسفيرنا على الأرجح مقعد بارز فى الاحتفالات السنوية بيوم الاستقلال. وبدلاً من ذلك كان لزامًا على الولايات المتحدة أن تمارس إسهامها فى تسميتها «الشيطان الأعظم» وسماع الهتافات المستمرة التى تدعو إلى «الموت لأمريكا».

وبينما تحدثت الولايات المتحدة بصوت مرتفع عن انتهاكات حقوق الإنسان فى العالم الشيوعى وفى الصين وفى جنوب إفريقيا التى كانت واقعة تحت طائلة التمييز العنصرى، فإن صمت أمريكا الأصم إزاء مثل هذه الانتهاكات فى العالم الإسلامى كان مؤلمًا بصورة متزايدة للمسلمين لعدة سنوات؛ إن السؤال الذى ينم عن الشكوى الذى يوجهه المسلمون فى الشرق الأوسط لنا نحن المسلمين الأمريكيين هو: «لماذا تنادى الولايات المتحدة الأمريكية بالحكم الديمقراطى فى كل مكان لكنها تقمع الجهود الرامية لتحقيق ذلك فى العالم الإسلامى؟ هل المسلمون ليسوا أهلا للحصول على حقوق الإنسان والديمقراطية؟» إن الشعور السائد فى العالم الإسلامى بأن الولايات المتحدة لا تهتم بمعاناة المسلمين وغير الغربيين يزيد عدم الثقة والعداء العام تجاه العالم الغربى.

تضاف إلى هذا قضايا أخرى مثل التجارة. فقد كان للسياسة المحلية الأمريكية للدعم والدعم الزراعى فى الاتحاد الأوروبى مؤخرًا تأثير موهن لمزارعى العالم الثالث. فعلى سبيل المثال، جعل الدعم الأمريكى لمزارعى القطن أسباب العيش مستحيلة بالنسبة لمنتجى وزارعى القطن فى مصر وإفريقيا؛ لأن منتجى القطن من الأمريكيين يمكنهم بيع إنتاجهم بسعر أقل مما يتحمله المزارعون الأفارقة من تكاليف لإنتاجه.

كما أن الصراع العربى الإسرائيلى مصدر كبير إضافى لغضب المسلمين من الولايات المتحدة، وعلى الرغم من وجود عدد من الصراعات فى العالم الإسلامى فى الوقت الحالى مثل الصراع الپاكستانى الهندى على كشمير والصراع الروسى الشيشانى، إلا أن العالم الإسلامى يرى أن الولايات المتحدة وراء استمرار الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. كما أن التناقض بين موقف أمريكا التى تمضى كثيرًا من وقتها فى مواقع المتفرجين على الصراع الفلسطينى الإسرائيلى فى حين تندفع إلى إنفاق مئات المليارات من الدولارات على الحرب فى العراق، أحدث قلقًا كبيرًا فى كثير من أنحاء العالم العربى، وبالتالى فكما أظهرت استطلاعات الرأى الإقليمية الأخيرة فإن الشعور

بالارتياح إزاء نوايانا والثقة فى نزاهتنا أصبح منخفضًا بشدة، وهذا القلق إزاء النوايا الأمريكية ليس مقصورًا على العالم الإسلامى فحسب، حيث تكشف التقارير الصحفية واستطلاعات الرأى التى تم إجراؤها فى أوروبا وروسيا وأنحاء أخرى من العالم وجود نفس التساؤلات فى أذهان الناس.

لو كانت للولايات المتحدة قد استطاعت إثبات التزامها الحقيقى بتنفيذ خطة ناجحة للسلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، خطة عادلة بالنسبة للاحتياجات والطموحات بعيدة المدى لأغلبية كبيرة من الجانبين، لشكل هذا نقطة تحول كبيرة فى موقف العالم الإسلامى تجاهنا. يعتقد الكثيرون على جانبى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى أننا لو استثمرنا نفس الجهد والوقت والموارد المالية التى أنفقت على الحرب فى العراق فى عملية السلام فى الشرق الأوسط، لاستطعنا حل الصراع وإنقاذ حياة عدد غفير من الناس.

إن أهم ما فى الموضوع، بالنسبة لأكثر ما يشغل الولايات المتحدة ـ مثل تعزيز الأمن الأمريكى وتقليل الإرهاب واستقرار الاقتصاد العالمى ـ أن فوائد الاستثمار فى السلام ترجح بشدة فوائد الاستثمار فى الحرب.

إننا لم نحصل على أى احترام!

تجسد الشكوى التى تحمل توقيع الكوميديان رودنى دانجرفيلد جيدًا الطريقة التى يشعر المسلمون بها تجاه معاملة وسائل الإعلام الغربى بوجه عام والإعلام الأمريكى بوجه خاص لهم، نعرف جميعًا كم يكون مزعجًا أن يصر الزوج أو أحد الأبوين على تفسير ما نعنيه بالفعل للآخرين بدلاً مما نقوله. وهذه هى شكوى المسلمين، إذ ينظر المسلمون إلى الإعلام الأمريكى على أنه مثل الزوج أو أحد الأبوين الذى لا يسمع ما يقوله شريكه أو طفله، وبالطبع، فإن الأمريكيين لديهم نفس الشعور إزاء ما يصوره تليفزيون الجزيرة عنهم.

وتبين تجربتى الشخصية مع وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى، خصوصًا منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر، أن إظهار صورة الإسلام والمسلمين كمعتدلين تأتى

فى آخر أولويتها. كانت أول تجربة لى قبل أسابيع قليلة من بدء الولايات المتحدة لحربها على أفغانستان. سعى شيخ مسلم كان يعمل فى القوات المسلحة الأمريكية للحصول على فتوى حول حكم مشاركة المسلمين الذين يؤدون الخدمة العسكرية فى العمليات الحربية ضد أفغانستان؛ حيث إنهم سيحاربون إخوانهم من المسلمين، أصدر الشيخ يوسف القرضاوى الفتوى ووقع عليها أربعة غيره فى ٢٧ سبتمبر عام ٢٠٠١م، قائلاً إنه وفقًا للشريعة الإسلامية فإن أحداث الحادى عشر من سبتمبر تعد أعمالاً إرهابية، وإن القائمين بها ينبغى أن يقدموا إلى العدالة وبالتالى من واجب السائلين أن يتصرفوا وفق هذا. ولقد دعتنى صحيفة نيويورك تايمز للتعليق على هذه الفتوى، وأوصيت بشدة بنشر هذه الفتوى حيث كان للصحيفة عندئذ ملحق خاص أسمته «أمة تواجه تحديًا»، كانت الفتوى ستعد موضوعًا قيمًا للقراء من قبل قراء التايمز من المسلمين وغير المسلمين على السواء، وكانت ستساعد على تضخيم الصوت المسلم المعتدل. ولكن لسوء الحظ لم تنشر الفتوى، كما دفن المقال الذى يتحدث عنها فى نهاية إحدى الصفحات الداخلية للجريدة.

وكانت آخر تجاربى فى هذا المجال فى ديسمبر ٢٠٠٣ م، فبعد العمل لعدة أشهر فى مبادرة لتشجيع الحكومة والقيادة الأمريكية على القيام بدور أكثر فعالية فى الوساطة للوصول إلى اتفاقية سلام بين إسرائيل وفلسطين، عمل عدد من رجال الدين الأمريكيين الذين يمثلون الديانات الإبراهيمية معًا لحث حكومتنا على أن تكون سباقة بدرجة أكبر وتم تنظيم مقابلة مع صحيفة **واشنطن بوست**، وجرى ترشيحى لأمثل الموقف الإسلامى والانضمام إلى ثلاثة من رجال الدين هم الأب مارك هانسون رئيس الأساقفة فى الكنيسة اللوثرية الإنجيلية فى أمريكا ممثلاً للمسيحية البروتستانتية، ورئيس أساقفة واشنطن الكردينال ثيودور مكاريك ممثلاً للمسيحية الكاثوليكية، والحاخام پول منيتوف نائب الرئيس التنفيذى للمؤتمر المركزى لحاخامات أمريكا ممثلاً لليهودية؛ ولدهشة جميع المشاركين هذا العمل ، أن المقال الذى نشر تحت عنوان «رجال الدين يحثون البيت الأبيض على بذل مزيد من الجهد من أجل عملية السلام فى الشرق الأوسط»[٥٤] اقتبس تعليقات كل رجال الدين عداى، فهل هناك بعدئذ أى مجال للتعجب من أن يكون الانطباع العام لدى المسلمين هو أن الإعلام الأمريكى لا يهتم

بالاعتراف بالمسلمين كمعتدلين؟ وهل هناك أى عجب من أن يوجه للمسلمين دائمًا تساؤل غاضب يقول «أين الصوت الإسلامى المعتدل؟».

يذكرنا الراحل إدوارد سعيد (وهو مسيحى أسقفى عربى وليس مسلمًا)، فى ملاحظاته الثاقبة، أن دراسة المجتمعات الإنسانية ليست كدراسة الجمادات(٥٥). فالناس تستجيب دائمًا للأسلوب الذى يعاملون به ويُنظر إليهم به، ولقد دأب العالم الغربى لفترة طويلة على ازدراء العالم العربى (الذى يمثل المسيحيون فيه نسبة ١٥ فى المائة) والعالم الإسلامى، فعندما نعامل الناس باحترام فإن رد فعلهم يكون مماثلاً وأما عندما نعاملهم بمهانة فإنهم يستجيبون بنفس الأسلوب.

أصبحت أمريكا القوة العظمى منذ الحرب العالمية الثانية، وشكل النفط والمصالح الاقتصادية والسياسية والأمنية الأخرى التى حددتها الحرب الباردة الانخراط الأمريكى فى العالم الإسلامى، ومنذ وقت الحرب العالمية الثانية اعتلت الولايات المتحدة مكانة السيادة والسلطة فى العالم العربى التى كانت قد احتلتها فرنسا وبريطانيا من قبل، فصارت القوة والهيمنة الأمريكية هى التى تسيطر على العالمين العربى والإسلامى فى الوقت الحاضر، فى حين لا يعلم الأمريكيون سوى القليل عن مشاعر المسلمين والتفاصيل الإنسانية لحياتهم، فتقتصر التغطية الإعلامية الأمريكية فى العالم الإسلامى عادة على النقاط المتقاطعة مع المصالح الأمريكية القوية، وأصبحت وسائل الإعلام عندما تنظر إلى العالم الإسلامى فإنها تراه كشاب ينظر إلى امرأة جذابة يريد منها شيئًا ما.

تبدأ الدراسة الإنسانية لأى موضوع بفكرة أن كل المعلومات ما هى إلا تفسير، وأن هذا التفسير، إذا كان المطلوب فيه أن يكون يقظًا ومؤديًا إلى فهم صحيح للحقيقة، فيجب أن يكون مدركًا لذاته ولأساليبه ولأهدافه، ولكن توجيه كل تفسير للثقافات الأخرى - خاصة الإسلام - خيار يواجه كل عالم ومفكر «ما إذا كان الفكر يوضع فى خدمة القوة أو فى خدمة النقد والمجتمع والحوار والحس الأخلاقى»(٥٦). استمرارًا للقياس على علاقة الرجل والمرأة، هل يقترب الرجل من المرأة بنية إقامة علاقات احترام متبادلة أم أنه يريد أن يستغلها لأغراضه الخاصة؟ ففى نظر المسلمين، بدأ العلماء الغربيون مؤخرًا فقط فى البدء فى مخاطبة العالم الإسلامى بنية إجراء حوار قائم على

أساس المساواة والاحترام بدلاً من استخدامه لاستغلاله والإساءة إليه وفرض القوة والسيطرة كما كان الحال فى الماضى.

يجب أن تبدأ أى جهود لرأب الصدع بين أمريكا والعالم الإسلامى بالدافع الصائب؛ وذلك لأن العلاقة بين العالم الغربى والإسلامى متأثرة بشكل كبير بالهيمنة والسلطة الغربية على العالم الإسلامى، ويجب أن يعتمد خيارنا للحوار والقيم الأخلاقية على جهودنا فى التفسير، وكما يشير سعيد، فإن تاريخ معرفة الغرب بالإسلام ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالغزو والسيطرة، ولكن «حان الآن الوقت لقطع هذه الروابط بشكل كامل. . . وإلا فإننا لن نواجه توترًا مديدًا وربما حربًا فحسب، بل سنقدم للعالم الإسلامى، بمجتمعاته ودوله المختلفة، احتمالات لوقوع حروب عديدة ومآسى تفوق الخيال وثورات مدمرة، لن يكون أقلها هو انتصار «إسلام» على أتم الاستعداد للقيام بالدور المعد له عن طريق رد الفعل والتزمت واليأس[٥٧].

أمريكا لديها طابع مميز من التقوقع ربما يكون نتيجة لموقعها الجغرافى وميولها الانعزالية القوية. جاء قريب بعيد لى من مصر فى الستينيات لعمل دراسات الدكتوراه فى جامعة پوردو بولاية إنديانا، وركب ذات مرة حافلة فى مدينة لافاييت وبدأ حديثًا مع راكب أمريكى محلى ودود لاحظ أن ابن عمى يتحدث بلكنة مختلفة، فسأله: «من أين؟»، فأجاب ابن عمى من «الشرق الأوسط». فاندفع قائلاً بحيرة تامة: «الشرق الأوسط؟ أين يقع هذا؟ كل ما أعرفه هو الغرب الأوسط!».

يتضح من هذه القصة أن الإعلام الأمريكى يلعب دورًا واضحًا فى رسم صورة العالم الإسلامى التى تنطبع فى عقول الأمريكيين، وهى لم تكن صورة جميلة. لقد دفعت العامة فى أمريكا وأوروپا اليوم إلى جعل كلمة «إسلام» تشمل كل ما لا يوافق عليه المرء من منظور العقلانية المتحضرة الغربية[٥٨]. إن وصف الدول الموردة للنفط بأنها «تمسك بأمريكا رهينة النفط» طريقة غريبة حقًا لوصف النهم الأمريكى فى الحصول على منتج يملكه الغير[٥٩]، ويشبه هذا فى مسامع المسلمين اتهام ماكدونالدز بجعلنا رهينة شهيتنا لتناول الهمبورجر.

لا يمكن للإعلام الأمريكى أن يفصل نفسه عن الثقافة الأمريكية والاحتياجات السياسية الأمريكية (وهذا يصدق بالنسبة لأى إعلام فى أى بلد فى العالم). حيث تقرر

وسائل الإعلام ما يشكل أخباراً وكيف، وتقوم بذلك طواعية وليس بدافع مؤامرة، بل انبثاقًا من الثقافة، فهى «متجاوبة مع ماهيتنا ورغبتنا»[٦٠]؛ فلو تقبلنا هذا على أنه صحيح، فإنه يشير إلى استنتاج مثير وهو: **« إذا، ومتى دفعت رغبة حقيقية الأمريكيين إلى إقامة علاقات إيجابية بين أمريكا والمسلمين»**، فإن التغطية الإعلامية سوف تتوافق مع هذه الحاجة.

يعتقد المسلمون أن الإعلام الأمريكى مناوئ لهم بوجه خاص؛ وذلك لأنهم يشاهدون صورتهم وقد رسمها غيرهم ممن لم يشاوروهم حول الطريقة التى يرون بها أنفسهم، إن المتخصصين على شاشة التليفزيون الذين يفسرون لعامة الأمريكيين لماذا يتصرف المسلمون بالطريقة التى يتصرفون بها، يجعلون المسلمين يشعرون بأنهم مثل سمكة ذهبية فى حوض تجرى دراستها من خارج الحائط الزجاجى للحوض، ورغم أنهم قد يتوصلون إلى ملاحظات دقيقة وشاملة عن المسلمين وهم داخل حوض السمك، إلا أنهم نادراً ما يسألون أنفسهم ولا يحاولون مطلقًا اكتشاف الشعور الذى ينتاب المسلم أو ما يثيره وجود مراقبين له من مشاعر لديه. ونادراً ما يتساءلون إذا ما كان المسلمون يتصرفون تصرف «المسلمين»، وإذا ما كانت استجابة ما هى استجابة إسلامية تحديداً، أو ما إذا كان السلوك طبيعيًا بالنسبة للبشر، أو أنه نفس رد فعل أى شخص إذا وقع فى نفس الموقف. ويمكن قول الشيء نفسه عن صورة الأمريكيين التى ينقلها الإعلام فى الشرق الأوسط، الصورة التى تحمل القليل من التشابه مع نظرة الأمريكيين لأنفسهم، فعلى سبيل المثال، من الخطأ أن يعتبر العالم الإسلامى كل ما يحدث فى الولايات المتحدة يعكس القيم المسيحية.

يكمن جزء من المشكلة فى عجزنا البشرى عن رؤية الآخر إلا من خلال عدسات خبراتنا الشخصية واختيارنا للغتنا، وعندما نصوغ المشكلة باعتبارها «الغرب ضد الإسلام» فإننا نقارن منطقة من العالم بدين بدلاً من مقارنة أحد الأديان بآخر أو أحد تفسيرات الدين بتفسير آخر. وتكون النتيجة هى أن يجد العالم الإسلامى نفسه فى موقف الدفاع ليس عن طموحاته السياسية والاقتصادية فحسب ولكن بين الحين والآخر عن دور الدين فى المجتمع، وحتى التفسيرات والمواقف المختلفة تجاه الدين فى المجتمع أيضًا.

تؤدى هذه الملاحظة إلى رؤية متبصرة بأنه نظراً لأن الغرب يعتبر معظم ما حققه من تقدم يرجع إلى فصل الدين عن الدولة، فإنه يربط التخلف المستمر للمسلمين بالدين، وهو الإسلام فى هذه الحالة، فتعتبر جميع المشاكل الاجتماعية أو السياسية فى العالم الإسلامى مشكلات دينية وليست سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهكذا يكون لدينا «الأزمة الإسلامية» و«الصحوة الإسلامية» و«الغضب الإسلامى».

هناك مثل أمريكى محلى ينصحنا بعدم انتقاد الآخرين حتى نسير ونحن نلبس حذاءهم مسافة ميل واحد. وما يريده المسلمون من غيرهم هو أن يمشوا هذا الميل الوارد فى المثل وهم يلبسون حذاء المسلمين. فى أعقاب الحادى عشر من سبتمبر، شد انتباهى بند فى الأخبار صور عدداً من الأمريكيات اللاتى قررن لبس الحجاب لمدة يوم واحد لمعرفة رد فعل الناس تجاههن، كطريقة للتعرف على التجربة الإسلامية. وفهمت أنها تجربة لكشف الحقيقة بالنسبة لهن. وفى حين بدأ بعضهن فى فهم شعور المسلمات نتيجة تعامل الناس معهن من منطلق الشك أو الخوف، أحببت أخريات ـ اشتركن فى التجربة ـ ما يحققه الزى الإسلامى المحتشم من حمايتهن من أعين الرجال الساعية لمغازلة النساء؛ وفى صورة أخرى، توصلت نساء من غير المسلمات إلى أن تغطية الجسد ـ إذا كانت طواعية تمامًا ـ تقوى المرأة من خلال الترفع عن الموضة والمظهر والهيئة، فالنساء بهذا يتم تقديرهن بالمظهر والجسد بناءً على ذكائهن وشخصياتهن وأدائهن.

أكثر ما حظى بتقديرى فى هذه المبادرة هو أنها محاولة لفهم الإسلام من الداخل، إن استمرار وسائل الإعلام الأمريكية فى جعل الأمريكيين يساوون الإسلام بمعاداة أمريكا والإرهاب وأسلوب الحياة الذى يناقض قيمنا المتأصلة سيلحق بأمريكا أذى عظيمًا، كذلك تفعل السياسات الأمريكية التى تغذى بناء صورة خاطئة من قبل وسائل الإعلام الإسلامية تجعل من القيم الأمريكية قيمًا معادية للإسلام بشكل أساسى.

إن المطلوب الآن هو الوصول لمستوى جديد من حوار الأديان بين وسائل الإعلام فى العالمين الغربى والإسلامى لتغيير الخطاب من «انظروا كيف أنتم سيئون» إلى «انظروا إلى ما يمكن أن نحققه معًا»، وهى لهجة تعلم وتمكن الشعوب وتسمو بها خاصة قادة الرأى من الجانبين، لفهم قضايا الجانب الآخر وللمساعدة فى بناء التجانس بين الطرفين.

هل «الأمة» شعب أم جغرافيا؟

تاريخيّا، حدّد الناس أنفسهم كأمم طبقا للقبيلة واللغة والثقافة والتقاليد والدين. وكانت الجغرافيا جزءًا من هذا التعريف لكن نادرا ما كان التعريف، الرئيسى أو الوحيد. فكان التطور الطبيعى والعضو هو أن الفرد جزء من أسرة ثم من عشيرة ثم من قبيلة ثم من أمة.

بدأ بعض جماعات من الناس، فى مرحلة من المراحل، فى التفكير فى الأمة على أنها تدور فى المقام الأول حول الجغرافيا وطابقوا بين هويتهم والأرض، فلا يمكنك أن تعيش فى إقليم جغرافى بعينه إلا إذا كنت تنتمى إلى جماعة معينة من الناس تشترك فى اللغة والمظهر العرقى والقبيلة وتمتلك تلك الأرض التى تعرف على أنها دولة قومية أو بلد. ويمكنك أن ترى كيف شرعت هذه الفكرة تبذر بذور الصراع بين الناس النابع من الملكية المستندة على أى معلم من معالم تحديد الهوية، والنتيجة الطبيعية هى أنك لن تدرج فى هذه الجماعة إلا إذا تخليت عن جزء من حقوقك الثابتة لصالح هويتك.

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، قسمت بريطانيا وروسيا وفرنسا الإمبراطورية العثمانية وخلقت هويات قومية جديدة على أساس الجغرافيا. وتم تثبيت وضع الحدود الإقليمية، التى كانت متداخلة من قبل، ولم تقم دائمًا على أساس الاختلافات الإقليمية فى الثقافة والدين، ونشأت هويات قومية جديدة وفق الحدود الجغرافية. كما انقسمت بعض المجتمعات التى كانت قائمة منذ أمد بعيد، وبدأت وظلت تغذى المقاومة الضارية للتعددية فى هذه المجتمعات التى كانت تعيش حتى ذلك الوقت معًا فى نفس الموقع الجغرافى.

فعلى سبيل المثال، فى المنطقة التى تجاور فيها إيران كل من آسيا الوسطى والهند، جاور الإيرانيون الذين يتحدثون الفارسية واختلطوا بالسكان المتحدثين باللغة الأوزبكية وبلغة الباشتو. وتم رسم الإقليم المسمى أفغانستان على الخريطة فاصلاً الأوزبكستانيين الموجودين داخل حدوده عن مواطنيهم خارجه أى فى أوزبكستان، كما فصلت الهزارة الشيعة الذين يتحدثون الفارسية عن أقرانهم فى إيران، كذا انفصل الباشتون الذين يتحدثون لغة الباشتو عن الباشتون فى پاكستان التى كانت يومًا من الأيام مقاطعة فى

الهند، فكيف يقنع شخص الثلاث جماعات بدمج هوياتهم فى هوية شاملة قائمة على الجغرافيا؟ كيف يتوقع أن يرتبطوا بتقاليدهم الأوزبكستانية والباشتوية والهزارية التى انفصلوا عنها؟

والعراق «أمة» أخرى أوجدتها خطوط قسمت مجتمعات أجزاء منفصلة، وكان الأكراد فى هذه الحالة هم الخاسرون. فبدلاً من إنشاء دولة كردستان، انقسم الأكراد بين العراق وإيران وتركيا، رغم وجود هوية ثقافية وعرقية قوية لهم. ولم يبال مطلقًا المسئولون عن هذا، وهم البريطانيون، بكيف يجد للأكراد الذين فصلتهم حدود صناعية عن شعبهم لأنفسهم هوية وسط الهوية التركية أو العراقية الجديدة التى بها آخرون يتحدثون لغة مختلفة، أو يتبعون مذهبًا مختلفًا هو الشيعة فى حين أنهم سنة، وهذا من بين التحديات التى تواجه الولايات المتحدة اليوم وهم يحاولون صك نظام جديد فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى.

تخيل لو أنه فى نهاية الحرب العالمية الأولى أزالت معاهدة ڤرساى الحدود بين ألمانيا والنمسا من على الخريطة ومنحت ذلك الإقليم إلى البلدان المجاورة، لأصبح قطاع من الألمان جزءًا من پولندا وقطاع آخر جزءًا من فرنسا وقطاع ثالث جزءًا من هولندا وقطاع جزءًا من إيطاليا. ودعنا نمضى أكثر لنفترض أن هذا التقسيم قد أوقع عددًا كبيرًا من الألمان الكاثوليك تحت حكم الهولنديين البروتستانت، وأن الڤاتيكان فى روما أصبح قلقًا إزاء وضع الكاثوليك الذين يعانون جراء «اضطهاد البروتستانت»، فهل سيدعو للدهشة إذا ثارت هذه «الأمة» ذات الهوية التيوتونية القوية عسكريًا فى فرنسا من أجل الحصول على أرض تيوتونية ـ أى أرض ألمانية ـ أو هل تبقى إيطاليا على علاقات متميزة مع الكاثوليك الألمان؟ هذا يشبه انقسام الأكراد بين تركيا والعراق، وانقسام الشيعة بين العراق وإيران وأفغانستان.

إن تقسيم الشعوب التى تشكل جزءًا من أمة ولغة وثقافة واحدة وإكراهها على أن تكون جزءًا من هوية أخرى، أو دمجها لتشكيل هويات جديدة وتوقع أن ترسخ جذورها استنادًا إلى الهوية الجغرافية كان هو سبب الصراع فى العالم الإسلامى.

لقد قامت الفكرة الإسلامية الأصلية للأمة على الشعوب وليس على الجغرافيا، فعندما تم فتح فلسطين ومصر خلال عهد الخليفة الثانى عمر ﷺ لم يمنح المسيحيون

واليهود وغيرهم من أهل الديانات الأخرى حرية العبادة فحسب، بل إن عمر دعا سبعين أسرة يهودية للإقامة فى مدينة القدس التى طرد اليهود منها عام ٧٠ ميلاديًّا. من الواضح أن عمر ﷺ لم يفكر أن الجغرافيا تستلزم وحدة الهوية الدينية؛ لأنه أوجد مجتمعًا تعدديًّا دينيًّا، كذلك لم تصبح مصر مجتمع الأغلبية فيه مسلمة إلا بعد ما يربو على خمسمائة سنة من دخول العرب المسلمين.

ومع تأثر المسلمين فى الفترة بين القرن السابع عشر والتاسع عشر أكثر بالأعراف الأوروپية، تبدأ تبزغ فكرة غير طبيعية لتكوين دولة قومية إسلامية « دار الإسلام» استنادًا إلى الجغرافيا - فى الوعى المسلم، وخرجت فى النهاية للوجود فى أغسطس عام ١٩٤٧م فى شبه القارة الهندية عندما تم تقسيم الهند على أساس دينى إلى دولتى الهند وپاكستان، وأثناء هذه العملية أزهقت أرواح مليون نسمة، وبدأ صراع لا يزال مستعرًا حتى الآن بين الدولتين اللتين صارتا الآن قوتين نوويتين.

لقد عاش الهندوس والمسلمون فى الهند لقرون من الزمان، أقل انقسامًا بسبب الدين عما أصبحوا عليه بعد قيام دولة پاكستان، وكانت تعنى كلمة «هندوسى» حتى منتصف القرن العشرين شخصًا من بلاد «الهند» حتى أن كثيرا من الكتابات والخطب فى شبه القارة الهندية استخدمت مصطلح «هندوسى - مسلم» لتعنى المسلم الهندى، غير أن هذا المسمى أصبح الآن مهجورًا. لكن يمكن أن تجد فى الوقت الحالى هندوسًا ومسلمين من غوجارات يتحدثون نفس اللغة وهندوسا ومسلمين كشميريين يتحدثون بنفس اللغة، وما إلى ذلك فى العديد من الولايات والمقاطعات الهندية والپاكستانية. فهل الأفضل للمسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية أن يعيش كل منهما فى دولة قومية دينية أم الأفضل لو استطاعوا الاستمرار فى العيش فى أمة واحدة فى مجتمع متعدد دينيًّا كما كان الحال من ذى قبل؟ وأى أنموذج أكثر انسجامًا مع ملة إبراهيم ومؤكدًا للأخلاق الإسلامية والإنسانية؟

وخلق دولة قومية دينية ساهمت فى نشوب صراع عالمى مؤلم، هو خلق دولة إسرائيل فى ١٩٤٨م. كان يعيش اليهود حتى ذاك الوقت فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، من المغرب غربًا إلى أفغانستان وأوزبكستان شرقًا ومن تركيا والبلقان إلى اليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة العربية، وكانت المجتمعات اليهودية

الرئيسية متركزة فى مصر وسوريا والعراق وإيران وتركيا ، مراكز الثقافة الإسلامية خلال المراحل المختلفة من التاريخ الإسلامى. كما جعلت حياتهم فى هذه المناطق لعدة قرون من الزمان يبدون ويتحدثون ويأكلون، بل وربما يتغنون كباقى من يعيش حولهم، بيد أن طقوسهم الدينية ظلت يهودية وليست مسيحية أو إسلامية. أوجد قيام دولة إسرائيل وأسلوب قيامها، أسوأ شقاق بين اليهود والمسلمين الذين كانت تربطهم مع بعضهم البعض حتى ذلك الحين علاقة حميمة عبر معظم فترات تاريخهم.

إن إسرائيل، فى أعين غير الأوروبيين، صناعة أوروبية ونتاج ثانوى لفكرة الدولة القومية، ونتيجة لهذا الصراع وقيام دولة إسرائيل، تعرض اليهود السفارديم مع الأسف للاضطهاد فى العديد من المجتمعات الإسلامية، ولم يقتصر ضرر هذا الوضع المؤسف على المجتمعات اليهودية فحسب، بل امتد أيضًا للمجتمعات الإسلامية التى أصبحت بفقدها للمواطنين اليهود مجتمعات أقل تعددية. تخيل لو أن الغالبية العظمى من اليهود الأمريكيين هاجروا من الولايات المتحدة لإسرائيل عقب عام ١٩٤٨م مباشرة، ألم تكن أمريكا لتعانى خسارة فادحة؟ فقد شكل الوجود القوى لليهود الأمريكيين تاريخيًا بصورة عميقة الفهم الأمريكى العميق للحريات المدنية، كما ساهم فى الثقافة الأمريكية والتعليم والاقتصاد الأمريكيين.

كانت مصر أيضًا حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين مجتمعًا تعدديًا، لا يشتمل على الطوائف القبطية واليهودية القديمة فحسب، بل وبه كذلك جاليات يونانية وإيطالية كبيرة حافظت على هوياتها الثقافية واللغوية اليونانية والإيطالية، ولكن لسوء الحظ أمسى هذا التنوع جزءًا من الماضى؛ نستطيع أن نفهم بشكل أفضل كيف حدث هذا لو افترضنا مرة أخرى أن اليهود الأمريكيين تركوا البلاد فى عام ١٩٤٨م. فهل كانت أمريكا ستظل مجتمعًا تعدديًا أم أن الأخلاق المسيحية المتحزبة بقوة هى التى ستحدد هويتها بشكل أكثر حدة؟ . يرى البعض أنه من الأفضل لليهود والمسلمين أن يعيشوا منفصلين عن بعضهم البعض، لكنى أعتقد أن نموذج الولايات المتحدة يبين دون أدنى شك أن المجتمعات تغدو أكثر صحة بتطورها تجاه التعددية المتنامية. وتعزز اقتصاداتها من خلال المشاركة المتكافئة لجميع الناس الذين يعيشون معًا على نفس الأرض.

لن أنسى مطلقًا فى عام ١٩٧٣م عندما صاحبت رجل الأعمال المصرى الشهير أحمد أبو شقرة مؤسس سلسلة محلات الكباب ـ وهى بمثابة سلسلة «كولونيل ساندرز» فى الشرق الأوسط ـ بعد تخرجى من الجامعة خلال بحثه عن رفيق طفولته ألبرت مزراحى فى كل أنحاء البلاد. كان أبو شقرة مسلمًا متدينًا، بينما كان مزراحى يهوديًا مصريًا، وأخيرًا التقى الرجلان فى مدينة كانسس، ورحب كل منهما بالآخر بالحب والود ودموع الفرح وكأنهما أخوين التقيا بعد طول فراق. أخبرنى مسلمون فلسطينيون من جيل أبى أنه عندما كانوا أطفالاً اعتاد آباؤهم على توبيخهم إذا لم يقبلوا أيدى الحاخامات، بدافع الاحترام، كما كانوا يفعلون مع الرهبان والأئمة. يأمل الكثيرون أن يرد السلام الحقيقى بين إسرائيل وفلسطين مثل هذا الاحترام المتبادل مرة أخرى؛ ولأن العديد من المسلمين فى العالم الإسلامى لم يعودوا يعيشون من اليهود أو يعرفونهم معرفة شخصية، فهل من العجيب أن يتزايد التوتر بين المجتمعات الدينية على هذا النحو البغيض؟

بالإضافة إلى هذا، فإن الاستعمار الأوروبى، كما ناقشنا فى مقدمة هذا الكتاب، أوجد ما أسماه أستاذ السياسة بجامعة هارڤارد صمويل هنتنجتون «المجتمع الممزق»، وهو مجتمع قاده تقليديون من الناحية العرقية لكنهم ينتمون للشعوب الاستعمارية فكريًا، وهناك مثالان لهذا فى العالم الإسلامى هما كمال أتاتورك فى تركيا والشاه فى إيران. كان أتاتورك جنرالاً تركيًا وبطلاً عسكريًا، أنهى فى عام ١٩٢٤م الخلافة العثمانية التى كان مقرها فى إسطنبول، ولا تزال تداعيات هذه الفاجعة مؤثرة على الكثيرين فى المجتمع الإسلامى، وهذا ما عناه أسامة بن لادن فى أحد أشرطته المسجلة عندما أشار إلى إهانة وقعت منذ ثمانين عامًا، وهى الإشارة التى أربكت العديد من الأمريكيين.

وطبقًا للغة هنتنجتون، فإن أتاتورك والشاه مزق كل منهما مجتمعه، فكانت عقليتهما أوروبية وحاولا تحويل مجتمعاتهما طبقًا للصورة الغربية قسرًا؛ ومع نهاية الاستعمار فى مطلع النصف الأول من القرن العشرين وقيام أنظمة علمانية متشددة فى العواصم الإسلامية الكبرى فى تركيا ومصر وإيران، وجد المسلمون أنفسهم تحت حكم حكام علمانيين غير منتخبين أرغموا شعوبهم على تقليد الغرب، بطريقة سخيفة فى

بعض الأحيان، فأرغم كمال أتاتورك الأتراك على تغيير ملابسهم إلى الملابس الغربية وارتداء القبعة بدلاً من الطربوش، وفى الثلاثينيات، سمح شاه إيران للشرطة باستخدام الحراب لإكراه النساء على خلع الحجاب (الشادور).

ربما يتساءل الأمريكيون لماذا كل هذه الأهمية لهذه النقطة، تذكر أننا فى الولايات المتحدة الأمريكية لا نجبر حتى أطفالنا البتة على ارتداء الزى المدرسى الرسمى فى مدارسنا العامة، كما يتسع لهم صدورنا بكل حب عندما يصرون على إنفاق الكثير من الأموال على شراء الأحذية ذات الماركات المعروفة التى تصدر ومضات. ولكى نفهم ما فعله أتاتورك بإنهائه الخلافة العثمانية، تخيل أن موسولينى قضى على البابوية وحول الفاتيكان إلى متحف، كيف يكون شعورك لو كنت كاثوليكيّا؟ تخيل أن رئيسًا أمريكيّا مولعًا بالثقافة الفرنسية أمر الحرس الوطنى أن يجبر النساء الأمريكيات على شواطئ فلوريدا على خلع الجزء العلوى من بدلة السباحة (البيكينى) بداعى «المدنية»، كيف يكون شعورك إذا كنت معمدانيّا أو يهوديّا؟ ألن يعتبر المعمدانيون الجنوبيون هذا بمثابة انزلاق إلى اللاأخلاقية، كما رأى رجال الدين الإيرانيون ذلك فى أفعال الشاه؟

على النقيض من أتاتورك والشاه، كان مهاتما غاندى نموذجًا شهيرًا تربى وسط تقاليد المستعمر لكنه لم يدر ظهره لتقاليد بلاده، فعقب عودته إلى الهند، فعل العكس تمامًا حيث خلع الرداء الغربى وعرف كيف يفصل بين هوية المستعمر وكيف يدافع عن كرامة هويته الوطنية، وجعلها على قدم وساق مع الهوية الأجنبية على نحو حاز على تقدير الناس على الجانبين، كما عارض فكرة تقسيم الهند إلى الهند وباكستان، وهو موقف يتوافق مع ملة إبراهيم؛ كذلك وقف فى وجه الظلم الاجتماعى لنظام الطوائف الهندوسية وعامل المسلمين على أنهم إخوة وأخوات، مرة أخرى فى تناغم مع ملة إبراهيم. فأى هذه النماذج أظهر التاريخ أنها أكثر تجانسًا مع التقاليد والطموحات الوطنية وأكثر إثارة للإعجاب فى نهاية الأمر حتى فى الغرب؟

إن الحقيقة لا تتعلق فقط بالوقائع، ولكن تعتمد أكثر على كيفية إدراكنا لتلك الوقائع حيث إن ما نراه حقيقة يكون فى الغالب هو تحليلنا الخاص للوقائع، الفهم الذى تشكله قيم متأصلة فى اللاوعى لا ننتبه إليها غالبًا. وعادة لا نرى الحقيقة التى يبصرها الجانب الآخر إلا إذا فتح شبيه لها فى بيئتنا الخاصة أعيننا عليها.

الفصـــل الخـامس

كلنا تاريخ

يشكل تاريخنا الطريقة التى نستمر فى التصرف بها، وبالتالى مستقبلنا، ومن المهم أن نعى أحداث الماضى لأنها لا تزال تحدد مواقف الناس وآراءهم فى العالم فى الوقت الحاضر؛ فعلى سبيل المثال، يستحيل فهم تخوف الإيرانيين من الولايات المتحدة دون الأخذ فى الاعتبار إطاحة وكالة المخابرات المركزية برئيس الوزراء محمد مصدق الذى انتخبه الشعب عام ١٩٥٣م[١]؛ لذا فبتجاهل التاريخ نظل واقعين فى تصرفات شرك الماضى.

ومع ذلك، فإن التاريخ - كما أشار المؤرخ الإسلامى العظيم ابن خلدون (١٣٣٢-١٣٨٢م) - أكثر من مجرد «معلومات عن الأحداث السياسية والأسر الحاكمة وأحداث الماضى السحيق مقدمة بأناقة ومطعمة بالأمثال»، حيث يقول: «إن المعنى العميق للتاريخ . . . يتضمن التأمل ومحاولة الوصول للحقيقة ولتفسير دقيق لأسباب الأشياء الموجودة ومصادرها، ولمعرفة متعمقة بكيفية حدوث الوقائع وأسبابها»؛ وكما يقول ابن خلدون، فإن التاريخ يشبه الفلسفة بدرجة كبيرة، وبالتالى فإنه «جدير بأن يعتبر فرعًا من فروعها»[٢]. ومن ثم فإننا لا نلقى فى هذا الفصل نظرة على تاريخنا فحسب بل على معناه - وكيف أدى تباين وجهة نظر العالم الإسلامى والغربى إلى التاريخ إلى نهج مسارات مختلفة فى مجتمعاتنا.

فلنأخذ، على سبيل المثال، وجهة نظر الأديان والفلسفات المتنوعة الرئيسية للتاريخ، وهنا أود أن ألقى نظرة سريعة على وجهات نظر الهندوس (كممثل للشرق

الأقصى) والرؤية الملحدة، والأديان الإبراهيمية للتاريخ؛ حيث إن مقارنة هذه الرؤى شديدة التباين ستساعدنا فى إلقاء الضوء على أوجه الاختلاف والتشابه على حد سواء بين وجهتى النظر الغربية والشرقية للعالم، وربما تساعد الناس حسنى النية فى جميع المعتقدات المختلفة على تفهم ما يحفز الآخرين على العمل، وإننى أدين بالفضل فى وجهة النظر هذه العامة للأستاذ الراحل ويلفرد كانتويل سميث، خاصة فى كتابه **الإسلام فى التاريخ الحديث**(٣).

إن العالم فى وجهة النظر الهندوسية - حسبما يقول سميث - وجميع أنشطته عبارة عن «مايا - maya»، أى ستار وهمى لا معنى له يمكن للبصيرة الدينية القويمة النفاذ من خلاله. كما يمكن السمو على الدورة السرمدية اللانهائية للمولد والموت والمولد مرة ثانية، والتى تسمى «سمسارا - samsara» لذا فإن التاريخ هو مجموع أعمالنا الفردية التى تنتهى تبعًا لعقيدة «كارما - karma» بالتأثير المتراكم على أرواحنا. ويكمن الخلاص عند الهندوس فى الانعتاق من «سمسارا»، الانعتاق من التاريخ عن طريق إيجاد النوع الصحيح من الكارما وذلك من خلال تهذيب السلوك حتى لا نضطر إلى الاستمرار فى إعادة التناسخ فى دورة المعاناة البشرية هذه(٤).

أما رؤية وجهة نظر الملحدين فهى على النقيض من هذا. حيث يؤكد الملحدون أن أى أفكار عن الله أو عن حياة أخرى بعد هذه الحياة وهم، كثيراً ما يتخذها الضعفاء جسديًا وعقليًا عكازًا لهم. ويقتصر اهتمام الملحدين على هذه الدنيا فقط حيث يرون أن «لا معنى ولا قيمة ولا حقيقة لحياة البشر سوى معناها كبند فى العملية التاريخية المستمرة»(٥)، وتكمن أهمية الإنسان فى مجرد كونه وسيلة لتحقيق غاية فى هذا التاريخ. كما أن ما يدفع الملحدين هو تشكيل التاريخ وفقًا للمصالح الذاتية الإنسانية الرشيدة فقط بغير مرجع للأخلاقيات التى أوحى بها الله.

تتخذ الديانات الإبراهيمية موقعًا وسطًا بين هاتين الرؤيتين؛ حيث إن التاريخ بالنسبة لها أمر أساسى لكن ليس كذلك على وجه الحصر. فيرى المسيحيون أن دور الله فى التاريخ كان حاسمًا، ويلقى كلٌّ من الصليب وصلب المسيح الضوء على حب الله وشر البشر الخبيث؛ لذا فإن واجب المسيحيين هو محاولة إنقاذ العالم، حتى وإن

كرسوا حياتهم لتحقيق ذلك، مع تقبل احتمال الفشل بهدوء؛ إن العالم يعج بالخطيئة؛ لذا هيا نحاول تحسينه؛ لأن خيريتنا تكمن فى حبنا لأعدائنا آملين فى تغييرهم، فإذا لم يتغيروا، نحاول أن نتسم بالعفو، وليكن هذا حالنا حتى لو وافتنا المنية دون ذلك. إذن فالتاريخ هو ميدان سعى المسيحيين القائم على الحب كغاية إلهية، وهكذا تنبع الأخلاق من الخلاص لا أن تصب فيه. وبالتالى فإن مقدار الإخلاص والود الذى نظهره فى حبنا هو أفضل ما يحدد أهمية العملية التاريخية فى الرؤية المسيحية وليس فكرة التقدم الاجتماعى ولا مقدار ما أنجزناه.

وفى وجهة النظر السامية (اليهودية والإسلامية)، فإن كلمة الله الخالدة هى أمر ملزم، ليس ككيان لكن كقانون[٦]؛ لذا فشغل الشريعة الإسلامية هو توضيح هذه الأوامر الملزمة المتجسدة فى القرآن والسنة النبوية، ويعنى هذا أنه يجب على المسلمين التمسك بالشريعة وجعلها تحيا بيننا؛ ولهذا فإن النظام الاجتماعى وأنشطته هما التعبير فى شكل عملى عن الإيمان الشخصى للمسلمين، تمامًا بقدر تعبير الشعائر الدينية التى تصف كيفية عبادة الناس لله عن ذلك. والخلاص عند المسلمين بدون شك يتم بالإيمان، ولكن الإيمان وحده دون عمل لا يكفى حيث يجب إتمام الإيمان وإظهاره بالعمل الصالح؛ لذا فإن المثل الأعلى للمسلمين هو صياغة التاريخ طبقًا لأوامر الله، كما يعتبرون عدم تحقيق هذا إخفاقًا.

إن المسيحيين وهم أتباع دين الابتلاء، لا يعتبرون بشكل عام الانحلال فى الأمور الدنيوية إخفاقًا دينيًا فى حين يراه المسلمون كذلك. فقد ترك المسيح عيسى عليه السلام الأرض فى أجواء من الاضطهاد، واستمر تعرض المسيحيين للاضطهاد من بعده. وعلى العكس من هذا، كما يقول المؤرخ برنارد لويس، فالنبى محمد ﷺ رحل عن هذه الأرض تاركًا قصة نجاح سياسى؛ ولذلك فإن المثل الأعلى للمسلمين، الذين ارتبط تاريخهم المبكر بالنجاح السياسى، ليس فى مجرد الصراع ضد التاريخ بل النضال من أجله وإلى جانبه.

إن الجدير بالذكر أن النيران المتقاطعة لعالم تزداد فيه العولمة أدت إلى توليفات وتغيرات أساسية فى الرؤى السابقة؛ لذا قد يقابل الفرد منا ملحدًا يؤمن بعمق بتناسخ

الأرواح ويتحلى بالأخلاق، أو مسلمًا محافظًا على أداء الشعائر الدينية، لكنه يشعر أن له ملء الحرية فى استغلال الآخرين والتخلص منهم لتحقيق مصلحة شخصية، أو مسيحيًا يؤمن بالعقوبة بدلا من التسامح، ربما يكون هذا التوفيق أمرًا متعمدًا أو وقع عن غير قصد.

التاريخ من منظور القرآن

يؤكد المسلمون أن التاريخ بدأ مع الله وإليه يؤول، وأن سعى الإنسان يجب أن يوجه إلى إصلاح التاريخ ودمج الاستقامة الدنيوية فى هذا العالم مع الخلاص الأبدى والسرمدى فى العالم الآخر. ويبدأ القرآن الكريم التاريخ بآدم وبالجنة المفقودة، عندما خرج آدم من الجنة بسبب عصيانه لله تعالى. ويهدف القرآن إلى وضع البشرية على الطريق الذى يعيدنا إليها، إلى الجنة المستعادة فى الآخرة، وأن نحيا على الأرض حياة التفكير فى عيش الجنة المستعادة، حياة مسلمة لله تعالى وبالتالى تعكس كيفية تصرف البشر مع بعضهم البعض فى دولة كالفردوس؛ كما أن العيش فى حياة تنكر وجود الله تؤدى إلى الدمار حتى فى هذا العالم، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ﴾ [يونس: ٩-١٣].

إن تاريخ البشر فى نظر الله من منظور القرآن، هو تاريخ مجتمع أخفق فى الحياة وفقًا لملة إبراهيم على الرغم من الحث المتكرر على القيام بذلك، فيحض القرآن قارئيه

على التفكير فى عاقبة المفسدين حين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٨٦] ، كما يتعجب قائلاً: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦]. ويتسبب الأفراد الذين يفسدون فى مجتمعاتهم فى جلب عواقب وخيمة ليس فقط على أنفسهم ولكن على مجتمعاتهم أيضا؛ لذا فهدف الإسلام هو إقامة مجتمع يجسد ملة إبراهيم القويمة؛ إن المجتمع الناجح ليس فقط ذلك المجتمع الذى يتألف من مؤمنين يؤمنون بالله ويعبدونه على النحو الصحيح، بل أيضًا الذى يؤسس مجتمعًا عادلاً ومنصفًا، مجتمعًا مستقيمًا خُلقيّا، مجتمعًا محتشمًا مناسبًا ويعزز مبدأ «التماس السعادة».

إن لكل حدث دنيوى فى الرؤية الإسلامية مرجعين وسياقين يرى فيهما؛ حيث إن لكل عمل بشرى معنى أبديّا وآخر دنيويّا، أى أن كل إنسان سوف يحاسب يوم القيامة على نصيبه الشخصى. فجميع الأعمال لها نتائج من نوع ما فى هذه الدنيا وعواقب أخرى فى العالم القادم؛ لذا يجب تقييم كل فعل فى ذاته وفى علاقته بالتطور التاريخى.

دائمًا ما يسعى المسلمون، جماعات وفرادى، وراء الجنة فيما وراء هذا العالم وفى التاريخ على حد سواء فى نوع من المجتمع يعتقدوا أنه مناسب لتحقيق سعادة الفرد فى الآخرة وسعادة المجتمع فى الدنيا؛ لذا فإن القرآن يعلم المسلمين دعاء فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١]، بالإضافة إلى النصيحة التى ساقها عبدالله بن عمر بن الخطاب: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا»[٧]، الذى حث المسلمين الأوائل على تحمل أعباء الحكم والإبداع الثقافى وقبول الفرص السانحة لهما بالمعنى الأشمل.

لهذا، فالمسلمون على قناعة تامة بأن ما يحدث هنا فى هذه الدنيا له مدلول دائم وحتمى (ونشير هنا إلى تاريخ المجتمع وليس إلى أفعال الكارما الفردية)؛ لذا فإن إقامة حياة سوية للمجتمع على الأرض أمر دينى سامٍ ملزم.

لقد أنجز المسلمون هذه المهمة على مر التاريخ بتميز أخاذ، حيث خلقوا الجمال على الأرض إظهاراً لجمال الله وتعبيراً عن فهمهم للجنة، كما حاولوا أن يجسدوا على الأرض ما ورد عن الجنة فى كثير من الإشارات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [البقرة: ٢٥]، كذلك فإن محاولات المسلمين لخلق مملكة الله على الأرض بنيت نماذجها على أساس فهمهم لمنح الثواب الإلهى للمؤمنين الصالحين فى الجنة، وهكذا فلم تكن تلك الجنان مجرد إنشاءات جمالية من أجل الجمال فحسب ولكنها عبادة وتعظيم لله، فعندما يسير المرء فى حدائق قصر الحمراء فى غرناطة بإسبانيا، على سبيل المثال، يعتريه شعور من السلام والسكينة الذى ينبع من القرب من الله، بالإضافة إلى النقوش البديعة المخطوطة على جدران القصر والتى تذكر صراحة بالله؛ وقد توافر هذا الشعور بالقرب من الله فى جميع أنحاء العالم الإسلامى كله فمن حدائق أصفهان وشيراز بإيران إلى حدائق المغول بكشمير إلى محيط تاج محل بالهند وفى كل المساجد العظيمة من قرطبة إلى القاهرة، ومن مراكش إلى سمرقند، ومن إسطنبول إلى جاكرتا.

يشترك المسلمون مع المسيحيين فى الاعتقاد بأن الرجعية المتسامية هى الأكثر أهمية فى التحليل النهائى: أى أن مجرى التاريخ هو فى النهاية أدنى شأناً من نوعية حياة الإنسان الشخصية، ومع ذلك فإن المسلمين على قناعة بأن لمجرى التاريخ والشكل الاجتماعى الذى يتخذه لهما أهميتهما بالنسبة لنوعية حياة الفرد بداخله. ويعتقد المسلمون أن هناك أمراً فطرياً فى بنية هذا العالم وتطوره تتمثل فى مسار صحيح، شكل اجتماعى قويم، وأن معنى التاريخ يجب أن يكمن فى مدى تطبيق قوانين الطبيعة ومن ثم قوانين الله، كما يعتقدون فى النهاية أنهم، وبوصفهم على دراية بالقوانين الأساسية وتقبلوا تحمل مسئوليتها، مؤتمنون على مسئولية إنجاز مهمة هذا التطبيق وتوجيه التاريخ نحو خاتمته الرائعة الحتمية.

نلاحظ على الفور مدى تشابه وجهة النظر هذه بالرؤية الأمريكية للعالم التى تعتبر أن حقوق الإنسان الثابتة وغير القابلة للتنازل (وهى الحياة والحرية والتماس السعادة) هى منح من الخالق (الذى خلق «جميع البشر متساوين»). وطالما تضمن الحكومة هذه الحقوق التى لا يمكن التنازل عنها والممنوحة من الله، وما دامت تحكم بطريقة تحترم هذه الحقوق، فإنها حكومة شرعية (أى« إسلامية»)، أما إذا انتهكت هذه الحقوق، فهى حكومة غير شرعية (أى «غير إسلامية»)، وهكذا يجب أن تجعل السلطة الأخلاقية لأى من قوانينها تتماشى مع هذا وبغير هذا تكون حكومة غير دستورية ولا تعبر عما نطلق عليه فى أمريكا القانون الطبيعى.

إننى أعتقد أن إعلان الاستقلال والدستور الأمريكيين يجسدان المثل الإسلامية التى تعكس بدورها ملة إبراهيم، والذى سعى كل نبى وراءه المرة تلو الأخرى على مدار التاريخ - طبقًا للقصص القرآنى. ولهذه الملاحظة أهمية كبيرة للمسلمين غير الأمريكيين، ويتعين على الأمريكيين المسلمين وغير المسلمين توصيل هذا المعنى إلى المسلمين فى باقى أنحاء العالم؛ لأنهم لو أدركوا أن شكل الحكم الأمريكى تعبير جوهرى وعملى للنموذج الذى تاقوا إليه لقرون من الزمان بإقامة مملكة السماء على الأرض، فقد يتمكنون من صياغة فهمهم لقيام دولة إسلامية بطريقة مشابهة.

تشكيل التاريخ الإسلامى

من المفيد أن يكون لدى كل من العالمين الأمريكى والإسلامى فهمًا تامًّا بتاريخ الطرف الآخر حتى يتسنى تدعيم رؤية عملية يشتركان فيها؛ حيث إن تفهم الأفكار التى شكلت التاريخ الجماعى لكل منهما هو السبيل الوحيد الذى نأمل أن نخلق به قنوات تواصل تدعم هدفنا فى زيادة الاحترام بين هذين التراثين العظيمين.

يدور التاريخ الإسلامى بشكل أساسى، باستخدام لغة الكتاب المقدس، حول إقامة مملكة الله على الأرض أو إقامة المجتمع الصالح، باستعمال اللغة اليونانية، وتماشيًا مع هدف هذا الكتاب، سوف نقسم القرون الأربعة عشر الماضية من التاريخ الإسلامى إلى خمسة عصور توضح أفكارًا معينة تستحق تركيز الضوء عليها، (يجب أن ينتبه القارئ إلى أنه يمكن تقسيم التاريخ الإسلامى بطرق مختلفة).

ملة إبراهيم (١): المجتمع الإسلامى النموذجى العالمى

(٦٢٢ ـ ٦٣٢ م)

تركزت الثلاث عشرة سنة الأولى من بعثة النبى ﷺ، من ٦١٠ إلى ٦٢٢م، على تعليم أصحابه فكرة الإله الواحد، وقد سئم أهل مكة من إصرار النبى ﷺ على تبليغ رسالته فقاموا فى ٦٢٢م بتدبير مؤامرة لاغتياله ﷺ، فعلم بذلك؛ وحيث صارت الحياة فى مكة مستحيلة وتشكل خطراً على النبى ﷺ وأصحابه، هاجر المجتمع المسلم الصغير الذى كان يبلغ نيفًا وسبعين من الأسر المسلمة سرًّا فى جماعات صغيرة إلى مدينة تدعى يثرب، التى تلقى النبى ﷺ منها دعوة بالمجىء إليها وزعامتها، وسرعان ما سميت يثرب «مدينة النبى» أو المدينة، كاسم مختصر.

شهدت العشر سنوات من ٦٢٢ إلى ٦٣٢م غرس النبى ﷺ ومجتمعه الوليد بذور المجتمع الإسلامى الصالح فى المدينة؛ وإذا عرفنا الإسلام ليس بمعناه القرآنى العالمى الواسع ولكن بمعناه المباشر الذى جسده محمد ﷺ وصحابته، فيمكن أن نطلق على هذه الفترة الفصل الأول من التاريخ الإسلامى[٨]. ففى عهد عمر رضي الله عنه، تم اتخاذ عام الهجرة من مكة إلى المدينة والموافقة لسنة ٦٢٢م كبداية للتقويم الإسلامى؛ لأن هذا العام شهد ولادة الأمة الإسلامية تاريخيًّا. وخلال العشرة أعوام التالية، استمر الاتصال المباشر، بواسطة النبى ﷺ، بين الله وهذا المجتمع الناشئ الذى يسعى إلى إنشاء مملكة الله على الأرض، وفى غضون هذه الفترة نما لدى مجتمع المدينة وعى بكيفية تفعيل علاقة الإنسان بالله على أساس اجتماعى.

تبقى هذه الفترة من الحياة برفقة النبى ﷺ فى نظر المسلمين أروع مثال ونموذج للمجتمع الصالح على الأرض، لذا كانت كل محاولة للإحياء عبر التاريخ الإسلامى محاولة لإعادة هذا المثل. إن النبى ﷺ هو القدوة أو الإنسان الكامل؛ ولهذا يقدر المسلمون أفعاله وأقواله، ويحاولون جاهدين الاقتداء بها على المستوى الشخصى، وبالتالى يتأسى المسلمون على المستوى الشخصى بالنبى ﷺ، أما على المستوى الجماعى والاجتماعى، يسعى المسلمون إلى تشكيل نموذج مجتمعاتهم وفق فهمهم لمجتمع النبى ﷺ فى المدينة.

إن ما يجعل هذه الفترة فريدة فى التاريخ الإسلامى هو أن الله استعمل البشر لوضع مجموعة من الإرشادات التى يمكن أن تنير السبيل لمجتمع إسلامى عالمى وشامل. وبالطبع هناك جوانب معينة لهذا المجتمع تعد خصائص زمنية ومكانية، وكانت الأعمال الفقهية العظيمة للفكر الإسلامى هى التى ساعدت المفكرين على تتبع الحدود الفاصلة بين كل ما هو عام وعالمى فى الإسلام (المظاهر الأبدية الخالدة) وكل ما هو محلى وخاص بزمان ومكان النبى ﷺ؛ وهكذا أحيا النبى ﷺ، على نحو يسع الجميع، ملة إبراهيم التى عانت من غياب طويل فى شبه الجزيرة العربية.

طبق المجتمع الإسلامى تحت قيادة محمد ﷺ، وحتى وفاته عام ٦٣٢م، الأوامر والوصايا التى أنزلها الله عليه فى القرآن، كما أوحى بها إلى الأنبياء من قبله، وحرر تأسيس محمد ﷺ للمجتمع الإسلامى الأول، العرب من أغلال الجاهلية ومن غفلتهم عن الله ومقتضيات صلة الميثاق هذه مع الخالق؛ وتم وضع نموذج اجتماعى يكد المسلمون من الأجيال التالية لبلوغه؛ كما أصبح الانضمام للأمة الإسلامية مفتوحًا أمام كل من يسلّم لله الواحد، وهو مفهوم سما بشدة فوق التراتب الاجتماعى فى النظم القبلية القديمة.

ملة إبراهيم (٢): الخلفاء الراشدون (٦٣٢-٦٦١م)

تسمى الفترة الثانية من التاريخ الإسلامى، من٦٣٢ إلى ٦٦١م، عصر الخلفاء الراشدين، حيث ظلت المدينة العاصمة السياسية للعالم الإسلامى، وحيث تزعم الأمة الإسلامية أصحاب مقربون للنبى ﷺ من الذين تشربوا معانى القرآن والنموذج الذى أرساه النبى ﷺ وتعاليمه.

حاولت قبائل عربية عديدة بعد وفاة النبى ﷺ الخروج على الأمة وإعادة تأكيد استقلالها السابق، ولم يكن ذلك بسبب تذمر دينى ولكن لأسباب اقتصادية، فتقول مؤرخة الأديان كارين آرمسترونج: إن العرب لقرون عديدة «كانوا يزيدون مواردهم القليلة عن طريق غزو القبائل الأخرى، ولكن الإسلام وضع حدًا لهذا لأنه لم يعد مسموحًا لقبائل الأمة بمهاجمة بعضها البعض». وأجبر الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه القبائل العربية على الالتزام بالوحدة السياسية الاجتماعية للأمة الإسلامية(٩).

وبقيادة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، هزم العرب الفرس عام ٦٣٧م ، وفتحوا القدس عام ٦٣٨م، وبسطوا حكمهم على كل من سوريا وفلسطين ومصر بحلول عام ٦٤١م، كما فضل الكثيرون من المسيحيين واليهود، الذين عانوا من اضطهاد الأرثوذكس اليونانيين، المسلمين ورحبوا بحكمهم على الحكم البيزنطى.

وتدعو آرمسترونج قراءها إلى« النظر فيما حدث بمجرد أن خضع المسلمون لمشيئة الله! فى حين أشار المسيحيون إلى أن ليد الله دورا فى الفشل والهزيمة الواضحين عند صلب المسيح، استشعر المسلمون أن النجاح السياسى له دالة روحية ويظهر الوجود الإلهى فى حياتهم»[١٠]. دائما ما نرضى بأن نقول إن الماضى حدث بشكل معين لأن الله أراده كذلك، بغض النظر عن مقدار مساهمتنا فى حدوثه، ولكن بدأ المسلمون بعد وقت طويل فى إضفاء تفسير دينى على مثل هذه الوقائع. وتشير آرمسترونج إلى أنه لم يكن هناك دافع دينى وراء هذه الغزوات، حيث لم تكن هذه الحملات تهدف لفتح المسلمين للعالم لإدخال غير العرب فى الإسلام، فلم تجبر شعوب البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام؛ لأن هذه الفتوحات الأولى كانت بدافع اقتصادى، كما أن اعتناق هذه البلاد للإسلام لم يلق تشجيعًا حتى منتصف القرن الثامن.

كان عمر يفرض الانضباط بصرامة، فلم يكن مسموحًا للجنود المسلمين بالاستيلاء على أراضى البلدان المفتوحة لأنفسهم ولا بالاستقرار فى المدن؛ وكان السكان المحليون يعيشون حياة أفضل من ذى قبل، غير أنهم يدفعون الجزية للدولة الإسلامية المسئولة عن حمايتهم (وكانت ترد هذه الجزية إذا لم يستطع المسلمون القيام بحمايتهم)، كما تم إنشاء مدن عسكرية للمسلمين العرب فى مواقع استراتيچية مثل الكوفة والبصرة فى العراق، وقم فى إيران، والفسطاط على ضفاف النيل فى مصر.

كما جاءت هذه الفترة من توسع الحكم الإسلامى إلى المجتمعات المجاورة القديمة فى مصر وبيزنطة وإيران بتحد فريد. وهو كيف سيدير الحكام فى المدينة إمبراطورية تضم أناسًا من أديان آخرى. تولى حكم الأمة الإسلامية اثنان آخران من أصحاب النبى ﷺ المقربين على التتابع من الخلفاء الراشدين حتى عام ٦٦١م، وشهد حكمهما تشكيل هيكل للأمة، حيث طفقت الأمة تحدد نفسها والنظم التى ستنتهجها؛ وعلى الرغم من أن حكم الخلفاء الراشدين كان يتسم بالأخلاق والرحمة، إلا أن بذور

المشاكل السياسية اللاحقة غرست آنذاك، خاصة فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ والتى حاول الخليفة الرابع على ﷺ معالجتها[11]. وكان رعايا البلاد المفتوحة يلقون معاملة حسنة حيث كانت مساعدة من يقع منهم فى محنة والانتقام ممن نالهم بظلم مسألة شرف لحكامهم من المسلمين العرب، كما تمتع هؤلاء الرعايا بحرية العبادة الدينية الخاصة بهم فى مجتمع تعددى، كما نص على ذلك القرآن الكريم.

يجهل غالبية المسلمين المعاصرين أن المسلمين لم يصبحوا الأغلبية الدينية فى مصر إلا بعد حوالى خمسة قرون من دخولهم مصر، وفى مطلع الألفية الثانية، كما لا يعرف غالبية أصدقائنا اليهود أيضا أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب هو الذى دعا اليهود إلى العودة إلى القدس بعد أن طردوا منها حين دعا سبعين عائلة يهودية إلى الهجرة من طبرية إلى القدس ليعود التواجد اليهودى مرة أخرى فى تلك المدينة المقدسة لدى كل الأديان الإبراهيمية، وهكذا أسس الحكم الإسلامى فى هذه المجتمعات القديمة نموذجًا لمجتمع متعدد دينيّا يتماشى مع ملة إبراهيم، وعلى الرغم من أن نجاح التوسع الإسلامى كان يعتقد أنه شهادة لرسالة محمد ﷺ، إلا أن هدف التوسع كان اقتصاديّا، ومن ثم يخطئ من يعتقد، كما يرى الغرب، أن الفتوحات كانت من أجل نشر الإسلام «بالسيف».

تعرض ثلاثة من هؤلاء الخلفاء الأربعة للاغتيال: وهم عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم. واضطر على إلى خوض عدد من الحروب الأهلية التى أضعفته وأدت إلى تقوية معاوية حاكم دمشق الداهية السياسية وسليل أسرة بنى أمية. ونجح معاوية فى تدعيم سلطته ووضع حجر الأساس لحكم الأسر الحاكمة حينما عيّن ابنه يزيد خلفًا له، وهكذا أسس ما عرف بالدولة الأموية. ولم يرق ذلك مطلقًا لجماهير المسلمين الذين وقفوا فى جانب على ﷺ وذريته، ولكن منذ ذلك الوقت وحتى نهاية الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م وقع المسلمون تحت حكم سلسلة من الأسر الحاكمة فى الأغلب، على خلاف الوضع إبان العقود الأولى للإسلام حيث كان يتم اختيار الحكام على أساس الجدارة لا على أساس النسب ورابطة الدم.

فترة التوهج الفكرى: العيش مثل الملوك (٦٦١ـ ١٢٥٨ م)

تميزت فترة التوهج الفكرى بمقدار كبير من التطور الفكرى عن طريق ترجمة الأعمال الفكرية الإغريقية المتعلقة بالفلسفة إلى العربية وجمع الفنون والعلوم من جميع أنحاء العالم المعروف آنذاك، وكانت العواصم الكبرى فى تلك الفترة هى دمشق وبغداد (التى كانت تشمل مناطق من إيران) وقرطبة والقاهرة، كما شهدت تلك الفترة مولد وتطور العلوم الدينية وهى النحو وتفسير القرآن، وجمع الأحاديث النبوية، وبزوغ الفقه الإسلامى وصوغه فكريًا، والتطور المؤسسى والفكرى للطرق الصوفية .

بدأ عهد الحكم السياسى للأسر الحاكمة من عام ٦٦١م ابتداءً من الأمويين فى دمشق، ثم العباسيين فى بغداد وبقايا الخلافة الأموية بالغرب فى قرطبة . كذلك اشتملت تلك الفترة على العديد من الأسر الحاكمة مثل الفاطميين فى القاهرة (٩٠٩ـ ١١٧١ م)، والمرابطين، والموحدين فى شمال غرب إفريقيا، وأسر حاكمة إقليمية أخرى حكمت مناطق جغرافية صغيرة، وكان الحكام فى الغالب من سلالات عربية أو مستعربة .

الأمويون: حكم الأمويون من ٦٦١ إلى ٧٥٠م فى عاصمتهم دمشق بسوريا . ومنذ سقوط المدينة كعاصمة للعالم الإسلامى فى٦٦١م، شعرت غالبية الأمة الإسلامية أن العالم الإسلامى لم يعد مطلقًا يعبر عن مبادئ المجتمع الصالح الذى أسسه النبى ﷺ وأصحابه المقربين من الخلفاء الراشدين ولم يحافظ عليه . وبالتالى كان هذا الشعور هو القوة الدافعة وراء كل محاولات التجديد منذ عام ٦٦١م .

أثار هذا التاريخ المبكر تساؤلات حاسمة كررتها كارين آرمسترونج بوضوح حين قالت :

«كيف يمكن لمجتمع قام بقتل أئمته أن يزعم أنه يتلقى الهدى من الله؟ أى نوع من الرجال ينبغى أن يقود الأمة؟ هل يجب أن يكون الخليفة أتقى مسلم (كما يعتقد الخوارج)، أم من آل بيت النبى ﷺ (كما تعتقد الشيعة)، أم هل يجب أن يقبل المؤمنون حكم الأمويين (أو أى أسرة حاكمة أخرى) بكل عيوبها من أجل السلام والوحدة؟»(١٢) .

وإلى أى مدى كان حكم الأمويين (أو أى أسرة حاكمة أخرى) إسلاميّا؟ وهل يمكن أن يكون الحكام الذين عاشوا فى مثل تلك الرفاهية وتغاضوا عن فقر غالبية الشعب مسلمين حقّا؟ وماذا عن وضع غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام والذين اضطروا إلى أن يصيروا موالى لإحدى القبائل العربية؟ ألا يوحى ذلك بالعصبية الجاهلية وعدم الإنصاف اللذين يتعارضان تمامًا مع ملة إبراهيم كما جاء فى القرآن؟

شكلت هذه المسائل السياسية الدين والتقوى والتاريخ السياسى للإسلام فى الأربعة عشر قرنًا التالية، وهذه المسائل لا تزال تشغل أذهان المفكرين المسلمين فى الحاضر؛ فكل محاولة لإحياء الدين من قبل أحد المجددين كانت محاولة لإيجاد واقع يتماشى مع النموذج الذى وضعه النبى ﷺ فى المدينة. أو باستخدام تعبير معاصر، تتعلق بكيفية إيجاد جواب للسؤال: «ما الذى ينبغى أن تبدو الدولة الإسلامية الحقيقية عليه اليوم؟» ـ وهو تساؤل يجعل التجربة الأمريكية فى العراق بعد صدام حسين جديرة بالاهتمام إلى أبعد حد[١٣].

استمر الأمويون فى الحكم تسعين عامًا بالكاد، ثم تولى العباسيون الحكم وكانوا يحظون فى الأصل بمساندة غالبية المسلمين؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن العباسيين سيقيمون حكمًا إسلاميًا أفضل من حكم الأمويين الذين كان معظم حكامهم غير محبوبين لحد كبير. لم يكن مبدأ «السلطة مفسدة والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة» مقولة منتشرة آنذاك. كان المسلمون يعتقدون أن الرجل التقى، خاصة لو كان من آل بيت النبى ﷺ، سوف يحكم بحكمة وعدل، كما كان هناك تأييد وتعاطف واسعان لآل بيت النبى ﷺ الذين كان الكثيرون يعتقدون أن لهم الحق فى الخلافة. لكن الكثيرين من آل بيت النبى ﷺ هاجروا إثر تعرضهم للاضطهاد فى الحجاز (منطقة غربى الجزيرة العربية تشمل مكة والمدينة)، فهاجر أبناء الحسن بن على بن أبى طالب فى المقام الأول إلى شمال إفريقيا، من مصر إلى المغرب، لهذا تجد الكثيرين من ملوك المغرب يسمون باسم حسن (آخرهم الملك الحسن الخامس). بينما هاجر أبناء الحسين أولا إلى جنوب شبه الجزيرة العربية وإلى الشرق صوب العراق وإيران، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع لاسم الحسين أكثر من الحسن هناك.

العباسيون: أسس العباسيون خلافتهم فى بغداد عام ٧٥٠م، واستمروا فى الحكم حتى عام ١٢٥٨م. ولم يكونوا أقل قسوة من الأمويين فى الحفاظ على السلطة والحكم، حيث قام الخليفة العباسى الأول أبو العباس السفاح (٧٥٤ ـ ٧٧٥م) بذبح كل الأمويين الذين استطاع العثور عليهم، لكن أحد الأمويين استطاع الهرب وهو عبد الرحمن الأول الذى أسس الدولة الأموية فى إسپانيا عام ٧٥٦م، كما قام الخليفة العباسى الثانى المنصور(٧٥٤ ـ ٧٧٥م) بقتل زعماء الشيعة (الذين سوف نتحدث عنهم لاحقًا)، وهو موقف لا يختلف كثيراً عن حكم صدام حسين. لهذا شُعر المسلمون بأنهم وقعوا ضحية خداع حاكم اعتقدوا أنه يسير على خطى الخلفاء الراشدين، وفى عهد الخليفة العباسى الخامس هارون الرشيد (٧٨٦ـ٨٠٩م) تم استكمال التحول إلى الملكية المطلقة.

كان الخليفة الرشيد راعيًا للفنون والعلوم، وفى عهد ابنه الخليفة المأمون (الذى تولى الحكم من ٨١٣ ـ٨٣٣م) وصلت النهضة الثقافية والعلمية أوجها عندما أسس بيت الحكمة فى بغداد، الذى كان نشاطه الرئيسى ترجمة المؤلفات الفلسفية والعلمية من أصول إغريقية والتى جلبها الخليفة وأثرت بشكل كبير على تطور الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية. كذا اشتمل بيت الحكمة على مراصد فلكية حيث اخترع علماء المسلمين جداول حديثة تصحح الجداول القديمة التى أعدها الفلكى بطليموس. كذلك أسست مناطق أخرى من العالم الإسلامى دور الحكمة أو دور العلم، مثل المؤسسة العلمية التى أسسها الخليفة الفاطمى الحاكم فى القاهرة عام ١٠٠٥م، وركزت تلك الدور على علوم الأوائل ـ وهى علوم كدسها الإغريق والرومان وعلماء الشرق الأقصى ـ بالإضافة إلى العلوم الإسلامية التقليدية بما فيها علوم القرآن وتفسيره والحديث والنحو العربى، كما اشتملت تلك المؤسسات على مكتبات وقاعات للقراءة استخدمت كمكان لاجتماع المحدثين والفقهاء والنحويين والأطباء والفلكيين وعلماء المنطق والرياضيات معًا(١٤).

وعلى الرغم من السلطة المطلقة التى مارستها هاتان الأسرتان الحاكمتان، فإن فترة الأموين والعباسيين استهلت ما أسماه العديد من العلماء بالفترة الكلاسيكية فى التاريخ

الإسلامى ، التى قام خلالها المسلمون وغيرهم بترجمة كل مصنفات المعرفة التى وقعت تحت أيديهم (إغريقية وهندية وصينية) إلى العربية ثم تشربوا أفكارها وطوروها ؛ وكانت الفترة من ٨٠٠ إلى ١٢٠٠م هى فترة ازدهار الهيمنة الفكرية الإسلامية ، كما شهدت ظهور علم الفقه الإسلامى ، وتم تبنى أفكار المذهب العقلى وتطبيقها فى كل مجالات المساعى الفكرية ، وساد السلام الإسلامى Pax Islamica من قرطبة بإسپانيا إلى آسيا الوسطى ، والتى كانت أكثر مناطق العالم حضارة وازدهاراً وثقافة وتعدداً وتعليمًا ، وظل العالم الإسلامى حتى عام ١٢٥٨م متميزاً بالثقافة والروح العربية الصريحتين ، حيث بسطت الروح العربية جناحها على الحضارة الإسلامية .

يعتقد المؤرخ وأستاذ الدراسات الإسلامية فيليب حتّى أن عظمة عصر المأمون تمثلت فى «القوة الدافعة التى أعطاها الخليفة للتعلم وللنشاطَ الفكرى» ، جاعلا إياه «واحداً من أعظم العصور فى الإسلام إن لم يكن فى تاريخ الفكر» . ولم يكن العرب فى القرن التاسع مجرد مترجمين وناقلين ، فقد «كان لمستودع علومهم العديد من المنافذ مثلما كان له من مصادر ، وقد أثرت إسهاماتهم الأصلية فى الكثير من العلوم التى نقلوها»(١٥) .

كثيراً ما تفتح خطوات صغيرة آفاقًا جديدة بأكملها ، ولنأخذ الرياضيات على سبيل المثال ، قد ترجم مُفكِّرُو هذا العصر الرياضيات الهندية إلى اللغة العربية . وكان الهنود قد اخترعوا الأرقام من ١ إلى ٩ ، لكن العرب أضافوا الرقم صفر (وهى الكلمة التى جاءت منها الكلمة الإنجليز (cipher) وهكذا قدموا إلى العالم ما يعرف بالأرقام العربية وقواعد علم الحساب ، وللمرة الأولى استطاع التلاميذ بالمدارس إجراء عمليات الجمع ، بل وعمليات الضرب ، ولك أن تتخيل لو قمت بعملية جمع ١٣٠٤ + ٢٦٥٠ ، التى يستطيع أى تلميذ اليوم إجراءها فى لحظة ، بالطريقة الرومانية القديمة بجمع MCCCIV + MMDCL ، إن الطريقة العربية سهلة ، وهذا ما جعل العرب يبدون أذكياء حقّا ورفع من مكانتهم فى كل أرجاء العالم المعروف آنذاك .

كان الخوارزمى ، الذى اشتُق المصطلحين algorithm «نظام العد العشرى» و logarithm «لوغاريتم» من اسمه ، واحداً من أعظم عقول هذا العصر ، فقد ألف أول كتاب عن الجبر الذى اشتُق منه الكلمة الإنجليزية (algebra) وأسماه حساب الجبر

والمقابلة، كما عرّفت أوروبا مؤلفاته فى استخدام الأرقام العربية والجبر واللوغاريتمات، وفضلاً عن المؤلفات الأخرى التى ترجمها العرب من أعمال الفلكيين الهنود وأضافوا إليها، عرّف المسلمون أوروبا المعارف العلمية الموجودة فى تلك الفترة.

وأخذ العرب عن الهنود والفرس فن سرد الرواية الممتع. وكانت أشهر مجموعة قصصية هى ألف ليلة وليلة المعروفة فى الغرب بـ **الليالى العربية** التى ترجمها السير ريتشارد بورتن فى ستة عشر جزءاً تحتل مساحة قدمين تقريبًا فى مكتبتى الخاصة. وكانت **حكايات كليلة ودمنة** الخرافية مجموعة ممتعة من الحكايات الخرافية التى شخصت الحيوانات وأدارت على ألسنتها حوارات تناقش تجاربها. وكان مؤلف هذه الحكايات الخرافية هو الفيلسوف الهندى بيدبا الذى ألف النسخة الأصلية «البانشاتانترا» باللغة السنسكريتية، وقد فُقدت نسختها الوسيطة الفارسية لكن بقيت النسخة العربية.

كذلك نقل المترجمون والباحثون العرب الفلسفة الإغريقية إلى الغرب أيضًا، وكان الإسپانى المسلم ابن رشد والمعروف فى الغرب باسم أفروس (١١٢٦ـ١١٩٨م) آخر حلقة فى سلسلة العلماء الذين أعادوا تعريف أرسطو إلى قارة منشئه[١٦]، أضف إلى هذا أن الأعمال الأصلية الإغريقية لأرسطو وأفلاطون بقيت فى العالم الإسلامى واستعادها الغرب عندما أعادوا الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٢٠٤م.

وكان من بين أكثر الناس تأثيرًا الفقهاء، وهم علماء الدين الذين شغلتهم صحة الأعمال من وجهة النظر الدينية ـ لمعرفة إذا ما كانت الأفعال شرعية أو غير شرعية من الناحية الدينية. فقد أدى الأمر القرآنى بأن تتعمق طائفة فى فهم الدين حتى يستطيعوا إرشاد الأمة (التوبة: ١٢٢)، بصورة طبيعية إلى ظهور فقه الدين. من هنا نشأت دوائر العلماء، ومع حلول منتصف القرن التاسع أصبحت أبرز تلك الدوائر مذاهب للفكر الشرعى طورت ما سُمىَ بالشريعة، وكان الإمام الشافعى (المتوفى عام ٨٢٠م) من أهم الفقهاء الذين طوروا علم الفقه، وهو مؤسس المذهب الشافعى، وصارت الشريعة أساسًا للقانون فى المجتمعات الإسلامية وأساسًا لكثير من الاجتهاد الشرعى فى الديانة اليهودية أيضًا.

ولأنه من النادر ما اعتبر الشعب الخلفاء حكامًا موازين للخلفاء الراشدين في الطباع والحكمة، ولكن كانوا يرونهم منغمسين في حياة الملذات، ووضع الفقهاء منظورًا شرعيًا خاصًا بحدود سلطة الخليفة، وتوضح آرمسترونج قائلة: «إن الشريعة لا تقبل مطلقًا الروح الأرستقراطية المتكلفة للبلاط، حيث حددت سلطة الخليفة وأكدت أنه ليس له نفس دور النبي ﷺ أو الخلفاء الراشدين، وسمحت له فقط بتطبيق القانون المقدس، ومن ثم كانت ثقافة البلاط تعتبر غير إسلامية ضمنيًا. أما روح الشريعة فهي مثل روح القرآن تؤمن بالمساواة بين البشر . . . ومحاولة لإعادة بناء مجتمع طبقًا لمعايير مختلفة تمام الاختلاف عن معايير البلاط، حيث كانت تهدف إلى بناء ثقافة مضادة وحركة معارضة اللذين سرعان ما جعلا الشريعة في صراع مع الخلافة . . . ولو كان المسلمون عاشوا طبقًا للشريعة، لتمكنوا من خلق ثقافة مضادة تغير النظام السياسي الفاسد في عصرهم وتجعله خاضعًا لإرادة الله»(١٧).

إن جانبًا كبيرًا من الدافع وراء رغبة المجتمعات الإسلامية المعاصرة في تطبيق الشريعة هو تحديدًا السعي وراء سيادة القانون على نظام السلطة القائمة الذي لا يواجه أية معارضة له رسمية أو أيًا من الضوابط والموازنات، على العكس، يسعى الحكام إلى السيطرة على جميع مصادر السلطة والنفوذ.

كان التهديد الرئيسي الذي يواجه الحكام التابعين للأسر الحاكمة هو احتمال انتزاع آل بيت النبي ﷺ السلطة منهم، وكان هذا ما يفضله غالبية المسلمين.

كان المأمون نفسه مفكرًا، وكان يضع نفسه في موضع نقاش مع العلماء في مجال تخصصهم، واتخذ خطوة ثورية حين رفع المذهب العقلي لمستوى دين الدولة، وتبنى آراء المعتزلة، لكن كان خطأ المأمون هو فرض ذلك على العامة؛ فكانت مسألة خلق القرآن، على سبيل المثال، واحدة من تلك المناظرات - ربما تكون امتدادًا لمناقشات المسيحيين حول ما إذا كان المسيح عيسى ﷺ (كلمة الله) أزلي مع الله أم مخلوق من قبله، ولكن حيث إن المسلمون يؤمنون أن القرآن هو كلام الله (مثلما يعتقد المسيحيون أن المسيح كلمة الله) نشأ من هنا خلاف حول تلك النقطة، فاعتقد المأمون أن القرآن مخلوق، وحَوَّلَ هذه المسألة البسيطة إلى قضية كبيرة بإجبار كل من يعمل تحت إمرته على أن يخضع لاستجواب بأسلوب محاكم التفتيش، وعلى الإقرار بأن القرآن

مخلوق، تحت تهديد عزلهم من مناصبهم، ولكن بعد وفاة المأمون ثأر العلماء لهذا وقاموا بتكذيب مبادئ المعتزلة وتشويهها.

عادة ما كان ينظر الحكام والخلفاء إلى العلماء على أنهم حزب المعارضة، ولم يفلت أيٌّ من كبار مؤسسى مذاهب الفقه الإسلامى (الذى أنهوا تطويره ومنهجيته بنهاية القرن التاسع) من العقاب بشكل أو بآخر: إما بالسجن أو بالجلد لاتخاذهم موقفًا مناقضًا للسلطة السياسية، مما ساهم بشكل كبير فى اتساع شعبيتهم عند العامة(١٨). وقد سعى الأمويون والعباسيون لوضع أنفسهم فوق القانون، وهى سمة بشرية طبيعية. لكن العلماء دافعوا عن سيادة القانون فوق الجميع كما سعوا إلى تأسيس سلطة قضائية مستقلة عن النظام السياسى، باستخدام المصطلحات المعاصرة(١٩).

أدت هذه الصراعات الأيديولوچية إلى ما عرف بمبدأ السنة، أى أن المجتمع ليس فى حاجة إلى قيادة من أحد من أفراد آل بيت النبى ﷺ طالما تحكمه سيادة القانون، فى حين ظلت الشيعة متمسكة بفكرة حكم الإمام المهدى، والمسلّم بأن يكون من نسل النبى ﷺ، إلى أن قامت الثورة الإيرانية(٢٠) عام ١٩٧٩م و إعلان الإمام الخمينى نظرية ولاية الفقيه، التى تعتبر الفقيه الملتزم بالشريعة بديلاً للإمام المهدى.

غلق أبواب العقل الإسلامى: غيرت الولايات المتحدة اتجاهها إلى اليمين بعد أحداث ١١ سبتمبر دون تفكير، فتحولت بين عشية وضحاها من دولة ترحب بتعدد الآراء، مثل ممارسة الفرد لحقه الدستورى فى حرق علم الولايات المتحدة، إلى اعتبار المرء مخطئًا سياسيًا إذا لم يضع علمًا على سترته. واتخذ المسلمون رد فعل مماثل فى القرون الوسطى عندما تعرضوا للهجوم.

ففى عام ١٢٥٨م انطلق المغول من آسيا الوسطى وقاموا بغزو وتدمير بغداد والمناطق الشرقية من العالم الإسلامى، أما فى الغرب فقامت محاكم التفتيش الإسپانية بطرد المسلمين (مع اليهود) من شبه جزيرة أيبيريا فى الفترة من عام ١٢٥٠ إلى ١٥٠٠م.

ولا يمكن المبالغة فى وصف آثار هذا الدمار على تاريخ المسلمين والذى وقع مباشرة عقب الحملات الصليبية فى فلسطين. فقد تحول المغول بقيادة جنكيز خان إلى آلة قتالية لها قوة تدمير مخيفة، حيث دمروا بغداد عن آخرها، وقتلوا الملايين أثناء حالة الهياج

التى كانت تنتابهم فى مسيرتهم . كما أحرقوا المخطوطات الموجودة بمكتبات بغداد أو ألقوها فى نهر الفرات ، ثم توغل جيش المغول شرقًا حتى عام ١٢٦٠م عندما تلقوا هزيمة على يد سلطان مصر المملوكى بيبرس فى مكان يسمى عن حق عين جالوت فى فلسطين - وكان المماليك موالى أتراك جرى تحريرهم حكموا مصر من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٥١٧م . وكما يقول العرب لا يفل الحديد إلا الحديد ، أو كما يقول الأمريكيون لابد من النار لمقاومة النار ، كان الأمر يقتضى قوما من المحاربين «الأتراك» لقمع قوم من المحاربين «المغول» .

أفضى هجوم غير المسلمين على العالم الإسلامى إلى ظهور عقلية الانكفاء على الذات بين المسلمين ، فشُلَّت حركتهم ، وأصابهم التجمد الفكرى بعد حرق مكتباتهم وضياع مخطوطاتهم القيمة ، وكان يطلق على هذا التجمد الفكرى اسم خاص ألا وهو «غلق أبواب الاجتهاد» . فغير المسلمون اتجاههم بحدة لليمين واتخذوا موقفًا دفاعيًا .

لم تعد قوة الفكر الإسلامى النابضة إلى ما كانت عليه من ذى قبل مطلقًا ، حيث تركز الجهد الفكرى الإسلامى من ذلك الوقت فصاعدًا على إحياء ما تم تعلمه بدلاً من التوسع فى المعرفة لآفاق أبعد ، ولا يختلف هذا عمّا حدث فى الحضارة الغربية إثر سقوط روما حين تدهور كل من الاقتصاد والثقافة الغربيين خلال العصور الوسطى (المظلمة) ولم يتعافيا من ذلك قرونًا طويلة .

حكم المسلمين غير العرب (من القرن الثانى عشر وحتى القرن التاسع عشر)

كانت أهم التطورات التى حدثت فى الإسلام فى الفترة التى تبدأ تقريبًا من ١١٠٠ إلى ١٩٢٤م هى إضفاء طابع مؤسسى على الصوفية وأشكال الحكم السياسى ، حيث انتقلت السلطة السياسية إلى الأتراك السلاجقة (١٠٧٧-١٣٠٧م) ثم إلى العثمانيين (١٢٨١-١٩٢٤م) وكانت عاصمتهم فى إسطنبول بتركيا ، واشتملت هذه الفترة أيضا على الصفويين (١٥٠١-١٧٣٢م) وكانت عاصمتهم فى إيران ، والمغول (١٥٢٦-١٨٥٨م) وكان من بين عواصمهم أجرا ودلهى بالهند . وضعفت سيطرة العرب خلال

هذه الفترة، وأصبح المسلمون غير العرب هم الذين يحكمون العالم الإسلامى. بيد أن حكم الأسر الحاكمة ظل هو أسلوب الحكم لكنه أخذ شكل الإمبراطورية. وبدأ العالم الإسلامى يقع تحت استعمار الدول الأوروبية بداية من القرن الثامن عشر، لكننا سندع مناقشة النموذج الأوروبى إلى القسم التالى.

على الرغم من النكسات التاريخية الأليمة التى ألمت بالإسلام فى بغداد وإسپانيا، ظهرت ثلاثة من الأسر الحاكمة الإسلامية الكبرى بعد عام ١٢٥٨م وهى: الأسرة العثمانية فى إسطنبول بتركيا والتى حكمت من ١٢٨١ إلى ١٩٢٤م، والصفويون فى إيران من ١٥٠١ إلى ١٧٣٢م، والمغول فى الهند من ١٥٢٦ إلى ١٨٥٨م، والمغول هم سلالة من المنغول الذين تم أسلمتهم ثقافيًا ودينيًا؛ والجدير بالذكر أن التوسع التاريخى للإسلام بعد عام ١٢٥٨م تشكل بروح غير عربية، أعنى الأتراك والفرس والهنود، ووسّعت هذه الموجة الثانية من الانبعاث الإسلامى الحدود الجغرافية للعالم الإسلامى: شمالا إلى آسيا الصغرى والبلقان فى أوروپا، وفى العمق إلى وسط آسيا، وجنوبا فى إفريقيا وغربًا إلى إندونيسيا والفيلبين، وبهذا امتد الإيمان والعقيدة الإسلاميين إلى ثقافات مختلفة وجديدة، وكانت نتيجة ذلك هو ظهور الإسلام مطروحًا فى تشكيلة متنوعة من الثقافات، وإن كان معرّفا بوضوح فيما يتعلق بتقاليده العقائدية والفقهية، وكانت هذه الشخصية الإسلامية لهذه الحقبة مختلفة ثقافيًا عن الطابع السامى العربى والإفريقى الذى اتسم به الإسلام بوضوح حتى بداية الألفية الأولى.

لم تستمر هذه المجتمعات الإسلامية الجديدة فى دفع حدود المعرفة قدمًا كما فعلت المجتمعات السالفة لها خلال الكلاسيكية. فقد كان حكام الفترة الكلاسيكية يظنون أنفسهم مماثلين لرؤسائنا الحاصلين على منحة رودس(*)؛ بينما ظن الحكام المغول والأتراك أنهم يشبهون حكام البنتاجون. فقد كانوا يهدفون مع تمسكهم بقدر المستطاع بعلم الماضى إلى الإسهام بشكل أكبر فى الإطار الحكومى والنظرية السياسية والبنية الاقتصادية والتنظيم الاجتماعى والقيم الثقافية والجمالية وفن العمارة والفن والشعر ـ وهى بقايا السلطة والهيبة الخلابة. تجاوز الفنانون والمعماريون المسلمون حد المعتاد خلال هذه الفترة، فقد قام المعمارى والفنان العثمانى سنان ـ الذى اعتبره مؤلفو

(*) منحة جامعية شهيرة للدراسة فى جامعة أكسفورد ـ المترجم.

موسوعة الإسلام «النظير المسلم لسير كريستوفر رين» ، بتغيير الفهم المعمارى، حيث يعتبر الجامع السليمانى الذى شيده عام ١٥٥٦م بإسطنبول تحفة عصره بما يشتمل عليه من قباب مميزة ومآذن شامخة على شكل أقلام رصاص رفيعة ، كما أن أعماله المعمارية الأخرى التى تبلغ ٣٣٤ عملاً معماريًا آخر غالبيتها من المساجد لم تميز فن العمارة العثمانية فحسب ، بل كان لها أثر على فن العمارة فى العالم الإسلامى بأسره حتى يومنا هذا ، فعلى سبيل المثال ، نجد أن الملامح المعمارية للمركز الإسلامى بمدينة نيويورك ، الذى تم تشييده فى عام ١٩٨٠م والكائن على شارع ٩٦ والطريق الثالث ، يحمل طابع أعمال سنان ، كما تبعث من التصميمات الجميلة المزخرفة بالزهور الخاصة بالمساجد والقصور والحدائق الإيرانية نفس صفات الفردوس التى تميز تصميمات قصور الحمراء بمدينة غرناطة بإسپانيا ، كما يمثل تاج محل بمدينة أجرا (١٦٥٠م) والقلعة الحمراء بمدينة دلهى بالهند ذروة فن المعمار المغولى ، وقد وصل الخط الإسلامى لأعلى قممه خلال هذه الحقبة وخاصة فى تركيا و إيران .

وبحلول القرن الثامن عشر ، دخل هذا الازدهار الثانى للعالم الإسلامى فى مرحلة انحدار خطيرة تزامنت مع التوسع القوى لأوروپا وظهور الاستعمار الأوروپى . فانهارت القوة العسكرية والسياسة فى العالم الإسلامى وضعفت الحياة التجارية والاقتصادية ، وأدى الشعور بأن العالم الإسلامى عرضة للهجوم ـ من جانب الاستعمار الأوروپى القوى ـ إلى استمرار ركود الجهود الفكرية الإسلامية .

التوسع الروحى والسياسى: ظلت الاتجاهات الشيعية التى يؤججها حب النبى ﷺ وآل البيت قوية حتى عصر الغزالى أبرز علماء ومتصوفى القرن الحادى عشر ، حيث قام الأتراك السلاجقة وهم أصحاب المذهب السنى ، بقمع الحكم الشيعى الذى حصل على السلطة السياسية فى عصر الفاطميين فى شمال إفريقيا ومصر وحكم البويهيين بفارس ؛ وقد رسخ الأتراك مكانتهم بإعادة تنظيم التعليم الإسلامى ، حيث كانت الدراسة فى الماضى تتم لتجمعات مستقلة من الطلاب يتعلمون على أيدى معلمين مستقلين ، ولكن السلاجقة ـ الذين يتميزون بذكاء سياسى ـ أدركوا أن العلماء يمكن أن يخلقوا ثقافة مضادة ، فأعادوا تنظيم المدارس فجعلوها مؤسسات رسمية تكون تحت إدارتهم بدلاً من كونها مدارس خاصة مستقلة ، وضمنوا الولاء لهم عن

طريق تعيين مدرسين موالين لسياستهم الدينية وغيرها من السياسات. وأولت هذه المدارس الجديدة اهتمامًا بالعلوم الدينية، بينما تم إحباط وحظر العلوم الدنيوية، التى كانت قد ازدهرت فى ظل الأسر الحاكمة العباسية والشيعية الأولى. وبإسناد إدارة العملية التعليمية إلى السلطات الحكومية، لم يعد التعليم من أجل التعليم بقدر ما أصبح ضمانًا لتوفير البيئة السياسية المناسبة والحصول على «النوع الأمثل للمواطن»(٢١)، وسرعان ما انتشر النوع الجديد للمدارس من العراق إلى مصر وسوريا وإلى المغرب فى القرنين الثالث والرابع عشر.

لعبت الزوايا والأربطة والخانقات والدرجة التى بناها الصوفيون والتى وفرت أماكن استراحة مؤقتة للمتصوفين المرتحلين دورًا حاسمًا فى تقديم الإسلام للمناطق الحدودية وغير العربية فى وسط آسيا وشمال إفريقيا وأصبحت ارتحالات الصوفيين حركة للروح فى الريف والحضر.

فى الفترة التى استمرت قرنين من الزمان ـ بداية من الغزو المغولى فى ١٢٥٨م وحتى قيام دولة الصفويين ـ كانت إيران تعيش فى حالة من الثورة، وكان دور الصوفية فى تعريف السكان بالإسلام دورًا بارزًا ليس فقط على المستوى الروحى بالنسبة للمسلمين الذين يريدون تقوية إيمانهم بل أيضا بعرض الإسلام على غير المسلمين، فقد قام أميران من أمراء المغول الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام بالبحث عن معلم متصوف أعلنا إسلامهما أمامه. حيث ذهب بركة، خان القبيلة الذهبية وحفيد جنكيز خان إلى بخارى خصيصا ليعتنق الإسلام على يدى شيخ الصوفى الكبراوى سيف الدين البخارزى، بينما أرسل ثمازان خان تبريز إلى المتصوف الشيعى صدر الدين إبراهيم فى خراسان ليرأس مراسم احتفاله بإسلامه عام ١٢٩٥م؛ كما تلقت الصوفية حفاوة رسمية من السلاجقة وحكامهم ومن صلاح الدين وخلفائه. فمثلا تم تكريم الشاعر الفارسى الرومى بشكل كبير من قبل بلاط قونية، وهناك الكثير من الدلائل على الرعاية الرسمية التى قدمها بلاط حكام آخرين(٢٢).

حدث تراجع لكثير من الطرق الصوفية بحلول القرن الثامن عشر، وأولت بعض الطرق ـ فى ظل غياب دعم الشيوخ الذين ما زالوا على قيد الحياة ـ اهتمامًا بالأمور

السطحية بدلاً من الجوهرية؛ الأمر الذى أضعف الطبيعة الخالصة للصوفية، وبذلك تدهورت هذه الطرق، وأدى هذا إلى دفعة من محاولات للنهضة.

النموذج الغربى والأوروبى (من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين)

سيطرت القوة الأوروبية الصاعدة على الشعوب الإسلامية واستعمرتها منذ أواخر القرن الثامن عشر، وخلال القرن العشرين على وجه الخصوص، حيث تسربت الأعراف والأفكار والثقافة الأوروبية إلى العالم الإسلامى. وخلال هذه الفترة من التاريخ الإسلامى، تشكلت الحركات الإسلامية من تفاعل العالم الإسلامى مع الغرب، حيث بدت القومية الإسلامية وإقامة الحجج للدفاع عن الإسلام ونوعية الحراك الإسلامى كرد فعل بشكل أساسى أكثر منها مبادرات استباقية.

كان قيام الدولة القومية القائمة على حدود جغرافية من بين الأفكار التى أدخلها المستعمرون للعالم الإسلامى. وتبنى بعض الشعوب الإسلامية هذه الفكرة مثل تركيا تحت قيادة أتاتورك، ووجدت شعوب أخرى نفسها فى دول قومية لها هوية فرضها عليها الاستعمار. فوجد الأكراد ـ على سبيل المثال ـ أنفسهم بعد الحرب الأولى مصنفين إما كرعايا أتراك أو عراقيين أو إيرانيين. وشهدت نهاية هذه الفترة استقلالاً سياسيًا تدريجيًا، لكنه متقطع لغالبية الشعوب الإسلامية. قد أفرز الحنين للهوية القومية التى سبقت فرض الحدود الجغرافية قيام أكثر من خمسين دولة قومية إسلامية تنتمى لمنظمة المؤتمر الإسلامى.

تعود جذور معظم حركات التجديد والديناميات السياسية فى العالم الإسلامى فى عصرنا الحالى إلى هذه الفترة: من الوهابية (أواخر القرن الثامن عشر) فى السعودية إلى حركات التجديد الهندية التى بدأت بشاه ولى الله (فى منتصف القرن الثامن عشر)، وقد حاول المفكرون فى أواخر القرن التاسع عشر أمثال الأفغانى ومحمد عبده إحياء مجد الإسلام الذى ولى، وكانوا معنيين بالاستقلال عن الغرب قدر عنايتهم بالتعلم منه. وذلك بأخذ ما كان مفيداً وطرح ما رأوه مضراً وساماً.

نهجان للإصلاح: عندما يسعى الناس للإصلاح أو يودون تصحيح أخطاء الماضى فإنهم يسلكون أحد طريقين، إما أن يعملوا بطريقة بناءة، فيندمجون فى

التعلم من الماضى، وإما أن يعملوا بطريقة نقدية فيسعون للبدء من جديد وطرح التعلم من الماضى. وميزة النهج الأول أنه يجعل الناس يركزون على ما يقتضى الأمر عمله عن طريق تعليمهم وتطويرهم. كما أنه النهج الأكثر دوامًا واستدامة؛ لأن الناس يتعلمون كيف يفكرون خلال المواقف الجديدة ويتوصلون إلى الجواب الصحيح ـ كما أنهم يدركون متى يكون هناك أكثر من جواب، وإن ذلك أمر ممكن. وميزة النهج الثانى هى أنه أيسر بكثير من التعليم والتلقين، فالجرائم أسهل فى تحديدها وأيسر فى العقاب عليها، كما أنها تسبب ألمًا أكثر مما يسببه التعليم، والناس تحركهم العاطفة. إضافة لذلك، فإنه من الأيسر بكثير أن تجد معلمين يقومون بتعليم النهج الثانى ـ النقدى ـ مقارنة بتعليم النهج الأول البنّاء، لكن النهج الثانى يعتبر أى فكرة مخالفة لأفكاره أنها بدعة ويصعب عليه التعايش مع النهج الآخر. كما أن عمر هذا النهج قصير بطبيعته؛ حيث إنه يتحدد بعمر ما يعارضه لذا فإنه لا يستمر بعد زوال خصمه.

وبطبيعة الحال أدت الممارسات الإسلامية الضالة (التى تسمى بدع) إلى ظهور استجابتين فى التاريخ الإسلامى، كل منهما يرى فى نفسه جهداً يفضى إلى الإسلام الحقيقى ـ إسلام السلف الصالح ـ وأصبحتا تعرفان فى القرنين التاسع عشر والعشرين بالحركات السلفية. وقد ضم الصنف الأول من هذه الاستجابات محاولات لإحياء النبض الإسلامى الصحيح الخالى من التجاوزات التى تراكمت على مدار القرون، بينما كان الصنف الثانى استجابة رجعية على التجاوزات التى قد يتخلص صاحبها من الجمل بما حمل. وقد كانت الحركة الوهابية هى أكثر حركات الصنف الثانى تأثيراً على مدار نصف القرن الماضى.

الإسلام الوهابى: نهج «دعنا نبدأ كل شىء من جديد». بحلول القرن الثامن عشر انتهى ربيع قوة الدول العثمانية والمغولية والصفوية، وشعر المسلمون بالحاجة إلى إصلاح من أجل التخلص من حالة السبات التى اجتاحت مجتمعاتهم. كما شعر العالم العربى بالاستياء من الحكم العثمانى التركى، وتطلع إلى العودة إلى بساطة الإسلام المثالى الخالص الصافى.

حاولت الحركات الإصلاحية إحياء نفسها عن طريق التصحيح الذاتى بدلاً من البدء من جديد، باستثناء أبرزها وهى الحركة التى أسسها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٨٧م) فى نجد فى شبه الجزيرة العربية. رفضت حركة محمد بن عبد الوهاب للإحياء معظم التراث الإسلامى الذى استمر طيلة أحد عشر قرنًا، وحاولت تصور مجتمع إسلامى يبدأ من جديد كما كان على عهد النبى ﷺ، مجتمع يقوم فقط على القرآن والسنة النبوية، حيث بدأ محمد بن عبد الوهاب، متجاهلاً الإسهامات الغنية للثقافات غير العربية فى التاريخ الإسلامى، النموذج الأكثر صرامة فى التاريخ الإسلامى لبدء كل شىء من جديد.

ربما فكر بصورة واقعية فى فعل هذا لعدة أسباب: أحدها أنه كان عربيًا خالصًا بأفضل ما يستطيع على خلاف معظم الإصلاحيين الآخرين الذين كان يعتبرهم أجانب من وجهة نظره. كما كانت نجد الواقعة فى الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر أكثر شبهًا على الصعيد الثقافى بمكة والمدينة على عهد النبى ﷺ من دمشق أو بغداد أو إسطنبول التى كانت مقرّا لعواصم الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية التى حكمت الشعوب الإسلامية لأكثر من ألف عام. ولو كان عبد الوهاب من أصل هندى لما استطاع أن يتجاهل التعددية الهندية، أو لو كان مصريًا لما استطاع إغفال تاريخ التنوع الثقافى والدينى للمجتمع المصرى. لقد كان معظم المفكرين المسلمين فى نظر عبد الوهاب أجانب ليس جغرافيًا فقط، لكن أيضًا على المستوى الفكرى والنفسى، مثل ابن رشد الذى كان إنسانا غربيًا من الأندلس (إسبانيا حاليًا). أراد عبد الوهاب الالتزام بتقاليد السلف الصالح وليس بتقاليد «الأجانب» من خارج شبه الجزيرة العربية، ويمكننا القول بلغة عامية إن عبد الوهاب كان يتوق إلى إسلام عربى، وليس لإسلام تركى أو فارسى أو هندى، ألم يكن القرآن فى نهاية الأمر قرآنا «عربيًا»[٢٣]. كما ساعد البعد الجغرافى النائى لعبد الوهاب على تبنى هذه الرؤية للإسلام الخالص. كان مشروع عبد الوهاب هذا قابلاً للتحقيق نظريًا؛ لأنه كان يعيش فى عزلة نسبية فى وسط جزيرة العرب، فى مجتمع قريب المنال، متجانسًا ثقافيًا ودينيًا مقارنة مع البلاد المجاورة.

أسس عبد الوهاب حركته فى إقليم نجد، مسقط رأسه، وكانت رسالته مباشرة: حيث كانت عودة للإسلام الكلاسيكى الذى كان خالصًا وتطهريًا وبسيطًا، ومن ثم قويًا. ورفض عبد الوهاب الفلسفة، وقام على الملأ بحرق عدد من الكتب الفلسفية، كان من بينها بعض أعمال الغزالى، كما كان يرفض أيضًا كل شىء يعتبره مصدراً للشقاق، مثل الشيعة، وقام عبد الوهاب أيضًا - بجانب الدعوة - بتشكيل تحالف مع أمير حاكم محلى هو الأمير ابن سعود، حتى يتمكن من تنفيذ رؤيته فى المجتمع. وكانت قوة ابن سعود مفيدة لقمع المقاومة التى كان من المحتم أن تثيرها هذه الرؤية. وبدون الدعم السياسى الذى لاقته الوهابية من ابن سعود، ما اكتسبت نفوذها الذى حققته فى شبه الجزيرة العربية.

من الأشياء التى لفتت الأنظار فى الحركة الوهابية هى محاولتها تطبيق مُثل تاريخية يحتذى بها، وهى تطبيق أحكام القرآن والسنة كما مارسها النبى ﷺ فى المدينة فى القرن السابع. وهى فكرة جذابة للمسلم العادى. لكن ذلك كان مستحيلاً، إذا وصلنا به لحدوده الفلسفية؛ لأن كثيراً مما هو ضرورى للحياة الإسلامية كان قد تطور فى القرون القليلة الأولى بعد وفاة النبى ﷺ، مثل قواعد الاجتهاد، وهو جهد يبذله الفقهاء للتوصل لرأى أو حكم فقهى صحيح، ووضع قواعد علم النحو الذى كان ضروريًا للفقه وتطوير معاجم اللغة العربية. بل إن تدوين الأحاديث النبوية وجمع القرآن كتابة لم يبدأ إلا بعد وفاة النبى ﷺ. كان النبى يملى القرآن على عدد من الكتّاب كما أوحى إليه على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، لكن لم يتم جمع القرآن وترتيبه فى مصحف واحد إلا بعد وفاته ﷺ، كذلك لم ينشأ مبدأ التعددية فى التأويل الشرعى والتى أقرها الفقهاء كأمر جوهر بالنسبة للحقيقة وللمجتمع المسلم المتجانس إلا فى القرن الثالث بعد وفاة النبى ﷺ؛ وتمخضت الوهابية فى تأويل انتقائى للإسلام يحاول تنقيته من معظم ما رأى أن الأجانب أدخلوه عليه، خاصة العقلانية الفلسفية والمذهب الروحانى والعناصر العناصر الأجنبية.

كان مفهوم الإسلام الذى حارب الوهابيون من أجله والذى أصبح فيما بعد مفهومًا عالميًا هو أن الإسلام هو غاية الله للبشرية كما عبر عنه القرآن والسنة، **وكما يتضح من فهم المجتمع الحالى لكليهما**؛ وقد حاول تأويل عبد الوهاب التوقف عند السنة.

لقدأوضحنا أن الرسالة المحمدية تتضمن ثلاثة أقسام : (١) الإسلام وهو الاختيار الحر لطاعة الله (الإرادة)، (٢) والإيمان وهو البحث عن حقيقة الله بالعقل (الفكر)، (٣) والإحسان وهو حب الله عما سواه (القلب) وانفتاح الروح لتتوحد مع الله (الروح). ركز الوهابيون معظم جهدهم على القسم الأول: «فعل الصواب» معتقدين أننا لو فعلنا هذا بحق، ستجرى معظم الأمور بصورة مرضية. يرى الوهابيون أن الإسلام الصحيح هو التأويل الصارم للشريعة المجردة من الآراء والتأويلات المختلفة لما مر من القرون وكذلك للمذاهب الفكرية، وهذا هو الإسلام الذى دعوا له، وما دونه فهو زائد وغير صحيح.

كان التحالف الذى أبرمه عبد الوهاب مع ابن سعود أمرًا جوهريًا للنجاح الذى حققه عبد الوهاب وما تبعه من نجاح آل سعود فى تدعيم سيطرتهم على القبائل الأخرى فى شبه الجزيرة العربية وتجميعها لتكوين دولة هى المملكة السعودية العربية الحالية. وسنوجه انتباهنا الآن وللحظة واحدة للقرن العشرين، فبعد أن استولى آل سعود على الحجاز (الجزء الغربى من شبه الجزيرة العربية حيث تقع مكة والمدينة) فى عام ١٩٢٤م من الشريف حسين (جد ملك الأردن الراحل الملك حسين ووالد الملك فيصل الذى ظهر فى فيلم «لورانس العرب»)، لم تعد مكة مركز الصوفية، ولم تعد هى الموقع الذى تخرج منه الأفكار التى تتخلل إلى العالم الإسلامى، وأصبحت تخضع لفحص صارم من جانب كبار مفكرى العالم الإسلامى؛ بل أصبحت بالتدريج مركز نشر الفكر الوهابى.

لم يكن التأثير الوهابى على العالم الإسلامى بهذه القوة حتى النصف الثانى من القرن العشرين، وذلك يرجع جزئيًا إلى أن وسط جزيرة العرب الذى تأسست فيه الوهابية كان نائيًا جغرافيًا ولم يكن يعتبر مكانًا له أهمية، فلم يكن بجزيرة العرب فى ذلك التوقيت أى مراكز تعليمية أو اقتصادية هامة تذكر، لكن بعد الحرب العالمية الأولى، ومع تزايد وقوف الدين موقف الدفاع عن نفسه فى المراكز التاريخية للإسلام (وهى عواصم تركيا ومصر وإيران) أصبحت السعودية هى الملجأ الذى يلوذ إليه الناشطون المسلمون خاصة المصريين منهم الذين منعوا من المشاركة فى إعلاء الصوت الدينى فى مصر بعد تولى عبد الناصر للحكم[٢٤].

تم اكتشاف النفط فى السعودية فى منتصف القرن العشرين، فأصبحت السعودية بحلول الستينيات تملك أكبر احتياطى محقق من النفط فى أى بلد، وعندما تضاعفت أسعار النفط فى ١٩٧٣م، بدأت السعودية حملة تنمية حاشدة احتاجت فيها لتشغيل عشرات الآلاف من الموظفين الذين أتت بهم من البلاد عالية الكثافة السكانية، من مصر وپاكستان وبنجلاديش وإندونيسيا على وجه الخصوص، ومع عودة هؤلاء الموظفين لديارهم من مهام عملهم فى الغربة، بدءوا مع الأعداد المتزايدة من الحجاج الذين يزيدون على المليونين سنويًا فى التأثير على العالم الإسلامى بما اعتقدوا أنه الإسلام كما كان يمارس فى بلد النبى ﷺ وعلى عهده.

تجلت مغالاة الوهابية بأقوى شكل فى الحادثة الأخيرة التى وقعت فى مدرسة للبنات بالسعودية، عندما نشب حريق بها رفضت الشرطة الدينية السماح للبنات بتسلق السور إلا إذا ارتدين خمرهن. فنتج عن هذا وفاة الكثير من البنات فى الحريق، أثارت هذه الحادثة لغطًا فى السعودية، وأدت إلى البحث عن الذات بين السعوديين. (وكما رأينا فى الفصل السابق، فإن ما حدث هنا يخالف الشريعة الإسلامية والتى تنص على أن الضرورات تبيح المحظورات).

النهضة الصوفية: النهج البنّاء. كانت الطرق الصوفية القناة التى ينتشر من خلالها الإسلام إلى أفئدة وعقول غالبية الناس، فى العالم الإسلامى شرقه وغربه حتى تغلغل في جزر الملايو (التى تتضمن إندونيسيا) كان على يد الصوفى حمزة فنصورى (الذى مات حوالى ١٦١٠م) فى جزيرة سومطرة. كما ارتبط إسلام جزيرة جاوا بقصة أسطورية لتسعة أولياء صوفيين **(والى سونجو)**(٢٥).

لقد كانت مكة هى الموقع التقليدى الذى انتشر منه الدين الإسلامى، فمكة فى أنفس المسلمين هى العاصمة الدينية للعالم الإسلامى، كما أن لها تأثيرًا عميقًا على الحجاج الذين يأتون إليها من شتى أنحاء العالم لأداء الحج، وهى تحتل المكانة التى يحتلها الڤاتيكان فى قلب المسيحى الكاثوليكى، بالإضافة إلى كونها البلد الحرام؛ لذا تجد أن طموح الكثير من المسلمين هو أن يموتوا ويُدفنوا فى مكة أو المدينة، بالقرب من قبر النبى ﷺ.

ومن المعلومات التى لا يعرفها إلا القليلون أن مكة كانت قد أصبحت فى القرن التاسع عشر أهم مركز للصوفية فى العالم الإسلامى. فكانت كل الطرق الصوفية تقريبًا ممثلة هناك. وقد قضى الوهابيون على الطرق الصوفية الموجودة فى الأجزاء التى سيطروا عليها فى جزيرة العرب، وخاصة فى نجد، لكنهم لم يكونوا قد استولوا بعد على مكة والمدينة. وقد كانت مكة فى ذلك الوقت مركزًا لنشر التقاليد الصوفية، حيث كان الصوفيون يقومون بتعليم الحجيج مبادئ الصوفية، وهؤلاء بدورهم يعودون إلى بلادهم ويمارسون تأثيرًا يفوق التأثير الذى يحظى به الممثلون الرسميون للإسلام، فعلى سبيل المثال تلقى أول شيخ من مينانج كاباو مبادئ الطريقة النقشبندية فى مكة عام ١٨٤٠م ثم قام بنقلها إلى إندونيسيا.

وبالنظر إلى الصوفية كحركة تجديد، كان نهجها هو تنظيم وإنقاذ كل ما هو جميل وقيم من الناحية الروحانية، وركز البعض على حياة التأمل وتجنب الخوض فى السياسة والأمور الدنيوية، وانهمك آخرون فى الحياة الدنيا تمامًا.

كانت الطريقة الدرقاوية التى تأسست فى المغرب على يد أبى حامد الدرقاوى (١٧٦٠-١٨٢٣م) والتى ينتشر أتباعها فى شمال إفريقيا من أبرز الأمثلة على الطرق التى ركزت على حياة التأمل، وعلى الرغم من محاولة الدرقاوى تجنب الانخراط فى السياسة إلا أنه تم جره إليها على أية حال. وكذلك كانت الطريقة التيجانية التى نشأت فى المغرب العربى (شمال غرب إفريقيا) على يد أحمد التيجانى - الذى ولد بجنوب الجزائر عام ١٧٣٧م، وتوفى فى فاس بالمغرب عام ١٨١٥م - مثالاً للطرق التى لم تتجنب الانخراط فى الأمور الدنيوية. وتنتشر هذه الطريقة الآن فى شمال وغرب إفريقيا، من الجزائر والمغرب إلى السنغال وصولا إلى السودان فى شمال شرق إفريقيا.

تأسست مبادرة أخرى هامة للإحياء عام ١٧٦٠ على يد أحمد بن إدريس المولود فى فاس بالمغرب، الذى لم يقم بتعليم أوراد وأخلاقيات حياة التأمل الإسلامى فحسب، بل نادى بوحدة المساعى الإسلامية تحت رباط الإسلام. لقد كان تأثير ابن إدريس ملموسًا بشكل أكبر من خلال أعمال أتباعه، حيث إنه حث على إحياء الطرق الصوفية خلال بداية القرن التاسع عشر، وكان من بين مريديه محمد السنوسى (١٧٨٧-١٨٥٩م) - مؤسس الحركة السنوسية - الذى ظهر تأثيره بشده فى وسط منطقة الصحراء

فى ليبيا ؛ أنشأ السنوسى زاوية فى ١٨٣٨م على جبل فى مكة مواجه للكعبة يدعى أبا قبيس، واكتسبت طريقته ولاء بعض البدو، وتم إنشاء زوايا فى أجزاء أخرى من الحجاز، وقد غادر السنوسى مكة عام ١٨٤٠م، وأنشأ زاوية على تلال الجزء الشمال الغربى من ليبيا.

وشارك خليفة السنوسى أحمد الشريف (١٨٧٣ـ ١٩٣٣م) فى محاربة الإيطاليين أثناء استعمارهم لليبيا، واستمرت قصة الاستقلال السياسى لليبيا مع ابن عمه عمر المختار الذى قاتل الإيطاليين حتى تم اعتقاله وإعدامه أمام الناس فى ١٦ سبتمبر ١٩٣١، وقد تم تصوير قصة المختار فى فيلم بعنوان «أسد الصحراء» بطولة أنتونى كوين الذى قام بدور المختار، وقد حصلت ليبيا على الاستقلال فى عام ١٩٥١ بعد الحرب العالمية الثانية، فتولى حكمها ملك سنوسى حتى قام معمر القذافى بخلعه فى سبتمبر ١٩٦٩.

وأسس تلميذ آخر من تلامذة ابن إدريس الطريقة الميرغنية (وتعرف أيضًا بالطريقة الختمية) وهى أبرز الطرق فى السودان التى استمر نشاطها فى السياسة السودانية حتى القرن العشرين[٢٦].

بحلول القرن التاسع عشر، انحسر المنهج الصوفى الروحى العقلى فى العالم العربى والذى مثله ابن عربى (١١٦٥ـ١٢٤٠)، حيث كانت أفكاره صعبة الفهم، الأمر الذى أدى ببعض الناس إلى إظهار أبسط ردود الفعل وهو رفض هذه الأفكار باعتبارها غير قويمة. ولم تتطور أفكار ابن عربى لتكون مدرسة، وذلك على الرغم من انجذاب بعض الأفراد ليكونوا جزءًا من هذه التقاليد الصوفية الفكرية. ربما كان الأمير عبد القادر الجزائرى (١٨٠٨ـ١٨٨٣م) الذى حارب الاحتلال الفرنسى حتى تم اعتقاله وترحيله نهائيًا إلى دمشق أبرز ما فى هذه الفترة، وقد قضى عبد القادر بقية حياته فى دمشق وووري الثرى هناك شأنه شأن سلفه ابن عربى. (تم نقل رفات عبد القادر إلى الجزائر مؤخرًا بناء على طلب الحكومة الجزائرية).

ومع ذلك، فقد ازدهر المنهج الصوفى العقلى فى إيران من خلال الملا صدرا (١٥٧١ـ ١٦٤٠م) الذى كتب عن أفكار ابن عربى حول وحدة الوجود، وكان تأثيره

مقصوراً على الأجيال التالية التى خلفته . لكنه ازداد بشكل ملحوظ فى القرن التاسع عشر عندما ساعدت أفكاره فى الحث على حدوث نهضة لدى الشيعة الاثنى عشرية التى قام بإحياء أفكارها الملا هادى السبزوارى (١٧٩٨ـ١٨٧٨م) .

عادة ما تلعب القوة السياسية دوراً هامّا فى تعزيز مصير حركات النهضة ، وحتى فى أسلوب الفكر الإسلامى ، فقد لاحظنا ـ على سبيل المثال ـ الشراكة التى تمت بين ابن سعود والحركة الوهابية ، والتى بدونها لما حققت الحركة السيطرة التى اكتسبتها فى العالم الإسلامى مع تزايد ثروات السعودية .

فى الهند حاول شاه ولى الله ، من دلهى ، أحد أتباع الطريقة النقشبندية (١٧٠٣ـ١٧٦٢م) تجديد الفكر الإسلامى بطريقة شاملة . كان يريد أن يوفق بين الانقسام الذى يعتقد الناس وجوده بين الشريعة والصوفية ليمزج معًا بين الفهم الخالص لكلٍّ منهما ، والذى يعكس طائفة من أوامر النبى ﷺ بشكل كامل . شاهد ولى الله انهيار إمبراطورية المغول ، تبنى رؤية للإسلام النقى الذى يكن حبّا شديداً للصوفية ، وسعت حركته على نحو جدير بالثناء للحفاظ على أكبر قدر من كل ما كان قيمًا فى تاريخ الفكر الإسلامى ، لكن الهند فى ذلك الوقت بدأت تسقط تحت الحكم البريطانى ؛ لذا انصب نضاله هو ومن تبعه على الخطر الخارجى وهيمنة المستعمرين أكثر مما انصب على التجديد الإسلامى .

الاستيلاء الأوروبى العدائى (من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين) : غزا نابليون مصر فى ١٧٩٨ وأصبح معظم العالم الإسلامى بحلول القرن التاسع عشر واقعًا تحت سيادة القوى الاستعمارية الأوروبية ، حيث كان البرتغاليون أول من تسللوا إلى الهند والشرق الأقصى ، ثم حل الهولنديون محلهم ، ثم البريطانيون ، لكن ظل الهولنديون يسيطرون على ما يمثل الآن إندونيسيا ، وأصبحت الهند بحلول منتصف القرن الثامن عشر تحت السيطرة البريطانية من خلال شركة الهند الشرقية البريطانية .

ينسى الأمريكيون المعاصرون أنهم كانوا هم أيضًا ضحية للاستعمار البريطانى ، وأن المستعمرات الأمريكية الثلاث عشرة شنت ـ بعد وقوعها تحت الاستعمار لفترات مختلفة ـ الحرب الأمريكية للحصول على الاستقلال التى بدأت فى ١٧٧٥ حتى

١٧٨٣ . وقامت القوى الاستعمارية فى العالم الإسلامى بما قام به الملك الإنجليزى فى المستعمرات الأمريكية، حيث قامت بريطانيا وفرنسا وروسيا ـ ولحد أقل الهولنديون وإيطاليا ـ بتقسيم العالم الإسلامى فيما بينها إلى مستعمرات، وقاتلت الشعوب الإسلامية منذ اللحظة الأولى للحصول على استقلالها السياسى، لكن لم تحصل عليه إلا تدريجيًا فى القرن العشرين.

المزج بين الأفضل فى الشرق والغرب. أثارت القوة الأوروبية إعجاب كثيرين من المفكرين المسلمين، فقد رأى الكثيرون منهم فى الحضارة الأوروبية الكثير مما جعل المجتمع الإسلامى عظيمًا فى بعض الفترات والكثير مما افتقده، وكان جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ـ١٨٩٧م) من أهم القادة الذين حثوا المجتمعات الإسلامية للسير على هذا المنوال فى نهاية القرن التاسع عشر، حيث امتد نشاطه ليشمل العالم العربى وتركيا وإيران والهند وغرب آسيا؛ جمع الأفغانى بين الثقافة الإسلامية التقليدية والإلمام بالفكر الأوروبى المعاصر وألهم جيلاً كاملاً من الثوريين السياسيين والعلماء الأجلاء، حيث ألقى ولمرات عديدة خطبًا قائمة على الآية القرآنية ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]. كان الأفغانى يقدر قوة العلم الغربى والتقنيات العلمية، وكان ينادى بتبنى الاكتشافات الغربية وتكييفها فى سياق إسلامى، وقد صار هذا النهج الذى يقضى بإقرار علم وإنجازات الغرب وعدم رفضها هو سمة معظم الأنشطة والأفكار الإسلامية فى بداية القرن العشرين.

كرس الأفغانى نفسه لنهضة المسلمين ومقاومة الاستعمار، فقام بدوره كفيلسوف وكاتب وخطيب وصحفى بحفز بدايات قيام حركات التحرر الوطنية فى العالم الإسلامى، وانتقد الأفغانى الجمود الذى كانت تعيش فيه البلدان الإسلامية والسيطرة المتزايدة للقوى الأوروبية على الحياة الاقتصادية والسياسية فيها. وكان حلمه أن يرى الدول الإسلامية متحدة، وأن تعيد مجد الإسلام الماضى.

كان من بين من تأثروا بأفكار الأفغانى المفكر المصرى المجدد محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥م) الذى عين مفتيًا للديار المصرية فى عام ١٨٨٩م وعضواً بالمجلس الأعلى لجامعة الأزهر بالقاهرة، وقد اكتسبت حركته الإصلاحية المعروفة باسم السلفية ـ إشارة إلى السلف الصالح ـ قوة كبيرة فى مصر.

كان محمد عبده ـ مثل أستاذه الأفغانى ـ متيمًا بالكثير من الحضارة الغربية، وسعى للحفاظ على أفضل ما فى الفكر الإسلامى ومزجه بالأمور الإيجابية المكتسبة من الغرب، وقد لاقت أفكاره تأييدًا مرموقًا بين المفكرين المسلمين، وما زالت تلقى قبولاً من العديد فى الحاضر، على الرغم من أنه أثار خصومة فى الأوساط المحافظة؛ وكان برنامج محمد عبده ثلاثيًا: إصلاح فهم الإسلام لدى الناس عن طريق إعادته إلى حالته الأصلية، وإقرار حقوق الشعب بالنسبة للحكومة، والتأكيد على فهم أكبر للغة العربية ـ لغة القرآن كتاب المسلمين المقدس. وكان التحدى الذى واجه المفكرين المسلمين فى ذلك الحين هو أنهم فى الوقت الذى كانوا يؤيدون فيه استيعاب بعض مظاهر الحضارة الغربية دون خسارة تراثهم الثقافى والدينى، كانوا يناضلون للحصول على الاستقلال من السيطرة السياسية والاقتصادية الغربية.

ومثل كثير من المفكرين المجددين، كان عبده يتمنى أن تتخلص المجتمعات الإسلامية من المفاسد التى شوهت تطبيق الإسلام وجعلته خارجًا عن سياق العصر. فقد كان يريد أن يكيف الإسلام مع الضرورات المعاصرة، وذلك بالعودة إلى مبادئه الأساسية والحقيقية، أو بعبارة أخرى أن يقوم بالتجديد وفقًا لخطوط جوهرية أصيلة، وهذا مسلك أرساه ابن تيمية وابن قيم الجوزية، والمذهب الذى بسطته مفاهيم الغزالى الأخلاقية للدين، وقد سعى عبده لتجديد مفهوم الاجتهاد عند المسلمين لجعله صالحًا للتطبيق فى مختلف العصور، وهذا أمر هام؛ لأن الإسلام ـ كما رأينا ـ هو دين قانون، وما لم يتوافر لدى المسلمين فهم مشترك لأساس استنباط الأحكام وكيفية تقرير أن هذه الأحكام شرعية ـ وهى عند المسلمين كلمة تساوى كلمة «دستورية» ـ فلا مفر من وقوع الخلاف عندئذ، كما كان عبده يؤمن بأنه ليس هناك تضارب بين الدين (المفهوم بشكل صحيح) والمعرفة، وعليه فإن الوحى والعقل لا يتعارضان.

وفى فقه محمد عبده، يتكون الدين من التواضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ وتبجيل النبى ﷺ باتباع سنته، والتحمس للقرآن والمحافظة على النظام الأخلاقى الذى يقود إلى التقدم. وانتقد محمد عبده انغلاق العقل الإسلامى وتحجر العلماء المسلمين والتقيد بالتقليد الأعمى. ولأنه أدرك أن علم أوروبا وثروتها وتقدمها هو نتاج الاستثمار فى التعليم والعلوم، فقد سعى عبده لتنقيح التعليم الإسلامى فى مصر،

وخاصة فى جامعة الأزهر، التى كان التعليم فيها فى ذلك الوقت يعتمد على الحفظ والتلقين وبدون المناقشات والمجادلات التى تؤدى إلى التطور الفكرى(٢٧).

حاول محمد عبده تجديد الفكر الإسلامى، وكان تأثيره عميقًا على التعليم الإسلامى فى مصر والعالم الإسلامى، فخلال جيل واحد تم إرسال خريجى الأزهر للدراسة فى الغرب لاكتشاف ما يمكن لعلوم التفسير والمناهج الغربية أن تضيفه لعلم التفسير والمناهج الإسلامية التقليدية.

تركزت السلفية فى مصر حيث كان محمد عبده يتقلد منصب المفتى، لكن كان لها تأثير كبير على البلاد العربية الأخرى، كما تأسست حركات مشابهة فى أجزاء أخرى من العالم الإسلامى مثل حركة أليجارا فى الهند، والمحمدية فى إندونيسيا. كانت الحركة السلفية تهدف إلى تجديد الإسلام الأول فى سياق حديث، وهذا كما نعرف هو التحدى الأبدى الذى يواجه جميع الأديان، وحاكت السلفية محاولات المبشرين المسيحيين، فقامت برعاية دعاة يقومون بنشر الدين الإسلامى ومواجهة جهود التبشير فى تنصير المسلمين، ونادت الحركة بالتقدم ومحبة الخير العام للإنسانية، وأعلنت أنه ليس هناك تعارض بين الإسلام الحنيف والضرورات الحديثة، وباعتناقها نظرية التطور، اتخذت الحركة العلم الحديث مرجعية يضيف الإلمام بها إلى المعرفة المأخوذة من القرآن المنزّل، كما وجدت الحركات النسائية الأولى دعمًا من الحركة السلفية.

لم يعد للحركة السلفية وجود الآن، ولسوء الحظ فقد طغت عليها أفكار أصولية وأصبح لفظ «السلفية» يشير بشكل غير دقيق (بالنسبة لقصده الأصلى) إلى جماعات تؤمن بتطبيق الشريعة الإسلامية بتزمت بدلاً من تكييفها بما يلائم العصر الحديث.

وقد لاقت محاولة المزج بين أفضل ما فى الشرق والغرب صوتًا لها فى شبه القارة الهندية خلال الفترة الفاصلة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، تمثل فى السير محمد إقبال (١٨٧٣ـ١٩٣٨) الذى أوجد انفتاحه على الغرب شوقًا لمعرفة الفكر الإسلامى. كان إقبال فيلسوفًا وشاعراً وسياسيًا هنديًا، كما كان رئيس البعثة المسلمة التى درست فى جامعة كمبريدج وجامعة ميونخ. ركزت أعماله المكتوبة على الإصلاح الدينى والتقدم الذاتى ودمج أفكار فلاسفة الغرب مع القرآن(٢٨)، ورغم أنه شارك مفكرين

آخرين فى رغبتهم بمزج أفضل ما فى الحضارة الغربية مع الحضارة الإسلامية، إلا أنه لم يؤسس حركة تسعى لدعم أفكاره.

المزج بين الغرب والشرق يصبح مرّا: انقلابات قام بها أصحاب نفوذ تأثروا بالغرب، وما تلا ذلك من ردود أفعال أصولية. بعد فترة من الزمن، أصبح المزج بين الشرق والغرب أمرًا كريهًا. وعقدت الصورة أكثر المحاولات السوفييتية الشرسة لتصدير الشيوعية التى يراها المسلمون مذهبًا ماكرًا للتغريب. اعترف المفكرون المسلمون من أمثال الأفغانى ومحمد عبده وإقبال بكل ما كان إيجابيًا فى التقاليد الغربية والإسلامية فى وقتهم، ثم حاولوا مزج ما وجدوه صفوة الأفكار الغربية مع تجديد الحضارة الإسلامية، وطرحوا كل ما هو سيئ فى كلٍّ منهما، أى أنهم لم يرفضوا الجمل بما حمل.

لكن فرضت الأحداث السياسية نفسها، حيث قضى أتاتورك على الخلافة العثمانية فى تركيا عام ١٩٢٤. وتأثرت الأنظمة الحاكمة التى تأسست فى كلٍّ من تركيا تحت قيادة أتاتورك، وفى مصر تحت قيادة عبد الناصر وفى إيران تحت قيادة شاه رضا بهلوى (الذى امتد حكمه من ١٩٢٥م إلى ١٩٤١م) وابنه شاه محمد رضا (١٩٤١م إلى ١٩٧٩م) بالعلمانية الغربية فى قمعها وتهميشها للعنصر الدينى. وبحلول السبعينيات، لم تعد مؤسسات إسلامية هامة مثل الأزهر تخرج تلك الأنواع من المفكرين الذين يستطيعون أن يستكملوا تراث محمد عبده، فنتج عن هذا انتكاس وانغلاق فى الفكر الإسلامى، وأصبح الدين عرضة للهجوم فى جميع أنحاء العالم، وتعرض الإسلام للهجوم حتى فى عواصم الدول الإسلامية، ووجدت الوهابية التى أصبحت أقوى عنصر دينى فى تلك الأثناء نفسها فى موقع المدافع الأول عن الإيمان.

وفى ذلك الوقت، شكلت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى سياسة العالم، حيث كان كلٌّ من الطرفين يفضل أن يكون فى السلطة تابع قوى يستطيعون السيطرة عليه، وكانت المأساة أن الولايات المتحدة لم تكن تدعم العملية الديمقراطية فى العالم الإسلامى خلال هذه الفترة (من عام ١٩٥٢م وحتى نهاية القرن العشرين)(*)، فكان الاضطهاد يأتى للعالم الإسلامى فى هيئة ديكتاتوريين تأثروا

(*) وفى الواقع حتى اليوم، نهاية عام ٢٠٠٧م، عند تجهيز الكتاب للطبع - المترجم.

بالغرب فقمعوا الثقافة الإسلامية التقليدية والدين ؛ لذا كانت تظهر الحرية السياسية على أنها معارضة النفوذ الغربى وتصحيح المنهج الإسلامى عادة بأقصى صورة ممكنة من التزمت والأصولية ، ولو كانت الولايات المتحدة قد تصدت لهذه الأنظمة الديكتاتورية خلال النصف قرن الماضى ، ربما انكسرت الحلقة التى يراها المسلمون تربط بين الغرب وفقدان الحرية ، ولأدى ذلك إلى ضعف قوة التيارات الأصولية .

يعتبر سيد قطب (١٩٠٦ ـ ١٩٦٦م) الكاتب المصرى المنحدر من أصل هندى هو المنظر الأيديولوچى الأساسى للأصولية الإسلامية الحديثة ، حيث أصبح خصمًا للغرب بعد سفره إلى أوروپا وأمريكا الشمالية فى أوائل الخمسينيات ونفوره مما اعتبره دينًا سطحيًا . وكان يعتبر أن الحكام أمثال عبد الناصر مذنبون بسبب عملهم مع الغرب لتقوية نفوذ العلمانية على حساب الدين . وقد شعر قطب بالحاجة للرد على هذا من منظور إسلامى . كان قطب عضواً فى جماعة الإخوان المسلمين وهى جماعة نشطة أنشأها حسن البنا الذى كان يحاول إقامة نظام إسلامى للحكم فى مصر ؛ وقد اتهم قطب فى ١٩٥٤م بالتورط فى محاولة اغتيال الرئيس المصرى جمال عبد الناصر وحُكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عامًا . كان قطب يؤمن بالديمقراطية الإسلامية القائمة على مبدأ الشورى المستمد من القرآن . أثناء الفترة التى قضاها فى السجن ، ازدادت آراؤه المعارضة لنظام عبد الناصر والقمع الذى يلاقيه من يخالفه . ونتيجة غضبه مما لحق به من أذى جراء هذا العنف ، طور قطب أثناء سجنه أكثر الرؤى تعسفًا عن الإسلام . وبعد عام من الإفراج عنه عام ١٩٦٤م بمساعدة الرئيس العراقى فى ذلك الوقت ، قُبض عليه مرة أخرى واتهم بالخيانة للتخطيط لانقلاب ، وبمحاولة اغتيال عبد الناصر ، فأعدم فى أغسطس من عام ١٩٦٨م على الرغم من توسط الكثيرين ـ منهم أيوب خان الرئيس الپاكستانى آنذاك ـ لوقف هذا الإعدام .

فى نوڤمبر من عام ١٩٦٤م ، أصدر قطب كتاب «**معالم على الطريق**» الذى اتهم فيه المجتمعات الإسلامية بأنها مجتمعات جاهلية . يحتوى هذا الكتاب على بذور الأصولية الإسلامية الحديثة ، وكان له تأثير فكرى واسع فى مصر والبلدان الإسلامية الأخرى بما فيها إيران الثورية ، وقد انصب غضب قطب من الغرب على ما اعتبره تراث المسيحية الحديثة التى كانت تنادى بوجوب قصر الدين على ركن صغير من الحياة ، كما

أخذ على الصهيونية ما اعتبره حملة اليهود الأبدية لتدمير الإسلام. وكذلك هاجم مجموعة أخرى، هى المسلمون الذين يسايرون أخطاء المسيحية. وهم أولئك «المسلمون الخائنون الذين أصابوا العالم الإسلامى بالشيزوفرينيا المسيحية»(٢٩)، وهكذا وجد قطب عدوًا فى كل قسم من الديانات الإبراهيمية.

ظهور أمريكا فى أفق العالم الإسلامى. كانت أمريكا حتى منعطف القرن العشرين منعزلة نسبيًا عن الشئون الأوروبية، حيث كانت مشاركتها فى الشئون العالمية تقتصر بشكل كبير على أمريكا الشمالية والجنوبية، لكن عندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) استحثتها القوى الأوروبية وبشكل قوى للانخراط فى السياسة الأوروبية. ويقتضى استكمال هذا الجزء من القصة - قصة تاريخنا المشترك - التوصل لرؤية أكثر تبصرًا لتاريخ أمريكا؛ ولذلك سنتحول الآن للحديث عن تاريخ الولايات المتحدة.

وأثناء الحديث عن التاريخ الأمريكى، سأركز على نقاط الالتقاء مع التاريخ الإسلامى، وهى القضايا والتطورات التى كان لها أثر عظيم على علاقة أمريكا بالعالم الإسلامى، وبشكل عام يمكننا تصور هذه القصة على أنها قصة تطور ملة إبراهيم فى الغرب فى شكل الحريات التى طالت أعدادًا أكبر من سكان هذا البلد والفرص المتزايدة «للحياة والحرية والتماس السعادة».

التاريخ الأمريكى:

من أخلاق المتطهرين إلى الديمقراطية الليبرالية

كما ذكرنا آنفًا، لقد قامت أمريكا على القيم الدينية والتى عبر عنها إعلان الاستقلال والدستور، بيد أن المثل التى يضعها المؤسسون فى أى مجتمع تواجه عادة تحديات عند تنفيذها فى الحياة الواقعية، ويصدق هذا على التاريخ الأمريكى أيضًا؛ حيث إن الحياة على أرض الواقع فى أمريكا لم تكن متوافقة مع ملة إبراهيم فيما يتعلق بوثائق التأسيس الخاصة بها، فعلى وجه الخصوص، كان الرق وظلم المرأة والتمييز ضد المهاجرين الجدد الذين ينتمون إلى أجناس وأديان مختلفة، من وقائع الحياة التى كان يجب على المجتمع

الأمريكى أن يغيرها لتوافق تمامًا المثل الإبراهيمية؛ وفيما يلى سنلقى نظرة على كل موضوع من هذه الموضوعات، وعليك أن تلاحظ أن المعركة بين ملة إبراهيم والأخلاق البروتستانتية أسفرت عن إفساح الأخيرة الطريق أمام الأخلاق اليهودية ـ المسيحية التى تحولت إلى صيغ أنقى لملة إبراهيم. لكن علينا أولاً أن نغوص بدرجة أكبر قليلا فى العقيدة التى شكلت أمريكا: وهى التطهرية التى جاء بها المستوطنون الإنجليز الأوائل، والپروتستانتية التى انبثقت منها.

كانت التطهرية نسخة من الكالڤينية التى أسسها جون كالڤن (١٥٠٩ـ ١٥٦٤م) الذى كان لمؤلفاته تأثير عميق على مسار حركة الإصلاح الپروتستانتية. فقد أكد كالڤن على أن العمل الجاد والازدهار وتراكم الثروة أمور لا تتفق فقط مع الإيمان المتقد بالله بل إنها تمثل «دعوة»، كما بين أن كون المرء رجل أعمال أمر مقدس مثله مثل كون المرء قسيسًا.

أعلن كالڤن النظرية الثورية، وهى أن الفوائد على الديون المالية ليست ربًا، الأمر الذى لا يحتاج الحديث عن أثره على مستقبل أوروبا وأمريكا إلى تأكيد، وسوف نعود إليه خلال لحظة.

قدمت أفكار كالڤن توضيحًا أكثر حدة لحركة الإصلاح الپروتستانتية التى بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣ـ ١٥٤٦م)، فقد أدخل كلٌّ من لوثر وكالڤن على المسيحية أسلوبًا مختلفًا للتفكير فى المسيحية وممارستها، فعلى سبيل المثال، كان شعار لوثر «**بالكتاب المقدس فقط**» والپروتستانتية الإيڤانجليكية التى انبثقت منه قريبة من الإسلام، حيث إن القرآن لدى المسلمين هو المرجع الأول، ويشبه تأكيد كالڤن على القضاء والقدر ـ أن الله اختار البعض للخلاص ـ الرأى الذى أصبح فيما بعد هو رأى الأشاعرة فى الفقه السنى الإسلامى بأن الله قضى على بعض الأنفس بدخول الجنة وعلى بعضها بدخول النار.

هناك أوجه شبه أخرى بين البروتستانتية والإسلام، وهو كراهية التماثيل والنحت، فقد عارض كالڤن استخدام الصور المحفورة، لأنه كان يشعر بأن هذه الممارسة تشجع الأميين على الخرافة وإغراءات الوثنية؛ ولهذا فقد قام جيش أوليڤر كرومويل فى إنجلترا

بتدمير التماثيل فى الكاتدرائيات الإنجليزية وكنائس الأبرشيات، فى عمل أثار بكل تأكيد لدى الكاثوليك آنذاك نفس المشاعر التى عاشها الكثيرون عندما قام نظام طالبان «التطهرى» بتدمير تمثال بوذا فى أفغانستان.

وشاركت البروتستانتية الإسلام، مثاليات أخرى، كاعتبار أن الدين والمعرفة متوافقان[٣٠]، وأن الدين والثروة متجانسان[٣١]، وهى مثاليات نشطت فى الإسلام صعود التراث الفكرى والدور النشط للمسلمين فى التجارة العالمية. كما أثرت هذه القيم التى يتشارك فيها المسلمون والمتطهرون بقوة على ثقافة المستعمرات الأمريكية وعلى ثقافة الولايات المتحدة فيما بعد. كان المتطهرون (الذين كانوا «كالڤنيين إنجليزاً») يتحدثون اللغة الإنجليزية ويمارسون العقيدة البروتستانتية ويقدرون العمل الجاد والنجاح التجارى، ويؤمنون بأهمية التعليم. وانتهى كثير من الناس، بمرور الوقت، إلى المعادلة بين هذه الصفات وبين الأمريكيين بشكل عام، وربما يمكننا أن نساوى بين الأخلاق التطهرية والأخلاق البروتستانتية فى أمريكا، حيث إن أمريكا أسسها المتطهرون الإنجليز، وكذلك المجموعات المهاجرة من الأوروبيين البروتستانت الذين تأثروا جميعًا بلوثر وكالڤن واكتسبوا الطابع الإيڤانجليكى بعد هجرتهم إلى أمريكا.

أين توجد روح الرأسمالية؟

فى أشهر أعماله الكلاسيكية **«الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»**، يقتفى عالم اجتماع الدين ماكس ڤيبر، أثر روح الجماعة أو روح الرأسمالية على هذه الأخلاق البروتستانتية، وعلى وجه الخصوص الأخلاق التطهرية، ولم يكن يعنى بالرأسمالية مجرد السعى وراء الكسب؛ لأن هذا السعى مطبوع فى الإنسان من قديم الأزل، لكنه كان يعنى بالرأسمالية قوة عاملة منضبطة وتراكم الثروة من أجل الثروة نفسها، وليس لأجل النعم المادية التى يمكن أن تحققها، وقد حاول ڤيبر أن يجيب على السؤال التالى: ما الذى يجعل الناس يعملون بكد ـ عملاً متصلاً فى الواقع فى «قفص حديدى»؟ ما الذى يجعلهم يرغبون فى الربح ويعملون من أجله فقط، وليس لأنه أداة تساعد على تحسين الحياة؟ كان ڤيبر يشير إلى الأخلاق البروتستانتية، ويعتقد أن

الكالڤينية «كانت توفر الطاقة المعنوية والدافع لمنظمى مشروعات الأعمال الرأسماليين»[٣٢].

من وجهة نظرى أنها لم تكن الأخلاق البروتستانتية، بل كانت أخلاقيات الشركات هى التى حبست الناس فى قفص حديدى للسعى وراء تعظيم الربح من أجل الشركة فى حد ذاته، ولمزيد من فهم هذه النقطة، دعنا نمضى لحظات قليلة ندرس الشركات.

وجدت فكرة إنشاء منظمة تقوم بالأعمال منذ عهد الفينيقيين والآشوريين[٣٣]، لكن الشركة مثلما أسستها الرأسمالية الغربية حددتها ثلاثة أفكار جديدة:

١ـ كانت الشركة شخصية منفصلة مستقلة، لها نفس القدرة على القيام بالعمل مثل الشخص الحقيقى.

٢ـ يمكن أن تكون الشركة مملوكة لعدد غير محدود من المستثمرين؛ وذلك عن طريق بيع الأسهم القابلة للتداول.

٣ـ كان المستثمرون الذين هم أصحاب الشركة (المساهمون) لا يتحملون مسئولية أى التزامات تتكبدها الشركة، خاصة الديون غير المسددة.

يجب أن نلاحظ أن الديون غير المسددة هى من الأمور التى كانت تمقتها جميع شرائع ذلك الزمان كما تمقتها الشريعة الإسلامية حتى اليوم، فالدين ينظر له من الناحية التاريخية على أنه ضعف، فهو التزام ليس فقط بالمعنى المالى بل أيضًا بالمعنى الأخلاقى والدينى؛ وكان استغلال حاجة شخص إلى قرض بتحميله فائدة من الأمور المكروهة أخلاقيًا، فهو الربا الذى تحرمه جميع الأديان وتعده إثمًا. ففى تلك الأيام عندما تذهب لشراء سيارة جديدة يقوم البائع بالكشف على رصيدك، وكلما كان رصيدك كبيرًا كنت متيسر الحال من الناحية المالية والمعنوية. كما تمثل قدرتك على تحمل دين ضخم علامة على قوتك المالية وحنكتك الاقتصادية. كانت الكنيسة الكاثوليكية تقول قبل ظهور الفكر البروتستانتى إن الحصول على أية فوائد على القروض هو أمر ربوى ـ مثلما يؤكد العلماء المسلمون بين الحين والآخر على ذلك.

بعد أن ظهرت فكرة الشركة، كان من الممكن أن تقترض الشركة دينًا وتخسره، وتعلن إفلاسًا دون إفلاس الملاك. فلا يكون للدائنين الحق فى الرجوع على ملاك

الشركة؛ لأن خسارتهم مقصورة على خسارة الأموال التى استثمروها فقط، وكانت هذه فكرة جديدة وثورية على نحو عميق.

الحاجز الواقى الفاصل بين المساهمين والتزامات الشركة أعطى الملاك القدرة على امتلاك جميع أصول الشركة دون تحمل أى التزامات عليها. قصرت شركات المسئولية غير المحدودة قدرة الشركة على تعبئة قيمة رأس المال، أما شركات المسئولية المحدودة فكانت على العكس، تطلق العنان لفرص منظمى المشروعات فى تعبئة الأموال الجديدة بمبالغ لم يسمع بها من قبل، وهم على ثقة من أن المستثمرين لن يخسروا سوى ما وضعوه فى الشركة، وبهذا جعلت المسئولية المحدودة تراكم رأس المال أمرًا ممكنًا.

كانت الشركة ـ باعتبارها شخصية اعتبارية ـ كيانًا أبديًا من الناحية النظرية، فكانت تستطيع زيادة رأس المال والقيام بالأعمال التجارية للأبد. فالشركات غير البشر، لا يتعين عليها أن تخطط لنهاية عمرها، وبهذا فإن قدرتها على النمو كانت غير محدودة. «تملك الشركات . . . معظم الحقوق القانونية التى يملكها البشر لكن بدون المساوئ المرتبطة بالبيولوچيا: فهى غير محكوم عليها بالموت بسبب الشيخوخة، كما يمكنها تكوين ذرية وقتما تشاء»(٣٤). وسمحت هذه العناصر ـ العمر غير المحدود، والأصول غير المحدودة المتوقعة من المستثمرين، مع المسئولية المحدودة من جانب هؤلاء المستثمرين ـ للشركة بأن تنمو متجاوزة جميع الحدود المعروفة سابقًا، فلهذه الشركة نهم وشهية لا يشبعان لتحقيق أهدافها، سواء كان هدفها هو المال كما هو الحال مع الشركات الساعية للربح، أو القيم الاجتماعية كما هو الوضع مع الشركة غير الساعية للربح؛ لذلك فإن الشركات، أو أخلاقيات الشركات وليس الأخلاق البروتستانتية هى التى خلقت الظروف التى يعمل الناس بموجبها عملاً متواصلاً لتكديس الثروة.

وهذه الشركة أيضًا هى التى مكنت الغرب من انتزاع السيادة من العالم الإسلامى، ومن باقى العالم كذلك. وزودت الشركات التى جمعت بين الأخلاق الپيوريتانية (التطهرية) وسهولة الحصول على رأس المال أمريكا بأدوات قوية لتطوير قاعدتها الرأسمالية التى بنت عليها أضخم اقتصاد فى العالم. لقد زودت الشركات ذات المسئولية المحدودة أوروپا الشمالية والغرب الحديث بالميزات التنافسية التى تفوقت بها على طريقة القيام بالأعمال التجارية فى أوروپا الجنوبية والعالم الإسلامى والشرق

الأقصى ؛ حيث كان عدم سداد الدين لا يعد فقط إثمًا وعملاً غير أخلاقى ، بل أيضًا عملاً لا يمكن تصوره . (سيظل العالم الإسلامى متخلفًا اقتصاديًا حتى يجد سبيلاً لاعتناق هذه المفاهيم والأفكار جهراً بطريقة تتماشى مع الشريعة الإسلامية) .

جعلت الشركة من خلق كيانات يمكنها من الناحية النظرية العيش للأبد أمرًا ممكنًا . فكان يمكن إضفاء طابع مؤسسى على أية فكرة أو نشاط مما يجعلها دائمة وقادرة على التطور عندما تقتضى الحاجة ذلك ، وقد كانت الجامعة أوائل وأهم هذه الشركات ، التى «تدمج فى شركة» أى التى وفرت كيانًا لروح المنهج التجريبى ، وأداة رئيسية لتقدم العلوم ، وبهذا أضفت طابعًا مؤسسيًا على المنهج التجريبى ومكنته من البقاء .

استخدمت الولايات الأمريكية المبكرة الشركات ذات الامتياز المعتمد قانونًا والممنوحة حقوقًا احتكارية خاصة لبناء بعض مرافق البنية التحتية الحيوية فى البلد الجديد ـ مثل الجامعات (مثل أقدم الشركات الأمريكية وهى جامعة هارڤارد التى أخذت الامتياز عام ١٦٣٦م) والبنوك والكنائس والقنوات والبلديات والطرق(٣٥) .

الشركات تساعد على بناء الديمقراطية

أدت الشركات إلى إنشاء القطاع الخاص كقوة متنامية ومركز قوة فى حد ذاته ، وباعتبارها كيانًا اقتصاديًا ، بلورت الشركات وشكلت الفصل التدريجى لقوى الاقتصاد عن قوى الدولة ، وأضفت عليه طابعًا رسميًا . فكما قال بيتر دراكر ، خبير الأعمال الاستراتيجى : «كانت هذه الشركة الجديدة . . . أول مؤسسة مستقلة . . . تخلق مركز قوة يقع داخل المجتمع ، لكنه مستقل عن الحكومة المركزية للدولة القومية»(٣٦) . لقد ساعدت شركة ڤيرجينيا على تطبيق مفهوم ثورى للديمقراطية فى المستعمرات الأمريكية مما أثار غضب جيمس الأول الذى أسماها «بؤرة لبرلمان الفتن»(٣٧) .

يرجع هذا إلى أننا لو تصورنا أن هذه الشركة هى جمهورية ، وأن المساهمين فيها هم المواطنون ، وأن المديرين الذين اختارهم المساهمون هم الحكومة النيابية التى يكمن دورها فى تمثيل مصالح المساهمين وحمايتها ، وأن مسئولى الشركة وموظفيها الذين

يديرون أعمال الشركة اليومية هم مكافئو الموظفين المدنيين الذين يديرون الحكومة، ولأنها تقوم بإنشاء مركز قوة منفصل عن الدولة، فإن الشركة بكل تأكيد قد عجلت، إن لم تكن أدخلت فى السياسة، نظرية ونموذج الديمقراطية النيابية الحديثة. وأصبحت بعض الشركات قوية لدرجة أنها كانت تتحدى سيطرة الحكومة؛ الأمر الذى أدى إلى تفكيك الولايات المتحدة للشركات المحتكرة فى القرن العشرين.

وحيث إن الهدف من الشركة كان تحقيق النتائج لصالح المساهمين محددًا فى الأساس باعتباره الربح المالى، فإننا نلحظ تشابهًا بين مؤسسة الولايات المتحدة الأمريكية وهيكل الشركة. فكما أن المساهمين الذين اشتروا أسهمًا فى الشركة هم الذين يحق لهم التصويت، وأن الذين لم يشتروا أسهمًا لا يحق لهم ذلك، فإن المواطنين الأمريكيين الأوائل الذين يملكون أرضًا كانوا هم الذين يملكون حق التصويت.

أمريكا جيدة بدرجة لا تمنعها من أن تتحسن

الحقوق المدنية والمسلمون السود

لا يمكن التحدث عن الالتقاء بين أمريكا والإسلام دون التحدث عن تاريخ الأمريكان السود، حيث كان أول من جاء إلى أمريكا من المسلمين من العبيد الذين جلبوا من أفريقيا ليعملوا فى مزارع القطن فى الجنوب، وكان حوالى ١٠ فى المائة من العبيد من المسلمين الأفارقة[٣٨]، وكان الكثيرون منهم متعلمين تعليمًا حسنًا؛ ولأن الكثيرين من ملاك هؤلاء العبيد حاولوا طمس هويتهم، فقد ضاع الكثير من أسماء وقصص هؤلاء المسلمين الأمريكيين الأوائل. ولم يبق إلا القليل عنهم، فعلى سبيل المثال، تم استرقاق عمر بن سعيد (١٧٧٠ـ ١٨٦٤م) العالم والتاجر المسلم المنحدر من أصول سنغالية، والذى تم اقتياده إلى شارلستون، جنوب كارولينا فى حوالى ١٨٠٧م[٣٩]. ومن المعروف أن سعيدًا كان متعلمًا؛ لأن فرنسيس سكوت كى مؤلف قصيدة «الراية المرصعة بالنجوم» تلقى خطابًا من أحد سكان كارولينا الشمالية البروتستانت يطلب فيه نسخة مترجمة إلى اللغة العربية من الكتاب المقدس لأجل

عمر، وقد جرى ترميم وحفظ هذه النسخة العربية التى تحتوى على ملاحظات دونها عمر، فيها حمد لله فى مكتبة كلية دافيدسون بكارولينا الشمالية.

ولسوء حظهم، ولسوء حظ العلاقة بين الأديان الإبراهيمية فى أمريكا، فقد جاء المسلمون الأوائل إلى أمريكا كعبيد، وتاريخيًا كانت العبودية فى معظم أنحاء العالم بنيانًا اقتصاديًا أكثر منه عرقيًا، فكانت تتسم بطابع عبودية العمل الذى يقضى بأن تشترى عمل الشخص مستقبلاً بدلاً من أن تستأجره، فيما يشبه شراء بيت أو سيارة بدلاً من تأجيرها بشكل أسبوعى أو شهرى؛ لذا كانت المجتمعات السابقة للعصر الحديث تضم عبيدًا من جميع الأعراق والأجناس، وكان لهم عائلات لا ينفصلون عنها، وكانوا يستطيعون شراء حريتهم والعيش كرجال ونساء أحرار. لكن شرور العبودية الأمريكية تتمثل فى أنها كانت مقترنة بعنصرية كريهة تغفل حقوق العبيد.

لم يتحدث الدستور الأمريكى بشكل صريح عن قيم ملة إبراهيم تجاه الأعراق غير البيضاء. فكما لاحظنا أن الأمريكيين سكان البلاد الأصليين استبعدوا تمامًا من التمتع بحقوق الإنسان، وأن الأفريقيين الذى جاءوا كعبيد عُدَّ الواحد منهم بمثابة ثلاثة أخماس شخص.

تم إلغاء العبودية بالتعديل الدستورى الثالث عشر فى ديسمبر ١٨٦٥ بعد الحرب الأهلية الدامية التى أدت تقريبًا إلى تمزيق أمريكا إربًا، وأصبح للأمريكيين الأفارقة حق انتخابى دستورى منحه لهم التعديل الدستورى الخامس عشر فى مارس ١٨٧٠، وظلت أمريكا بعد مرور قرن من إعلان التحرير فى ١٨٦٣م تكافح من إصلاح الدمار الأخلاقى الذى خلفته العبودية، وينكر الكثير من البيض حقوق الأمريكيين الأفارقة، ولم يستطيعوا تقبل المساواة العرقية، ممن رفضوا التعديلات الدستورية التى جعلت أفكاره أقرب إلى التعبير الأفضل عن ملة إبراهيم المتعلقة بالمساواة بين البشر وحريتهم. وقد استغرق الأمر قرنًا آخر حتى استطاعت حركة الحقوق المدنية، التى عبأت الأفراد ومنظمات حقوق الإنسان - أن تحقق تغييرًا جوهريًا. فنظمت الجماعات بداية من ١٩٥٥م مسيرات ومظاهرات ومقاطعات واعتصامات احتجاج أمام المطاعم المخصصة للبيض فقط، وأمام الأتوبيسات التى كان يمنع جلوس السود فيها، فكان هذا الرفض للالتزام بقوانين التمييز العرقى تصديًا للتمييز والفصل العنصرى.

بعد قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤م، تم تطبيق سياسات العمل الإيجابى فى الولايات المتحدة لزيادة فرص السود (والأقليات الأخرى) عن طريق تفضيلهم بحصص فى التوظيف والترقية والقبول فى الكليات، ومنحهم العقود الحكومية. وبناءً على هذا الموقف، فإن مصطلح أقليات يمكن أن يشمل أية مجموعة غير ممثلة تمثيلاً كافيًا، خاصة إذا كانت محددة بعرق أو عنصر أو نوع جنس.

كان أول من استخدم مصطلح **العمل الإيجابى** هو الرئيس ليندون جونسون فى أمر تنفيذى عام ١٩٦٥م أعلن فيه أنه يتعين على المقاولين الفيدراليين «اتخاذ إجراءات إيجابية» لضمان معاملة المتقدمين لوظيفة أو الموظفين معاملة «متساوية دون النظر إلى أعراقهم أو لونهم أو أديانهم أو جنسهم أو أصلهم القومى». فى حين تحدد الهدف الأصلى لحركة الحقوق المدنى فى القوانين التى لا تنظر إلى اللون [ذات عمى الألوان]، فإن إنهاء سياسة التمييز التى امتدت لفترة طويلة لم تحقق القدر الكافى بالنسبة لكثيرين من الناس. فكما وضح الرئيس جونسون فى خطاب عام ١٩٦٥م «أنك لا تأخذ شخصًا كان مكبلاً بالسلاسل لسنوات . . . ثم تضعه على خط بداية سباق وتقول له: أنت حر لتتنافس مع الآخرين جميعًا، وتعتقد بحق أنك كنت منصفًا تمامًا»(٤٠).

لا يمكن أن نعطى لحركة الحقوق المدنية حقها الكامل من التقدير دون أن نضع فى الاعتبار دور المسلمين السود، وهو مصطلح صكّه سى إريك لينكولن عام ١٩٥٦م لأتباع حركة أمة الإسلام التى تأسست فى الثلاثينيات بقيادة إليجا محمد وحتى وفاته (١٨٩٧ـ ١٩٧٥م). كان لينكولن يقوم بتدريس منهج عن الدين والفلسفة فى كلية كلارك فى أطلنطا بجورجيا فى أواخر عام ١٩٥٦م، عندما أطلق أحد الطلبة فى بحث أعده عن فصل دراسى عن المسيحية الكلمات التالية فى وجهه:

لا يتوافق الدين المسيحى مع تطلعات الزنوج للحصول على الكرامة والمساواة فى أمريكا، فقد كان يعرقل حيث كان يمكن أن يساعد، وكان مراوغًا عندما كان قمينًا أخلاقيًا بأن يكون صريحًا؛ وهو يميز بين المؤمنين على أساس اللون بالرغم من إعلانه أن رسالته هى تحقيق أخوة عالمية تحت راية عيسى المسيح. إن الحب المسيحى هو حب الإنسان الأبيض لنفسه ولعرقه. والإسلام هو أمل الإنسان غير الأبيض فى العدالة والمساواة فى العالم الذى يجب أن نبنيه غدًا(٤١).

وعندما واجه تحدى دراسة هذا البديل، عكف لينكولن على إتمام الدراسة الهامة التى أخرجها بعنوان **«المسلمون السود فى أمريكا»**، والتى رأى من خلالها أن ظاهرة «الكراهية التى تولد كراهية، تتعلق بمن ليس لهم صوت، ويسعون ليجدوا لأنفسهم أذانًا مصغية فى مجالس العالم»[٤٢]؛ رؤية متبصرة جديرة بالتذكر عند محاولة الكشف عن العوامل التى أذكت نار الحركات الأصولية والجماعات الدينية النزاعة للقتال إبان القرن الماضى.

وعلى عكس مارتن لوثر كينج، لم يكن إليجا محمد مؤيدًا لفكرة التقارب مع البيض، حيث لم يكن يعلم الأمريكيين السود أن يفتخروا بعرقهم ولونهم فحسب، لكنه نادى أيضًا بقيام دولة مستقلة للمسلمين السود. وكان أشهر وأفصح متحدث باسم إليجا محمد هو مالكولم إكس الذى «تخلص من خجله من كونه شخصًا ملونًا»[٤٣] عندما سمع لأول مرة حديث محمد؛ وقد ركز المسلمون السود على إعادة تأهيل الأمريكيين السود، حيث حققوا نجاحات كبيرة فى هذا الصدد فى السجون، وهو ما اعترف به المسؤولون عن العفو من العقوبات، والشرطة الذين أكدوا أن المسلمين السود كانوا أفضل قوى التأهيل الفاعلة. كانت طريقتهم المتبعة هى إقناع المحكوم عليه أنه وقع فى الجريمة نتيجة خجله من كونه أسود، وأن الرجل الأبيض تحكم فيه نفسيًا فأفقده احترامه لنفسه. ثم يقنعون السجين أن كونه أسود نعمة وليس نقمة، ولكى يحافظ على هذه النعمة يتحتم عليه أن يطهر نفسه، وأن يحيا حياة الحشمة والاحترام؛ «ونتيجة لهذا» فقد أوضح الفيلسوف لويس لومكس ما يلى:

لا ترى أبدًا مسلمًا (من أتباع إليجا محمد) بدون قميص نظيف وربطة عنق ومعطف.

لا ترى مطلقًا مسلمًا يشرب الخمر.

لا ترى مطلقًا مسلمًا يدخن.

لا ترى مطلقًا مسلمًا يرقص.

لا ترى مطلقًا مسلمًا يتعاطى مخدرًا.

لا ترى مطلقًا امرأة مسلمة مع رجل غير مسلم.

لا ترى مطلقًا مسلمًا مع امرأة غير زوجته.

لا ترى مطلقًا مسلمًا دون مصدر ما يتكسب منه.

لا ترى مطلقًا مسلمًا لا يتوقف ويسارع لمساعدة أية امرأة سوداء وقعت فى مشكلة.

نادرًا ما ترى مسلمًا يقع فى الجريمة(٤٤).

انتشرت حركة إليجا محمد بشكل سريع وازدهرت، خاصة فى الستينيات؛ لأنها كانت تشجع السود على الاعتماد على النفس وتقوية الروابط الأسرية وعدم تعاطى المخدرات أو التدخين أو شرب الكحوليات؛ لكنه كان يختلف مع عامة المسلمين فى إيمانه بأن العرق الأسود متفوق على العرق الأبيض، وفى ادعائه بأنه آخر نبى (بينما يؤمن عامة المسلمين بأن آخر الأنبياء هو النبى محمد ﷺ الذى قال: إنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)، لكن هذه الاختلافات العقائدية لم تستطع أن توهن جاذبية رسالة إليجا محمد التى تدعو السود للفخر وضبط النفس.

زاد الاهتمام بالإسلام فى مجتمع السود جزئيًا؛ نظرًا لأنهم أدركوا وبشكل متزايد أن الإسلام كان دين أسلافهم، فقد تتبع أليكس هالى فى كتابه «**جذور: ملحمة عائلة أمريكية**» (١٩٧٦) الذى حقق مبيعات كبيرة، تاريخ أسلافه وتوصل إلى أنه ينتسب إلى عائلة مسلمة فى مالى، غرب أفريقيا، ولهذا أصبح الكثيرون من الأمريكيين الأفارقة يهتمون بمعرفة أنسابهم، وفى تقصيهم لجذورهم استشفوا نسبهم الدينى للإسلام.

كان إليجا محمد خصمًا فكريًا لدودًا لمارتن لوثر كينج؛ فلم يتقبل كينج نظريات سيادة السود ولا الإدانة الكاملة للبيض، وهذا موقف يتفق مع ملة إبراهيم، وقد اعترف مالكولم إكس فيما بعد بأن هذا الافتراض يمثل الإيمان الإسلامى الحنيف، وذلك بعد أن حج إلى مكة عام ١٩٦٤م وقابل المسلمين من كل الألوان من شتى بقاع العالم.

انشق مالكولم إكس عن حركة أمة الإسلام عام ١٩٦٣م، وتم اغتياله فى فبراير عام ١٩٦٥م، وخلفه فى منصبه كرئيس لمسجد إليجا محمد بمدينة نيويورك لويس فرخان

الذى كان قد تبنى لفترة طويلة مبادئ النزعة الانفصالية للسود؛ تولى والاس (الذى سمى باسم وريث الدين محمد) الابن الخامس لإليجا زعامة أمة الإسلام بعد وفاة والده عام ١٩٧٥م، لكنه جعلها تتماشى مع الدين الإسلامى والممارسات الإسلامية الحنيفة، وقد خفف وراث الدين من النزعة القومية للسود، وأدخل أعضاء من غير السود، كما غير اسم الجماعة لتصبح المجتمع العالمى للإسلام فى الغرب، ثم البعثة المسلمة الأمريكية.

أليست منصفة للمرأة؟

تدور ملة إبراهيم حول المساواة بين جميع البشر أمام خالقهم بغض النظر عن عرقهم أو نوع جنسهم؛ لكن ظلت المرأة الأمريكية ـ وحتى بعد أن حصل الرجال السود على حق التصويت فى ١٨٧٠م ـ محرومة دستوريًا من الإدلاء بصوتها حتى أغسطس ١٩٢٠م عندما صدق الكونجرس على التعديل التاسع عشر للدستور، ولم ترتق أبدًا قضية منح النساء حق التصويت إلى مكانة قضية سياسية كبرى حتى بعد أن حصلت مجموعات من الرجال الذين كان محرومين من حق التصويت سابقًا عليه. إن هذا هو ما حدث فى أمريكا وأوروبا الغربية، وهذا أيضًا هو ما نراه الآن فى بعض الدول مثل الكويت التى قاربت المرأة فيها من اللحاق بالرجل فى نيل حق التصويت الذى اكتسبته أختها فى البحرين مؤخرًا.

الديمقراطية الأمريكية هى ديمقراطية نيابية، وتعنى أن ينتخب عموم السكان أقل عدد من الناس ممن يستطيعون تمثيلهم بفعالية، وكما أوضحت سابقًا، فإن انتخاب ممثلى الحكومة يشابه انتخاب المساهمين لمديرى الشركة. ففى أمريكا كون المرء من حملة الأسهم يعنى أنه مالك لأرض، بالإضافة لكونه ذكرًا وأبيض. وقد سقط شرط ملكية الأرض بحلول أوائل القرن التاسع عشر، وامتد حق التصويت ليشمل كافة الذكور البالغين. كما وسع إلغاء الرق ومنح الأمريكيين السود حق التصويت فى ١٨٧٠ نطاق الديمقراطية لتشمل قاعدة أوسع من الرجال. بحكم التعريف، أسفرت القوانين التى غيرت قاعدة أن تكون مالكًا لأرض حتى يحق لك التصويت عن حرمان النساء من التصويت بسبب نوع الجنس فقط، وتمتعت النساء أصحاب الأملاك فى ولاية ماسا

تشوستس بامتياز التصويت من ١٦٩١ إلى ١٧٨٠ ، إلا أن النساء الأمريكيات أدركن بعد ١٨٧٠ أنهن فى الوقت الذى يمتلكن فيه ثلثى شروط التصويت (مقارنة بالرجال البيض من أصحاب الأراضى)، فقد حرمهن إلغاء شرط ملكية الأرض من الأساس القانونى الوحيد الذى أعطاهن حق التصويت سابقًا.

صدق الكونجرس بعد ضجة كبيرة على التعديل التاسع عشر للدستور فى أغسطس من عام ١٩٢٠ والذى نص على ما يلى: «لا يجوز للولايات المتحدة ولا لأية ولاية فيها، حرمان مواطنى الولايات المتحدة من حق الانتخاب أو انتقاصه بسبب الجنس»، وبهذا يكون قد سقط حاجز آخر أمام التعبير الأكثر كمالاً عن ملة إبراهيم.

وتواجه الدول الإسلامية أيضًا تحديات تتعلق بالتعبير الكامل عن ملة إبراهيم بخصوص دور المرأة والرجل فى المجتمع، وغالبًا ما يسألنى الأمريكيون عن مكانة المرأة فى الإسلام، معتقدين أن المرأة فى الإسلام مضطهدة ولا تملك أى حقوق مقارنة بالمرأة الغربية - بل إن الشريعة الإسلامية تقر عدم المساواة بين الجنسين، وهنا خطأ كبير فى هذه التصورات؛ حيث إن هناك أربعة من أكثر البلدان الإسلامية كثافة فى السكان تتقلد، أو تقلدت، بها سيدة منصب رئيس الدولة وهى: إندونيسيا وبنجلادش وباكستان وتركيا، فهل يمكن لأحد أن يجادل بأن الولايات المتحدة متخلفة عن العالم الإسلامى بشأن منح حقوق مساوية للمرأة - وأن السبب فى أن أمريكا لم تختر سيدة لمنصب الرئيس هو معتقداتها اليهودية - المسيحية؟

تكمن المشكلة فى الخلط بين الأعراف الثقافية والعقيدة أو الشريعة الدينية. فإذا لم نفصل بين الأبعاد الدينية والاجتماعية والثقافية للقضية، فإننا على الأرجح سوف نخطئ فى إدراك الموقف. ومما يعقد فهم مسألة نوع الجنس، حتى على المسلمين، هو أن الفقهاء المسلمين يعتبرون العادة والعرف أو القانون العام للمجتمع مصدراً من مصادر التشريع فى حين صمت القرآن أو السنة عن المسألة، لذا وجد عرف الناس فى زمن أو مكان معينين طريقه إلى الشريعة الإسلامية.

يمثل العالم الإسلامى اليوم مشهداً ثقافيًا فسيحًا ومتنوعًا. فوضع المرأة فى ماليزيا مثلاً ليس هو نفس وضعها فى السعودية أو فى البوسنة أو فى السنغال؛ لهذا يجب

على من يريد أن يبحث مكانة المرأة فى الإسلام أن يبدأ بالنظر فى مكانة المرأة المسلمة من منظور دينى.

إن المساواة بين الجنسين جزء أصيل من العقيدة الإسلامية، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول فى القرآن إنه أعد ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لـ ﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

إن القرآن يحمل الرجال والنساء مسئولية متساوية فى جميع الالتزامات الدينية، فالنساء ملزمات بالتساوى بالصلاة والصيام وإخراج الزكاة من أموالهن وأداء الحج، وغيرها من العبادات.

يؤكد الدين الإسلامى على العدالة الاجتماعية التى تشمل العدالة فى الشئون العائلية، فقد منح القرآن المرأة حقوق الزواج والطلاق والميراث قبل أن تمنح المرأة فى الغرب هذه الحقوق بقرون[٤٥]، يقول سبحانه وتعالى فى القرآن: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧]، وعلى الرغم من أن الأخت ترث نصف ما يرثه الأخ(*)، فهى غير ملزمة بإعالة القصر بالإنفاق عليهم من ثروتها، لكن الذكر ملزم بذلك؛ كما يوصى القرآن الرجال بالعطف وإظهار الحنان تجاه النساء، فهناك سورة من القرآن تبدأ بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] فهذه الآية توضح أن العدالة بين الرجال والنساء ـ وخاصة فى السياق العائلى ـ أمر له أهمية عند الله.

وشملت الحقوق الأخرى التى منحها الإسلام للمرأة إلغاء عادة وأد البنات التى كانت تمارسها فى الجاهلية، وكذلك التأكيد على الاحترام الكامل للأم، وبالتداعى

(*) هناك حالات كثيرة ترث فيها المرأة أكثر من الرجل، على سبيل المثال أم تتوفى وتترك ابنة وزوجًا وأبًا، ترث الابنة النصف، والزوج الربع، والأب السدس والباقى تعصيبًا ـ المترجم.

لجميع النساء، فقد جاء رجل ذات مرة إلى النبى محمد ﷺ يستأذنه فى الجهاد، فقال له: «ألك أم؟» قال نعم، قال: «فالزمها، فإن الجنة تحت قدميها» (والمعنى: أن الجنة تدرك بخدمتها)[٤٦].

كان النبى محمد ﷺ يعطى للمرأة حقوقها التى جاءت فى القرآن، كما قضى على عدم التوازن الذى كان يعترى العلاقة بين النساء والرجال فى مجتمعه عن طريق تقديم نموذج عملى منه هو وأهل بيته، فقد لاحظت كارين آرمسترونج كيف كان النبى ﷺ حميمًا رحيمًا مع زوجاته، وكيف أنهن كن يسألنه وكان يجيب عليهن؛ «لقد كان محمد يشارك بشكل فعال فى الأعمال المنزلية، وكان يرقع ثيابه، ويكون فى مهنة أهله[٤٧]»، وكان يتشاور معهن، ويلتمس منهن النصيحة فى الأمور الاجتماعية، ويأخذ كلامهن على محمل الجد[٤٨]، وفى خطبة الوداع ألقى محمد ﷺ الضوء على الحقوق المتبادلة بين الرجال والنساء حين قال: «أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق. . . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم»[٤٩].

عندما يتجول المرء منا فى القرآن والسنة، سيتضح له أن هناك حقوقًا محددة وأصيلة للمرأة فى الإسلام، وتلك الحقوق هى التى أفرزت بعض النساء اللواتى صرن قدوة ونماذج يحتذى بها، ومن بين هذا الحشد ـ من النساء الصالحات والعالمات والأمهات والمحاربات وسيدات الأعمال وغيرهن ممن ظهرن عبر التاريخ الإسلامى ـ برزت زوجات النبى ﷺ بشكل لافت، فكما أن محمداً ﷺ هو القدوة لجميع المسلمين، فإن زوجاته أيضًا يمثلن قدوة يحتذى بها لكافة المسلمات.

كانت خديجة ـ أولى زوجات النبى ﷺ ـ سيدة أعمال ناجحة وثرية عندما كلفت محمداً ﷺ بالإشراف على قافلتها التجارية المسافرة إلى الشام عام ٦٠٥م، وعقب عودته، عرضت عليه الزواج منها، وكانت وقتئذ امرأة فى الأربعين من عمرها، وهو فى الخامسة والعشرين من العمر. وكان هذا الزواج نقطة تحول فى حياة محمد ﷺ، وكان دعمها له أمرًا حاسمًا فى بدايات النبوة. «فكما ذكرنا بوضوح، كانت خديجة تدعمه وتشجعه وترفع من ثقته بنفسه ومن إيمانه برسالته»[٥٠]، وقد عاش الاثنان حياة

زوجية سعيدة لمدة خمسة عشر عامًا قبل أن تتوفى خديجة التى انكسر قلب محمد ﷺ عقب وفاتها.

كانت عائشة أصغر زوجاته التى كانت تُعرف بقوة إرادتها ودقة ملاحظتها وفصاحتها وذكائها. روت عائشة كثيراً من الأحاديث عن النبى ﷺ ؛ لأنها كانت تتميز بالنباهة، وقضت سنوات كثيرة فى صحبة النبى ﷺ وعاشت عقوداً عديدة بعد وفاته ﷺ. لما شعر النبى ﷺ بدنو أجله، آوى إلى حجرة عائشة التى قامت على رعايته فى مرضه لأيام قليلة، ثم دفن فى قبر حفر فى أرضية حجرتها. نشطت عائشة بعد وفاة النبى ﷺ فى الحياة السياسية لهذا الوقت، فكانت بين ما يقرب من ألف رجل خرجوا فى مهمة للحيلولة دون مقتل عثمان بن عفان، الخليفة الثالث، ثم أصبحت أحد القادة الثلاث المناهضين لعلىّ بن أبى طالب، وفيما بعد ذاع صيتها فى حياتها نظراً لتقواها ومعرفتها بحديث النبى ﷺ وسنته، وبالشعر وبالتاريخ العربى وبموضوعات أخرى، ولفصاحتها أيضًا(٥١).

وبإلقاء نظرة عامة على النساء اللاتى برزن فى تاريخ العالم الإسلامى، يصبح من الواضح بشكل متزايد أن هناك نماذج قوية من النساء المسلمات، وأن حقوق المرأة من الأمور الحيوية فى الدين الإسلامى؛ لكن واقع المرأة فى الدول الإسلامية، شأنها شأن كثير من الدول الأخرى فى العالم، لا يتماشى مع المبادئ التى يعرف الجميع أنها صحيحة وعادلة. فكما تكافح النساء الأمريكيات للحصول على أجر مساو للعمل المساوى لأعمال الرجال، وللحصول على الحقوق الإنجابية والحضانة الميسورة للطفل، تكافح النساء المسلمات من أجل التعليم الإلزامى (فى أفغانستان) وحق قيادة السيارات (فى السعودية) وحق الحجاب (فى فرنسا وتركيا). وكما أن النساء الأمريكيات تتعالى طلباتهن للحصول على حقوقهن التى كفلها لهن الدستور، يتعالى احتجاج النساء المسلمات للحصول على حقوقهن التى نزلت فى القرآن والسنة.

إن الكثير من الحدود المفروضة على المرأة فى المجتمعات الإسلامية (وغيرها) نشأت من العادات، ويستمر وجود هذه الحدود لأن الناس يشق عليهم تغيير عاداتهم، والعالم الإسلامى يسلك مساراً مشابهًا للغرب فيما يتعلق باحترام الحقوق الاجتماعية، وتغيير تصور المجتمع حول ما هو مقبول بالنسبة لأدوار كلا الجنسين يحتاج إلى تغيير

يستمر أجيالاً؛ وكما أن دور الجنسين قد تغير بشكل مثير فى أمريكا، خاصة فى المائة عام المنصرمة، حيث طبقت أمريكا ملة إبراهيم لدرجة أكبر، فمن البديهى توقع أن تشهد المجتمعات الإسلامية التى تطبق العدالة التى ينادى بها الدين الإسلامى تحولات مماثلة.

وهذا هو السبب فى أن منح الحقوق السياسية هو أكثر السبل فعالية فى معالجة الشكوى المشروعة للنساء؛ لأن صندوق الاقتراع فى أمة تتبنى الديمقراطية بشكل متزايد هو الوسيلة التى من شأنها أن تحقق غاية كل مجموعة لها حق التصويت.

من معتقدات البروتستانت إلى معتقدات اليهودية المسيحية

يقف حائلاً أمام التقبل التام للمسلمين الأمريكيين فى الوقت الحالى عقبات مشابهة لتلك التى واجهت الكاثوليك واليهود الأمريكيين فى السنوات الأولى، وبدراسة لتقييم العقائد الدينية فى أمريكا، خاصة عقائد الكاثوليك واليهود الأمريكيين، نتعرف على أنماط التطور الاجتماعى والدينى للأمريكيين المهاجرين، الأمر الذى يفيد فى فهم ما يجرى وما يحتمل حدوثه فى المجتمع المسلم الأمريكى.

لا يعى معظم المسلمين أن ما يمرون به إنما هو ظاهرة اجتماعية وليست دينية، وأنه يماثل بشكل ملحوظ التجربة التاريخية للمهاجرين الكاثوليك واليهود، ورغم أن جذور تجربة المسلمين الأفارقة الأمريكيين متأصلة فى التجربة التاريخية للعبودية، وبالتالى فهى مختلفة اجتماعيًا، إلا أن المسلمين الأفارقة الأمريكيين يشتركون مع المسلمين المهاجرين فى الشعور بأنه ما زال الأمريكيون من غير المسلمين ينظرون إلى دينهم بعين الريبة والعداء[٥٢]. وهذا ما استشعره الكاثوليك واليهود منذ قرن مضى. وإذا سارت تجربة المسلمين على نفس منهاج تجربة الكاثوليك واليهود، فسوف يستغرق الأمر جيلاً آخر أو جيلين قبل أن يصل المسلمون الأمريكيون إلى ما حققه أسلافهم من الكاثوليك واليهود فى منتصف القرن العشرين حين تمكنوا من إقامة هويتهم الكاثوليكية واليهودية ليس بمعزل عن هويتهم الأمريكية أو بالرغم عنها، بل معها ومن خلالها على وجه التحديد.

لذا فإن الضرورة الملحة فى يومنا هذا هى أن نجد سبلاً لتعجيل العملية التى تمكن المسلمين الأمريكيين من ترسيخ هويتهم الإسلامية، ليس بمعزل عن هويتهم الأمريكية، أو بالرغم عنها، بل معها ومن خلالها على وجه التحديد.

لذلك يجدر بالأمريكيين المسلمين، وغير المسلمين المهتمين بقضايا المسلمين محليّا ودوليّا، أن يدرسوا هذا التاريخ وهذه التجربة؛ لأن هذه المعرفة تساعد على تخطيط مسار الإسلام الأمريكى ودوره المحتمل كوسيط بين أمريكا والعالم الإسلامى، وكذلك دوره فى تشكيل العالم الإسلامى على مستوى الكون.

وعلى الرغم من أنه لم يكن كافة المهاجرين الأوائل من أوروبا من المتطهرين، بل كان أغلبيتهم من البروتستانت، وعلى الرغم من مُثل إعلان الاستقلال والدستور، إلا أنهم جلبوا معهم التحامل على غير البروتستانت وغير البيض.

ورغم قيام الكاثوليكية على الشواطئ الأمريكية منذ البداية، إلا أن قصتها تحكى ما هو أكثر من مجرد قصة كنيسة أجنبية ناضلت من أجل نيل مكانة فى الحضارة الأمريكية المتنامية. فقد لعب الاستيطان الكاثوليكى المبكر فى ولاية مارى لاند فى القرن السابع عشر، ومركز الكاثوليكية فى مدينة نيو أورليونز الذى تم تملكه من صفقة شراء لويزيانا عام ١٨٠٣م، ومركز الكاثوليكية فى الجنوب الغربى المشترى من المكسيك عام ١٨٤٨، أدواراً أقل فيما أصبح يعرف بالكاثوليكية الأمريكية مما لعبه الدور الأيرلندى الذى نتج من الهجرة الأيرلندية الكبرى فى القرن التاسع عشر.

قضى الكاثوليك أوقاتًا عصيبة فى أمريكا المستعمرات، فتم حظر كنائسهم فى معظم المستعمرات، وتعرض بعض منها للاضطهاد الشديد، كما أبقت بعض الولايات قوانين التمييز حتى القرن التاسع عشر. وفى دولة تطابقت فيها البروتستانتية مع الشخصية الأمريكية الجديدة فى العموم، أصبح تخلص المرء من الهوية الأجنبية هو وسيلة ليصبح أمريكيّا؛ لذا كان من الصعب الإبقاء على الكاثوليكية خاصة فى معارضتها العقائدية والاجتماعية لُمثل البروتستانتية والتطهرية، فتحول بعض المهاجرين الكاثوليك بالفعل إلى البروتستانتية، وارتد العديد منهم، وظلوا بكل بساطة غير تابعين لأية كنيسة.

وجلبت الهجرة من أوروبا فى القرن التاسع عشر أعداداً هائلة من الكاثوليك الأيرلنديين إلى أمريكا. وكانت الحركة المناهضة للكاثوليكية فى أمريكا موجهة فى المقام الأول ضد «الأجانب» الأيرلنديين الذين كان يعتقد أنهم يمثلون خطراً على سبل عيش الأمريكيين «المحليين»، وكذلك على ثقافتهم ودينهم وأسلوب حياتهم الأمريكى؛ كما كانت تواجه الأيرلنديين شعارات دعائية «مطلوب عاملين، من غير المرغوب أن يتقدم أى أيرلندى»، بل تعرضت كنائس الكاثوليك الأيرلنديين للإحراق التام وتسويتها بالأرض(٥٣)؛ ولكن قام الأيرلنديون عبر الوقت المناسب بتعريف الولايات المتحدة بالكنيسة الكاثوليكية، كما أنجزوا مهمة ضرورية ألا وهى الوساطة بين الكنيسة الكاثوليكية كهيئة أجنبية وغريبة وبين الحضارة الأمريكية الناشئة(٥٤)؛ ولذا يشير أحد المؤرخين الكاثوليك إلى أنه: «لم يكن عمل الأيرلنديين على أمركة الكاثوليك من جنسيات أخرى أقل مساهماتهم شأناً»(٥٥).

عجّل التقدم السريع إلى حد ما الوضع الاجتماعى والثقافى للأيرلنديين والألمان والإيطاليين والمجموعات الكاثوليكية العرقية الأخرى، فى أمركة الكنيسة الكاثوليكية ورسوخ أقدامها فى المجتمع الأمريكى بشكل ملحوظ؛ ومع التقدم المميز لأسلوب الحياة الأمريكى، لعبت الكنيسة دوراً حاسمًا كأداة لتحقيق الطموحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لجماعات المهاجرين المصممة على إعلاء شأنها من أجانب فقراء إلى أمريكيين من الطبقة الوسطى(٥٦). وعجلت الكنيسة من خلال شبكتها المنتشرة من المؤسسات والأنشطة(٥٧)، وبالأخص من خلال المدارس والكليات الكاثوليكية، بظهور الطبقة الوسطى الكاثوليكية وتمكين المجتمع الكاثوليكى من اكتساب طابع أمريكى أكثر ـ حيث كانت أمريكا بلا منازع دولة الطبقة الوسطى. ومع إحراز قطاعات كبيرة من المجتمع الكاثوليكى للتقدم، كانت الكنيسة تحقق تقدمًا هى الأخرى. وهكذا نشأت إمكانية أن يصبح المرء أمريكيًا دون ابتعاده عن الكنيسة، ليس هذا فحسب بل أمكن أن يصبح كذلك على وجه التحديد من خلال كونه كاثوليكيًا، وبهذا التطور الحاسم، اتفقت السياسة طويلة المدى للكنيسة الأيرلندية مع التوجهات الأساسية للمجتمع الأمريكى المعاصر وعزز كلٌ منهما الآخر(٥٨).

يبلغ عدد المهاجرين المسلمين اليوم فى أمريكا حوالى ٦٠ فى المائة من إجمالى السكان المسلمين البالغ عددهم سبعة ملايين، ويرى المهاجرون أنهم يعيشون من جديد قدراً كبيراً من التجربة الكاثوليكية. إذ تعكس أغلب المساجد والمراكز الإسلامية السوسيولوچيا والديموجرافية المتغيرة لروادها. فعلى سبيل المثال، تميل المساجد فى مدينة نيويورك إلى إبراز الهوية العرقية بمذاق أمريكى أفريقى، أو أمريكى لاتينى، أو بمذاق المهاجرين، والأخير يتسع ليشمل نطاقًا من الحضارات العربية والبنغالية والپاكستانية والتركية والألبانية، إلى جانب الحضارة الإندونيسية وحتى حضارة غرب أفريقيا المتحدثة بالفرنسية. لقد وصل الجيل الجديد من المسلمين المولودين فى أمريكا لسن الرشد، وبينما يبلغ هذا الجيل والجيل التالى مبلغ النضوج، سوف يحتاجون إلى تشكيل هويتهم الإسلامية فى السياق الثقافى الأمريكى؛ لذا فإن المدارس الإسلامية الخاصة هى من بين أهم الجبهات الأساسية التى يدور فيها هذا التحدى، كما كان الوضع مع الكاثوليك.

كان التنقيح الثورى للفكر الكاثوليكى بشأن قضية الكنيسة والدولة يتوافق مع التجربة والتقاليد الأمريكية مظهراً آخر من مظاهر أمركة الكاثوليكية الأمريكية، حيث كان الموقف التقليدى للكنيسة حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر هو التأكيد على اتحاد الكنيسة والدولة فى نموذج الدولة الملكية الكاثوليكية، بيد أنه فى بداية القرن العشرين، بدأ الأساقفة ورجال الدين الأمريكيين فى اتباع نهج جديد، ففى عام ١٩١٦، صرح الكاردينال «جيبونز» بدون تردد:

> يفضل ستة عشر مليونًا من الكاثوليك النموذج الأمريكى للحكم عن أى نموذج آخر. فهم معجبون بمؤسساته وقوانينه، كما يقبلون الدستور بدون تحفظ ولا أية رغبة منهم باعتبارهم كاثوليكًا فى تغيير أى من ملامحه، كذلك يبدو لهم فصل الكنيسة عن الدولة فى هذا البلد نظامًا طبيعيًا حتميًا على أحسن ما يتصور، وهو النظام الأمثل فى العمل فيما بيننا من أجل صالح الدولة والدين على حد سواء. فأى تغيير فى العلاقة بينهما سوف يثير التوجس فى الكاثوليك؛ لأنهم بالفعل يدركون جيداً أن الكنيسة هنا تتمتع بحرية أكبر ومكانة آمنة أكبر منها فى أى بلد اليوم تتوحد فيه الكنيسة والدولة وبالطبع لم يحلم أحد بأية مؤسسة دينية هنا، ولكن إذا

تمت محاولة ذلك، فسوف تقابل بمعارضة موحدة من الشعب والكهنة والأساقفة الكاثوليك[٥٩].

بعد حوالى اثنين وثلاثين عامًا، أى فى ١٩٤٨، صرح رئيس الأساقفة جون تى ماك نيكولس، نيابة عن هيئة الكهنوت الأمريكية أجمعها قائلاً: «ننفى تمامًا وبدون تحفظ أن الأساقفة الكاثوليك فى الولايات المتحدة يسعون لتوحيد الكنيسة والدولة ببذل أية محاولات من قريب أو من بعيد. وإذا أضحى الكاثوليك الأغلبية فى المستقبل فى بلادنا، فإنهم لن يحاولوا توحيد الكنيسة والدولة[٦٠]. . . . » وهكذا أمسى الرأى الكاثوليكى بحلول منتصف القرن العشرين متفقًا فعليًا مع التقاليد الأمريكية المتجسدة فى التعديل الأول.

وربما كان الأمر الأهم هو إعادة توجيه التفكير الكاثوليكى حول هذه المسألة على المستوى الدينى. فقد أجرى جون كورتنى موراى عضو جمعية المسيح وأحد أبرز رجال الدين الكاثوليك الأمريكيين مراجعة منهجية للفكر الكاثوليكى حول قضية الكنيسة والدولة، وقام بتطوير رؤية ونهج قادرين على ربط العقيدة الكاثوليكية الأساسية بالديمقراطية الأمريكية بطريقة لا تسىء إلى أى منهما، وأحدث ذكاء وقوة حجة مؤلفاته انطباعًا عميقًا تجاوز حدود الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية، ورغم ما قوبل به فكر موراى من معارضة شرسة من بعض رجال الدين الأوروبيين وبعض رجال الدين الأمريكيين ذوى العقليات التقليدية، إلا أن هذه التيارات الفكرية الجديدة شقت طريقها بقوة إلى الڤاتيكان، وكان لها إسهامات فعلية فى الڤاتيكان الثانى.

وربما جاء أكبر دليل ملفت للنظر على أمركة الكنيسة الكاثوليكية، قرب منتصف القرن العشرين عندما بدأ الأمريكيون الكاثوليك وغير الكاثوليك على حد سواء فى اعتبار الكاثوليكية واحدة من أكبر ثلاث عقائد فى أمريكا.

فبحلول الربع الثانى من القرن العشرين، كان الكاثوليكى الأمريكى، كغيره من الأمريكيين، يعتبر كنيسته واحدة من «ديانات الديمقراطية» الثلاثة، جانبًا إلى جنب مع الدينين الآخرين، فهو لا يتخيل أمريكا بدون الپروتستانت واليهود ـ حتى لو اعتراه الشك العميق تجاه الپروتستانت ولم يتحرر من مشاعر معاداة السامية . . . . فتحت

ضغط السياق الأمريكي الذى قاموا بتكييف أنفسهم معه بنجاح، تعلم الكاثوليك الأمريكيون ـ مثل اليهود الأمريكيين وجزء من البروتستانت الأمريكيين ـ العمل برؤية مزدوجة: إحداهما من زاوية مجتمع صغير مغلق داخل الكنيسة ومجمع المؤسسات الكاثوليكية الخاص بهم، والأخرى من زاوية عالم ثلاثى الأطراف يقتنع فيه الكاثوليك والبروتستانت واليهود بالتعايش المنسجم، إذا لم يكن بالتعاون تحت الحماية المعطاءة للديمقراطية الأمريكية(٦١).

فى الوقت الحالى، يعمل المسلمون الأمريكيون ـ خاصة فى مراكز مساجد المهاجرين ـ برؤية مزدوجة مماثلة: من زاوية مجتمعهم الصغير ومؤسساتهم العرقية الخاصة، والتى ترتبط غالبًا برؤية وطنهم الأصلى للعالم، ومن زاوية فى مجتمع أوسع أكثر تعددية وديمقراطية.

يشير المؤرخ ويل هربرج فى مؤلف له كتبه فى منتصف القرن العشرين على وجه حاسم إلى أن «الشعب الأمريكي يصغى إلى الكاثوليكية باحترام وانتباه؛ لأنها صارت إحدى أهم (عقائد الديمقراطية) الثلاثة، وليس لأنها ادعت حقها فى التحدث باعتبارها الكنيسة العالمية»(٦٢).

بعد اندماجهم فى أسلوب الحياة الأمريكي، تبنى الكاثوليك الأمريكيون جوانب أساسية من الأخلاق التطهرية ملة إبراهيم التى أصبحت فى الحقيقة مظلة الدين الشامل لكل الأديان التى يمكن أن تندرج تحتها مباشرة، لكن حيث إن الكاثوليك الأمريكيين يمارسون شعائرهم وطقوسهم الدينية الخاصة، فإن المعتقد البروتستانتى احتاج إلى توسيع، ولم يستطع الكاثوليك القول بأنهم جزء من «المعتقد البروتستانتى»، لكن كان يمكن أن يكونوا جزءًا من المعتقدات «المسيحية».

كما سوف نرى لاحقًا، نهج اليهود الأمريكيون نهجًا مشابهًا حتى صاروا جزءًا من المجتمع الأمريكي، وهكذا اتسع معتقد البروتستانتية ليشمل حتى من هم خارج الدوائر المسيحية، وأضحى المعتقد المسيحى اليهودى السمة المميزة للدين الأمريكي فى القرن العشرين.

ومع أن أوائل اليهود قد وصلوا إلى أمريكا فى عام ١٦٥٤، إلا أن اليهودية الأمريكية هى فى الأغلب نتاج الموجة الضخمة للهجرة من ألمانيا وأوروبا الشرقية فى

القرن التاسع عشر. وسهل القدر الواسع من تشتتهم والازدهار النسبى الذى حققوه، انسجامهم فى الحياة الأمريكية على نحو رائع. وكانوا بحلول منتصف القرن التاسع عشر قد شرعوا بالفعل فى تشييد شبكة من المؤسسات المجتمعية (من كنيسات ومستشفيات ومدارس ومراكز مجتمعية) عكست ظروف التوطين، وليس مجرد العادات التى انحدرت من الماضى، أو جاءوا بها من الخارج[٦٣].

بذلت محاولات متفرقة لتوحيد المجتمع اليهودى فى منظمة جامعة وإقامة سلطة مركزية لليهود الأمريكيين، لكن باءت بالفشل. وظل اليهود الأمريكيون غير مترابطين، وتفرقوا فى تنظيمات مستقلة وعزفوا عن اتباع اليهود البريطانيين فى تأسيس مجلس رسمى للنواب اليهود، وفى هذا الصدد كانوا أمريكيين نهجوا عن كثب نمط اللامركزية والنزعة الاختيارية التى يتبعها البروتستانت الأمريكيون[٦٤].

فى بداية القرن العشرين، وصل ما يقرب من ١,٧ مليون يهودى من شرق أوروبا إلى أمريكا، وحيث إنه كان هناك اندماج تام بين دين وثقافة المهاجرين حتى بدا التمييز بينهما متعذرًا ـ كما هو الحال الآن بالنسبة للعديد من المهاجرين المسلمين ـ فقد واجه المهاجرون من أوروبا الشرقية أزمة شديدة فى تعاملهم مع أبنائهم وبناتهم المولودين فى أمريكا ـ ويحدث هذا للعديد من الأهالى المسلمين اليوم، فقد نبذ الجيل الثانى الذى وُلد وتربى فى العالم الجديد ـ والمتلهف بشدة لأن يكون أمريكيًا تمامًا ـ الصفة الأجنبية عن أهاليهم، الأمر الذى قد عنى فى بعض الأوقات نبذ اليهودية. وأحست حركة المحافظين الجدد اليهودية، وهى حركة أكثر تقليدية من حركة الإصلاح لكنها أمريكية على قدم المساواة معها، بأن الفرصة قد سنحت لها، فحدد رئيس المعهد الدينى اليهودى سليمان شيشتر مسارات التطور التى يجب أن تتبعها اليهودية الأمريكية، وتوقع الموت التام للثقافة اليدية، وحث اليهود الأمريكيين على الشعور بأنهم فى وطنهم فى أمريكا، وأن يجيدوا الإنجليزية ويتعلموا العبرية[٦٥]. كما ظهرت عقيدة أمريكية يهودية قويمة فى عشرينيات القرن الماضى عندما أقيمت المؤسسة التعليمية الدينية التابعة لها، وهى جامعة يشيفاه بمدينة نيويورك، والمجلس الحبرى، واتحاد اليهود الذى عرف بالاتحاد اليهودى الأرثوذكسى.

كانت حركة إعادة تهويد اليهود لمؤسسها موردخاى كابلان محاولة جادة لكسب الجيل الأمريكى الثانى، وهى حركة ناضلت من أجل دمج اللاهوت الليبرالى مع مفهوم اليهودية الذى رأى أن اليهود فى أمريكا يعيشون فى حضارتين، الأولى الحضارة الأمريكية والأخرى اليهودية. لاحظ هنا التشابه مع تجربة الكاثوليك الأمريكيين، التى فرقت بين البعد الدينى أو «الرأسى» للإيمان والبعد الاجتماعى أو «الأفقى» له فى محاولة لإدخال أسلوب الحياة الأمريكى كجزء من الهيكل الاجتماعى للعقيدة الخاصة بهم.

اتسم شكل وصورة الديانة اليهودية الأمريكية بحلول منتصف القرن العشرين بانسجام بعيد المدى مع النمط الأمريكى للحياة الدينية، فكان النظام المؤسسى مماثلاً فعليًا لنظام الكنائس البروتستانتية الكبرى - نفس هيكل الشركة، ونفس انتشار النوادى، وجمعية الراهبات، وتجمعات صغار رجال الدين، وجماعات الشباب، وحلقات المناقشة، ومشروعات تعليم الكبار وغيرها، غير أن «تنظيم الكنيس اليهودى والملحقات التقليدية للعبادة والمراسم الدينية، بيّن آثار التغيير الذى صنعه المناخ الأمريكى»(٦٦). بل إن المكان المركزى للوعظ والإنشاد الجماعى والكورس المختلط وآلات الأرغن والصلوات المستجابة والقداسات القصيرة والبركة الختامية والعديد من المظاهر الأخرى المعترف بها عمومًا عكست بوضوح التأثر بالممارسة البروتستانتية المعتادة(٦٧).

جاء أغلب اليهود الأمريكيين إلى أمريكا من أوروبا الشرقية فى وقت كانت تنهار فيه جدران معازل اليهود، وعندما بدأ المجتمع اليهودى فى أوروبا الشرقية يشعر بآثار القوى الفكرية والاجتماعية لعصر التنوير، وخلال جيل أو اثنين، أجبر عامة اليهود فى أوروبا الشرقية على الانتقال مباشرة من العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر أو العشرين، ثم تصاعد الاضطراب والتشتت مع التوقف المفاجئ لماضيهم الذى تم مع استئصال جذورهم وإعادة توطينهم فى العالم الجديد، فكما يشير هربرج أن: «الحاخام اليهودى الأرثوذكسى الذى كان النوع الوحيد من الحاخامات المعروف لأغلب مهاجرى شرق أوروبا بدا لأسباب مختلفة غير مستعد وغير قادر على أن يكون أداة ربط بين جماعته العرقية المهاجرة والمجتمع الأمريكى الواسع على النحو الذى تمكن به الكاهن الكاثوليكى أو القسيس البروتستانتى من القيام بهذه المهمة لجماعته. وعلى النقيض من

ذلك، كان الحاخام الأرثوذكسي ينزع إلى فصل نفسه عن العالم الجديد الذي وجده غريبًا وغير مقبول»[٦٨]، ولكن تغير كل هذا منذ بدء العقيدة الأرثوذكسية اليهودية في التأقلم مع البيئة الأمريكية.

وكثيرون من الأئمة الأمريكيين المهاجرين المعاصرين الذين جاءوا من غرب أفريقيا والشرق الأوسط وباكستان وبنجلاديش وإندونيسيا غير مؤهلين للعمل كأداة ربط فعالة بين مجتمعاتهم والمجتمع الأمريكي الأوسع، وحتى فيما يخص الأئمة الأمريكيين الأفارقة الذين نشؤوا في عصر الحقوق المدنية عزلتهم تجربة الفصل العنصري عن غالبية الشعب الأمريكي الأبيض في وقت مبكر. إن العمل كصلة مؤثرة بالمجتمع الأمريكي الواسع يتضمن تحديات فريدة، ومع ذلك أخذ هذا الوضع يتغير مع ظهور أئمة شباب على الساحة يتمتعون بثقافتين ومرتبطين بشكل متزايد بقضايا وهموم جيل الشباب.

لقد أصبح المجتمع اليهودي بحلول منتصف القرن العشرين جزءًا لا يتجزأ من المجتمع الأمريكي، وأصبح اليهود الأمريكيون، مثل الكاثوليك الأمريكيين، حاليًا في وضع يمكنهم من إقامة هويتهم اليهودية ليس بمعزل عن هويتهم الأمريكية أو رغمًا عنها بل معها ومن خلالها على وجه التحديد؛ لذا حققت الديانة اليهودية مكانتها في أسلوب الحياة الأمريكي باعتبارها من عقائد الديمقراطية الثلاثة[٦٩].

والمفارقة أن الكفاح الذي خاضه الكاثوليك واليهود خلال المجتمع البروتستانتي أدى إلى علمنة المشهد الديني الأمريكي، فلم تكن مخاوف البروتستانت من الكاثوليكية في الأصل مخاوف دينية أو عقائدية، كما كانت في القرون المنصرمة في أوروبا؛ بل كان لها طبيعة **علمانية**، حيث كان المذهب الكاثوليكي الذي يخشاه البروتستانت «غير أمريكي، وغير ديمقراطي، وبعيدًا عن الأساليب الأمريكية والأمريكيين ويميل إلى وضع ولائه للكنيسة فوق ولائه للدولة وللأمة»[٧٠]. وبالمقارنة مع الكنائس البروتستانتية، كان للكنيسة الكاثوليكية تنظيم عالمي، لذا كان البروتستانت الأمريكيون الذين أيدوا الفصل بين الكنيسة والدولة يحاولون ضمان ألا يستولي ما اعتبروه قوة تنظيمية ساحقة ـ الكاثوليكية ـ على أمريكا، مما يسفر عن اتحاد الكنيسة **الكاثوليكية** والدولة في أمريكا.

تتردد أصداء شكوى البروتستانت الأمريكيين من غياب الفصل بين الكنيسة والدولة في المجتمعات الكاثوليكية في منتصف القرن العشرين الآن في شكاوى المسلمين الأمريكيين وآرائهم في الكنيسة والدولة. إذ يشعر المسلمون الأمريكيون بأن الكثيرين من الأمريكيين المعاصرين من غير المسلمين يعتبرونهم غير أمريكيين؛ ولأنهم لا يؤمنون بالديمقراطية، فإنهم يعتبرونهم غرباء على الأساليب الأمريكية، وأنهم يرفضون مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة حتى في أمريكا.

لقد أوضحنا أنه عند وصول المسيحية واليهودية إلى أمريكا، قام كلٌّ منهما بمرور الوقت بتطوير شخصيته وهويته الأمريكية المتميزة - وأصبح لكلٍّ منهما في النهاية تأثير كبير في تحديث الديانة الأصلية على مستوى العالم. والفاتيكان الثاني واليهودية الأمريكية الحديثة أمثلة توضح ذلك، وتستحق هذه المسألة الدراسة؛ لأن لها تداعيات مفيدة على الإسلام في أمريكا.

لم يكن مجلس الفاتيكان الثاني الذي فتح المجال أمام إقامة علاقات بين الكنيسة والأديان الأخرى ليفعل هذا بدون الدور الذي قام به الكاثوليك الأمريكيون، وكان هذا تسجيلاً لتلك اللحظة التي تقبلت فيها الكنيسة الكاثوليكية العالم الجديد وتغيرت فلسفيًا - باستخدام تعبير أحد المعلقين - من الطابع القديم «للتزمت والاستهجان» إلى «الرحمة والتفاهم» - وهو التحول الذي يرغب العديد من الأمريكيين أن يشهدوه في الإسلام. وبدأت الكنيسة في تشجيع الحوار بين الأديان والقول بأن الأديان الأخرى لا يجب التسامح معها فقط بل واحترامها أيضًا، وفي تصحيح لتعاليم معادية لليهود استمرت لقرون، نص بيان مجمع الفاتيكان الثاني حول علاقات الكنيسة بالأديان غير المسيحية على: «رفض الكنيسة لجميع أنواع الاضطهاد ضد أي إنسان، ووعيًا منها للإرث الذي تشاطره مع اليهود، وتدين الكنيسة الكراهية والاضطهاد وصور معاداة السامية الموجهة ضد اليهود في أي وقت ومن أي شخص، ولم يكن وراءها في هذا دوافع سياسية، بل الحب الروحي الذي نص عليه الإنجيل».

وبسطًا لإحساس الشمولية هذا، يضيف البيان قائلاً: «لا يمكننا حقيقة أن نسأل الله، أب الجميع، إذا أبينا أن نعامل على نحو أخوي أي إنسان مخلوق في صورة

الرب، حيث إن علاقة الإنسان بالرب، الأب، وعلاقته بإخوانه البشر وثيقة الترابط كما يقول الكتاب المقدس: (وَمَنْ لاَ يُحبُّ لَمْ يَعْرف الله) (يوحنا ١، ٤ : ٨)»؛ ويضيف بيان الڤاتيكان الثانى عن الحرية الدينَية تحت عنوانَ (Dignitatis Humanae) دعمه لحرية ضمير الفرد حين يقول: «كل إنسان عليه واجب، ومن ثم حق له طلب الحقيقة فى أمور الدين، حتى يصل باستخدام الوسائل الملائمة والفطنة إلى أحكام صائبة وقويمة صادرة عن ضميره».

يرى العديد من المراقبين داخل الكنيسة الكاثوليكية أن القساوسة والأساقفة والكاردينالات الأمريكيين قدموا دعمًا حاسمًا لخطوات الڤاتيكان الثانى تجاه التجديد الروحى والتعددية والشمولية.

أدرك المراقبون اليهود، على نحو مماثل، الأثر الذى أحدثه المجتمع والسياسة ومناخ الحرية الدينية فى أمريكا على الديانة اليهودية، حيث ازدهرت اليهودية المحافظة والإصلاحية فى مجتمع الولايات المتحدة المنفتح نسبيًا، كذا لاحظ المؤرخون اليهود أن أمريكا كانت أول دولة عاش فيها اليهود فى مجتمعات غير خاضعة للفصل العنصرى [الجيتو، كما كان الحال فى أوروپا]. وهكذا عايشت اليهودية ـ من خلال التعايش مع الديانات الأخرى فى مناخ المجتمع الأمريكى الحر ـ فصلاً بين المظاهر الروحية والمظاهر الثقافية المحضة فى عقيدتها، فى حين كانت العادات الدينية والثقافية متشابكة بشدة فى السابق، ولم يكن مثل هذا الفصل قائمًا، فكانت النتيجة فى نهاية المطاف تبنى يهود الثقافة الأمريكية نمطًا متميزًا من اليهودية يعكس قيم المجتمع التعددى الحر.

تطورت أخيرًا الديانة المسيحية واليهودية بنمائهما فى التربة الأمريكية الفريدة بأساليب متميزة عن الأديان فى بلاد المنشأ الأوروپية. وبدوره قام هذا النتاج الأمريكى برأب الفجوة بين الدين والممارسات الأمريكية فى الخارج.

يمكن أن نرى من خلال هذا الجزء الضئيل من التاريخ اليهودى والكاثوليكى أنه من المؤكد أن الإسلام فى أمريكا لا بد أن يتطور عاجلاً أو آجلاً، بحيث يكون له هو أيضًا أثر عميق على الإسلام فى العالم الإسلامى، فثمة اعتقاد قديم ساد بين بعض المسلمين بأن نهضة الإسلام ستقوم فى الغرب؛ لذا يمكننا بمساعدة أسلافنا اليهود والمسيحيين على الأرض الأمريكية التعجيل بهذه العملية لصالح البشرية جمعاء.

يمكن أن يجد المسلمون الأمريكيون ـ استناداً إلى النموذج الكاثوليكي اليهودي ـ سبلاً لممارسة عاداتهم وجعلها معترفًا بها من قبل المجتمع الأمريكي الأوسع، وقد قدمت في الفصل الثالث السابق مقترحات لتطبيق الشريعة الإسلامية بأساليب تقرها المحاكم الأمريكية، ويستطيع المجتمع الإسلامي أن يحذو حذو المجتمع اليهودي في تأسيس ما يوازي بيت الدين بالعبرية، وهو نظام قانوني خاص باليهود الأرثوذكس يفصل فيه قضاة من الحاخامات في القضايا وقراراته ملزمة قانونيًا في المحاكم الأمريكية؛ لأن القضايا «تتم إدارتها على نحو متوافق مع متطلبات قانون التحكيم العلماني»[٧١]. وقد مهدت التجربة الكاثوليكية واليهودية في أمريكا الطريق أمام المسلمين حتى يحظوا بالاعتراف بمتطلباتهم الدينية في المجتمع والقانون الأمريكي، ومن ثم المساعدة في التأثير على تطور الديانة الإسلامية خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد هذا الفهم للتاريخ الأمريكي الذي انبثق عن مجتمع أحيا ملة إبراهيم وعاش في ديمقراطية ليبرالية، دعونا نعود الآن لدراسة تفاعل أمريكا مع العالم الإسلامي منذ بدايات القرن العشرين فصاعداً.

الفارس الأبيض أم الاستيلاء العدائي؟

أمريكا في أفق العالم الإسلامي

١٩٠٠ـ الحاضر

لم تورط أمريكا نفسها في الشئون الأوروبية حتى بدايات القرن العشرين ـ كما سبق ذكره ـ لكن مع حلول الحرب العالمية الأولى، بدأ استدراجها للدخول في السياسة الأوروبية.

تولت إدارة وودرو ويلسون (١٨٥٦ـ١٩٢٤)، وهو حفيد راعي أبرشية، وابن قس في الكنيسة المشيخية، الحكم في أمريكا في الفترة من ١٩١٣م إلى ١٩٢١ . كان ويلسون إصلاحيًا تقدميًا مبدعًا يؤمن بمبادئ ملة إبراهيم، وسعى لتطبيق أفكارها على الحكم (وكان الاستثناء الأكثر بروزاً هو سجله الهزيل بشأن حقوق الأمريكيين السود)،

لقد آمن وقال إن الرئيس ينبغى أن يكون صوتًا وطنيًا فيما يخص شئون الشعب، وأن لا يفرض عليهم آراء لكن يفهم حاجاتهم، وأن الحكم الأخلاقى للشعب يحتاج إلى قنوات للتعبير عن نفسه. وعليه فإن دور الرئيس أن يستهل ويوجه التشريع الوطنى وفقًا لفهم رئيس الدولة لإرادة الشعب فى هذا الصدد.

كانت سياسات ويلسون الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية التى عرفت جميعًا باسم الحرية الجديدة (مأخوذة من عنوان لكتاب نشره عام ١٩١٣م) مفيدة فى تمهيد الطريق أمام الازدهار المتزايد والقيادة الدولية لأمريكا فى القرن العشرين، ودعمت مستويات إصلاحاته المؤسسية، وصقلت معنى الحياة فى مجتمع حر وديمقراطى، وبهذا وسع ملة إبراهيم وأخذها إلى مستويات جديدة.

كانت التشريعات التالية أمثلة على ذلك على مستوى الجبهة الداخلية:

* أيد - بعد انتخابه من خارج الآلية السياسية للأحزاب - التعديل السابع عشر للدستور، الذى تم التصديق عليه عام ١٩١٣، وينص على انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى عن طريق الاقتراع الشعبى بدلاً من انتخاب الهيئة التشريعية للولاية لهم، وقد منح هذا سلطة مباشرة للشعب بدلاً من الآلية السياسية التى كانت تحكمها مصالح جمة.

* أشرف على إنشاء نظام الاحتياط الفيدرالى عام ١٩١٤، والذى كان له أثر عميق على استقرار الاقتصاد الأمريكى من خلال السياسات النقدية، مثل زيادة أو تقليص عرض النقود ليتناسب مع الحاجة الوطنية، ومن خلال الإشراف على الصناعة المصرفية. كانت البنوك حتى ذلك الوقت تعتمد بشكل كامل على مواردها النقدية الخاصة، وبالتالى قد تكون عرضة للخطر جراء الإشاعات أو الأزمات المالية الخاصة رغم وضعها المالى الجيد، ولم يكن حدوث حالات إفلاس البنوك بالأمر الاستثنائى.

* إتاحة الائتمان والقروض للمزارعين من خلال قانون القروض الزراعية الفيدرالى لسنة ١٩١٦ الذى أنشأ اثنى عشر بنكًا من بنوك الأرض الفيدرالية من أجل توفير أموال لرهونات زراعية طويلة المدى بأسعار معقولة.

* أنشأ ويلسون فى العام ذاته لجنة التجارة الفيدرالية لمنع الاحتكارات التجارية (بسط سيطرة شركة أو مجموعة شركات على صناعة برمتها، ورفع الأسعار على نحو متكلف). كما سن فى الوقت نفسه تشريعًا يقر بحق النقابات فى القيام بالإضراب، والمقاطعة، والمرابطة أمام أبواب المؤسسات من أجل ثنى العمال عن الدخول.

* أدخل نظام العمل لثمانى ساعات فى اليوم لعمال السكك الحديدية على الخطوط بين الولايات.

* قام بتخفيض الضرائب على البضائع المستوردة عن طريق إلغاء الرسوم الجمركية.

* قدم فى ١٩١٦ قانونًا يحرم عمل الأطفال (والمثير أن المحكمة العليا أعلنت عدم دستوريته فى عام ١٩١٨).

* كما حقق ويلسون انتصارًا فى ١٩١٩ حين تم إصدار التعديل التاسع عشر على الدستور الأمريكى الذى أجاز حق النساء فى التصويت، والتصديق عليه عام ١٩٢٠.

إن التشريعات السابقة هى من بين المظاهر المؤسسية للديمقراطية الأمريكية (والرأسمالية **الديمقراطية** الأمريكية) التى يسلّم العديد من الأمريكيين أنها تنبثق بصورة طبيعية من الحكم الديمقراطى، بيد أن الأمر استغرق من الولايات المتحدة الأمريكية ما يربو على قرن من الزمان بعد وضع مشروع الدستور للتفكير فيها مليّا والعمل على تطبيقها. وبدون إجراء هذه الإصلاحات وغيرها على مدار القرنين الماضيين، لما كانت الديمقراطية الأمريكية الليبرالية كما هى اليوم. تلك بعض الإصلاحات الأساسية التى تحتاج الأنظمة الديمقراطية فى شتى أنحاء العالم إلى تطبيقها فهى بدونها نظم ديمقراطية غير ليبرالية، وغير قادرة على أن توفر لشعوبها نوعية الحياة التى ينعم بها الأمريكيون.

يحسب للقيادة الأمريكية إضفاء الديمقراطية على الرأسمالية الخاصة بهم من خلال تقديم التشريعات والاقتباس من الحركات الاشتراكية، الأمر الذى ساعد من هم أقل حظًا فى المجتمع على المشاركة فى الرخاء العام، وخلال سنوات الكساد الكبير احتدم الجدل حول ما إذا كانت السياسات الشيوعية أو الاشتراكية أفضل من الرأسمالية. واستكملت سياسات البرنامج الجديد لفرانكلين ديلانو روزفلت من عام ١٩٢٣ إلى

عام ١٩٤٥ تراث ويلسون فى تدعيم المؤسسات التى من شأنها حماية الاقتصاد الأمريكى ومبادئه الديمقراطية. وكان هذا الأمر هامًا من أجل بقاء النظام الأمريكى الديمقراطي حيث إنه أضعف حدة الرأسمالية المحضة عن طريق ضمان الأمان لشعبها، وتاريخيًا فإن البرنامج الجديد لفرانكلين ديلانو روزفلت أملته الحاجة إلى التعافى من الكساد الاقتصادى الذى تبع الانهيار المالى لسنة ١٩٢٩ وتحقيق استقرار الاقتصاد الوطنى بما يحول دون وقوع أزمات اقتصادية حادة فى المستقبل.

كان أوائل المتضررين من الانهيار المالى لسنة ١٩٢٩ هم المستثمرين فى الأوراق المالية والمودعين فى البنوك، فحمى قانون الأوراق المالية الفيدرالى (١٩٣٣م) من خلال الرقابة الفيدرالية على الإصدارات الجديدة للأوراق المالية وغير ذلك من السبل المستثمرين من الممارسات الاحتيالية. ثم توسعت تلك الحماية عندما أصدر الكونجرس قانون (١٩٣٤) الذى نص على تشكيل لجنة الأوراق المالية والبورصة لتنظيم البورصات؛ ولحماية المودعين فى البنوك، أصدر الكونجرس فى عام ١٩٣٣ قانون طوارئ المصارف الذى منح الرئيس صلاحية إعادة تنظيم البنوك المعسرة، والقانون المصرفى لسنة ١٩٣٣ الذى ضمن الودائع المصرفية عن طريق هيئة التأمين على الودائع الفيدرالية.

إن صناعة الإسكان إحدى أهم قاطرات الاقتصاد الأمريكى؛ لذا ضمت تشريعات الإسكان التى قدمها فرانكلين ديلانو روزفلت إنشاء شركة إقراض مالكى المنازل، وإدارة الإسكان الفيدرالية وهيئة الإسكان الأمريكية. وخطت الولايات المتحدة بإصدار قانون التأمين الاجتماعى فى عام ١٩٣٥ خطوة كبيرة تجاه توفير الأمان الاقتصادى لشعبها إذ يقدم هذا القانون إعانات التقاعد، وتعويضات البطالة، وخدمات الرفاهية للأمهات، والأطفال، والشيوخ، والمعاقين.

لا يزال الكثيرون فى العالم الإسلامى، خاصة فى الدول عالية الكثافة السكانية مثل إندونيسيا وپاكستان ومصر وتركيا، لا يتمتعون بتلك المزايا التى أصبح الأمريكيون يعتبرونها حقوقًا لهم **مضمونة وجزءًا من الديمقراطية الخاصة بهم**؛ لذا فإن ما يحتاجه المسلمون فى مجتمعاتهم وبشكل أكثر إلحاحًا من الديمقراطية القائمة على صناديق الاقتراع هو تطبيق رؤى محلية لهذه الإصلاحات التى كانت جزءًا من سياسة الحرية

الجديدة لويلسون والبرنامج الجديد لفرانكلين ديلانو روزفلت حتى يبلغوا ما قصده الرئيس تيدى روزفلت ببرنامجه «الصفقة المنصفة».

أنقذت «الصفقة الجديدة» لفرانكلين روزفلت بتغييرها لنظام المشروع الحر الأمريكى البلاد من أن تتبنى ـ ربما بطرق ثورية ـ إما النظام الاشتراكى أو الفاشى، ومع ذلك تعرض لإدانة بالغة من آخرين لم يروا فى سياسات روزفلت سوى مجرد تحجيم خطير للحقوق التى ضمنها نظام المشروع الحر.

وحيث إن أمريكا مشاركة الآن فى بناء الدولة فى العراق، وإلى حد ما فى أفغانستان، فإنه من المهم بمكان أن نأخذ فى عين الاعتبار أن ما يبحث عنه المسلمون إنما هو الحصول على العدالة.

عولمة إعلان الاستقلال الأمريكى

على الصعيد العالمى، تزامنت فترة رئاسة ويلسون مع الحرب العالمية الأولى، وكانت أمريكا فى ذاك الوقت دولة مهاجرين فى غالبيتها، وارتبطت جماعات المهاجرين المختلفة عاطفيًا بأطراف الحرب المختلفة، مما عقَّد عملية صناعة القرار أمام القادة الأمريكيين، وهو الأمر الذى جعلهم يقترحون اتخاذ موقف محايد يستحسنه الرأى المحلى.

بيد أن ويلسون كان واقعًا تحت الضغط للمشاركة فى الحرب، وكان على وعى تام بأن حكومات الحلفاء (الحكومة البريطانية والفرنسية والروسية) قد أبرمت اتفاقيات سرية مع بعضها البعض لتوسيع إمبراطورياتها من خلال خوض الحرب؛ فنصت اتفاقية سايكس پيكو السرية (١٩١٦م) على سبيل المثال على اقتسام بريطانيا وفرنسا للشرق الأوسط الذى كان معظمه جزءًا من الدولة العثمانية آنذاك؛ كما نصت اتفاقيات أخرى على ضم روسيا وإيطاليا لأجزاء مما يعرف الآن بتركيا، وعقب إدوارد ماندل هاوس المستشار السياسى لولسون عند النظر فى هذه الاتفاقيات السرية قائلاً: «إنهم صاغوها لتلد المستقبل»(٧٢).

ترجع أصول الجزء الأكبر من صراع القرن الماضى بين العالم الإسلامى والغربى

والذى يحمل نبرة دينية قوية إلى تحطيم الدولة العثمانية الذى تسبب فيه الغرب. وعلى القارئ أن يتذكر أن أسامة بن لادن ذكر هذا عندما أشار إلى «ما وقع منذ ثمانين عامًا» فى أحد تصريحاته التى بثها التليفزيون الأمريكى. ويعتبر معظم المسلمين أن تحطيم الدولة العثمانية، وخصوصا بعد العلمانية النشيطة التى أعقبتها فى تركيا وأنحاء أخرى من الشرق الأوسط، ما هى إلا سعى متعمد من جانب أوروبا والغرب لاستئصال شأفة الإسلام. لكن دعنا نتخيل أن موسولينى دمر الڤاتيكان وفرض أسلوب الزى المتبع فى الشرق الأوسط على الإيطاليين، ألم يكن العالم المسيحى ساعتها سيعتبر هذا موقفًا معاديًا للمسيحية يدعمه العالم الإسلامى؟

لخص ويلسون - الذى شعر بالقلق من نوايا حكومات الحلفاء لاستعمار المزيد من الشعوب - أمام جلسة مشتركة لأعضاء الكونجرس فى الثامن من يناير لعام ١٩١٨ الظروف والأهداف التى دفعته للمشاركة فى الحرب، وعبرت الأربع عشرة نقطة التى أوجزها عن مبادئه، وكان من بينها:

* لا نريد مزيدًا من الاتفاقيات السرية بين البلدان.
* تجرى الدپلوماسية والمفاوضات فى العلن دائمًا.
* حرية البحار.
* حرية التجارة.
* وضع نهاية للرسوم الجمركية والحواجز والعوائق الاقتصادية الأخرى.
* نزع السلاح بوجه عام، وإقامة عصبة للأمم تضمن الاستقلال والسلامة الإقليمية لجميع الدول.

نصت النقطة الثانية عشرة فى إشارة إلى المطامع الاستعمارية لدول الحلفاء فى الشرق الأوسط، والذى كان معظم أجزائه تحت هيمنة الدولة العثمانية على: «أنه يجب ضمان السيادة الآمنة للأجزاء التركية التابعة للدولة العثمانية، لكن يجب ضمان أمن ثابت لاشك فيه لحياة الجنسيات الأخرى الخاضعة حاليًا للحكم التركى، وضمان إتاحة الفرصة للتطور المستقل دون أى تحرش لهم». وتعنى هذه النقطة أن الشرق

الأوسط ينبغى ألا يتم تقسيمه بين القوى المحاربة، كما ينبغى أن تحصل الشعوب التى كانت قبل واقعة تحت حكم الأتراك على الاستقلال[٧٣].

تحدث ويلسون أمام الكونجرس فى الحادى عشر من فبراير لعام ١٩١٨م وحدد المبادئ الأربعة التى تقوم عليها التسوية السلمية، وكانت النقطة الثانية والثالثة كما يلى:

* ينبغى أن لا تنتقل الشعوب والأقاليم من سيادة لأخرى كما لو أنهم عبيد أو بيادق فى لعبة، وحتى لو كانت اللعبة الكبرى لتحقيق توازن القوى التى أصبحت الآن مذمومة للأبد.

* يجب أن تتم كل تسوية من التسويات الخاصة بالأقاليم فى هذه الحرب **فى مصلحة ولفائدة الشعوب المعنية بالأمر** وليس كجزء من مجرد أى تعديل أو تسوية لمطالب الدول المتنافسة[٧٤]... (استخدام الحروف السوداء من إضافتى)

لقيت اقتراحات ويلسون الخاصة بالسلام حماسًا متقدًا لدى أعضاء الكونجرس، لكن ليس من قبل حكومات الحلفاء حيث إنه كشف النقاب عن نواياهم، ولم يكن للولايات المتحدة فى ذاك الوقت أية مصلحة سياسية أو اقتصادية تذكر فى الشرق الأوسط. صرح ويلسون لمرافقيه على ظهر السفينة فى تعليقات غير مخصصة للنشر وهو فى طريقه إلى مؤتمر السلام فى عام ١٩١٩م قائلا: «إننى على قناعة من أنه لو لم تتم صياغة هذا السلام طبقًا لأسمى مبادئ العدل، فإن شعوب العالم سوف تكتسحه فى أقل من جيل واحد، أما إذا كان نوعًا آخر من السلام، فسينتابنى رغبة فى الفرار والاختفاء... لأن هذا لن يتبعه مجرد صراع فحسب بل طوفان»[٧٥].

لم يحقق الفارس الأبيض المنتظر وعوده بشكل تام تجاه العالم الإسلامى، فلم ينجح ويلسون فى جعل الحلفاء يمنحون الاستقلال لشعوب الشرق الأوسط، على الرغم من تأثير جهوده على إضعاف الأفكار الجارية فى ذلك الوقت؛ وأفضت اللعبة الكبرى - كما كانت تسمى - إلى تقسيم المنطقة الممتدة من شمال أفريقيا إلى أفغانستان بين بريطانيا وفرنسا وروسيا. إلا أن روسيا استمرت فى إثارة المشاكل أمام بريطانيا من خلال بذر الانشقاقات فى أفغانستان وإيران والعراق على وجه الخصوص.

كان ضغط ويلسون النشيط من أجل تأسيس رابطة للأمم عرفت فيما بعد بعصبة الأمم أبعد أثراً. واستمرت عصبة الأمم من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٦؛ وحيث إن الحكومة الأمريكية الفيدرالية كانت حكومة وطنية أسستها الولايات الأمريكية، فإنه يمكن للمرء أن يرى في محاولات ويلسون مسعى لفرض مفهوم إعلان الاستقلال والحقوق الثابتة المنصوص عليها فيه دولياً ونشر بذور شكل من أشكال الحكومة الدولية، خاصة في حل أسباب الصراع التي أدت إلى حرب في الماضي. لكن عصبة الأمم عجزت عن منع اندلاع الحرب العالمية الثانية. وأفضت هذه الحرب إلى خسارة فادحة في الأرواح والأموال، وألحقت دماراً هائلاً بالدول التي شاركت فيها إلى حد جعلها تخرج منها إما مدمرة أو أكثر ضعفاً، باستثناء روسيا والولايات المتحدة؛ ومع نهاية الحرب، كان معظم هذه الدول على استعداد لتقبل فكرة «لا للمزيد من الحروب» فيما بينها، كما تطورت عصبة الأمم تدريجياً لتصبح فيما بعد الأمم المتحدة.

أثارت مطالبة الحلفاء ألمانيا بدفع تعويضات بعد الحرب العالمية الأولى كراهية الألمان لهم، وسببت لهم مشاق مما وفر الظروف لبزوغ هتلر وحرب عالمية ثانية أشد دماراً من الأولى. ويأتي ما فعلته الولايات المتحدة في ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية على النقيض تماماً من هذا، حيث ساعدت أمريكا من خلال تقديم العون لهذين البلدين لإعادة بناء اقتصاديهما وإدخال الديمقراطية على خلق مناخ أصبحت فيه الحرب اليوم مع هذين البلدين أمراً لا يمكن التفكير فيه بغض النظر عن الخلافات التي قد تثور.

لا تختلف الصورة بالنسبة للعالم الإسلامي اليوم كثيراً عن هذا، وينبغي على الولايات المتحدة وحلفائها - لمصالحهم - التركيز على تطوير اقتصادات العالم الإسلامي وتسريع وتيرة تبني الإصلاحات الرأسمالية الديمقراطية التي بدونها لن يتقدم بناء الأوطان. وكما ذكرنا عدة مرات، فإن الإحباط الذي يعبر عنه العالم الإسلامي اليوم نتج جزئياً من التصور الواسع بأن الولايات المتحدة عملت على النقيض تماماً من ذلك في الماضي؛ حيث دعمت الأنظمة التي كانت تستنزف موارد بلادها بدلاً من توزيعها بصورة منصفة، ومن ثم زيادة مستوى رفاهية المواطنين.

قال فرانكلين ديلانو روزفلت، الذي تأثر بأفكار ومثالية سياسة الحرية الجديدة لويلسون وسياسة تحقيق العدالة لتيدي روزفلت، في رسالته السنوية إلى الكونجرس في

السادس من يناير ١٩٤١ : «مثلما تقوم سياستنا الوطنية فى الشئون الداخلية على الاحترام الجم لحقوق وكرامة جميع إخواننا داخل حدودنا، فإن سياستنا الوطنية الخاصة بالشئون الخارجية قائمة هى الأخرى على الاحترام الجم لحقوق وكرامة كل الدول كبيرها وصغيرها»[٧٦]، وعرف خطابه هذا «بخطاب الحريات الأربع» أمام الكونجرس حيث حدد فيه الحريات الأربع الأساسية، وهى كما يلى :

١ ـ حرية الكلام والتعبير ـ فى جميع أرجاء العالم .

٢ ـ حرية كل شخص فى عبادة الله بطريقته الخاصة ـ فى جميع أرجاء العالم .

٣ ـ التحرر من العوز، والذى يعنى عند ترجمته إلى مصطلحات عالمية التوصل إلى تفاهم اقتصادى يضمن لكل دولة توفير حياة سلمية سليمة لسكانها ـ فى جميع أرجاء العالم .

٤ ـ التحرر من الخوف، والذى يعنى عند ترجمته إلى مصطلحات عالمية خفض التسلح على نطاق العالم بالدرجة والطريقة الشاملة التى لا تكون أية دولة معها فى موقف يسمح لها بالعدوان المادى على أى من جيرانها فى جميع أرجاء العالم .

عندما فتح روزفلت الباب أمام تعليقات مساعديه فى المكتب البيضاوى، تساءل هارى هوپكنز أحد مستشاريه الرئيسيين عن عبارة «فى جميع أرجاء العالم»، وقال : «إنها تشمل أقاليم هائلة يا سيادة الرئيس» وأضاف قائلا : «لا أدرى كيف سيدخل شعب جزيرة جاوه فى دائرة اهتمام الأمريكيين» فرد روزفلت ردًا فطنًا عندما قال : «أخشى أن يكون هذا هو الحال فى يوم من الأيام، يا هارى، فالعالم آخذ فى الصغر حتى سيصبح شعب جاوه جيراننا الآن»[٧٧] .

يقول فورست تشرش الكاتب والكاهن الأكبر فى كنيسة كل الأرواح الموحدة بمدينة نيويورك : «إن خطاب الحريات الأربع يجد أساسه الأخلاقى فى كلٍّ من الملة المسيحية ورؤية المؤسسين»[٧٨]، وقد أوضحت بالفعل أن الملة المسيحية المنعكسة فى رؤية المؤسسين هى رؤية إسلامية تمامًا، كما أنها تشكل أرضًا مشتركة لجميع العقائد الدينية التى تعترف بالملة الإبراهيمية، حيث إن من طبيعة الخير الجلى أن يقره الجميع .

أعدت مفوضية حقوق الإنسان التابعة للمجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان، وكانت تترأس هذه المفوضية الناشطة الاجتماعية إلينور روزڤلت، بنت أخ ثيودور روزڤلت وأرملة فرنكلين ديلانو روزڤلت، وتبنت الأمم المتحدة الإعلان عام ١٩٤٨م.

أثارت المبادئ التى أعلنها ويلسون وفرنكلين ديلانو روزڤلت إعجاب العالم الإسلامى تجاه الولايات المتحدة، فتزايدت معرفة المسلمين بالديمقراطية الأمريكية وتأثيرها على التطورات فى أوروبا، فغذت رغبتهم فى إقامة أنظمة ديمقراطية مستقلة خاصة بهم.

كانت الحقوق المذكورة فى مواد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان البالغ عددها ثلاثين مادة توسيعًا لإعلان الاستقلال الأمريكى وميثاق الحقوق ومحاولة لعولمتهما فى الواقع، حيث تتضمن المواد الثلاثون حق الحياة والحرية والأمن الشخصى، وحريات الضمير والدين والرأى والتعبير والمشاركة والاجتماع، والتحرر من القبض التعسفى، والحق فى محاكمة عادلة نزيهة، والتحرر من التدخل فى الخصوصيه وفى البيت أو المراسلات، والحق فى الحصول على جنسية، والحق فى الحياة فى مجتمع آمن ومستوى معيشة ملائم، والحق فى التعليم، وفى الحصول على راحة ووقت فراغ؛ كما يؤكد الإعلان أيضًا على حقوق الأفراد فى الامتلاك، وفى افتراض براءة المرء حتى تثبت إدانته، وفى السفر من وطنه والعودة إليه وقتما يشاء، وفى العمل تحت الظروف المناسبة، وفى الحصول على مقابل مساو للعمل، وفى الانضمام للنقابات العمالية بحرية، وفى الزواج وتكوين أسرة، وفى المشاركة فى الحكم وفى الحياة الاجتماعية للمجتمع.

كل هذه الحقوق ما هى فى الحقيقة إلا توسيعًا لملة إبراهيم، وعليه فهى تشكل أساسًا اجتماعيًا لجميع الأديان الإبراهيمية: اليهودية والمسيحية والإسلام؛ وبالتالى فإن هذه الحقوق هى حقوق إسلامية، كما أنها حقوق عامة؛ لأنها تنبثق من الغريزة الدينية الأصلية والتى عرفناها سابقًا بأنها دين الفطرة، أى الدين الطبيعى الإنسانى بدرجة تعلقها بالعلاقات بين المجتمعات الإنسانية؛ لذا لا يمكن تسمية مجتمعات العالم الإسلامى بالمجتمعات الإسلامية ولا بالإنسانية ولا بالحرة حقًا طالما أنها تحرم المسلمين من تلك الحقوق.

دعوة أمريكا للمساعدة
فى القضاء على الشيوعية ١٩٥٣ ـ ١٩٨٩م

كان العالم الإسلامى حتى عام ١٩٥٢ مغرمًا لدرجة كبيرة بالولايات المتحدة، فأراد المسلمون على وجه العموم تطوير مجتمعاتهم وتحسين مستوى المعيشة فيها وفق الأساليب الغربية، ولكن لسوء الحظ ظهرت قوتان عظميان عقب الحرب العالمية الثانية تزامنتا مع مولد العصر الذرى. لم يستطع الاتحاد السوڤييتى والولايات المتحدة محاربة بعضهما البعض مباشرة؛ ولكنهما استخدما الحرب بالوكالة، مما أنشأ دوائر نفوذ فى كثير من بقاع العالم. وكان هذا هو عصر الحرب الباردة، وحددت حسابات تلك الحرب كثيراً مما حدث فى العالم الإسلامى وفى أجزاء أخرى من العالم (مثل كوبا ودول أمريكا الوسطى، على سبيل المثال).

وقد عاش المسلمون داخل وخارج حدود دوائر النفوذ السوڤييتية والأمريكية، فكانت جمهوريات آسيا الوسطى (تركمانستان وطاجيكستان وأوزبكستان وكازاخستان وقرغيزستان) جزءاً من الجمهوريات السوڤييتية. كما سارعت دول مثل تركيا وپاكستان إلى التحالف مع الغرب، حيث أصبحت تركيا جزءاً من حلف شمال الأطلسى (الناتو)، كذا تحالفت المملكة العربية السعودية ودول الخليج مع الغرب، خصوصًا بعد مناهضتها الواضحة والقوية للشيوعية لأسباب دينية، وإضافة لذلك أصبحت هذه البلدان مهمة بسبب احتياطيات النفط التى تقبع تحت أقدامها. كما كانت إيران وأفغانستان ومصر وإندونسيا المراكز السكانية الكبرى التى نشبت فيها معارك الحرب الباردة بالوكالة.

كانت دولة أو أخرى من القوتين العظميين تقوم بزعزعة الحركات الديمقراطية البازغة عندما كانت تشعر أن الأمور لا تسير فى الاتجاه الذى تريده، كما وجد الجانبان أنه من الأكثر طمأنينة لهما إقامة أنظمة استبدادية فى السلطة تضمن اتباع إما سياسة مناهضة للشيوعية أو مناهضة للغرب. ففى عام ١٩٥٣م أطاح مكتب المخابرات المركزية برئيس الوزراء الإيرانى المنتخب محمد مصدق، وبذلك اكتسبت عداء وعدم ثقة الشعب الإيرانى لعقود من الزمان[٧٩]، وحتى عندما أراد الإيرانيون تغيير النظام بعد

ربع قرن من الحكم الاستبدادى، رفضت الولايات المتحدة أن تدعم مبدأ موافقة المحكوم وجاء هذا بدوره مثالاً لمعارضة الولايات المتحدة لمبادئها الدستورية فى العالم الإسلامى. وفى عام ١٩٦٥م قتُل فى إندونيسيا ما يتراوح بين ثلاثمائة ألف ومليون شخص قيل إنهم شيوعيون أو متعاطفون مع الشيوعية. ثم ظهر سوهارتو كرئيس لإندونسيا بمساندة الولايات المتحدة. وباختصار، كان العالم الإسلامى فى الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٨٩ عندما انهار الاتحاد السوڤييتى وبدأت الحرب الباردة فى وضع نهايتها رسميًا، قطعة أساسية فى لوحة الشطرنج العالمية التى كانت تدور رحى الحرب الباردة عليها. واستخدمت الولايات المتحدة استغلال الإسلام المجاهد بالتعاون مع السعوديين والپاكستانيين لجعل أفغانستان ڤييتنام بالنسبة للاتحاد السوڤييتى.

مساهمة الوهابية فى إنهاء الحرب الباردة

استعرضنا سابقًا أصل الحركة الوهابية وترسيخ قوتها من خلال التحالف مع الأسرة السعودية. وذكرت أن الحركة الوهابية بدأت فى البروز الأيديولوچى فى السبعينيات من القرن العشرين من خلال الأهمية الاقتصادية التى بزغت للمملكة العربية السعودية واحتياطها من البترول الخاص. وقد حدث تغير هام فى استخدام الدين - الوهابية فى هذه الحالة - لتحقيق المزيد من الأهداف السياسية فى الأحداث التى أدت إلى الغزو السوڤييتى لأفغانستان فى ديسمبر عام ١٩٧٩ . فقد ظلت أفغانستان تحت الحكم الملكى حتى عام ١٩٧٣ عندما أطاح الضباط العسكريون بقيادة محمد داود بالملك وأعلنوا أفغانستان جمهورية، ثم وقعت أفغانستان تحت الحكم الشيوعى عام ١٩٧٨ عندما أسقطت العسكرية داود وعينت نور محمد تراقى الذى أطيح به وقتل على يد حفيظ الله أمين وأنصاره فى سپتمبر ١٩٧٩، ثم شن الاتحاد السوڤييتى غزواً شاملاً للبلاد فى ديسمبر ١٩٧٩م وقتل الرئيس أمين، وأحل محله بابراك كارمال كرئيس لأفغانستان.

ويتضح لأى مراقب للجغرافيا السياسية أن ثلاثة أنظمة تغيرت فى أقل من عامين متعاقبين بين الحكم الشيوعى والحكم اللاشيوعى، مما يكشف أن أفغانستان كانت أحد

ملاعب الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى؛ وانتاب السوفييت القلق فى ذاك الوقت لأن الدول الجنوبية الخمس: (تركمانستان وطاجيكستان وأوزبكستان وكازاخستان وقرغيزستان) كانت تقطنها تاريخيًا شعوب مسلمة؛ لذا فقد تثير ثورة الخومينى فى إيران البلد المجاور مشاعر مناهضة للاتحاد السوفييتى فى تلك الدول. وفى تلك الأثناء كان الخومينى يوجه انتقاداً للشاه المؤيد لأمريكا الذى لاذ بالفرار من إيران فى نهاية الأمر فى يناير ١٩٧٩. لم تثق أمريكا فى أن كل نظام دينى يكون مناهضًا للشيوعية، وشعرت بأنه لم يعد يمكنها الاعتماد على إيران لتطويق الاتحاد السوفييتى فى الجانب الغربى من أفغانستان كما كان الحال فى الماضى؛ لذلك كان عليها أن تعتمد على پاكستان التى تحد أفغانستان من الناحية الشرقية، وعلى السعودية التى تقع على الضفة الأخرى من الخليج الفارسى غرب إيران؛ لأنه فى حال استيلاء الاتحاد السوفييتى على إيران، تتعرض المملكة العربية السعودية للخطر؛ لذا دفعت العلاقات الوطيدة تاريخيًا بين الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية أمريكا لتلعب بالورقة الإسلامية (الحركة الوهابية فى هذه الحالة) فى محاربة السوفييت بالمشاركة مع السعوديين والپاكستانيين. وحيث كان التورط الأمريكى فى ڤييتنام قريب العهد (فى ذاك الوقت) فقد كان الأمريكيون فى حالة تحفظ شديدة من إنزال جنودهم فى أفغانستان، ومن ثم فضلوا خوض هذه الحرب بالوكالة. كانت السعودية شريكًا طبيعيًا بسبب معاداتها الدائمة للشيوعية، ويرجع هذا لعلة بسيطة وهى أن الشيوعية كانت فى الواقع معادية للدين، وكذلك الحال مع الدولة الإسلامية مثل پاكستان؛ وكانت السعودية وپاكستان دولتين سنيتين، وكان الوهابيون تاريخيًا معادين بشدة للشيعة (المتمثلة فى إيران).

نادى منادى الجهاد فى أفغانستان لمحاربة الاتحاد السوفييتى، ووسع الأفغان قاعدة المجاهدين بانضمام العديد من دول خارجية. وهكذا اتسعت رقعة الصراع باجتذاب المسلمين فيه، وزيادة نفوذ الحركة الوهابية. واستضاف الرئيس ريجان بعض المجاهدين فى البيت الأبيض وكرمهم على دورهم فى احتواء ما أسماه بإمبراطورية الشر، الاتحاد السوفييتى. وعلاوة على ذلك حصل المقاتلون الأفغان الذين تلقوا تدريبًا ودعمًا عسكريًا أمريكيًا على إمدادات من الأسلحة والأموال من المملكة العربية السعودية

وإيران والصين. وبحلول منتصف الثمانينيات كانت الولايات المتحدة تنفق مئات الملايين من الدولارات لمساعدة المجاهدين الأفغان فى باكستان(٨٠). ففى عام ١٩٨٦ أمدت الولايات المتحدة المجاهدين بصواريخ ستنجر القادرة على إسقاط طائرات الهيلكوبتر السوفيتية المدرعة، وفى مايو ١٩٨٨ وقعت أفغانستان وباكستان والاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة اتفاقيات تنص على إنهاء التدخل الخارجى فى أفغانستان، وبدأ الاتحاد السوفييتى فى سحب قواته بعد أن تكبد خسائر فادحة وأنهى السوفييت الانسحاب فى فبراير ١٩٨٩.

كان للمشاركة الأمريكية التى امتدت طوال عقد الثمانينيات فى تدريب الجماعة المسلحة الإسلامية للمجاهدين ـ الذين كان من بينهم أسامة بن لادن ـ تداعيات عميقة ليس فقط على السياسات الداخلية للمجتمعات الإسلامية، ولكن على العلاقات بين المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية أيضًا.

عاد المجاهدون إلى مجتمعات لم يجدوا لهم فيها فرصًا، ولم تقدرهم كما انتظروا، وأجج هذا الإحباط الشديد لديهم. فوجه هؤلاء خيبة الأمل التى أصابتهم لعجز المسلمين عن تأسيس مجتمع جيد عمليًا، إلى الغرب وإلى السكان المحليين من غير المسلمين وإلى المسلمين المخالفين وإلى كل الخارجين عليهم؛ وبعد رؤية صور أقل من الصورة المثالية للحكم الإسلامى فى مجتمعاتهم، بما فى ذلك المملكة العربية السعودية، تقمص المجاهدون دور روبن هود، فقد وجدوا بعد عودتهم من الجهاد المقدس ضد الكفرة (الشيوعيين) نظراء لديهم للأمير جون الشرير وعمدة مدينة نوتنجهام يرتكبون نفس المظالم؛ لذا قرروا القيام بشىء ما بخصوص هذا الوضع، أى شىء أفضل من لا شىء، وهكذا ظهر المتعصبون المسلمون.

وهكذا صرنا ـ كأفراد ـ إلى ما نحن عليه الآن على مستوى الأفراد بسبب تاريخنا وأحداث حياتنا اليومية والمكان الذى نعيش فيه وإجمالى خبراتنا، ويصدق نفس الأمر على المجتمع. لقد استعرضت بعضًا من الأحداث التاريخية؛ وذلك لأن التاريخ مهم فى مساعدتنا على فهم سبب الوضع الذى نحن عليه، خاصة الدافع وراء شعور الشعوب تجاه بعضها البعض، وخصوصًا ما يكنه العديد من المسلمين والأمريكيين تجاه

بعضهم البعض. ففهم وجهات نظر بعضنا البعض ـ مخاوفنا وطموحاتنا ورغباتنا ـ أمر جوهرى إذا أردنا النجاح فى رأب الفجوة الموجودة بيننا.

تاريخنا بعد ٢٠٠٤ : القرية العالمية

أصبح العالم قرية عالمية، ولا يمكن لأية دولة حتى أمريكا أن تعيش فى معزل عن الآخرين أو تتجاهل الرأى العالمى بدون أن تدفع ثمن هذا.

تتشكل هذه القرية العالمية فى الحاضر على نحو كبير طبقًا للولايات المتحدة والمبادئ المتجسدة فى إعلان الاستقلال الأمريكى وإعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وترفض الشعوب بشكل متزايد فى كل أنحاء العالم الحكم الملكى، ولا يستمر الملوك فى البقاء إلا إذا سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا رؤساء صوريين كما هو الحال فى بريطانيا والنرويج وماليزيا. ويأخذ مصطلح الدولة القومية فى التآكل بفعل قوى التكنولوچيا والعولمة. وتصر شعوب العالم على نحو متنام على الحكم بمبدأ الحكم بموافقة المحكوم وعلى المشاركة الأكبر فى الحكم ـ وهى نزعة متصاعدة تدريجيًا للحكم وفقًا لمبادئ ملة إبراهيم.

دخل العالم الإسلامى خلال القرن الماضى عصراً جديداً، فقد أعقب الحرب العالمية الأولى تأسيس عصبة الأمم، وسعت أمريكا لوضع نظام عالمى جديد قائم على مبادئ ويلسون والذى أصبح فيما بعد جزءاً من إعلان الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، وبرز فى البضع والثمانين عامًا التالية الكثير من التواريخ المرموقة فى التاريخ الإسلامى، كان من بينها :

* ١٩٢٤م؛ انهيار الخلافة العثمانية وتقسيم البريطانيين والفرنسيين والروس الإمبراطورية العثمانية إلى بلدان منفصلة، وهو التاريخ الذى أشار إليه ابن لادن .
* ١٩٤٧م؛ تقسيم الهند إلى الهند وباكستان فى مسعى متعمد لخلق دولة قومية إسلامية متجانسة تحددها الجغرافيا.
* ١٩٤٨م؛ تأسيس دولة إسرائيل كوطن متجانس لليهود داخل المحيط الجغرافى للعالم الإسلامى.

* ١٩٧٩م؛ ثورة الخومينى فى إيران.

* ١٩٨٩ م؛ سقوط سور برلين وانتهاء الحرب الباردة، مما غير الحسابات السياسية بخصوص أفغانستان ومعظم أجزاء العالم الإسلامى.

* الحادى عشر من سپتمبر عام ٢٠٠١ : وقوع أكثر التفجيرات الانتحارية مأساوية فى التاريخ على أرض الولايات المتحدة .

* ٢٠٠٣ م؛ احتلال الولايات المتحدة العراق قلب العالم الإسلامى عسكريًا لأول مرة، ومحاولة مئات الألوف من الجنود تشكيل عراق جديد (وربما أفغانستان جديد).

تمثل التواريخ السابقة لحظات نادرة فى مصير المنطقة، وتؤثر على المستقبل غير المحدد وعلى حياة العديد من الأشخاص، ونحن نقف اليوم فى وقت ربما يكون للتحرك الأمريكى فيه تداعيات هى الأوسع على الشرق الأوسط والعالم الإسلامى.

إذا تحلت أمريكا بالحكمة والمبادرة، يمكن أن تشكل السنوات القليلة القادمة الفترة «الحاسمة» فى التاريخ الإسلامى، وهى الفترة التى يمكن أن تتأسس فيها بنى المجتمع الإسلامى على النحو الذى يرضى تطلعات المسلمين منذ عهد النبى ﷺ، ولإقامة تاريخ يصدق مع نفسه ويتناغم مع باقى العالم. فهذا هو الهدف الذى يجب أن نضعه لأنفسنا. وأقل من ذلك لن يجدى.

تحديات العولمة

تعنى العولمة بكل بساطة النشاط الإنسانى المتعلق بنقل بضائعنا وخدماتنا وأفكارنا وأنفسنا حول العالم مع تزايد نفاذية الحدود الوطنية(٨١)، ويعد مصطلح العولمة مدخلاً جديدًا فى مفرداتنا، وهو مصطلح فنى يستخدم عادة فى المؤتمرات والمناقشات الفكرية المعاصرة، فى حين أن عملية العولمة تجرى منذ فجر التاريخ وإن كان ببطء. أما ما يضفى عليها صبغة الجدة، فهو سرعة حدوث هذا التغير كنتيجة لاستخدام التكنولوچيا.

فعلى سبيل المثال، نتجت الوجبة الإيطالية النمطية من المكرونة الإسپاكيتى بصلصة المرينارا التى يعقبها كوب من القهوة الأسپرسو من تلاقح الثقافات ـ الذى نسميه الآن

بالعولمة ـ الذى حدث على مدار القرون، لم تعرف روما المكرونة حتى عاد ماركو پولو من الصين فى القرن الرابع عشر وعرّف إيطاليا بمكرونة الشرائط، ولم يبتكر الإيطاليون صلصة المرينارا حتى أحضر كولومبس وغيره من الرحالة إلى الأمريكتين الطماطم من العالم الجديد إلى العالم القديم. ولم يعرف الأوروپيون القهوة قبل قيام الدولة العثمانية، والتى اعتبروها فى أول مرة شرابًا «كافرًا» (القهوة التركية) نشأ فى جنوب شبه الجزيرة العربية حول مدينة مخا، وبعد ستة قرون من عملية العولمة البطيئة، يمكننا تناول هذه الوجبة الإيطالية «الأصلية».

إن السبب الذى يجعل العولمة مثيرة للقلق هو إكراهها المجتمعات على التغير ـ اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا ودينيًا، فعلى سبيل المثال، فإن الخوف الأساسى من العولمة فى الولايات المتحدة هو خوف اقتصادى: الخوف من تدهور بروز الصناعية الأمريكية بسبب المنافسة الخارجية، والقلق من اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، وتصدير الوظائف إلى دول مثل المكسيك والهند. أما القلق الأعظم من العولمة فى أوروپا فهو زيادة هجرة مواطنين غير أوروپيين إليها، وخصوصًا من البلاد الإسلامية. ففى بريطانيا على سبيل المثال هناك أعداد متزايدة من الهنود والپاكستانيين، ومن الأتراك فى ألمانيا، ومن شمال أفريقيا (الجزائر والمغرب) فى فرنسا، مما دعا إلى القلق من الاختراق المتصاعد للقيم الإسلامية لعواصم الحضارة الغربية.

والهم الأكبر فى العالم الإسلامى هو انحلال القيم الاجتماعية والأسرية والأخلاقية تدريجيًا بسبب غزو القيم غير الأخلاقية عبر الفضائيات ووسائل الترفية. فأضحى خطر الزوال يهدد الأعراف القديمة والمتأصلة، وصارت الشعوب تخشى من الوقوع فى دوامة المادية، وفى عالم خال من القيم العزيزة عليهم. أما الشاغل العام فى البلدان النامية فهو القلق من سيطرة رأس المال الأجنبى ـ الأمريكى فى الغالب ـ على الاقتصاد الوطنى وزعزعة بنيته التحتية، مثلما حدث عندما تعرضت عملات دول جنوب شرق آسيا لأزمات فى عام ١٩٩٧م، مما أدى إلى إفقار الملايين فى المنطقة.

ترغمنا عملية العولمة السريعة على تطوير قواعد عامة مشتركة، ومن ثم نصبح أكثر تماثلاً، ويؤدى هذا بشكل طبيعى إلى نشوب توتر بين هؤلاء الذين يناضلون من أجل

التمسك بهذه القيم التى تقابل تحديًا وتواجه خطر الزوال وبين هؤلاء الذين يناضلون من أجل التقدم واستبدال القيم القديمة بأخرى حديثة .

إن التحدى الذى تفرضه العولمة أمام الإنسانية هو : هل يمكننا وضع رؤى عالمية قائمة على قيم معينة عالمية مع الحفاظ أيضًا على هوياتنا الثقافية المتميزة والمتنوعة؟

نهاية التاريخ: الحياة فى المجتمع العالمى الجيد

كتب المنظر الاجتماعى فرانسيس فوكوياما فى مطلع التسعينيات عن «نهاية التاريخ» «عندما يحقق الجنس البشرى شكلاً من أشكال المجتمع الذى يلبى أعمق تطلعاته وأكثرها أصالة» . فقد يتطلع المسلمون دائمًا إلى إقامة المجتمع الإسلامى الجيد ـ الذى يعرف بأنه المجتمع القادر على إعادة ترسيخ القيم التى أرساها النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون الأربعة فى المدينة ، وظل هذا هو الطموح الذى يراود جميع حركات التجديد عبر التاريخ الإسلامى . ويرى فوكوياما أنه لن يكون فى مثل هذا المجتمع «المزيد من التقدم فى تطوير المبادئ والمؤسسات الأساسية ، ويعزو هذا إلى أن كافة التساؤلات الكبرى حقًا قد تم تسويتها»(٨٢) .

وكتب المعلق مايكل نوفاك بعد سنوات قليلة ، فى نهاية التسعينيات فى صحيفة **نيويورك تايمز** أن العالم فى القرن العشرين قد وجد إجابة عن تساؤلين من أصل ثلاثة تساؤلات كبرى ، كان التساؤل الأول سياسيًا : هل الحكم الديمقراطى أم الديكتاتورى (الفاشى أو الشيوعى) هو الذى يقدم مخططًا أفضل للمجتمع؟ . لقد أثبتت الديمقراطية فى القرن العشرين بوضوح أنها الشكل الأمثل للحكم ، ووصل الاستعمار وعصر بناء الإمبراطوريات إلى نهاية أبدية ، وولدت فكرة الأمم المتحدة .

أما التساؤل الكبير الثانى فكان اقتصاديًا : هل ينبغى أن نتبع الاقتصاد الحر أم الاقتصاد الذى توجهه الدولة؟ سارعت البلاد الاشتراكية المتبقية بعد انهيار الاتحاد السوفييتى إلى تبنى رؤى وممارسات وإصلاحات رأسمالية من أجل تحسين الظروف الاقتصادية لسكانها الذين أصابهم الفقر ، أضف إلى هذا ، أن مساعى قد بذلت من أجل تقوية البنية التحتية الاقتصادية مثل النظام المصرفى والبورصة وأسواق رأس المال

ـ وهى مؤسسات مرتبطة باقتصادات السوق المفتوحة ـ فى بعض البلدان التى بذلت بها فى السابق محاولات قوية لإقامة أنظمة اقتصادية اشتراكية مثل الصين والهند وإندونيسيا . وتمخضت إجابة التساؤلين السابقين عن ظهور الديمقراطية الرأسمالية والتى كان ملمحها المميز هو تخفيف الرأسمالية .

أما التساؤل الثالث الكبير حقًا فقد أصبح بارزًا فعليًا الآن وهو : كيف نعيش؟ كيف يجب أن نعيش من أجل الحفاظ على مجتمعات حرة ولنستحق الدم والألم اللذين تكبدتهما الإنسانية؟ يقول نوفاك : «إن هذه هى المهمة التى لم تكتمل فى القرن العشرين» مضيفًا أن المفكرين الأمريكيين الجادين شرعوا فى تناول هذه المسألة .

ويشخص نوفاك «الأزمة الأمريكية الحالية» بأنها أزمة دينية :

> أو على الأقل دينية وأخلاقية وليست مجرد أزمة أخلاقية فقط ؛ لأن المسألة الأساسية أعمق من أن تكون مجرد مسألة أخلاقية . لماذا تكون مشاعرنا بمثل هذه القوة تجاه قضية العدل؟ ولماذا نتطلع إلى تحقيق صداقة عالمية؟ ولماذا ينبغى أن نثق فى العقل؟ ولماذا ينبغى أن نتمسك بالأخلاق خاصة عندما لا يرانا أحد ولا نلحق الأذى بأحد ولا يعرف أحد ما نفعل مطلقًا(٨٣)؟

إن المهمة التى لم تُستكمل فى الولايات المتحدة هى مهمة دينية ؛ إنها مسألة تتعلق بكيفية التعبير الكامل عن الرغبة الدينية ونحن نمارسها فى إطار المبادئ التوجيهية الواردة فى الدستور . لم تعد الإجابات التى قدمتها الفلسفة الإنسانية العلمانية كافية فيما يبدو حتى فى نظر الكثيرين من الذين حاولوا جادين أن يظلوا مخلصين لها ، وقد ثار التساؤل الدينى بشكل ملح فى الوقت الحالى بين من هم الأنجح والأقوى ، وليس فى لحظات ضعفهم بل فى ساعات انتصارهم الأعظم . فبمجرد نيلهم ما اعتقدوا أنه سيجعلهم سعداء ، اصطدموا بمحدوديتهم ـ ونهمهم اللانهائى . فظلت عبارة «يجب أن يكون هناك ما هو أكثر من هذا» هى الصيحة الأساسية الصادرة من قلب الإنسان . وبالرغم من أننا أغنياء وأقوياء إلا أننا لا نزال نحتاج إلى إجابات للأسئلة الخاصة بالوجود ـ ويتنبأ نوفاك بكل ثقة بأن «القرن الحادى والعشرين سوف يكون أكثر القرون تدينًا على مدى الخمسمائة عام الماضية» .

إن الاعتراف بوجود الإله يمنحنا معياراً للأخلاق يحررنا من وطأة الضغط الوجودى، ففى الوقت الحاضر، فإن الأكثر ذكاءً وقدرة وحظًا هم الذين يصبحون مدركين لطبيعتهم الحقيقية «الطبيعة التى تشدو لهم بوجود الإله»(٨٤)؛ فقد أثبتت أمريكا، أو بشكل أكثر دقة أسلوب الحياة الأمريكى، عدم صحة المسلمة الماركسية بأن الدين أفيون المضطهدين والضعفاء والفقراء، حيث ثبت أن الأقوياء والأغنياء هم فى حاجة مساوية تقريبًا للدين؛ لذا ارتفعت أصوات أمريكية بارزة فى عصرنا تنادى بتوجيه اهتمام أكبر للدين فى محفل الحياة العامة وليس فى معازلنا الخاصة؛ ويبقى السؤال: كيف يمكن فعل هذا مع بقائنا مخلصين للمبادئ التى أقرها الدستور، خاصة مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة؟.

والمهمة التى لم تُستكمل فى العالم الإسلامى فهى الجانب العكسى لهذا، وهو كيفية إدخال الديمقراطية الرأسمالية مع إجراء ذلك بطريقة دستورية، أى داخل إطار مبادئ الشريعة الإسلامية؛ فالمجتمعات الإسلامية ـ كما رأينا ـ تفهم «الدين» بشكل صحيح، فهى تتبع الوصية الأولى جيداً وهى الاعتراف بوجود الإله وجعل عبادة الله أهم أولويات حياتها اليومية. أما الفيصل فهو الوصية الثانية وهى كيفية تنفيذ قيم حب الجار وإضفاء طابع مؤسسى على الحرية، وتحقيق الرفاهية الاقتصادية للجميع؛ لذا فإن الحوار بين العالم الإسلامى والغربى هو حوار مثمر؛ لأن كلاً من الجانبين يملك شيئًا يحتاجه الآخر، وبالتالى يمكننا تغيير الحياة فى القرية العالمية عن طريق دمج حكمتنا معًا.

إن الدين المعولم هو ذاك الدين القائم على مبادئ وقيم تشبع الحاجات الإنسانية الروحية العالمية، وتدرك الشعوب فى هذه الرؤية العالمية أن البشر سيشعرون بعزلة على المستوى الفردى وبصراع على المستويات الجماعية وبين الأفراد فى حال انفصالهم عن الله أو ـ كما يقول البعض ـ عن القوة الخالقة العظمى فى العالم، عن الله، الحق.

ولا يمكن اكتشاف الموطن الذى يتوقف فيه الصراع بين الوجود المادى والوجود، إلا عندما يتعلم الإنسان كيف يتعرف على نفسه ويدرك أنه بوابة بين عالمين، لكل منهما حقائقه: فتقع حقيقة الوجود المادى حيث تقطن الأنا، وحقيقة الوجود الروحى حيث تكمن الروح أو النفس الجوهرية وتتغذى فى كنف الرحمن.

ظل المشايخ الروحيون يتعهدون أرواحنا لقرون عديدة. ولا تقوم تعاليمهم وأساليبهم على عقيدة جوهرية أو حدس، بل على أساس إلهى موضوعى وهو دين الإنسانية الأصلى والطبيعى (دين الفطرة)، لذا فإن تعاليمهم تقدم طريقًا لبلوغ الإنسانية الكاملة، وهى الحالة التى يتوحد فيها الجانب الروحى والجانب الإنسانى، وتُرى فيها الخصائص الروحية والوجود المادى شيئًا واحداً.

يكمن طريق سعادة البشرية فى إدراك أن البشر خلقوا بروح الله، وبالتالى فإن المجتمع الأمثل هو الذى يعكس فهمًا ناضجًا تامًا لما تعنيه أن تكون الأمة خاضعة لله؛ وتكمن هاهنا حكمة مؤسسى أمريكا الذين - وإن لم يكونوا على وعى بهذا - عبروا عن حقيقة أن الأمة «الخاضعة لله» هى أفضل ما يبرز فكرة أن البشر فى تواصلهم الاجتماعى قد خلقوا بروح الله، وهذا ما يعنى بالنسبة للمسلمين إقامة مملكة السماء على الأرض، وهو ما يطمحون إليه وما يحبونه فى أمريكا.

الفصل السادس

رؤية جديدة للمسلمين والغرب

دعيت فى يناير ٢٠٠٢ لإلقاء محاضرة فى الكنيسة المشيخية فى جرينويتش بولاية كونيكتيكت. وبعد ساعة ونصف من الأسئلة والأجوبة، وقفت امرأة بديعة وسألتنى قائلة: «كيف تستطيع امرأة مسيحية مثلى المساعدة؟». لم يكن جمهور الحاضرين من الأمريكيين اليهود أيضًا راضين عن وضع العلاقة بين الطوائف الدينية المسلمة واليهودية، وسألونى بإلحاح عما يمكنهم فعله للمساعدة فى تغيير هذا الوضع. وكان أكثر الأسئلة شيوعًا واتسامًا بالتحدى من بين التى طرحت علىّ منذ أحداث ١١ سبتمبر - فى الكنائس والكنيسات اليهودية والشركات التجارية - هو: «ماذا يمكننا أن نفعل لإزالة التوتر بين المجتمعات الدينية المسلمة والمسيحية واليهودية وغيرها؟ كيف يمكننا أن نغير اتجاه هذه العلاقات بشكل فورى، والشروع فى معالجتها فى غضون سنوات وليس عقود؟

الرؤية «التى كانت مطلوبة فى الماضى»:

كيف نغير العقول ونكسب السلام؟

تأكدت ضرورة هذا السؤال فى تقرير صدر عام ٢٠٠٢ تحت عنوان «تغيير العقول وكسب السلام» عن المجموعة الاستشارية الأمريكية المعنية بالدبلوماسية العامة للعالم العربى والإسلامى، التى أسستها وزارة الخارجية الأمريكية، ويرأسها السفير إدوارد

جيرجيان لدراسة الحالة المحزنة للعلاقات العامة بين العالم الإسلامى والغرب على مستوى العالم. قالت المجموعة فى تقريرها: «إن العداء لأمريكا قد وصل لمستويات مفزعة»، وأضاف تقرير جيرجيان «أن المطلوب ليس مجرد التكييف التكتيكى لجهود الاتصالات الأمريكية، وإنما المطلوب هو تغير استراتيجى وجذرى»؛ ولا أعتقد أن هناك كلمات أوضح من تلك الكلمات لوصف هذه الضرورة الحاسمة.

تتطلب إعادة العافية إلى العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب، فى إطار زمنى فورى، تنفيذ عملية سريعة التحرك متعددة المسارات لتتناول نطاقًا واسعًا من القضايا التى أوقدت الصراع، فنحن فى حاجة لرؤية تحدد أهداف سعينا وتخلق استراتيجيات موجهة نستطيع من خلالها بلوغ هذه الأهداف وتجميع القوى الفاعلة الأساسية القادرة على تنفيذها.

وهذه الرؤية هى: أنه يجب على أمريكا أن تبذل كل ما فى وسعها للمساعدة فى مناصرة قيام عالم إسلامى قوى واثق بذاته يستطيع أن يفى بمبادئ المجتمع الإسلامى الصالح كما فهمها النبى ﷺ وخلفاؤه الراشدون - ما أطلقنا عليه فى الفصل السابق مهمة العالم الإسلامى التى لم تكتمل - ويؤذن بدخول آخر مراحله أو «نهاية» التاريخ. ويتعين على الولايات المتحدة - بمساعدة المسلمين الأمريكيين - أن تدعم بنشاط تطوير الرأسمالية الديموقراطية الإسلامية التى تتناول أعمق ثلاث قضايا للصراع فى العالم الإسلامى وهى: الدين، والسيطرة على السلطة، وتوزيع الأصول الاقتصادية.

ولبلوغ هذه الغاية، أقدم أفكارًا عما يمكن للمواطنين العاديين - مثل رجال الأعمال والمعلمين المسيحيين والمسلمين - وأيضًا الحكومة الأمريكية أن يفعلوه لإعادة العافية إلى العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب؛ فنحن نملك المهارات اللازمة لتنفيذ كل هذه الاستراتيجيات، كما أن هناك بعض المشروعات القائمة بالفعل، وكل ما ذكر هنا يمكن تنفيذه، لكن لكى ننجح سريعًا، فإن الاستراتيجيات المجملة هنا ستصبح أكثر فاعلية إذا تم تنفيذها على شكل شبكة تتعاون فيها جميع قطاعات المجتمع. إن جهودنا الآن يتعين أن تكون جهودًا مشتركة حقًا.

إن الحوار هو أولى الخطوات، فهو ضرورى للغاية، فبدونه لن يحدث أى تغيير آخر؛ فقد قام كثير من الأفكار التى سأعرضها فيما يلى على أساس الحوار، لأننا عندما

نحل الصداقة والتعاطف محل الخوف وسوء التفاهم، نصبح فى وضع يسمح لنا بمعرفة الخطوات الأخرى اللازمة أو الممكنة؛ فالحوار يخلق مناخًا متغيراً يصبح من السهل فيه علاج القضايا العميقة، أما رفض الحوار فسيبقى الصراع مستمراً.

ماذا يمكن أن تفعله حكومة الولايات المتحدة:

تصميم سلاح السلام الشامل

إذا أرادت أمريكا رأب الصدع بين العالم الإسلامى والغرب، فيتعين عليها أن تعلن جهراً أن سياستها الخارجية ستعود إلى قيمها الديمقراطية الأصلية. يجب أن تفصح بوضوح عن رؤية للرأسمالية الديمقراطية الإسلامية للمسلمين العاديين فى جميع بلدان العالم. ويستحسن أن يستهل هذه الجهود رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، بأن يوجه خطابًا للعالم الإسلامى بأكمله بشكل مباشر ومؤثر، كما ينبغى أن تضم رسالة الرئيس المعتقدات الأخلاقية التى جاءت فى خطاب «الحريات الأربع» أمام الكونجرس، والنبرة العاطفية لجون إف كينيدى عندما قال بالألمانية: «أنا برلينى» حتى يظهر بكل تأكيد أن أهم المصالح الأمريكية تتلاقى مع أهم مصالح العالم الإسلامى. لقد كان خطاب الرئيس جورج بوش فى الذكرى العشرين للوقف القومى للديموقراطية الأقرب لهذا الموقف منذ أن تحدث الرئيس روزڤلت مباشرة عن احتياجات العالم الإسلامى بهذا الشأن[1]، لكن هذا الخطاب كتب فى واشنطن بمقاطعة كولومبيا ولجمهور أمريكى. كانت زيارته المفاجئة لبغداد يوم عيد الشكر ٢٠٠٣م واحدة من الفرص العديدة الضائعة لمخاطبة العراقيين وغيرهم فى العالم الإسلامى عبر أثير التلفزيون أو الإذاعة، لكن بدون شك، سوف تتاح لرئيس العالم الحر مناسبات أخرى تتعهد فيها الولايات الأمريكية علانية وبصدق بنهج سياسة خارجية جديدة تجاه العالم الإسلامى.

سوف تساعد هذه السياسة الخارجية الشعوب الإسلامية على تحقيق الأهداف الرئيسية التالية:

١ ـ الحرية الاقتصادية (التى تعنى التحرر من الفقر) للمسلمين على مستوى العالم، ويعنى هذا تقديم المساعدة فى إنشاء البنية التحتية الاقتصادية الأساسية والضوابط الاقتصادية اللازمة للبلاد الإسلامية كى تقيم مجتمعات مزدهرة تحسن من نوعية معيشة المواطنين؛ فمن الضرورى خلق أو إصلاح النظم المصرفية وأسواق رأس المال والبورصات ووضع السياسات النقدية الصحيحة. ويعيش معظم المسلمين فى اقتصادات تتضخم عملاتها بسرعة مما يسبب تآكل فى مدخرات الفرد، ويجعل حياة الفرد المتوسط أكثر صعوبة بشكل متزايد، وتحتاج المجتمعات الإسلامية بشدة إلى عملات مستقرة وتضخم منخفض.

٢ ـ سيادة القانون بالنسبة إلى المسلمين فى شتى أنحاء العالم، والذى يتضمن العدالة والأمن والتحرر من الخوف، فالشريعة الإسلامية لا تتسامح مع أية جماعة من الأفراد فى المجتمع تعلو فوق القانون ولا تضع معايير مختلفة للعدالة بين المسلمين وغير المسلمين، وتحتاج المجتمعات الإسلامية إلى سلطة قضائية مستقلة، وليس إلى سلطة قضائية يمكن أن يحدد قراراتها أفراد فى السلطة السياسية. كما ينطوى الجمع بين الهياكل الاقتصادية وسيادة القانون ـ ضمنًا ـ على وجود تشريعات اقتصادية جوهرية، مثل إصدار تشريعات لمكافحة الاحتكارات للتخلص من الشركات الاحتكارية، وخلق فرص متكافئة بشكل أكبر (وهو نوع التشريع الذى اضطرت الولايات المتحدة لتطبيقه لحماية ديمقراطيتها)[٢] والإجراءات الوقائية التى طبقتها إدارات ويلسون وروزفلت مثل تقديم التأمين على الودائع، وتوفير الائتمان وشبكات الأمان الاقتصادية لمختلف القطاعات الاقتصادية والسكان بشكل عام. وفى حين قد تكون بعض أشكال المساعدة المالية المباشرة من الولايات المتحدة ومجموعة السبعة الكبرى مطلوبة، فإن المجتمعات الإسلامية فى حاجة أكبر إلى مساعدة «هيكلية» وهى المساعدة فى تطوير البنية التحتية الاقتصادية والاقتصادية ـ القانونية الصحيحة. وتمثل السياسات التجارية العادلة بندًا آخر من الممكن أن يقطع شوطًا كبيرًا فى طريق شحذ النية الحسنة للمسلمين تجاه الولايات المتحدة.

٣ ـ مشاركة عامة وأوسع فى صناعة القرار والحكم فى البلدان الإسلامية مع حماية حقوق الإنسان، ولا يعنى هذا تحولاً عنيفًا بين عشية وضحاها لجميع الحركات

الإسلامية إلى ديمقراطية كاملة، فتلك مهمة مستحيلة، لكنه يعني دعم مبادئ الديمقراطية داخل الحكومات القائمة والسماح للجماعات المتنوعة من السكان بمشاركة هادفة على نحو أكبر في حكوماتهم، ثم التطور التدريجي بوضع إجراءات تنظم مدة ولاية أهم مناصب القوة في البلاد. حيث إن وضع حد لمدة تولي المناصب أمر مستحسن أفضل من البدائل التي تنفذ بالقوة[٣].

٤ ـ مبدأ فصل السلطات المحدد إسلاميًا الذي يعني:

* سلطة قضائية مستقلة عن السلطات التنفيذية والتشريعية.

* اقتصاد متحرر من سيطرة الدولة مقترنًا بقطاع اقتصادي خاص وغير احتكاري، مع وجود إجراءات وقائية لمكافحة الفساد.

* قوة عسكرية لا تتدخل في شئون الحكم.

* صحافة حرة، مع إتاحة فرصة أكبر لمعرفة التصرفات الحكومية للمساعدة في توعية الناس ومساعدتهم في إخضاع الحكام للمساءلة.

* حرية التعبير والعبادة وحماية جميع المؤسسات الدينية ودور العبادة.

وبالمثل وبالإضافة إلى الأهداف الأربعة السابقة التي تخص بناء الأمة، يجب على الولايات المتحدة أن تتعهد بإيجاد حلول جذرية للصراعات الثلاثة الطويلة:

١ ـ الصراع العربي ـ الإسرائيلي في الشرق الأوسط الذي سينهي التوتر الديني الإسلامي اليهودي.

٢ ـ الصراع على كشمير بين الهند وباكستان الذي سينهي التوتر الديني الإسلامي الهندوسي.

٣ ـ صراع الشيشان مع روسيا.

يتعين على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ـ وهي تعمل على مساعدة العالم الإسلامي في تحقيق الأهداف السابقة ـ أن تسعى جاهدة للحصول على مشاركة الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية التي تسعى إلى نفس الأهداف، حيث لا يمكن تحقيق تغيير سريع إلا عندما تتضافر هذه الجهود معًا، ونجد في مشروع هبوط الإنسان على سطح القمر مثالاً رائعًا لتضافر المبادرات الاستراتيجية معا، فقد عمل عدد لا حصر له

من العلماء والمهندسين فى أجزاء منفصلة من المشروع، لكنهم ركزوا جميعًا على الهدف العام وهو هبوط الإنسان على سطح القمر، فبدون الدعم التنظيمى من إدارة الفضاء والطيران الأمريكية «ناسا» التى جمعت بين أهل الخبرة للعمل على تطوير التكنولوچيا والمعرفة الفنية، كان من المؤكد أن لا يتحقق وعد جون كينيدى بإنزال إنسان على سطح القمر فى نهاية الستينيات فى ذلك الموعد، وربما لم يكن ليتحقق على الإطلاق، وبنفس الطريقة، أعتقد أن الحكومة الأمريكية لو كانت تعهدت بمبادرة كسب السلام بين أمريكا والعالم الإسلامى، لأدى ذلك إلى نتائج إيجابية سريعة.

فيما يلى بعض القوى الفاعلة المطلوبة لتكوين فريق السلام الذى أتحدث عنه:

* علماء مسلمون، وخاصة علماء الشريعة والفقه.
* علماء غربيون فى القانون الدستورى، وخبراء آخرون فى القانون.
* علماء دين من أتباع العقائد الدينية التى تتقاطع مع العالم الإسلامى، خاصة اليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية.
* اقتصاديون وخبراء مصرفيون.
* خبراء فى حل الصراعات.
* خبراء فى التعليم.
* خبراء فى الاتصالات ووسائل الإعلام.
* علماء النفس وعلماء الاجتماع.

تتوافر هذه الشخصيات والمهارات بشكل كبير فى الجامعات والمعاهد الأكاديمية والمنظمات غير الحكومية ومراكز البحوث والدراسات وعالم الأعمال والحكومة؛ لكننى أستطيع أن أؤكد أنه لو لم يتم توظيفهم معًا كفريق واحد، فإن الإطار الزمنى لتحقيق هذه الأهداف سيكون عقوداً بدلاً من سنوات، ومن المحتمل أن يحدث الضرر كلما زاد الوقت.

وعلى سبيل المثال، فقد ناقشنا بعض نواحى القضية الشائكة للفصل بين الكنيسة والدولة، كما ينظر إليها من المنظور الإسلامى والأمريكى، حيث تتداخل هذه القضية مع الشريعة الإسلامية والقانون الدستورى الأمريكى والحكومة، وهى موضوع محل

اهتمام شديد من علماء ومفكرى الديانات الأخرى. كما أن له أهمية بالنسبة لبلدان مثل إسرائيل وپاكستان وإيران؛ لكن معظم الناس، حتى المعنيين بالدين، ليسوا مؤهلين بالقدر الكافى للتفكير فى هذه المسائل بطريقة تجعلها جلية، ومع ذلك فمن المهم أن يتم شرح هذه القضية وتوضيحها بشكل يستطيع حتى الشخص العادى فهمه.

وينطبق الأمر نفسه على القضايا الاقتصادية. فمعظم الناس عاجزون عن تفهم أهمية قوانين مكافحة الاحتكار، ودور السياسات النقدية والبنيان المالى للاقتصاد لضمان عملة سليمة ومستقرة، لكن هذه القضايا تأتى بين الموضوعات التى تشغل كثيرًا من التخبط فى العالم الإسلامى. فعلى سبيل المثال، كان عبد الهادى أوانج، زعيم حزب المعارضة الماليزى فى ولاية ترانجانو بماليزيا، قد حظر الفائدة على القروض الحكومية للموظفين المدنيين لشراء المنازل والسيارات، وألغى ما أسماه ضرائب ورسوم «غير إسلامية»[٤]. وبينما كان ممكنًا إلغاء الفائدة على قروض السيارات والقروض الإسكانية عن طريق رفع أسعارها لتغطية تكلفة رأس المال، ليس من الواضح كيف يمكن التحكم فى السياسات النقدية دون أوراق مالية تستند إلى فائدة.

كما ذكرنا آنفًا، فإن تشييد العقارات وصناعة السيارات أكبر عنصرين من عناصر الاقتصاد الأمريكى؛ لذلك فإن إلغاء الرهن العقارى وقروض السيارات يجعل الاقتصاد الأمريكى يعانى مما يماثل سكتة قلبية شديد، فكيف نتوقع أن ينجح اقتصاد البلدان الإسلامية دون الأثر الاقتصادى القوى والرافع للنشاط العقارى الذى يستطيع أيضًا أن يمكن ملايين المسلمين من امتلاك عقارات؟ يضطر العالم الإسلامى حاليًا لاستخدام الصكوك القائمة على الفائدة لسد حاجاته من تكوين رؤوس الأموال وتوفير السيولة المالية وتنفيذ السياسة النقدية. لكن ستظل هذه النقطة محل نزاع حتى تتمكن الحكومات الإسلامية من إيجاد سبيل يتعامل به عامة الناس مع مشكلة الربا.

وبشكل عام، فإن مبادرة كسب السلام هذه هى عمل متعدد الاختصاصات على مستوى لم يتم الاضطلاع به من ذى قبل وهو: تجميع مهارات متباينة، ليس فقط من مجالات متغايرة، بل أيضًا من خلفيات وعقائد مختلفة ومزجها معًا بطريقة مركزة، ويعتبر المسلمون الأمريكيون الذين فهموا المنظورين حق الفهم والذين يمكن أن يقوموا بدور المترجمين المطلوبين بشدة فى رأب الصدع، عنصرًا جوهريًا فى هذه العملية.

ماذا يمكن أن يفعله المسلمون الأمريكيون؛

التحول من «مسلمين فى أمريكا» إلى «المسلمين الأمريكيين»

يمكن أن يقدم المسلمون الأمريكيون ـ الذين لهم قدم فى الشرق وأخرى فى الغرب ـ مساهمة حيوية، فهم فى وضع لا يمكنهم فقط من القول بأنه لا يوجد تناقض بين الدين الإسلامى وتوق الكثير من المسلمين إلى قيم الديمقراطية وتكافؤ الفرص، بل القول أيضًا بأن كلاً من الدين والفقه الإسلامى يطالبان بهذا، وحيث إنهم يفهمون تطلعات كلا الجانبين، ووفقوا بين هويتهم الأمريكية والإسلامية، فإن لهم دورًا محوريًا فى الوساطة فى بناء الثقة والتواصل بين الأديان والثقافات فيما بين أمريكا والعالم الإسلامى.

يستطيع المسلمون الأمريكيون أن يساعدوا فى صياغة لغة أفضل وبنهج مبتكر وربما وهو الأهم، صياغة منظورات فاعلة وصحيحة تستطيع بها أمتنا أن تساعد العالم الإسلامى فى حل مشكلاته، وذلك عن طريق تكوين تحالفات وائتلافات مع المجموعات الدينية الأمريكية الأخرى، خاصة المؤسسات المسيحية واليهودية الكبرى؛ وبذلك يقوم المسلمون الأمريكيون بواجبهم فى أداء دور شديد الأهمية كوسطاء بين ١,٢ مليار مسلم فى شتى أنحاء العالم ودولتهم العظيمة.

وقد واجهت قدرة المسلمين الأمريكيين المعتدلين سياسيًا الذين يمثلون الأغلبية على القيام بدور رائد فى إعادة العافية إلى العلاقات بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة، التحدى من مجموعة معقدة من القضايا، حيث طفق ستون فى المائة من المسلمين الأمريكيين يتحولون من الجيل المهاجر الأول إلى جيل ثان من المسلمين الأمريكيين الجدد، كما أن المسلمين الأمريكيين الأفارقة الذين يمثلون الأربعين بالمائة المتبقية هم مسلمون أمريكيون غير مهاجرين نشؤوا من الجيل الأول للمسلمين السود الذين اعتنقوا الإسلام خلال حقبة الحقوق المدنية فى الستينيات، وشكلتهم ديناميكية هذه الفترة إلى الجيل الثانى الذى شكلت إسلامه اعتبارات دينية وروحية وتحد اجتماعى وهو كيفية الاندماج مع قرنائهم المهاجرين.

إن من التحديات التى تواجه أى مجتمع مهاجر هو كيفية الانتقال من كونه مجتمعًا مهاجرًا إلى تطوير أسلوب محلى للتفكير وللمعيشة، فعندما انتشر الإسلام من شبه

جزيرة العرب إلى باقى ما يعرف اليوم بالعالم الإسلامى، كان عليه أن يعيد عرض مبادئه الدينية فى إطار السياق الثقافى للمجتمعات القديمة قبل الإسلام مثل: مصر وبلاد ما بين النهرين وتركيا وإيران وإفريقيا والهند وغيرها؛ ونستطيع أن نشهد فروقًا طفيفة بين الإسلام فى مصر والإسلام فى الهند، وبين الإسلام فى تركيا والإسلام فى السنغال ـ وهى ليست اختلافات فى العقيدة، ولكن فى السوسيولوچيا والقوانين التى انحدرت من العادات المختلفة التى كانت موجودة سابقًا فى كل مجتمع.

وهناك تحد كبير يواجه الولايات المتحدة فى الوقت الحالى يدور حول تطوير هوية إسلامية أمريكية يمكنها أن تضم وبشكل هادف كل الهويات المتعددة للمسلمين المهاجرين وهوية الأمريكان الأفارقة المحليين أيضًا. ولسوء الحظ، فقد جعل تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب (بما فيه أمريكا) الكثير من الأمريكيين يساوون بين الإسلام والعداء لأمريكا والعداء للغرب، وهذا تصنيف عام ظالم.

يجب أن يتضمن العمل على تطوير هوية إسلامية أمريكية ـ بحكم التعريف ـ تقديرًا كبيرًا لما يعنيه كونك أمريكيًا وما يعنيه كونك مسلمًا على حد سواء، فلا يمكن أن يصبح كونك مسلمًا أجنبيًا يعيش فى أمريكا مجرد تجربة عارضة، كل جانب منك فى صراع مع الآخر؛ كما لا يمكن أن تكون أمريكيًا بغرض رفض أمريكا، فالأمر يتطلب تفريغ الطبقات النفسية لخبرة الماضى الفردية والجماعية، وفصل التاريخ عن الإنسانية الأصيلة، ونبذ ما ليس له صلة، وخلق هوية قائمة على ما هو باق بالنسبة لوضع إنسان يعيش فى أمريكا جديدة وعالم متعولم[٥].

ومن طرق تحقيق هذا الهدف أن ننخرط مع من سبقونا فى تجربة الهجرة، وهم المسيحيون واليهود الذين كان عليهم صياغة هوية مسيحية أمريكية ويهودية أمريكية، ونتعلم من تجربتهم فى التحول من كونهم تعبيرات مستوردة من الكنائس والكنيسات الأوروبية الرئيسية إلى كونهم تعبيرات أمريكية عن اليهودية والمسيحية، وبالرغم من أن كل تجربة تعد تجربة فريدة من نوعها، إلا أن هناك نواحى كثيرة مشتركة فى المسيرة، ويمكن أن توفر فرصًا هادفة ومثمرة لحوار الأديان. وكما رأينا فى الفصل الخامس، فقد اضطرت كل جماعة فى أمريكا أن تناضل لتتغلب على عامل الإذلال الذى تملكه

الأغلبية البروتستانتية راسخة الأقدام فى أمريكا، لكن كما يقول المثل، فإنه من الأفضل التعلم من أخطاء الآخرين؛ لأن الحياة أقصر من أن تسمح بارتكاب جميع الأخطاء، وهذا يعنى أن أسرع مسار متاح أمام المسلمين الأمريكيين الساعين للعثور على هويتهم الأمريكية يكمن فى التعلم من تجربة المهاجرين الأمريكيين الكاثوليك واليهود، ومزج ذلك بالدروس المستفادة من التاريخ الإسلامى عندما انتشر المسلمون الأوائل خارج الجزيرة العربية حتى وصلوا إلى الثقافات القديمة من غرب أفريقيا إلى جنوب غرب آسيا، يجعل الإقرار بهذا يساعد المسلمين الأمريكيين فى صياغة أسرع لتعريف جديد لما يعنيه كونك مسلمًا أمريكيًا يعيش فى عالم متعولم - وبقدر ما هو من أجل أطفالهم وأحفادهم، فإنه من أجل ٢ , ١ مليار مسلم حول العالم.

يواجه المسلمون تحديًا فريدًا فى هذا الصدد؛ لأنه عندما تأصلت المسيحية واليهودية فى أوروبا، طورتا شخصية غربية مختلفة عن جذورهما السامية؛ لذا يتعين على الإسلام أن يطور شخصية غربية؛ لأن تاريخه كان شرقيًا وساميًا فى المقام الأول.

ومن خلال هذه المشاركات والمبادرات ينبغى على المسلمين الأمريكيين أن يشكلوا شبكة غير رسمية من المفكرين والعلماء والقادة الدينيين من المسلمين وغير المسلمين الذين يجمعهم الالتزام بالقيم الديمقراطية والتعددية والمجتمع الحر كما جاءت فى المفردات والأبنية الفقهية القويمة إسلاميًا.

وسيكون الهدف طويل الأجل لهذه الشبكة الجديدة هو التعجيل بتطوير هوية إسلامية أمريكية صحيحة، تكون إسلامية وأمريكية بشكل كامل، وتلتزم تمامًا بقيم ملة إبراهيم؛ كما يمكن أن ترعى ندوات تهدف لتوضيح الخلط بين ما هو إسلامى حقًا بالمفهوم العقائدى والفقهى وما هو مجرد نتاج للعادات الثقافية والاجتماعية التى أحضرها المهاجرون المسلمون من بلادهم إلى أمريكا. وإذا نظر المسلمون الأمريكيون إلى العالم بعيون جديدة لا يغشاها التاريخ الثقافى، سيكون لهم دور رئيسى يقومون به على الساحة الدولية فى قيادة العالم الإسلامى نحو الحريات الاقتصادية التى يتوق إليها مواطنوه بشدة، بينما يتمتع بها المسلمون فى الغرب بشكل طبيعى.

ماذا يمكن أن يفعله المربون:

تشكيل الجيل التالى من المواطنين المسلمين

أشار ألان بلوم، الأستاذ بجامعة شيكاغو، فى كتابه «انغلاق العقل الأمريكى»، إلى أن كل نظام سياسى يشكل مواطنيه طبقًا لاحتياجاته؛ وهدف بعض البلدان هو بناء شخص تقى، بينما نجد أن الشخص المولع بالحرب هو هدف بعض البلدان الأخرى، فى حين يكون الشخص الذى يكد هو غاية بعض البلدان الأخرى؛ وبما أن الولايات المتحدة ساعدت خلال الحرب الباردة على خلق مواطن مسلم مولع بالحرب - وذلك بدعم المدارس الپاكستانية التى تقوم بتدريس الفكر المتطرف للإعداد لمحاربة الاتحاد السوڤييتى - فهى الآن مطالبة بالالتزام بدعم جهود الإصلاح التى تسعى لتعليم مواطنين مسلمين ليكونوا أتقياء ومؤيدين للتعددية، وقد أعرب الرئيس الپاكستانى برفيز مشرف، فى المنتدى الاقتصادى العالمى بدافوس عام ٢٠٠٤، عن استعداده ليقيم فوراً خمسمائة مدرسة تقوم بتدريس مناهج مختلفة تقاوم المذهب المتطرف، ولكنه قال: «من أين سيأتى المال المطلوب للإنفاق عليها؟»، والولايات المتحدة لها مصلحة ذاتية فى تمويل هذه المدارس؛ لأن التعليم أحد أكثر الطرق المؤثرة فى شن الحرب على الإرهاب.

يمكن أن تشارك الجماعة غير الرسمية من المفكرين والعلماء والقادة الدينيين من المسلمين وغير المسلمين التى ذكرناها آنفًا فى تسريع الجهود الحالية لتصميم منهج تعليمى للمدارس يدعم هذا الهدف، ويمكن لهذه الشبكة أن تدعم برامج تعليمية فى المؤسسات الأكاديمية القائمة، وأن تنظم ندوات يمكن أن يعمل فيها المسلمون الأمريكيون على التوفيق بين القيم التى تجذب الكثيرين نحو الولايات المتحدة فى المحل الأول وبين ما يعتزون به من تقاليد دينية؛ وسوف تساعد هذه البرامج التعليمية على استيعاب المهاجرين المسلمين الجدد فى المجتمع الأمريكى، كما ستساعد الشباب المسلم من الجيل الثانى المولود بأمريكا على توصيل الحلم الإسلامى الأمريكى لأمتهم وللعالم، وهناك جانب محورى لهذه المهمة التعليمية للشبكة هو إقامة تواصل غير رسمى بين قادة الرأى المسلمين الأمريكيين فى الداخل والخارج، مع تشجيع قادة من الشباب الصاعد على إيجاد وسيلة للتعبير عن رأيهم، ويمكن أن تقدم هذه الشبكة النصح الفكرى للجيل التالى من المواطنين المسلمين الديمقراطيين.

ماذا يمكن أن يفعله اليهود:

مضاعفة الجهود لتحقيق السلام فى الأرض المقدسة

انطلاقًا من دورها التقليدى كقائد للعالم الحر، يجب أن تتصدى أمتنا بشكل مباشر للقضية الفلسطينية الإسرائيلية؛ لأنها تعتبر أكبر العوائق أمام إعادة العافية إلى العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى.

تحقيق السلام بين إسرائيل وفلسطين أمر جوهرى لإقامة السلام بين العالم الإسلامى والولايات المتحدة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا السلام سيساعد على إزالة الكراهية الدينية بين المسلمين واليهود، ويوقف العداء المتزايد للسامية فى العالم، وقد حاولت إدارة كلينتون التوسط فى عملية السلام عام ٢٠٠٠م لكنها لم تتمكن - وبغض النظر عن السبب - من صياغة اتفاق دائم، ولقد اقتربنا من تحقيق السلام فى ذلك الوقت ونظرًا لاقترابنا منه يجب علينا أن نعيد المحاولة ونضاعف جهودنا لمعالجة هذا الجرح الغائر.

لو كانت الولايات المتحدة أصرت على دعمها لعملية السلام فى الشرق الأوسط، حتى بوضع قواتها بين الإسرائيليين والفلسطينيين إذا لزم الأمر كما فعلت فى أماكن أخرى، لفسر هذا على أنه تعبير عن رغبتها الحقيقية فى إنشاء علاقات أفضل مع العالم الإسلامى؛ ولكن على النقيض من ذلك، يفسر المسلمون الاستعداد الأمريكى لترك القضية الفلسطينية تتأزم بلا حدود بأنه سلوك مستخف يتجاهل مصالح المجتمع الإسلامى العالمى؛ لأنه بمجرد قبول الفلسطينيين لخطة تسمح لهم بالبدء فى التركيز على عيش حياتهم، فإن باقى العالم الإسلامى سيتفق مع ما قبله الفلسطينيون؛ لأنهم الطرف الرئيسى المعنى.

وقياسًا على كرة القدم، فإن المطلوب هو سلسلة من إحراز نقاط سريعة تلقى دعاية جيدة لتحفيز المسلمين العاديين بشكل سريع وإقناعهم بأن أمريكا جادة فى سعيها لإقامة علاقة احترام متبادل، وستظل القوة العسكرية والاقتصادية العظمى فى العالم هى اللاعب الرئيسى فى أى جهد يبذل لتحقيق السلام، حيث تملك الولايات المتحدة المنصة الرائعة عالميًا لتجميع الأمم المتحدة وأية مجموعة أخرى من الدول، مثل الدول العربية ومجموعة السبعة، لتوليد القوة الدافعة اللازمة وتركيز الخبرة المطلوبة لتحقيق النتائج الملموسة.

إن أسرع طريق خلال أى جبل هو فى العادة الالتفاف حوله، فإذا كانت الصين هى طريق السلام بين الهند وباكستان، فإن طريق السلام فى الشرق الأوسط بين إسرائيل وفلسطين سيمر على الأرجح من خلال الولايات المتحدة، فالولايات المتحدة لا تزال هى الدولة الوحيدة فى العالم التى تستطيع أن تجمع الأطراف المتحاربة معًا من خلال الممارسة الكاملة للقوة المعنوية لقيادتها للعالم. وتستطيع الولايات المتحدة أن تجنى فيضًا هائلاً من الود من باقى العالم إذا بذلت نصف جهدها التى استنفذته للإطاحة بصدام حسين فى إقامة السلام فى فلسطين. ولك أن تتخيل أيضًا كم سيصبح العالم والولايات المتحدة أكثر أمنًا بمجرد انتهاء هذا الصراع.

إن المجتمع اليهودى الأمريكى هو أهم لاعب فى هذا المجال، فهو يعرف جيدًا كيف يقوم بالعمل اللازم لجعل قضية السلام فى الشرق الأوسط لها الأولوية لدى قادة الحكومة الأمريكية والكونجرس.

ولهذا الغرض فإنى أقترح (وسأصف فيما يلى) سلسلة من الحوارات حول القدس لاستكشاف ماهية الوطن الآمن لكلٍّ من الجانبين. وسوف يكون المسلمون والمسيحيون واليهود الأمريكيون الذين يشاركون فى هذا الاستكشاف فى وضع مثالى لينقلوا آراءهم لصناع السياسة الأمريكية.

إن استمرار التفجيرات الانتحارية لمائة عام لن يرمى إسرائيل فى البحر، كما أن استمرار الاغتيالات الموجهة وتجريف المنازل من جانب إسرائيل لمدة مائة عام لن يجفف مستودع المجندين الفلسطينيين من الشباب المتلهف للانضمام إلى منظمات مثل حماس، وقد أدى كل عمل من أعمال العنف ضد إسرائيل إلى إضعاف الأحزاب الإسرائيلية الداعية للسلام بشدة، ودفع العامة إلى أحضان الصقور المتطرفين، وبالمثل فقد عمقت سياسات هؤلاء الصقور المتشددة تجاه الفلسطينيين الإحساس بالإحباط والشعور باليأس، وهما وقود أعنف سبل المقاومة والاستشهاد، ولو بالعمليات الانتحارية، ومعاداة السامية فى أوروبا والعالم الإسلامى، واحترام أقوال المسلمين عن الإرهاب اليهودى؛ وهكذا تستمر الدائرة المميتة مع تزايد أعداد الموتى على الجانبين.

والتصريحات التى يدلى بها بعض الإسرائيليين بأنهم لن يتفاوضوا أبداً مع منظمات إرهابية، والتصريحات التى يدلى بها بعض الفلسطينيين بأنهم لن يتفاوضوا أبدًا مع دولة إسرائيل الخارجة عن القانون، تكفل أن الصراع سيستمر فى حصد أعداد مفجعة من أرواح الأبرياء من الجانبين. وإن إراقة الدماء لن تتوقف حتى يرهق القتل الجانبين ويصبحا مستعدين فى النهاية لإقامة حوار حقيقى، ليس حواراً مسرحيًا موجهًا لآذان الولايات المتحدة والأمم المتحدة. فقد أشعرتنى معاهدة جنيف، التى هندسها كلٌ من ياسر عبد ربه ويوسى بيلين (وزير الثقافة والإعلام الفلسطينى وزعيم المعارضة الإسرائيلية) بالراحة؛ لأنها تعبر عن الشعور بتزايد أعداد القتلى من الجانبين.

يقول مارك جوبين، الأستاذ بجامعة توفتس الخبير فى حل الصراعات فى برنامج هارڤارد للمفاوضات، إن الكرامة هى ما يحتاجه الفلسطينيون ويطلبونه من الإسرائيليين، فى حين يتوق الإسرائيليون ويحتاجون إلى ملاذ آمن على المدى الطويل، ويشعر كلا الطرفين بالمرارة للحرمان من نفس الحاجة وهى الوطن الآمن. إن الحاجة الماسة للفلسطينيين هى ما يفتقدونه بشدة، وهى كرامة الوطن والملكية الفعلية لأرض الأجداد المتوارثة، بينما يتوق الإسرائيليون لما يفتقدونه بشدة ألا وهو حماية الأجيال من الإبادة(٦).

نادراً ما تتوافر لكبار القادة المسلمين واليهود فرص لإجراء حوار جاد يتجاوز الأمور السطحية، وتستفيد الطائفتان من التواصل والتفاهم المتزايدين - فكلٌ منهما لديه اهتمام حيوى بإيجاد حل عادل وآمن للصراع الفلسطينى الإسرائيلى الذى وفر الوقود الأساسى لكثير من أشكال التعصب الدينى والإرهاب على مستوى العالم. وفى الوقت ذاته، أصيبت أعداد متزايدة من اليهود والمسلمين فى الولايات المتحدة بالإحباط بسبب عدم حل هذا الصراع، وكانوا يرغبون فى رؤية الولايات المتحدة تلعب دوراً أكثر حسمًا فى إيجاد حل له. ولو استطاع الزعماء المسلمون واليهود الأمريكيون الاتفاق على بعض القضايا الرئيسية وتحدثوا معًا بصوت متحد، فسيكون لهم تأثير قوى على توجيه عجلة السياسة الخارجية الأمريكية نحو القيام بدور أكثر مشاركة ومصداقية فى بناء السلام.

فعلى سبيل المثال، يمكن أن يجتمع كبار القادة اليهود والمسلمين فى سلسلة من الموائد المستديرة للحوار فى القدس يُدعى إليها قادة علمانيون ودينيون؛ وربما يكون من

بين المشاركين المسلمين كبار الأساتذة الجامعيين وقادة المجتمع ورجال الأعمال، بالإضافة إلى أئمة يمثلون أهم الجماعات الإسلامية فى الولايات المتحدة، بينما يكون من بين المشاركين اليهود زعماء أكبر المنظمات اليهودية مع مجموعة من قادة المجتمع ورجال الأعمال، كذلك تتم دعوة قادة مسيحيين بارزين وبعض المنظمات غير الحكومية التى لها خبرة فى جهود السلام فى الشرق الأوسط، بما فيهم الفلسطينيون والإسرائيليون، وأخيراً قد يطلب من الخبراء المشهورين على المستوى القومى فى حل الصراعات ترؤس هذه المجموعة.

ستهدف هذه الحوارات لبناء الثقة بين المسلمين الأمريكيين واليهود الأمريكيين، واستكشاف ماهية الوطن الآمن لكلٍّ من الجانبين، والتفكير فى إمكانية وضع حلول عادلة وآمنة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، كما سيستعرض القادة المسلمون واليهود المجتمعون فى الولايات المتحدة نفس القضايا التى ناقشها المفاوضون الإسرائيليون والفلسطينيون فى الشرق الأوسط، لكنهم سيقومون بهذا من منظور جديد أقل تقيداً من الناحية السياسية، مما يفيد فى ملء المساحات التى ما زالت غير مرسومة فى أية خارطة طريق أخرى للسلام فى المستقبل.

وبهذا يستطيع كلٌّ من القادة المسلمين واليهود الأمريكيين المشاركين فى هذه المحاولة تشكيل شبكة عمل غير رسمية تمكن المجموعة من التشاور السريع فى أوقات الضرورة القومية الملحة، وذلك عندما قد يساعد رد إسلامى - يهودى منسق فى نزع فتيل التوتر فى طائفتيهما والأمة كلها، وسيكون القادة من المسلمين واليهود والمسيحيين الأمريكيين المشاركين فى هذا الاستكشاف فى وضع مثالى لتبليغ رؤاهم الثاقبة لصناع السياسة الأمريكية، ولتشكيل لوبى يضغط على الإدارة الأمريكية والكونجرس لتنفيذ إطار سياسى فعال للسلام ومقبول من كل الأطراف(٧).

ماذا يمكن أن يفعله المسيحيون الأمريكيون:

مواصلة حوار الأديان بقوة

قام المسيحيون بعمل رائع فى هذه الدولة فى مجال حوار الأديان، وأينما أتحدث هنا

فى أمريكا، لا سيما منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فإننى أجد نية حسنة من جهة المسيحيين ورغبة العديد منهم للمشاركة فى الحوار الذى يدور حول هويتنا الأمريكية المشتركة؛ كما أن الكثير من المسيحيين، سواء كانوا أفرادًا أم ممثلين لمؤسسات، يتوقون إلى التعاون من أجل تطوير المبادرات التى ستفتح بدورها أبواب الفهم بين المسيحيين والمسلمين، فبلادنا فى حاجة ماسة إلى استمرار روح الانفتاح، والمسيحيون الأمريكيون يستحقون الإشادة على الخطوات الهامة التى اتخذوها بالفعل فى مجال حوار الأديان.

يقع على عاتق المسيحيين الأمريكيين أيضًا دور هام فى الحوار بين المسلمين واليهود، فبنية الحوار الذى تم إرساؤها بين المسيحيين واليهود يمكن أن تكون أيضًا نموذجًا للحوار بين المسلمين واليهود، وعلى وجه الخصوص حول القضية الفلسطينية الإسرائيلية؛ ويتعين على المسيحيين الأمريكيين أن يفعلوا ما بوسعهم من أجل مشاركة المسيحيين العرب فى الحوار. يرى المسلمون أن هناك بعض الممانعة بين المسيحيين واليهود عن الاعتراف بالجاليات المسيحية واليهودية التى تعيش فى البلاد الإسلامية، فعلى سبيل المثال، يرغب المسيحيون العرب فى المشاركة فى الحوار الذى يخص قضايا الشرق الأوسط؛ لأنهم يشعرون بترابطهم بالمسيحيين فى الغرب عن طريق الدين وترابطهم بالعالم الإسلامى عن طريق الثقافة، كما أن اليهود السفارديم - والذين يمثلون أقلية بالنسبة لليهود الأشكيناز الذين ينتمون للسلالة الأوروبية - يشعرون بالحاجة والرغبة فى المشاركة فى هذا الحوار؛ ويدرك المسيحيون العرب واليهود السفارديم عناصر العالم الغربى والعالم الإسلامى، ومن ثم فإنهم يستطيعون أن يلعبوا دورًا مهمًا فى سد الفجوة بينهم.

ورغم ما تم تحقيقه من عمل فى مجال حوار الأديان على يد المسيحيين الأمريكيين، إلا أن هناك المزيد لم يتم إنجازه؛ فقد أطلق القس فرانكلين جراهام - رئيس جمعية «مال السامرى» وابن القس بيلى جراهام - على الإسلام بأنه «دين مليء بالشر والإثم»، كما وصف جيرى فينز، الرئيس الأسبق «للمجمع المعمدانى الجنوبى» النبى محمدًا ﷺ بأوصاف لا تليق لما ادعاه عن أمور تتعلق بالجنس[8]، وبما أننى أمريكى يحب الإسلام بشدة، فإنى لا أطيق سماع هذه الكلمات؛ بل إنها كلمات تسبب غضبًا لا يمكن

وصفه فى أماكن أخرى من العالم، كما تمثل مثل هذه الكلمات أيضًا نظرية لاهوتية غير مسيحية وخاطئة، وللأسف الشديد، فبنفس العاطفة وبطريقة عكسية، يشير بعض رجال الدين الإسلامى فى الشرق الأوسط إلى أمريكا على أنها «الشيطان الأكبر» ويدعون إلى جهاد عنيف ضد المسيحيين واليهود، ولأنى شخص يعمل بكل ما لديه لتحقيق السلام، فإننى أشعر بعظيم الأسى تجاه هذه الكلمات أيضًا؛ وذلك لأنها خطأ من الناحية العقائدية ولا تنبنى على القيم التى تنادى بها الشريعة والفقه الإسلامى.

لو استطاع المسيحيون الأمريكيون التوقف عن تعليقاتهم المثيرة للحنق على الإسلام، فسوف يسهم هذا فى خلق مناخ يستطيع «الزعماء الأصوليون» من كلا الجانبين من خلاله البدء فى عملية يحاولون من خلالها أن يفهم كلٌّ منهما الآخر بدلاً من أن يسب كلٌّ منهما الآخر بسبب الفجوة الثقافية، إلى كبح جماح النفس، فإن زعماء المسيحيين الذين لا يفهمون أو حتى ينتابهم الخوف من الإسلام سوف يحسنون صنعًا بإشراك القادة المسلمين المحليين بالدخول فى ديارهم للمشاركة فى حوار مفتوح تسوده روح طيبة، بل ويهدف إلى بناء الثقة والسماحة بين الجانبين.

إننى أحلم بيوم يزور فيه زعيم مسيحى أمريكى بارز مثل القس جراهام الموقر بيت آية الله إيرانى، وأن يمكث مع أسرته لمدة ثلاثة أيام، وفى المقابل يقوم آية الله بزيارة بيته فى أمريكا، وستوفر هذه الزيارة فرصة عظيمة لكلٍّ منهما لتعلم عقيدة الآخر، إلى جانب القاعدة الأخلاقية النبيلة التى توجد بكلا العقيدتين المعنيتين، وإذا ما تعلمنا أن نحب جيراننا بحق، فسوف يكون من السهل البدء فى محاولة فهمهم.

ماذا يمكن أن تفعله وسائل الإعلام الأمريكية

إظهار الإسلام وعدم حجبه

ينطبق المثل الأمريكى القائل، «أبتسم للعالم يبتسم لك» على العالم الإسلامى، فما أن تبتسم للمسلمين إلا ويبتسمون لك، لقد أبدت أمريكا لفترة طويلة تذمرها تجاه العالم الإسلامى، وتتعجب الآن من تذمر العالم الإسلامى من أمريكا، إننا الآن بحاجة إلى إصلاح جذرى فى جهود وسائل الإعلام الأمريكية وموقفها تجاه العالم

الإسلامى، وأى شىء أقل من هذا لن يجدى؛ لأنه لا يمكن أن ينظر العالمين الإسلامى والغربى الواحد منهما للآخر بشكل مستمر على أنه عدو موجود على الساحة.

فوسائل الإعلام الأمريكية وصناعة السينما تحسن عملاً بوقف وصفهما للمسلمين كأشخاص فاسدين، الأمر الذى يؤدى إلى تغذية كراهية الأمريكان للمسلمين، وغضب المسلمين العارم من أمريكا، فقد مرت عقود على وصف هولى وود لجماعات عرقية معينة بصورة سلبية، وذلك بسبب الدعاية المناوئة التى ترتد على الاستوديوهات، ولكن ظل العرب والمسلمون بطريقة ما هدفًا سهلاً للانتقاد. وقد وصفت الأفلام التى تصور الحياة فى غرب أمريكا «الوسترن» التى اعتدت مشاهدتها فى شبابى الأمريكيين أهل البلاد الأصليين بأنهم متوحشون برابرة، كما فعلت أفلام طرزان فى وصفها للأفارقة، ونحن نشاهد هذه الأفلام القديمة اليوم، ونجد أن الرسائل العنصرية الخفية التى تنقلها هذه الأفلام رسائل عدائية؛ إن الأفلام والكتب والمقالات التى تصف المسلمين بشكل سلبى تسهم فى زيادة التوتر بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، فقد كان قرنائى فى الطفولة من الأولاد والبنات يجسدون الشخصيات المحبوبة التى يشاهدونها فى الأفلام ووسائل الإعلام مثل طرزان وجين، وجون واين وزورو. ولأن الملايين من أطفال المسلمين فى العالم يتأثرون بالأفلام الأمريكية، فما هى الشخصيات المحبوبة التى عرضتها أفلام هولى وود للأجيال الناشئة من أطفال المسلمين الصغار لتنافس صورة أسامة بن لادن؟

لذلك شعر المسلمون بالسعادة عندما بدأت تظهر الأفلام التى تصفهم وتصف ثقافتهم بصورة إيجابية مثل فيلم روبن هود: **أمير اللصوص**، الذى لعب فيه مورجان فريمان دور مسلم متعلم تعليمًا عاليًا يساعد روبين هود كيفن كوستنرر فى تحقيق العدل للفقراء، وكذلك فيلم **المحارب رقم ١٣**، الذى لعب فيه أنطونيو بانديراس دور البطل؛ حيث كان يجسد شخصية مسلم نبيل انضم إلى بعض الفايكنج لحماية قراهم بها؛ هذا وقد شعر المسلمون الأمريكان بالافتراء عليهم ظلمًا إلى أن جاءت الأفلام التى تصفهم بشكل إيجابى، حيث رحبوا بها كنسمة هواء عليل، فاحترام ثقافة الآخر يفضى إلى الاحترام المتبادل، فى حين أن إهانة ثقافة الآخر تفضى إلى إهانة متبادلة، فكم ستتغير نظرتهم للعالم عندما يقارن ذوو الأصل الصينى والبوذيون الأفلام القديمة التى صورت الصينيين على أنهم طباخون خسيسون أو أناس غير موثوق بهم، بالأفلام

الجديدة مثل **النمر الرابض**، **والتنين الخفى** وغيرها من الأفلام التى وصفت الآسيويين والرهبان البوذيين الذى يحاربون بصورة تثير الإعجاب.

إن وسائل الإعلام الأمريكية المذاعة والمقروءة بوجه خاص بحاجة إلى أن تفعل الكثير من أجل تحقيق هدفها المدنى، وخاصة إلقاء الضوء على الجهود، وبشكل أكبر أهمية على المواقف والحجج الهامة التى يبديها المسلمون المثقفون حسنو الاطلاع المشاركون فى المناقشات الجارية بين الجالية الإسلامية هنا وفى الخارج، فالأجيال الجديدة من المسلمين ـ أمريكيين وأجانب ـ فى حاجة إلى الأمل، وهم بحاجة إلى أن يتعلموا كيف يصبحون أكثر مسايرة للعصر وأكثر تعددية وإسلامًا.

ماذا يمكن أن يفعله مجتمع الأعمال

لإحلال التطلع للمكسب الكبير محل التطلع للقتل

تتطلب رحلة تحقيق السلام أن نتخيل ماذا تبدو عليه عملية السلام بين الأطراف المتحاربة، وأن نعرف ما نريد تحقيقه ومتى سنحققه. ثم علينا أن نخطط له، وأن نستخدم مهارة وطاقة وقوة كافية لتحقيق ذلك الهدف.

فعلى سبيل المثال، إننى على يقين أنه بمجرد أن يتحقق السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين، حتى وإن بدا هذا السلام غير كامل فى البداية، فإن الروابط الاقتصادية المتنامية بين إسرائيل وجيرانها سوف تخلق قوى فعالة للترابط. إن تعليقات أشوتوش فارشينى ـ التى تناولناها فى الفصل الرابع ـ لتوضح أنه بمجرد إقامة علاقات للتزامل، وهى الروابط التى تأتى نتيجة لعلاقات الأعمال والعلاقات التجارية والسياسية والمهنية، فإننا نستطيع أن نتوقع انحسار حالة العنف. وفى حالة تحقيق السلام فى الشرق الأوسط، فعلى الأرجح ستكون الدول المجاورة لفلسطين ـ إسرائيل: ولبنان والأردن ومصر وسوريا هى أهم الشركاء التجاريين لها. وقد أكدت أن البلدان الثلاثة، وهى لبنان وفلسطين وإسرائيل من المحتمل أن تكون من بين القاطرات الاقتصادية فى الشرق الأوسط؛ وذلك لأن اللبنانيين والفلسطينيين والإسرائيليين لهم علاقات عالمية فى المجالات التجارية والصناعية والمصرفية. ويمكن أن يصدق نفس

الأمر على فلسطين والأردن: وذلك بأن تصبح إسرائيل من بين أكبر وأهم الشركاء التجاريين لهما . وربما تستطيع الروابط الاقتصادية الإقليمية القوية أن تخلق ضغوطًا خلال عقدين للأخذ بعملة مشتركة، وكذلك قوة دافعة تهدف إلى تحقيق اتحاد اقتصادى يماثل الاتحاد الأوروبى، وعند هذه المرحلة من الزمن نستطيع أن ننظر إلى القضايا التى تمثل عائقًا كبيرًا حاليًا فى طريق السلام بمنظور مختلف تمامًا.

ينطبق نفس الأمر على المجالات الرئيسية الأخرى للصراع فى العالم الإسلام، مثل كشمير والشيشان، ومن المرجح أن تمثل الهند وباكستان ـ أهم الشركاء التجاريين ـ كلاً منهما للآخر فى أعقاب أية خطة سلام يتم العمل بها، وبمرور جيل أو أقل تغدو المنطقة التى تم تقسيمها فى عام ١٩٤٧ اتحادًا اقتصاديًا إلى جانب كشمير وبنجلادش.

ما الذى دفعنى إلى أن أقول هذا؟ انظر إلى العلاقة الاقتصادية المتنامية بشكل سريع بين كلٍّ من الهند والصين، فخلال أربع سنوات، ازداد حجم التعامل التجارى الثنائى بين الصين والهند من أقل من مليارى دولار سنويًا فى السنة المالية المنتهية فى ٣١ مارس ٢٠٠٠م إلى ٧ مليارات دولار فى السنة المالية المنتهية فى ٣١ مارس ٢٠٠٤، ومن المنتظر أن يصل إلى ١٠ مليارات دولار فى العام المقبل، وقد أقر رئيس وزراء الهند، أتال بيهارى فاجبايى بـ «أنه كانت هناك فترة فى العلاقات الصينية الهندية منعنا فيها انشغالنا بخلافاتنا من الفهم العملى للمنافع المتبادلة التى يمكن تحقيقها بالتعاون»[٩].

وغاية فى البيان، أن ذلك الانشغال بالخلافات منع الناس من أن يدركوا حجم المنفعة التى ستعود عليهم جراء التعاون مع بعضهم البعض، وهذا ما هو إلا تطبيق للقصة الصوفية (أو القصة البوذية لنوادر السفر حول العالم) التى تحكى عن أناس لم يكن باستطاعتهم أن يثنوا مرافقهم يجدون أنفسهم فى الجنة أو فى النار، وجهنم هى المكان الذى يجلسون فيه أمام وليمة ولا يستطيعون أن يأكلوا؛ وذلك لأنهم لا يستطيعون أن يثنوا مرافقهم، وبالتالى يتضورون جوعًا، أما الجنة فهى المكان الذى يستخدم فيه كل شخص ملعقة من أجل أن يطعم الشخص الذى يجلس فى المكان المقابل له.

فكم من الناس اليوم يتذكرون أنه منذ بضع سنوات خلت كان الجنود الصينيون والهنود يتقاتلون على الحدود بين الهند والصين؟ وكم من الناس يعلمون أن النزاع على

كشمير ليس نزاعًا قائمًا فقط بين الهند وپاكستان، ولكن أيضًا بين الهند والصين؟ إلا أن النزاع مع الصين على مشكلة الحدود يتضمن ولاية هندية أخرى وهى أروناشال براديش مع جامو وكشمير (وهذه ولاية واحدة) ترى بكين أنها من نزاعات الحدود الرئيسية طويلة الأجل، ولكن بموجب العلاقات الاقتصادية المتنامية (التى أطلق عليها فارشينى روابط الزمالة) فإن الدبلوماسيين الصينيين والهنود لديهم حافز قوى لم يكن لديهم على مدار الأربعين سنة الماضية لإبرام «اتفاقية شاملة تهدف إلى حل صراعهم القائم حول حدود يصل طولها إلى ٢٢٠٠ ميل، وقد قاموا بتعيين مبعوثين خاصين للعمل على إبرام هذه الاتفاقية»[١٠].

لقد كان من المفترض أن يتم تطبيق بيان رئيس الوزراء فاجبايى الحاسم عن الصين بشكل جاد على پاكستان. فالمشكلة الحرجة التى على الهند وپاكستان اجتيازها هى كيفية إقناع كلا الجانبين بأن المنافع المتبادلة الناجمة عن التعاون بينهما سوف تطغى بشكل كبير على انشغالهم بخلافاتهم.

وإذا ما نجحت الهند والصين فى تحقيق ذلك، فإنه من الممكن أن نأمل على نحو منطقى فى أن تستخدم الصين نواياها الحسنة وتأثيرها الإقليمى مع حليفها التاريخى پاكستان وتتوسط فى تقارب مماثل بين پاكستان والهند، وهذا يعنى أن طريق السلام من دلهى إلى إسلام آباد يمكن أن يمر ببكين، وكما حدث بين الولايات المتحدة والصين، فإن التجارة الثنائية المتنامية لها دور فى حل النزاعات وجعلها تبدو كعراك أطفال حول دمى رخيصة. كذلك يمكن أن تكون التجارة بين مثلث الهند وپاكستان والصين نعمة عظيمة على المنطقة التى تضم دولاً أخرى مثل نيبال والتبت وبوتان وبنجلادش. وإذا ما تخلت هذه الأطراف لفترة عن العداوة وركزت على التنمية الاقتصادية وتطوير التجارة الثنائية فيما بينها، فسوف تكون هناك حلول لأسباب هذا الصراع فى غضون عقد أو عقدين، ومن ثم يتمكن الأمريكان من زيارة الدلاى لاما فى التبت[١١].

لقد كانت الملصقات الأمريكية أثناء الستينيات تدعو إلى الحب لا إلى الحرب. ونحن الآن بحاجة إلى ملصقات تطبق درسًا أكثر فعالية تدعو إلى خلق فرص للعمل ولا تدعو إلى الحرب، حيث إن التاريخ قد أثبت أن وجود علاقات تجارية عديدة جيدة يمكن أن يضع الصراع فى منظور مختلف تمامًا. وتعتبر التجارة الثنائية المتنامية جزءًا من

رؤية يتعين على كلٍّ من الطرفين أن يسعى لتحقيقها، فلماذا نبحث عن مكاسب ضئيلة بأساليب صعبة المنال، في حين أن السلام هو الطريق الأمثل للوصول إلى مكاسب أوفر كثيراً لنضع في الاعتبار أن طبيعة الثروة تطورت بشكل جذري على مدار القرن الماضي. لقد كانت الأرض في يوم من الأيام هي التعريف الأولي للثروة والقوة، فحتى ما يزيد على قرن بقليل، كان على المواطن الأمريكي أن يكون ذكراً وأبيض ومن ملاك الأراضي حتى يحق له التصويت. واليوم أكثر الناس ثراء الواردة أسماؤهم في قوائم مجلة فوربس أو مجلة فورشن لا يتم ذكرهم بسبب ملكية الأرض، وإنما ملكية الأسهم في الشركات أو من الشيء المميز الذي نطلق عليه المال، والذي يتكون اليوم من أرقام مسجلة في حسابات مفتوحة في بنوك تقع في المدن المزدحمة.

إننا لم نسمع كثيراً عن تطبيق هذا الأسلوب في إنهاء الصراع والإرهاب والتطرف، وبشكل عام، فإن الناس يرغبون في أن يتاجروا أو يبيعوا أصولاً مقابل أخرى؛ وهذا هو الأساس في أي سوق. وعلاوة على ذلك، فإن الكثيرين يرغبون في أن يبادلوا جزءاً من قوتهم مقابل حصولهم على الأصول التي يرغبون فيها (وعادة ما تكون هذه الأصول مالاً، ويمكن أن يقايض بأصول أخرى مرغوب فيها). وأحيانًا ما يعطي الناس شخصًا آخر قدراً معينًا من التحكم فيهم، طالما أنهم قد تقاضوا مقابلاً كافيًا (في ذهنهم) للسلطة التي تنازلوا عنها، وهذا يعني في العلاقات التجارية والشخصية أن خدمات الناس وخضوعهم لرغباتك يمكن أن تُشترى في مقابل الحصول على القدر الصحيح من أصول القوة، أو الأصول الاقتصادية.

حدود هذه المعادلة عندما لا يكفي أي قدر من المال والسلطة لانتهاك الحدود الأخلاقية، كما يحدث عندما نبيع أرواحنا مقابل ثلاثين قطعة من الفضة، كما جاء في المثل المعروف. فبعد مرور ألفي عام من التضخم، ربما نتساءل: ما هي الانتهاكات الأخلاقية التي يمكن أن نسمح بها مقابل ثلاثين مليون دولار؟ هل ستخون المسيح في حدائق جيسمان عدن مقابل ٣٠٠ مليون دولار أو ٣٠ مليار دولار؟ أم هل سترفض، كما فعل المسيح عيسى أن يكون رئيسًا للعالم (أو القوة العظمى في العالم) إذا كان الثمن الذي يدفع مقابل ذلك هو الاستقامة الروحانية؟ فمن المحتمل أنك مستعص على الإغراء بأي سعر. ولكن إذا استخدمنا هذا الجانب من الطبيعة البشرية (ويتحتم

أن نكون من دارسى علم النفس البشرى) من أجل تحقيق الخير، فسوف يكون باستطاعتنا منح الناس مكافآت من أجل تعزيز صنع السلام والصداقة والمحبة، ويتكلف هذا قدر ما يتكلفه الإنفاق على الرؤوس النووية الموجهة تجاه بعضهما البعض على الحدود الپاكستانية الهندية.

لذلك، فإن رؤيتنا الثاقبة للدور الذى تلعبه السلطة والاقتصاد فى حياة الأفراد لها تداعيات على سياستنا الخارجية، فعلى سبيل المثال، إذا ما سعينا للمساعدة فى تقدم العراق والخروج به من حقبة نظام صدام إلى مجتمع أكثر انفتاحًا، فإن توفير الأمن وتحسين الوضع الاقتصادى أمر أكثر إلحاحًا من إعطاء المواطن حق التصويت، وكما ذكرنا سابقًا، فإن وجود الديمقراطية بينما تفتقر المنازل إلى الأمن والكهرباء والمياه الجارية والغذاء، لا يعتبر خياراً مرغوبًا فيه عند معظم الناس مقارنة بمعيشة طيبة حتى لو فى ظل نظام أقل ديمقراطية.

ماذا يمكن أن يفعله الحوار بين الحضارات:

شن الحرب على الإرهاب

عندما يشرع صناع القرار والمفكرون فى الشرق الأوسط فى التفكير فى كيفية تحقيق الديمقراطية فى بلادهم، فإنهم سيواجهون تشكيلة محيرة من التحديات والقضايا الحرجة؛ وربما يجدون أيضًا أماكن قليلة يتلمسون فيها النصيحة الخالية من التحيز وجداول الأعمال الخفية.

وهناك نهج مثمر للعالم الإسلامى ـ وعلى وجه الخصوص فى الشرق الأوسط ـ هو برنامج مستمر للحوارات والندوات الفكرية والحوارية يهدف إلى الجمع بين قادة الرأى من البلاد الإسلامية فرادى مع العلماء ورؤساء المؤسسات الكبيرة وبعض القادة المنتخبين من الولايات المتحدة وغيرها من البلاد الغربية، ولأنها تعمل على تبادل المعلومات فى مجال بناء الأمة، فإن هذه الحوارات ستركز على التحدى الذى يكمن فى التوفيق بين مبادئ الرأسمالية الديمقراطية والثقافات الإسلامية؛ حيث ينظر لهذه المفاهيم أحيانًا على أنها غير إسلامية.

إن السجل العالمى الخاص ببناء الأمة ليس جيداً كما ينبغى ، حيث المعرفة الفنية موجودة ، ولكن نادراً ما يجتمع فريق السلام الأمثل للتركيز على القضايا التى تخص السياق المحلى .

على سبيل المثال ، إذا طرح المرء سؤالاً بسيطًا يتعلق بكيفية تطوير الحكم الديمقراطى فى إيران والعراق والمملكة العربية السعودية ، فإن الإجابة يمكن أن لا تكون «إن ما ينطبق على بلد واحد سينطبق على الجميع» ، ولكن لا بد أن يتواءم هذا مع الواقع الموجود بكل بلد ؛ ففى إيران ، على سبيل المثال ، توجد حركة ديمقراطية ناشئة ، وما هم بحاجة إليه هناك هو تشجيع فصل أو توازن السلطات ، وأن يركزوا بشكل أكبر على تطوير الأفكار الإسلامية الداعية لإقامة بنية اقتصادية صحية تهدف إلى بناء اقتصاد نابض بالحياة ؛ أما فى العراق ، فينبغى أن ينصب التركيز على الأمن والغذاء وفرص العمل والإسكان والخدمات الصحية ، والبنية التحتية المادية مثل الطرق والاتصالات والخدمات التعليمية ، وعلى بناء الشكل الخارجى للاقتصاد الفعال ، ومن ثم يأتى تحقيق الديمقراطية الكاملة فى المرتبة الثانية ؛ أما فى المملكة العربية السعودية ، فإن النموذج البريطانى لنظام المجلسين التشريعيين لتقاسم السلطة بين مجلس النواب ومجلس العموم ربما يكون فكرة جديرة بالمناقشة مع الأسرة الحاكمة ، والتماثل هنا يكمن فى أن مجلس النواب يتمثل فى بيت آل سعود من جهة ، وتشكل العشيرة شبيه مجلس العموم من جهة أخرى .

وكل هذه مجرد أفكار لتوضيح أن تنفيذ هذه المسيرة لا يمكن أن يكون مجرد أخذ رخصة الامتياز الأمريكى وغرسها بمكان آخر ، فحتى شركة ماكدونالد قامت بإضافة عادات وأذواق محلية فى منافذ بيع الهامبورجر التابعة لها ، فعلى سبيل المثال ، يوجد فى فروعها بالسعودية أماكن مخصصة للأسر وأخرى للأشخاص بمفردهم .

ويصبح دور الولايات المتحدة بمثابة المحفز والمؤيد للحفز على إقامة شكل جديد وبناء للمناقشات الحكومية البناءة فى العالم الإسلامى ورعاية ذلك ، وتستطيع أمريكا بدورها أن تزود العالم الإسلامى بمسارح آمنة ومحايدة وغير منحازة يمكن أن تناقش فيها مثل هذه القضايا ، وإقامة منتدى جديد يستطيع من خلاله كبار القادة الدينيين والعلمانيين المختلفين ومن مستويات عالية أن يناقشوا هذه القضايا وما يتعلق بها فى

جو تسوده عقلانية الحوار البناء، يمكن أن تلعب دوراً قيما فى رفع مستوى الحوار الذى يدور حول تحديات الديمقراطية وما تعد به فى العالم الإسلامى، وكذلك حول الدين فى الغرب.

ويمكن أن تتم دعوة عدد من المؤسسات الأمريكية التى لها شأن كبير مثل مؤسسة أسبين ومؤسسة شوتوكوا ومؤسسة وقف كارنيجى للسلام، ومعهد الولايات المتحدة للسلام، والمؤسسات الكبيرة مثل كارنيجى ورو كيفيلر، إلى جانب تشكيلة من الجامعات والكليات للمشاركة فى استضافة سلسلة من الندوات الثنائية التى يستمر كلٌ منها خمسة أيام، وتجمع مجموعة صغيرة تتكون من عشرين أو ثلاثين قائداً للتركيز على القضايا الملحة التى تخص دولة إسلامية معينة. ويمكن أن تجمع ندوة من هذه الندوات الفقهاء والسلطات القانونية للقيام مع العلماء المسلمين بمناقشة فكرة النظام القضائى المستقل، والقضايا التى تتعلق بالدين والدولة داخل دولة معينة. وفى ندوة أخرى، يمكن ترتيب اجتماع ليس للنشر حول بناء هذه الأمم بين ممثلى الكونجرس الأمريكى والزعماء السياسيين البارزين الذين يمثلون دولة إسلامية معينة.

وبناء المؤسسات نقطة تركيز مهمة فى هذه المناقشات الثنائية. إن تصميم مؤسسات للنظام الرأسمالى الديمقراطى يتماشى على وجه الخصوص مع الثقافة الإسلامية، ونظراً لأننا فى أمريكا نعتبر أمراً مسلمًا به وجود المؤسسات الرئيسية التى يعتمد عليها نظامنا الديمقراطى، فإننا غالبًا ما نتغاضى عن حقيقة أن الكثير من مثل هذه المؤسسات ليس له وجود فى الدول النامية، فالبعض من هذه المؤسسات مؤسسات خاصة، فى حين أن البعض الآخر يعتبر أنظمة مدنية واجتماعية تدعم وتؤيد أداء المجتمع الحر.

هذا وسوف تتضمن القائمة الجزئية لمثل هذه المؤسسات الديمقراطية قوات الشرطة المدنية، ونظام الضرائب العادل (والفاعل)، والنظام الاقتصادى للسوق الحرة إلى جانب شبكات الأمان الاجتماعية، وحكم القانون والنظام القضائى المستقل، وقوانين مكافحة الاحتكار، وذلك من أجل تعزيز الشفافية والحماية من الاحتكار، وإقامة أسواق رأسمالية، وأنظمة تعليمية وأنظمة للمدارس، ووسائل للإعلام الإخبارية الحرة، وأنظمة للحماية البيئية، وتوفير الحماية للأقليات. ولقد حاول الغرب محاولات زرع هذه المؤسسات فى الدول النامية مرات لا حصر لها فى الماضى، ولكن

الغرب قد قام بذلك عادة بطريقة ساذجة ومتحكمة تفترض أن النموذج الغربى يلائم كل الثقافات، ولكن ذلك قلما حدث. النتيجة كانت مخيبة للآمال ومعدلاً مخجلاً للفشل فى عملية بناء المؤسسة، بالإضافة إلى الإذلال المتزايد للمسلمين.

وكمثال على النهج الحساس إزاء الثقافة، فإن القرآن يقدم رؤى ثاقبة للنزعات البشرية التى أدت إلى أزمة بيئية يواجهها عالم اليوم، وحماية البيئة فى العالم الإسلامى من الأشياء المنصوص عليها فى التعاليم الإسلامية، كما أنها منصوص عليها فى العلم الحديث، ولكن يتحتم على مثل هذه الجهود أن تتلاءم مع الحاجة المحلية للرفاهية الاقتصادية، وبالمثل، فإن التعاليم الإسلامية التى تدعو إلى نظام اقتصادى عادل وقانون يقضى بعدم تلويث بيئتنا أو تدمير مواردنا (بما فيها الأشجار) يمكن أن توجه لدعم هذه الأهداف.

وهناك شكل آخر من أشكال الحوار الديمقراطى وهو تبادل الزيارات بين مواطنى الدول، وفيه توجه الدعوة إلى مجموعة كبيرة من المواطنين البارزين فى شتى مجالات الحياة ـ ربما يصل عددهم إلى مائة فى المرة الواحدة ـ لزيارة الولايات المتحدة للالتقاء بمجموعة مناظرة من الأمريكيين لإجراء مناقشات عن الثقافة وأسلوب الحياة ورفع مستوى معيشة الأسرة والحياة بشكل عام فى أمريكا والشرق الأوسط، وفى زيارة متبادلة يسافر مواطنون أمريكيون إلى دول الزائرين لتكرار هذه العملية، يتبع هذا النهج النموذج الناجح لمؤسسة شوتوكوا فى تبادل زيارات المواطنين مع الاتحاد السوفييتى فى الثمانينيات، ومن المحتمل أن توجه الدعوة إلى منظمة المدن الشقيقة لتكون شريكا آخر فى مثل هذا المشروع، ويمكن أن يتم الإعلان عن هذه الزيارات المتبادلة وإذاعة الاجتماعات التى تعقد بالمدن فى وسائل إعلام الشرق الأوسط، كالجزيرة على سبيل المثال، كطريقة لتعزيز الحوار والفكر الجديد.

وتحاول المنظمات غير الحكومية الأمريكية والأجنبية القيام ببعض ذلك بالفعل، ولكن مشاركة حكومة الولايات المتحدة بدورها كجزء من مبادرة السياسة الأجنبية للولايات المتحدة التى تتسم بالاستنارة والتحديد الدقيق سوف تعظم من فاعلية هذه الجهود، مثلما تفعل مشاركة من القادة المسلمين الأمريكيين.

ماذا يمكن أن يفعله كل إمام أمريكى

مبادرة قرطبة

كرست حياتى بعد مأساة الحادى عشر من سبتمبر للمساهمة فى إعادة العافية إلى العلاقة بين أمريكا والعالم الإسلامى، وكان ذلك يعنى جدول مواعيد مكثفًا للمحاضرات فى المساجد والكنيسات والكنائس، واللقاءات التلفزيونية والإذاعية والصحفية، والرحلات من أجل التحدث فى اجتماعات حوار الأديان أو المؤتمرات من كل نوع التى تعقد فى العديد من القارات. كما هدانى التزامى هذا إلى تأليف هذا الكتاب.

ويعرض هذا الكتاب فلسفة وأهداف الهيئة غير الهادفة للربح التى شاركت فى تأسيسها: مبادرة قرطبة، والتى جاء اسمها من الفترة بين عام ٨٠٠ وعام ١٢٠٠م، عندما كان خليفة قرطبة يحكم كثيرًا ما يعرف اليوم بإسپانيا، وهذا الاسم يذكرنا بأن المسلمين قد أقاموا فى هذه الحقبة من التاريخ أكثر المجتمعات استنارة وتسامحًا وتعددية على وجه الأرض.

ومن خلال مشاركة المنظمات الإسلامية والمسيحية واليهودية، بالإضافة إلى المؤسسات المدنية، فإن مبادرة قرطبة تبنى تحالفًا واسعًا متعدد الديانات من أجل المساعدة فى إصلاح ما فسد فى العلاقات الإسلامية الأمريكية على مدى الخمسين عامًا الماضية. وتدعو المبادرة المسلمين الأمريكيين للقيام بدور قيادى فى الوساطة بين أمريكا والعالم الإسلامى. وتنص هذه المبادرة على عقد برامج ثقافية وتعليمية ومناقشات

دولية ليست للنشر بين القادة، ومبادرات التواصل، بل ومحادثات جادة لحوار الأديان تهدف جميعها إلى تحقيق التفاهم والسلام فى الداخل والخارج على حد سواء، ويعتبر هذا الكتاب إحياء لـ «روح قرطبة».

ماذا يمكن أن يفعله حوار الأديان؟

مساعدتنا فى أن يرى الله كلا منا فى الآخر

إن الدين يتعلق بربط البشرية بالله، ولم يكن المقصود منه أبدًا إثارة العنف والعداوة بين الشعوب، فهو بمثابة المزيل للحجب التى تمنعنا من كسب المعرفة بالحقيقة الوحيدة الصادقة، والشعائر الدينية التى نمارسها تقاس بمدى تحقيق هذا الهدف بنجاح، وهى تفقد قيمتها إذا ما فشلت فى الدعوة إلى حب الله. وعندما تتعالى أصواتنا للإقرار بوحدانية الله ووحدانية الجنس البشرى، فإن ديننا يحقق عندئذ غايته.

لقد ذكرت آنفًا أن الله - سبحانه وتعالى - قد تحدث فى القرآن عن الصالحين والطالحين من أهل الكتاب ومن أتباع النبى محمد ﷺ أيضًا[١٢]، والمسلمون يؤمنون بأن البشرية ستقسم يوم القيامة إلى فريقين، هما: الذين يحظون برضا الله، والذين يستحقون سخطه، ومن ثم فمن المتوقع أن نجد نصارى ويهودًا ومسلمين من بين الفريقين؛ إما أن يكونوا من أهل رضى الله (الجنة) وإما أن يكونوا من أهل سخط الله (النار).

والروحانية هى أن نتعلم أن نرى الأمور بعينى الله، وإذا تعلمنا ذلك فسوف نجد من بين المسيحيين واليهود والمسلمين من ينبعث منهم ريح الجنة ويتجلى رضا الله عنهم، وسنجد من بينهم أناسًا قد تعدوا الحدود الدينية، ونستدل منهم على سخط الله، وهم من يشكلون الفريق المقابل[١٣].

ونصل من خلال هذه الرؤية الثاقبة البسيطة إلى الاستنتاج الذى يتحدى كثيرين من المسلمين: أنه من بين الذين يؤمنون بالديانات الأخرى من يشتركون معنا فى نفس القدر المحتوم عند الله[١٤]؛ لذلك فإن حوار الأديان يجعلنا نتشارك فى المحورين الخاصين بأعظم وصيتين؛ المحور الرأسى وهو اكتشاف الأساليب المختلفة التى يفهم

بها الناس بعضهم البعض ويعبدون الله من خلالها؛ والمحور الأفقى ويتضمن تطوير التحالفات بين الصالحين عبر دائرة الطيف الدينية كلها من أجل العمل سويًا نحو إصلاح المجتمع، وإذا ما اتفقنا على مبدأ أن حب الله يتطلب حب البشر، فإن الحوار بين الأطراف الذين ينتمون إلى عقائد مختلفة سيتضمن العمل مع شركاء على جانبى خط الانقسام الدينى، يرون رضا الله عن بعضهما البعض، ويتضمن ذلك تذكيرنا بالتبريرات العلمانية والعقائدية لرؤية عالمية أصيلة ومقنعة للسلام الذى يقوم على التقاليد والنصوص المقدسة.

وحركة حوار الأديان العالمية حركة جوهرية تمامًا فى هذه الأيام وفى هذا العصر. ومن أكثر الأهداف أهمية أن نوضح للعامة أن الأديان ليست السبب الرئيسى للصراع. وفى حوار **الأديان وبناء السلام**، أصر الحبر آرثر شناير - والذى عقد أربع قمم دينية حول السلام والسماحة فى يوغسلافيا السابقة - على أن «الدين فى عهدنا لا يمثل سببًا للصراع، رغم أنه يستخدم عادة مبررًا له، فالدين لسوء الحظ غالبًا ما يكون أكثر الاختلافات وضوحًا بين الجماعات المتنازعة، ونتيجة لذلك، فإنه دائمًا ما يتم إلقاء اللوم عليه على أنه سبب الصراعات، وقد أصبحت الأمور الخطيرة أنه عند اندلاع الصراعات، نسمع أصواتًا قوية ترجع الصراع إلى سببه الرئيسى وتجعل الدين بمنأى عنه، بالإضافة إلى تعزيز روح التسامح والفهم». إنه لمن السخرية بالدين وتوجيهات الله للبشر أن نرتكب أعمالاً فيها قسوة أو وحشية أو غير إنسانية باسم الله، وأضاف شناير بأن الجريمة التى ترتكب باسم الدين تعتبر من أكبر الجرائم التى ترتكب فى حق الدين(١٥)؛ فمن الأهمية بمكان أن يصبح الصليب والهلال ونجمة داود رموزًا للسلام والتسامح والاحترام المتبادل.

لقد كان هناك حوار وتفاعل بين أصحاب الديانات المختلفة عبر التاريخ، حتى أثناء الحملة الصليبية، عندما شن المسيحيون الحرب على المسلمين، وفى الوقت الذى يعتقد فيه الكثيرون أن هناك صراعًا حضاريًا بين الغرب والعالم الإسلامى، يتحتم على اليهود والمسيحيين والمسلمين أن يفندوا هذا المعتقد الخاطئ وذلك عن طريق التحاور، وأن يثبتوا على معتقدهم بأن الله أوحى حكمته وحقائقه لكل مجتمع فى العالم. وحقيقة أن المسلمين يعتقدون بموجب إيمانهم أن كل أمة قد أرسل إليها رسولها ونبيها من قبل الرب نفسه، وأن النبى محمداً ﷺ نفسه قد تحاور مع من كانوا يسعون

للقضاء عليه وعلى رسالته؛ وتعنى أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلف المسلمين بتوصيل رسالته لأصحاب الديانات الأخرى وأن يجادلوهم ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد أوضحت التجربة التاريخية قيمة وتكامل الحوار بين أنصار الديانات المختلفة، وأصحاب المعتقدات المتعارضة فيما يتعلق بالعديد من القضايا ذات الأهمية العامة، وقد تتوافر التبريرات العلمانية والعقائدية لتلك الاستنتاجات التى استخلصها الخبراء الذين ينتمون لطائفة من المعتقدات، من تعاليم التقاليد والنصوص المقدسة. إن العمل معًا من أجل بناء إدراك إنسانى راق لوجود الله بين البشر يوضح أن العمل الذى سنقوم به يجب أن يحدد بين الجاليات الدينية المعنية من جهة، وأن يعين ما نريده من بعضنا البعض من جهة أخرى.

فى البداية، يتحتم علينا أن نتعلم أن نرى أنفسنا فى علاقتنا مع الآخرين، سواء كانت هذه العلاقة دينية أو دنيوية، وذلك من أجل تحقيق أهدافنا العامة المشتركة، فعند الحوار لا بد أن نراعى قاعدتين رئيسيتين، كلاً منهما بسيطة وبعيدة المدى؛ أولاهما: مقارنة المتماثل بالمتماثل [أى النصوص الدينية بالنصوص الدينية، أو ممارسات المتدينين بممارسات المتدينيين]، والثانية، السماح لكل طرف أن يعرف نفسه للآخرين.

فعلى الرغم من أن القاعدة الأولى واضحة، إلا أنها قد تم انتهاكها عندما حاول المدافعون عن ديننا أن يقارنوا بين معتقداتهم فى شكلها المثالى وبين الصيغ الحقيقية أو السيئة لأديان الآخرين، فعلى سبيل المثال، فى الوقت الذى يعتقد فيه الكثيرون من المسيحيين أن دينهم هو دين الحب والسلام، فإن اليهود والمسلمين قد شاهدوا وجه «الإرهاب المسيحى» على مر القرون.

وتقضى القاعدة الثانية بأن نسمح للآخرين أن يحددوا من هم وما هى مشاعرهم تجاه الآخرين، وأن يتجنبوا النظر إلى دين الآخرين بطريقة تعزز على نحو زائف قيمنا وتقدمنا. ومن ثم، ينبغى على المسلمين ـ على سبيل المثال ـ أن لا يرسموا صورة تمت أسلمتها، أو صورة كاريكاتيرية للديانة اليهودية، والمسيحية، والهندوسية، بل يلتفتون قليلاً إلى كيف يرى الآخرون إيمانهم وعقائدهم. كذلك ينبغى أن لا يكون المسلمون حساسين تجاه نظرة أصحاب الديانات الأخرى إليهم، وعلى وجه الخصوص، فإن

المسلمين فى حاجة إلى أن يشرحوا بأسلوب مقنع ما السبب وراء العمليات الإرهابية التى ترتكب باسم الإسلام إذا كان الإسلام دين السلام .

وعلى المسلمين أن يوضحوا الأمور التالية :

١ـ علاقتهم الخاصة بالمسيحيين واليهود، وماذا يعنى هذا بالنسبة لأتباع التعاليم الإبراهيمية .

٢ـ أن التشدد الدينى لا يوجد فى المجتمعات المسلمة فقط ، وأنه سيتم الحد منه إذا ما تم التصدى للقضايا السياسية التى تؤججه .

لا شك أنه إذا تم حوار بين الأديان بشكل بناء ، فسيكون له أثر قوى فى كشف الحقيقة الأساسية ، وهى أن جميع البشر يشتركون فى أشياء كثيرة على المستوى الروحانى العميق . حيث إن نفس الإله خلقنا جميعًا ، وعندما نتعلم كبشر كيف نتوصل للقيم البشرية والروحية الأساسية التى نشترك فيها جميعًا وكيف نتطابق معها وننطلق منها فربما نتجاوز بذلك خلافاتنا السطحية ، ونتعلم كيف نقبل التنوع العقائدى والثقافى الذى يقوى رباط الأسرة الإنسانية . إن الحوار بين الأديان يستطيع على مر الزمن أن يقضى على مفهوم «الآخر» ويحل محله إدراك أعمق لحقيقة أننا جميعًا إخوة وأخوات .

وقد تزايد المسلمون المتشككون الذين يتساءلون : لماذا نضيع الوقت فى الحوار؟ وماذا يقصد بالحوار؟ وما هى النتيجة المترتبة عليه؟ ونظرا لأننى قضيت بضعة عقود فى حوار الأديان ، ولأننى من النازعين للشك إلى حد ما وأدرك حقيقة أنه عمل يتسم بالصعوبة ، فإننى أرغب فى أن أختم هذا الفصل بعرض المقترحات التالية حول كيف يمكن أن يسهم حوار الأديان فى تحسين أحوال البشر[١٦] .

إن الحوار بين رجال الدين ، وما بينهم من اختلافات ، يفتح قلوبنا لبعضنا البعض كبشر ، ويكشف عن وجه الشبه بيننا وبينهم ، بل ويعمق البحث عن الحقيقة الخالدة ، وهذا لأن الله يستطيع (وهذا ما يحدث غالبًا) أن يتحدث إلينا من خلال الآخر ، فنحن نتعلم شيئًا ما عما هو مقدس ممن يختلفون عنا ، ونكتسب الفهم العميق عن متطلبات الدين الذى نعتنقه ، ومن خلال ذلك ، نعترف بأن الآخرين ربما يكون لديهم شىء من الحقيقة[١٧] .

إن الحوار بين الأديان يمنحنا فرصة كشف الأرضية المشتركة للقيم والأهداف المشتركة بيننا التى تكمن فى دين كل منا، حتى ولو حددنا الخلافات الحقيقية؛ بينما يتيح الحوار داخل الدين الواحد لأتباعه فرصة أن تنتابهم الدهشة بسبب الخلافات الحقيقية التى تنجم من العقيدة والشعائر المشتركة (العبادة القويمة والتطبيق القيم)(١٨)، كما أن الحوار يصوغ الروابط الشخصية والعلاقات التى تنبنى على الثقة والتى تنطوى على إمكانية تعزيز نسيج اجتماعى أكبر، وإتاحة الفرصة للجهود التعاونية، حيث تتداخل الاهتمامات والأولويات.

وعندما يلتزم المتحدثون باسم الدين بمخاطبة العامة عن السلام، فإنهم بذلك يسهمون فى فهم وبناء المفهوم العالمى للصالح العام. فالأديان التى نعتنقها تعتبر مصادر فريدة لكل من القيم العامة ـ مثل الرأفة والعدل ـ والطاقة الأخلاقية والقوة المطلوبين لممارسة هذه القيم فى حياتنا اليومية. إن التحدث كرجال الدين أمام العامة يستلزم مواجهة تحديات حقيقة وأحيانًا مواجهة مخاطر، ومع ذلك فإنه بالتغلب على كل تحد يواجهنا، نحقق بذلك مساهمة ملحوظة، ومن بين هذه التحديات ما يلى:

* أن نجعل لغتنا وصورنا الدينية شيئًا له معنى وواضحًا خارج سياقنا الدينى. فمعظم المتحدثين باسم الدين لم يدربوا على التحدث إلى من هم خارج حدودهم.

* أن نتوخى الحذر فى الطريقة التى نعرض بها قناعاتنا، مدركين أننا أصوات من بين العديد من الأصوات على الساحة الدولية. ففى الوقت الذى يتحتم علينا أن لا نخجل من الإعلان على الملأ للمبررات الدينية التى تقوم عليها بياناتنا وتوصياتنا السياسية لأنه فى المجتمعات المفتوحة، تتزايد الثقة والفهم العام أن بالانفتاح والوضوح فيما يتعلق بالعقيدة ومنابع السلطة الكامنة وراء مواقفنا.

* أن نلتزم بأسلوب التواصل والتواجد سويًا، وهو الأسلوب الذى يؤكد على بشرية كل الحاضرين، والحوار بين الأديان صيغة دولية للحوار، يجسد فهمنا لما تتوقعه تعاليم الدين الذى نعتنقه من الناس فى المجتمع، ويعزز فرصة التعلم والتمحيص والفهم. والحوار يتطلب منا أن نأتى إلى هذه المحادثة بنية صادقة حتى نَفهم ونُفهم، وبالاستعداد لأن نستمع إلى الآراء المختلفة دون أن نطالب الآخرين باتباع رأينا.

* أن نتفق على الطريقة التى نختلف بها ، وأن نحدد المبادئ العقائدية للخلاف فى الوقت الذى نحترم فيه إنسانية كل المشاركين فى الحوار ، حيث إننا حين نؤكد شرعية منتديات الحوار ندعم ونشجع ثماره ، والتى أثرت فى الماضى تراثنا الجماعى كبشر .

* أن نبحث عن أرضية مشتركة ، فالحوار ليس فى حقيقة الأمر جدالاً وليس نقاشًا يفضى بالضرورة إلى حل لب النزاع . فالحوار يبحث عن نقاط التوافق ، ويتطلب أن نصغى إلى الآخرين ، وأن نؤجل الحاجة إلى الدفاع أو رد الفعل ، وأن نستمع إلى نقاط التواصل ، كما يوضح الحوار أن سوء الفهم يمكن أن يكون فرصة للتعلم بدلاً من أن يكون مناسبة للهجوم .

* أن نلتزم الاحترام فى الحديث والسلوك ، وأن ننتبه إلى الأثر الذى تتركه اللغة التى نستخدمها ، وكيف يفهمها الآخرون ، وأن نتسم بالأمانة فيما تتركه لغة الآخرين من أثر علينا ، ويتطلب الحوار فضائل يجب أن تتعزز فى معاملاتنا الاجتماعية العالمية الحالية ، كما يتطلب أيضًا الالتزام بما يقصده الناس فعلاً عندما يتحدثون ، وليس ما يفكر فيه المستمع على أنه مقصود . ويتطلب الحوار إخراج الفرضيات غير المختبرة والتصورات المسبقة علانية وأن تتوفر الإرادة لطرح أسئلة حقيقية والإجابة عليها .

وبالنظر فيما وراء الحدود القريبة للخلافات الثقافية والعداوات التاريخية ، نجد قادة روحانيين ينتمون إلى أعظم الديانات فى العالم قد منحوا نعمة ، أن توافرت لهم فرصة فريدة لإعمال كل من حكمتهم ونفوذهم لمواجهة التحديات اليومية ، وأن يورثوا لأجيال المستقبل منظوراً معولـمًا ينبع فى الأصل من تراثنا الدينى والروحانى الجماعى .

وأعتقد بأنه ليس هناك فى القرن الحادى والعشرين هدف أسمى من :

● التبشير بالحقبة التى تنبأ بها النبى إشعياء فى العهد القديم بقوله : «فيقضى بين الأمم ويحكم بين الشعرب الكثيرة فيطبعون سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل . ولا ترفع أمة على أمة سيفًا ، ولا يتدربون على الحرب فيما بعد» [إشعياء : ٢ : ٤] .

● وبث موعظة يسوع التى أرشد بها تلاميذه فى العهد الجديد قائلاً لهم: «طوبى لصانعى السلام، فإنهم سيدعون (أبناء الله)» [متى: ٥: ٩].

● وحض الناس على الامتثال بالأوامر والنواهى الإلهية التى جاء بها القرآن الكريم من: إقامة العدل والإحسان وصلة الأرحام، وقمع الظلم والنهى عن الفحشاء والمنكر.

فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ⑬﴾ [الحجرات: ١٣].

* * *

خاتمة

التماس السعادة

يريد العالم أن يتشبه بأمريكا. إن القيم التى تلفظ بها توماس جيفرسون ببلاغة ـ الحياة، الحرية، والتماس السعادة ـ لتدوى بشدة فى شتى أنحاء العالم متجاوزة الفروق السطحية والثقافية، ولا يرجع السبب فى هذا إلى أنها قيم أمريكية، بل لأنها قيم عالمية مطمورة فى فؤاد الإنسان. وهذا هو السبب فى أن الأمريكيين عادة ما يعاملون بدفء واحترام حتى فى البلاد التى لا تعتبر حكوماتها صديقة للولايات المتحدة.

ومع هذا، فقد أصبح العداء تجاه الولايات المتحدة فى كثير من مناطق العالم اليوم هو القاعدة وليس الاستثناء. حيث تقف الولايات المتحدة فى مفترق طرق تاريخى فى ظل عالم ملىء بالتهديدات ـ بعضها حقيقى والآخر متخيل، يؤدى أحد هذه الطرق إلى السير فى اتجاه العمل من جانب واحد بعناد. ويمر هذا الطريق عبر حقول الخوف ـ ففيه توضع الحرب على الإرهاب فوق جميع الشئون الاجتماعية والروحية والإنسانية الأخرى، وهذا الطريق يترك الولايات المتحدة وحيدة محاصرة فى عالم يشك فيها ولا يشعر بالود نحوها. وبالمضى فيه، تسعى أمريكا إلى النوم بالليل وهى مسلحة تسليحًا ثقيلاً وعلى حذر دائم.

أما الطريق الآخر، فهو مختلف تمام الاختلاف. فهو يرتقى فوق نجاد الثقة والإيمان، يأخذنا إلى مكان تمثل فيه أمريكا دور الموقف العظيم ـ بدلاً من دور رجل الشرطة العظيم ـ بين الدول التى تشكل الأسرة العالمية، إن هذا لهو طريق التعاون والتعددية والحوار وبناء الصداقة. وبالسير فى هذا الطريق، تنام أمريكا جيداً؛ لأنها كثيرة الأصدقاء قليلة الأعداء. إن هذا لهو طريق الأمل.

يجب على الأمريكيين أن يتخلصوا من التعجرف غير اللائق الذى يقودنا للقول بأن أمريكا تحتكر نوعى الخير والصدق، وهو اعتقاد يجعل البعض لا يرى العالم سوى مسرح تؤدى عليه مسرحية درامية تاريخية عظيمة هى: الولايات المتحدة الأمريكية ضد قوى الشر.

إن لغة الخير مقابل الشر هى بالضبط لغة الأصوليين الذين نعارض آراءهم عن العالم. فبمجرد أن نصف من يعارضوننا بالشر، نفقد الأساس الأخلاقى العالى ونبدأ فى الهبوط فى منحدر أخلاقى زلق للغاية. لقد تعلمنا من الصوفية أنه يجب علينا أولاً أن نحارب وندمر ما بأنفسنا من شر بأن نجعل ما بداخلنا من خير يعلو عليه، ثم نتعلم محاربة الشر لدى الآخرين بمساعدة ذواتهم العليا للسيطرة على ذواتهم الدنيا. أما محاربة شر الآخرين بالرد عليهم عينًا وبسلوك عدوانى عنيف مماثل فهو استخفاف بكل أخلاق الأديان الإبراهيمية؛ كما أنه أيضًا انتهاك لاتفاقيات جينيف والقانون الدولى والأمم المتحدة والرأى العام العالمى، وحتى وثيقة الحقوق الخاصة بنا. وإذا كنا نعتقد حقًّا أن الله فى جانبنا - بدلاً من التيقن من أننا فى جنب الله - فإننا نهوى فى وهم لا نرى أن هناك حدودًا - وهذا هو الوهم الذى استهوى قلب كل متطرف.

إن للولايات المتحدة قدرًا أعظم من أن ينظر إليها على أنها تلميذ متنمر بزملائه فى حوش المدرسة فى القرن الحادى والعشرين، فنحن نملك دعوة روحية أسمى من الأحادية الأنانية، لقد كانت الولايات المتحدة على مدار تاريخها منارة الأمل للكثيرين فى شتى أنحاء العالم. حيث لم يدع دورها كحارس وجالب للأمل مجالاً للشك حول إيجابيات أمريكا. وهذا التراث هو السبب الذى يجعل العالم يريد أن يتشبه بنا؛ وهذا هو الدور الحق والحسن الذى ينبغى دائمًا أن نطمح إليه حتى لو كان الطريق شاقًّا، وكان سوء التفاهم الذى يبعدنا عن الثقافات الأخرى عميقًا.

إننا نملك أداتين قويتين لرأب الصدع الذى يفصل الولايات المتحدة عن العالم الإسلامى وهما: الإيمان فى الخير الفطرى للإنسانية والثقة فى قوة الإخلاص، والحوار الذى نستطيع به أن نتغلب على الخلافات الموجودة بيننا وبين إخواننا فى البشرية، فقد علمتنا كافة الأديان الإبراهيمية هذا الإيمان وهذه الثقة، حيث إنهما يوضحان ملة إبراهيم - الموجودة فى جوهر إعلان الاستقلال الأمريكى، وأمريكا تحتاج أن تستند عليهما أكثر، كما يفعل رفقاؤنا على مسرح التاريخ.

هناك قدر كبير من التماثل بين إيجابيات أمريكا وإيجابيات الإسلام، فعلى أعلى المستويات، تعكس الرؤية العالمية لكلٍّ منهما إقراراً مستنيراً بأن جميع البشر لهم خالق واحد - أى أننا إخوة وأخوات حقّا، فعندما كتبت إيما لازاروس عام ١٨٨٣ الكلمات التى تحتفى فيها بالسيدة الجميلة التى تقف بثبات على ميناء نيويورك، لم تكن تصور دولة إمبراطورية انعزالية تركن فقط إلى السعى وراء رؤيتها الأحادية للعالم، بل كان فى مخيلتها دولة تستند على نحو واثق على قواعد الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، التى كان يحلم بها جيفرسون وآدامز وفرانكلين وغيرهم من الآباء والأمهات العظام لهذه الأمة. إن السيدة العظيمة الواقفة فى الميناء ترمز إلى حلم الإنسانية - هذا الحلم الغنى بالأمل والمثالية لعالم المقهورين.

ليس كالعملاق النحاسى اللون ذى الشهرة الإغريقية
تمتد خطواته الغازية من أرض إلى أرض
هنا ستقف عند أبوابنا التى تغسلها مياه البحر، و تغرب عندها الشمس
امرأة جبارة تحمل مشعلاً، لهيبه
هو الرعد السجين، واسمها هو
أم المهاجرين، و من يدها المنارة التى ترشد الحائرين
ينبعث الترحيب العالمى
وتسيطر عيناها اللطيفتان
على الميناء ذى الكوبرى المعلق الذى يربط بين إطار المدن.
صرخت بشفاه صامتة «احتفظى، يا أيتها البلد القديم،
ببهائك الذى يحكى عنه! ، أعطنى جماهيرك المتعبة، الفقيرة،
المحتشدة التى تتوق لتتنفس هواء خاليًا
من النفايات القذرة الموجودة على شاطئك المكتظ.
أرسلى لى هؤلاء المشردين المزعجين.
لقد تركت مصباحى بجانب الباب الذهبى!».

إن حمل مصباح الحرية والأمل والصداقة عاليًا هو أعظم هدية تقدمها أمريكا للعالم، كما أنها مسؤوليتها المقدسة.

بينما كنت مبحرًا إلى نيويورك فى صباح يوم الأربعاء، الموافق ٢٢ ديسمبر ١٩٦٥، على متن السفينة الإيطالية إس إس ماركونى، نظرت إلى تمثال الحرية وتساءلت ماذا تخبئ لى أمريكا، ثم أدركت بعد قليل أن اكتشاف ثراء عقيدتى سيكون على هذه الأرض، فمثلى مثل الكثيرين من المهاجرين من البلاد الإسلامية، اكتشفت إسلامى فى أمريكا.

لذلك فأنا تراودنى أمنية، تشاركنى فيها قراءتى لآيات الذكر الحكيم - القرآن - عن جميع الأديان - بما فيها اليهودية والمسيحية - وهى ذات الأمنية التى تراود جميع من شاركوا فى حوار الأديان على مر العصور، أتمنى أن تنهل البشرية من فيض العقائد الروحية الغنى المشبع - فيض المبادئ الإلهية الثابتة التى اتخذت شكلاً مختلفًا بعدة طرق فى المجتمعات الإنسانية. يجب أن يصبح الدين أكبر من مجرد عادة أو عرف، أكبر من نمط زائل وموضة ثقافية للعصور المنقضية؛ يجب أن يكون الدين - الذى يخاطب ما هو خالد بداخلنا - أساسًا لمجتمع قوى متناغم ومبدأ محركًا للحياة كلها.

تعبر القصيدة التالية للشيخ محى الدين بن عربى - الذى يعتبره البعض الشيخ الأكبر - عن جوهر هذه الضالة المنشودة، حيث يصف فيها التحول من دين مبنى على ما هو زائل إلى دين قائم على ما هو باق، ويحرك فينا الأمل حين يخبرنا بأن البشرية ربما تمر بمثل هذا التغيير:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

شكر وعرفان

نحن نكتب معظم الكتب، ولكن هناك كتب أخرى مثل هذا الكتاب، تكتب نفسها من خلالنا، نشعر بالامتنان لما نلناه من عظيم الشرف، إن هذا النوع من الكتب له عقل خاص به يقرر متى سيظهر نفسه، ومن سيشارك فيه، ومتى وكيف وإلى أية غاية يهدف، وينطق هذا الكتاب بشكره لكل الذين ساهموا فى وضعه.

فى البداية، أتقدم بخالص الشكر إلى الكثيرين الذين شجعونى لتأليف هذا الكتاب. وقد كانت جين فريدمان فريدة فى نوعها، فبعدما سيطر عليها الإحباط لعدم وجود تقدم فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط عرضت ما يلى «سأستقيل من منصبى إذا ما ساهم ذلك فى حدوث ذلك التقدم». وإلى جانب المساعدة الحاسمة لكلير القوتلى، التى عملت بلا هوادة كمساعد للتحرير أثناء الكتابة، ساعدنى وكيلى الأدبى چوى هاريس فى وضع العرض الذى سمح للكتاب أن يعرض قضيته للناشر ستيف هانسيلمان من دار هارپر سان فرانسيسكو، والذى شهد لهذا الكتاب بأنه «سيسهم فى سد فجوة فى عالم الكتب». شكراً شكراً شكراً!

كما أتقدم بخالص الشكر لمحرر دار هارپر الموهوب للغاية، إيريك براندت، والذى قام بأسلوب هادئ ولكن بطريقة مقنعة بتطبيق العملية الكيميائية التى حولت ذرات الكتاب التى تشبه الجرافيت إلى الشكل الماسى الذى طالما بحثنا عنه، وأتقدم بالشكر أيضًا للمحررة الموهوبة المساعدة له، بريسيلا ستكى، التى عرضت بمهارة الماسة حتى ينعكس بريقها على نحو متواصل فى عين القارئ، وشكراً لروجر فريت، الذى أكسبت مقترحاته هذا الكتاب مذاقًا طيبًا أكثر مما كان يتصور، وشكراً لكبير المحررين الإداريين، تيرى ليونارد، لسعة صدرها لاحتواء تطلع المؤلف للحصول على «الكتاب الكامل» مع الحفاظ على الجدول المحدد لإنتاجه، وهذا الكتاب يشهد بأن كل هؤلاء محترفون على أعلى مستوى، ولن أستطيع أن أوفيهم حقهم.

وخالص الشكر والتقدير إلى طلابى من المصلين لصبرهم على غيابى، ولدعمهم ودعائهم لى، وأتقدم بشكر خاص إلى بهروز كارجورافارى، وناز أحمد، وفايز خان

لنيابتهم عنى، وأخص بالذكر فارزان سليم لرفعه من أداء جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بى، قلم وصفحة المؤلف الحديث، وأتقدم بالشكر لسميرة هوزيك لمساعدتها الجاهدة لى فى استعادة عمل أسبوع تسبب الكمبيوتر الخاص بى فى اختفائه فى شبكات الكمبيوتر المرتبطة ببعضها البعض.

كما أتقدم بالشكر لجون كيسر وجون برون كامبيل المبجل وإيدجر برونفمان والحبر جاك بومبوراد والبروفيسور على أسانى والدكتور فاروق خان وعمر أمانات وجوليا جيتكوف لمقترحاتهم القيمة واهتماماتهم الشخصية المفعمة بالحماس برسالة هذا الكتاب.

كما أتقدم بخالص الشكر لزوجتى، دايزى خان، لما يعلمه الأزواج فقط فيما يخص شعور الزوج «عندما لا يجد رباط حذائه»، فقد رأت طوال عملية إعداد هذا الكتاب أنه قد استنفد كل ما بى من طاقة، بل وصبرت صبر أيوب على اختفاء مائدة الطعام التى تبلغ مساحتها ثلاثين قدمًا مربعًا، بل واختفاء باقى أرضية حجرة الطعام تحت ركام من الكتب على مساحة قدمين، وخالص الشكر لأمى، والتى أكدت أن غياب حجرة الطعام لم يمنع من تقديم الغذاء لى بسخاء أثناء المرحلة الأخيرة من إنهاء الكتاب، ولكنها كانت تقوم بدور هام فى تغذيتى بحبها ودعائها وبركاتها طوال حياتها.

وأتقدم بعميق الشكر لجون إس بينت، الذى شارك فى تأسيس مبادرة قرطبة التى قدمت برنامج عمل لإعادة العافية إلى العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب، فالله وحده لديه كنوز فيها من العمق والتنوع ما يكفى لشكره على جهوده المضنية فى إعمال أفكار المبادرة فى إعداد هذا الكتاب.

فخالص الشكر والامتنان لكل من سبق ذكره، كما أننى أعلن براءتهم من أى من أخطائى وآرائى، ولنيل رضا الله وتقبله لهذا العمل سأدافع عنهم وعن نفسي وعلى وجه الخصوص والدى، وأستاذى العظيم الدكتور محمد عبد الرءوف، وباقى أسلافى الروحانيين وأساتذتى ومن قاموا بتوجيهى ومنهم الشيخ موزافر أوزاك، فبفضل تعليمهم الجماعى وكونهم مثلاً يحتذى به وتوجيههم الروحانى وتربيتهم الروحانية وبركاتهم وصلت إلى ما أنا فيه.

Notes
الهوامش

FOREWORD - التقديم

1. Wilfred Cantwell Smith, *Islam in Modern History* (Princeton: Princeton University Press, 1957), 305.

PREFACE - التمهيد

1. A popular saying goes as follows:
   He who knows, and knows that he knows, is a sage; follow him.
   He who knows, and knows not that he knows, is asleep; awaken him.
   He who knows not, and knows that he knows not, is ignorant; teach him.
   He who knows not, and knows not that he knows not, is dangerous; run away from him.

2. Charles Kimball, *When Religion Becomes Evil* (San Francisco: HarperSanFrancisco, 2002).

INTRODUCTION - المقدمة

1. To read the full report, log on to http://www.people-press.org (accessed January 23, 2004).

2. Some argue that this arose less as a reaction to religion per se and more in response to the dominant American Protestant (primarily Baptist and Methodist) views of religion, which often dominated other religions—particularly, at that time, Catholicism and Judaism. Some feared that the power possessed by this WASP establishment to promote its values in realms outside of religion, especially in science and education, was subtly curtailing freedom of thought. See Michael Ariens and Robert Destro, *Religious Liberty in a Pluralistic Society*, 2nd ed. (Durham, NC: Carolina Academic Press, 2002).

3. These ideals are all Islamic ones, but what the West achieved was *institutionalizing* these ideals through social safety nets such as Social Security, unemployment insurance, welfare benefits, and so forth.

CHAPTER ONE - الفصل الأول

1. Will Herberg, *Protestant, Catholic, Jew: An Essay in American Religious Sociology* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1960), 40.

2. This debate between human free will and predestination spilled over into a robust debate between the Prophet Muhammad and his skeptical contemporaries, who argued that God had determined them to be disbelievers, and they were therefore merely reflecting the divine will. See Feisal Abdul Rauf, *Islam, a Search for Meaning* (Costa Mesa, CA: Mazda Publishers, 1995), 53ff.

3. This in fact constitutes the core ideas of all divinely revealed religion, but we shall limit our focus in this book to the three known as the Abrahamic religions.

4. An important note to the non-Muslim reader: when a Muslim says, "The Quran states," it is taken to be equal to "God states" and therefore is part of a Muslim's belief.

5. The expression "the nature of God" (*fitrat allah*) holds two meanings: "God's nature" as well as "the nature that God made," upon which God created humanity (that is, God created humanity in the divine image). See Rauf, *Islam: A Search for Meaning*.

6. This idea is the basis of one of the great pieces of Islamic literature, the story of Hayy Ibn Yaqzan (literally, the Alive Son of the Aware), authored by Ibn Tufayl, who lived in Spain in the twelfth century. Hayy, raised by himself on a tropical island, comes to the realization of God on his own as the result of his own thinking process. In a sense his story recapitulates the Abrahamic search for God. See *Ibn Tufayl's Hayy Ibn Yaqzan: A Philosophical Tale*, trans. Lenn Evan Goodman (New York: Twayne Publishers, 1972).

7. The jinn (from which the English word *genie* comes) are beings created, according to the Quran, from smokeless fire, as humans are from clay and angels from light. They are capable of salvation or punishment like humans.

8. Quoted from Rabbi Jack Bemporad, "The Pontifical Biblical Document, The Jewish People and the Sacred Scriptures in the New Testament: A Jewish Perspective," *Bulletin Centro Pro Unione*, no. 63 (Spring 2003): 3–7.

9. "A woman got separated from her child and when she found it again, she pressed the child to her chest and breastfed it. The Prophet asked his companions, 'Could you imagine this woman throwing her child into the fire?' We said, 'No, by God! She could not bear to do such a thing!' The Prophet replied, 'Indeed, God is more merciful to his servants than this mother to her child'"; Muslim, *Sahih*, "Kitab al-Tawbah," chapter titled "The Extent of Allah's Mercy Is Wider Than His Wrath," hadith no. 4947.

10. This is the universal definition of the word *Islam*. Anyone who believes in the oneness of God and submits to a relationship to the one God as creature to Creator is thereby Muslim.

11. The story of Hargar's discovery of the well of Zanzamis mentioned in Genesis 21:19 of the Bible.

12. Bukhari, *Kitab al-Iman*, hadith no. 12.

13. The term used is *shara'a*, meaning "to ordain," thus implying that the fundamental religious laws established by the Prophet Muhammad are in keeping with the laws of Moses and Jesus, all of which flow out of the Abrahamic ethic.

CHAPTER TWO - الفصل الثاني

1. One reason Muslims view themselves as having a special kinship with Jews and Christians is that they believe Muhammad is the Gentile (another interpretation of the word *unlettered*) Prophet, foretold in both the Old and New Testaments. John 1:19–21 speaks of Jews sending priests and Levites from Jerusalem to interrogate Jesus: "Who art thou?" (John 1:19) They kept probing: "Art thou Elias? . . . Art thou *that Prophet?*" (John 1:21, see also 1:25). Muslims believe the expression *that Prophet* is a New Testament reference to the Old Testament mention of the expected Prophet Muhammad. That Old Testament reference has Moses declaring, "The Lord thy God will raise up unto thee a Prophet from the midst of thee, of thy brethren, like unto me; unto him ye shall hearken. . . . I will raise them up a Prophet from among their brethren, like unto thee, and will put my words in his mouth; and he shall speak unto them all that I shall command him" (Deuteronomy

18:15, 18). Whereas Muslims regard Jesus as the Messiah, Muslims regard Muhammad as *that prophet* "like unto Moses," for Muhammad came with new legislation and did not teach except what he was taught by God.

2. As translated by the American master calligrapher Muhammad Zakariya. See http://www.zakariya.net (accessed February 5, 2004).

3. Muslim, *Sahih*, vol. 1, hadith no. 1.

4. Muslim, *Sahih*, "Kitab al-Iman," hadith no. 9.

5. In Judaism, the emphasis is on orthopraxy, and there is much greater flexibility in one's specific beliefs. A Jew may or may not believe, for instance, in a heaven or a hell, an afterlife, or a day of judgment, yet if he or she observes the Sabbath, the rules of circumcision, the Jewish holidays, and so forth, he or she is generally considered to be an observant Jew. In the Christian faith, the emphasis is on orthodoxy: as long as one believes that Jesus Christ is the savior, one is generally accepted as a Christian. Muslims are doubly bound, having both an orthodoxy, which must be believed in, and an orthopraxy, which must be practiced, if one is to be deemed an observant and practicing Muslim.

6. The story of Mary is beautifully told in the Quran 19:17ff., where God states that Jesus was conceived without a human father. Muslims therefore believe in the virgin birth of Jesus.

7. Quran 16:36 asserts, "And certainly We raised in every nation a messenger, saying: Serve God and shun the devil."

8. This verse differentiates between those who outwardly practice religion without any inner content of faith and belief, which defines one way the term *muslim* has been used, from the *mu'min*, believers whose inner spirituality is alive and whose ethics fulfill the Prophet's teaching that "no one is a believer (*mu'min*) until he loves for his brother what he loves for himself." What is noteworthy is that in addressing the Prophet's followers, the Quran always uses the phrasing *ya ayyuha-lladhina amanu* ("O you believers" or "O you who have believed"), never *ya ayyuha-lladhina aslamu* ("O you Muslims" or "O you who have submitted"). This almost suggests that the Quran is a book addressed more to believers (*mu'mins*) and less to those merely concerned with calling themselves by the label *muslim*—that is, to those concerned with the substance and reality of authentic faith rather than with the nomenclature and outer expressions of faith.

9. This is verse 2:255 of the Quran. It reads: "God! There is no god but He, the Live, the Self-Subsisting. Slumber and sleep do not touch Him. Who shall intercede with Him except by His Permission? Knowing what is before and behind them [that is, all of humanity], while they [humanity] do not embrace a jot of His knowledge except by His choice. His Throne [that is, power and dominion] extends [all through] the heavens and earth; and sustaining them tires Him not. And He is the Exalted, the Mighty." According to hadiths of the Prophet, reciting this verse protects the individual from evil.

10. The idea in Western universities of a "chair" of philosophy, for example, came from this image of the master seated on a chair, lecturing to his group of students.

11. For more on this, see Maurice Bucaille, *The Bible, the Qur'an, and Science* (Indianapolis: American Trust Publications, 1978).

12. Muslim, *Sahih*, hadith no. 6251.

13. In a hadith, the Prophet Muhammad indicated that (on Judgment Day), "You shall certainly see your Lord as you see this full moon, without any doubt"; Muslim, *Sahih*, "Kitab Mawaqit al-Salah," hadith no. 521.

14. Muslim 4937, also Tirmidhi 2376, Ibn Majah 4229, Ahmad Ibn Hanbal 16949.
15. Bukhari, *Sahih*, "Kitab al-Riquq," Bab al-Tawadu', hadith no. 6021.
16. *The Mathnawi of Jalaluddin Rumi*, trans. Reynold A. Nicholson (n.p.: Luzac, 1972), 5.
17. This hadith is not referenced in the standard Hadith sources.
18. Genesis 1:26–27. This is also in the Hadith: Bukhari 5759, Muslim 5075, Ibn Hanbal 7021.
19. *Mathnawi*, trans. Nicholson, bk. 2, p. 316, vv. 1852, 1853.
20. This is based on the Quranic verse 57:4: *wa huwa ma'akum ayna ma kuntum*. "He is with you wherever you are." This is in contrast to the philosophers who spent their time debating "*wujud* [reality of existence] versus *mahiyya* [quiddity]."
21. Shaikh Wali Raslan, *Risala fi't-Tawhid*, trans. Muhtar Holland as *Concerning the Affirmation of Divine Oneness* (Hollywood, FL: Al-Baz, 1997), 50ff.
22. John Kiser, *The Monks of Tibhirine: Faith, Love, and Terror in Algeria* (New York: St. Martin's Press, 2002), 9.
23. Quoted in *Ghazali: Deliverance from Error*, trans. R. J. McCarthy (Louisville, KY: Fons Vitae, 1999), 9, 12, originally published as *Freedom and Fulfillment* (Boston: Twayne, 1980).
24. Abd al-Ghafir al-Khatib, quoted in *Ghazali*, trans. McCarthy, 15–17, 75.
25. *Ghazali*, trans. McCarthy, 46.
26. Vincenzo M. Poggi, S.J., cited in *Ghazali*, trans. McCarthy, 332.
27. Margaret Smith, *Al-Ghazali the Mystic*, quoted in *Ghazali*, trans. McCarthy, 40.
28. *Ghazali*, trans. McCarthy, 38.
29. Poggi, quoted in McCarthy, 42.
30. *Ghazali*, trans. McCarthy, 43, 69.
31. The word *lahn* can also mean "barbarism."
32. *Ghazali*, trans. McCarthy, 78.

CHAPTER THREE الفصل الثالث ـ

1. William Sloane Coffin, *A Passion for the Possible: A Message to U.S. Churches* (Louisville, KY: Westminster/John Knox Press, 1993), 3, 2.
2. Muhammad 'Abd al-Hadi Abu Ridah, quoted in Philip K. Hitti, *Makers of Arab History* (New York: St. Martin's Press, 1968), 191.
3. Muhammad Asad, *The Principles of State and Government in Islam* (Gibraltar: Dar al-Andalus, 1980), vi.
4. In discussing the Declaration of Independence and Constitution, I have drawn on Roger Pilon, preface to *The Declaration of Independence and the Constitution of the United States of America* (Washington, DC: Cato Institute, 1998).
5. Asad, *Principles of State*, 96.
6. "The Farmer Refuted" (1775), *American State Papers*, 123, quoted in F. Forrester Church, *The American Creed* (New York: St. Martin's Press, 2002), 32.
7. Thomas Jefferson, letter to John Hambden Pleassants, April 19, 1824, quoted in Church, *American Creed*, 33.
8. See Will Herberg, *Protestant, Catholic, Jew: An Essay in American Religious Sociology* (Chicago: Univ. of Chicago Press, 1960), 6–82.
9. Perry Miller, "The Location of American Religious Freedom," in *Religion and Freedom of Thought* (New York: Doubleday, 1954), 21.

10. Asad, *Principles of State,* 1.

11. Ibn al-Qayyim al-Jawziyyah, *I'lam al-Muwaqqi'in 'an Rabb al-'alamin* (Cairo, n.d.), 3:1.

12. This incident is referred to in the Quran, chap. 48.

13. "Obedience to God and to the Messenger" is a command that appears about a dozen times in the Quran and is commonly heard among Muslims. See, for instance, Quran 3:32, 3:132, 4:59, 5:92.

14. Quoted in Martin Lings, *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources* (New York: Inner Traditions International, 1983), 344.

15. Ibn al-Nadim, Fihrist, 280, and Ibn Qutaybah, Imamah, II, 156, quoted in Subhi Mahmassani, *Falsafat al-Tashri' fi al-Islam: The Philosophy of Jurisprudence in Islam,* trans. Farhat Ziadeh (Leiden: E. J. Brill, 1961), 25.

16. From Pilon, preface to *Declaration of Independence.*

17. See http://www.cdi.org/budget/2004/world-military-spending.cfm (accessed January 22, 2004).

18. An example of removal of separation of powers was what happened in 1997 when Pakistani prime minister Nawaz Sharif eliminated the independence of the judiciary.

19. *Microsoft Encyclopedia Encarta 98* (electronic resource) (Redmond, WA: Microsoft, 1997), s.v. "Federal Reserve System."

20. Although a number are state supported, such as PBS, C-Span, and Voice of America.

21. Fareed Zakaria, *The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad* (New York: Norton, 2003), 17.

22. Church, *American Creed.*

23. For example, the disputes that occurred in the caliphate of al-Ma'mun as to whether the Quran was created or uncreated or whether performing the prayer with one's hands crossed on one's chest or hanging by one's sides was better—categories of issues on which Muslims may maintain diverging opinions.

24. For example, in the United States we often add a clause to an interstate contract that might say, "This contract shall be in accordance with New York State law." Two parties to a contract may agree to say, "This contract shall be governed by Hanafi law," even in a country like Saudi Arabia, where the law is Hanbali law.

25. Murray T. Titus, "Islam and the Kingdom of God," in *The MacDonald Presentation Volume* (1933; Freeport, NY: Books for Libraries Press, 1968), 395–96.

26. Antonin Scalia, "God's Justice and Ours," article adapted from remarks given at a conference sponsored by the Pew Forum on Religion and Public Life at the University of Chicago Divinity School, *First Things: Journal of Religion and Public Life* 123 (May 2002): 17–21, available at http://www.firstthings.com (accessed January 12, 2004).

27. Hadith in Ibn Majah, 3940.

28. Ahmad Ibn Hanbal, 21020.

29. Tirmidhi, 2092.

30. Asad, *Principles of State,* 39.

31. Church, *American Creed,* 139, italics mine.

32. Some add a fourth, namely, law of nations, dealing with what we would call international law. It was from this later development in Islamic law that the terminology of *dar al-Islam* ("house of Islam") and *dar al-harb* ("house of war") came about, and which some have misinterpreted to mean that Muslims are to be at war with those not

Muslims. Note also that the marriage contract falls under the law of transactions, since it is regarded as a contract between husband and wife.

CHAPTER FOUR - الفصل الرابع

1. Wilfred Cantwell Smith, *The Meaning and End of Religion* (New York: Mentor Books, 1962).

2. Smith, *Meaning and End of Religion*, 103.

3. Smith, *Meaning and End of Religion*, 337.

4. Smith, *Meaning and End of Religion*, 103.

5. Smith, *Meaning and End of Religion*, 105.

6. Smith, *Meaning and End of Religion*, 12.

7. The Quran calls Jesus the Messiah, son of Mary; see Quran 3:45, 4:171–72, 5:17, 5:72–75. The Quran refers to Christians as "Nazarenes."

8. Wilfred Cantwell Smith, *Questions of Religious Truth* (New York: Scribner, 1967), 102–3.

9. Konrad Lorenz, *On Aggression* (New York: Bantam, 1971), x.

10. Mu'awiyah later established the Umayyad Dynasty, which lasted from 661 to 750 CE.

11. Richard Dawkins, *The Selfish Gene* (New York: Oxford Univ. Press, 1976), 3.

12. Dawkins, *The Selfish Gene*, 201, italics mine.

13. The real-life situation is more complex, and many other behavioral strategies exist that altogether work against each other, but the broad point remains valid, namely, that cooperation provides a greater payoff.

14. Ashutosh Varshney, *Ethnic Conflict and Civic Life: Hindus and Muslims in India* (New Haven, CT: Yale Univ. Press, 2002).

15. Varshney, *Ethnic Conflict*, 6.

16. 'Ayni, *'Umdat*, XXII, 83.

17. Bukhari, *Sahih*, hadith no. 1.

18. Mark Juergensmeyer, *Terror in the Mind of God* (Berkeley and Los Angeles: Univ. of California Press, 2000), 102, 104.

19. Juergensmeyer, *Terror*, 105–6, 112–16.

20. Quoted in Mariana Caplan, *Halfway Up the Mountain: The Error of Premature Claims to Enlightenment* (Prescott, AZ: Hohm Press, 1999), 401.

21. Juergensmeyer, *Terror*, 113.

22. Juergensmeyer, *Terror*, 114.

23. *The Mystical Teachings of al-Shadhili*, trans. from the Arabic of Ibn al-Sabbagh's *Durrat al-Asrar wa Tuhfat al-Abrar* by Elmer H. Douglas (New York: State Univ. of New York Press, 1993), 113–14.

24. See Robert Bellah et al., *The Good Society* (New York: Knopf, 1992).

25. Benjamin Barber, *Jihad vs. McWorld* (New York: Ballantine Books, 2001), xiv.

26. Barber, *Jihad vs. McWorld*, xiii.

27. Ahmad Ibn Hanbal, 18074; see also Ibn Majah, 4002, and Nasa'i, 4138.

28. See the appendix, Qaradawi's fatwa on the permissibility of U.S. Muslim military personnel to participate in the Afghan war.

29. *Sahih al-Bukhari*, 984.

30. *Sahih al-Bukhari*, 182.

31. Abu Daud, *Sunan*, vol. 2, p. 98.

32. *Al-Bukhari,* hadiths 2683 and 6012.

33. See Feisal Abdul Rauf, *Islam, a Sacred Law: What Every Muslim Should Know About the Shari'ah* (Battleboro, VT: Qiblah Books, 2000), 54.

34. This is analogous to variations in state laws within the United States.

35. Note the link to the values in the original phrasing of the Declaration of Independence: "life, liberty and property," later changed to "life, liberty, and the pursuit of happiness."

36. Emile Durkheim, *Suicide* (New York: Free Press, 1951).

37. Durkheim, *Suicide,* 16.

38. Durkheim, *Suicide,* 15.

39. Durkheim, *Suicide,* 14.

40. Durkheim, *Suicide,* 15–17.

41. Durkheim, *Suicide,* 298.

42. Durkheim, *Suicide,* 299–300.

43. Robert A. Pape, op-ed article, *New York Times,* September 22, 2003.

44. Note that the use of the term *Islam* here is not in the religious sense as a theology but as an identity tag of a society, a collective consciousness of a people who identify as such, the collective psychology that emanates from its history, and all that contributes to its sense of self.

45. Some of these principles are a two-state solution, withdrawal by Israel to pre-1967 borders, removal of illegal settlements, or a combination of return, resettlement, and compensation for Palestinian refugees.

46. Caryle Murphy, *Passion for Islam* (New York: Scribner, 2002), 75, 159.

47. Murphy, *Passion for Islam,* 310,

48. For more information on RAND Corporation reports, log on to http://www.rand.org.

49. Barber, *Jihad vs. McWorld,* xxv.

50. Pew Charitable Trust, "Views of a Changing World, 2003: War with Iraq Further Divides Global Publics," Pew Global Attitudes Project, available at http://people-press.org/reports/display.php3?ReportID=185 (accessed February 3, 2004).

51. Pew Charitable Trust, "Views of a Changing World, 2003."

52. Barber, *Jihad v. McWorld,* xvi–xvii, xv, xvii.

53. The *Lancet,* the journal of the British Medical Association, asserted on the basis of findings by a 1995 study team of the United Nations Food and Agriculture Organization that examined health and nutritional conditions in Iraq that since the end of the Gulf War, sanctions were responsible for the deaths of 567,000 Iraqi children; see Sarah Zaidi and Mary C. Smith-Fawzi, "Health of Baghdad's Children," *Lancet* 346, no. 8988 (December 2, 1995). A more recent and independent study by public health specialist Richard Garfield of Columbia University confirms that hundreds of thousands of children in Iraq have died prematurely and unnecessarily during this sanctions crisis. Garfield examined the studies that have been conducted on Iraq to date and found the numbers to be more like 106,000. For more information, see Richard Garfield, "Morbidity and Mortality Among Iraqi Children: Summary of General Findings," available as of January 15, 2004, at the Web site of the Fourth Freedom Forum: http://www.fourthfreedom.org.

54. Alan Cooperman, "Clergy Urge More Active White House Effort for Mideast Peace," *Washington Post,* December 2, 2003.

55. Edward Said, *Covering Islam* (New York: Vintage Books, 1997).
56. Said, *Covering Islam*, 172.
57. Said, *Covering Islam*, 173.
58. Edward Said, *The Edward Said Reader* (New York: Vintage Books, 2000), 174.
59. Economist friends advise me that Americans should be grateful to Muslim oil-producing countries for having continued to maintain the currency of oil in U.S. dollars. If they had decided to change it to the Euro or another currency, the impact on the U.S. dollar would have been disastrous.
60. Said, *Covering Islam*, 53.
61. An example of this in Africa was Nigeria, where more than two hundred different religious, tribal, and language groups were forced into a new nation-state identity called Nigeria. One by-product of this was the Nigerian-Biafran civil war (1967 to 1970).

CHAPTER FIVE - الفصل الخامس

1. This is well documented in Stephen Kinzer's *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror* (Hoboken, NJ: John Wiley & Sons, 2003).
2. Ibn Khaldun, *The Muqaddimah: An Introduction to History*, translated from the Arabic by Franz (Princeton: Princeton Univ. Press, 1967), 5.
3. Wilfred Cantwell Smith, *Islam in Modern History* (Princeton: Princeton Univ. Press, 1957), chap. 1.
4. Smith, *Islam in Modern History*, 21.
5. Smith, *Islam in Modern History*, 23.
6. The difference between the Islamic and Jewish conception of history is that in Islam, history ought to be subordinated to revelation, which is final. Classical Hebrew thought put what it learned from history into its scripture. For the Old Testament, revelation is itself a long-term process. Otherwise the Jewish and Muslim attitudes to the historical process are similar.
7. A saying of the Caliph Ali bin Abu Talib, cousin of the Prophet Muhammad.
8. Islamic history in the Quranic sense begins with Adam and God's creation of the universe.
9. Karen Armstrong, *Islam: A Short History* (New York: Modern Library, 2000), 27.
10. Armstrong, *Islam*, 29.
11. Such as the split of the *ummah* into Sunni and Shiah and the establishment of dynastic rule over rule by merit.
12. Armstrong, *Islam*, 46.
13. We have witnessed several twentieth-century attempts to establish an Islamic society: in Saudi Arabia, Pakistan, Iran, Sudan; and in Turkey, Algeria, and Egypt by segments of the population. Malaysia, meanwhile, has focused on the ingredients of an Islamic state and in my judgment has progressed the most in this regard.
14. *Encyclopedia of Islam* (CD-ROM, Leiden: Brill, 1999), s.v. *"bayt al-hikmah."* See also s.v. *"dar al-hikmah"* and *"dar al-'ilm."*
15. Philip K. Hitti, *Makers of Arab History* (New York: St. Martin's Press, 1968), 85, 92.
16. Hitti, *Makers of Arab History*, 93.
17. Armstrong, *Islam*, 61–62, 65.
18. We have mentioned above Imam Malik's fatwa that a pledge of allegiance (*bay'ah*) obtained under duress was not valid, which resulted in his being whipped (see above, chap. 3).

19. The development of Islamic law, the Shariah, was therefore a powerful way for the Muslims to develop a rational and historical basis to found the believer's sense of sacred transcendence in spite of and in the face of corrupt rulers. It was at this time that the pursuit of collecting hadiths to internalize the archetypal figure of the Prophet was catalyzed. The caliphs countered by circulating forged hadiths to bolster their position in power. That Malik Ibn Anas (d. 795) called his school *ahl al-hadith* ("people of hadith") probably had political overtones, suggesting that they were following to a greater degree the footsteps of the Prophet than the *ahl ar-ra'y* ("people of opinion"), a name given to the followers of Abu Hanifa's school in Kufa. This may have been a dig at Abu Hanifa's position in favor of the *murji'a* doctrine, that it was better not to get involved in the complex finger pointing about which caliph was better than the other or who had a better claim to be caliph. (The term *murji'a* was based on Quranic verse 9:106, which mentions some of the Prophet's companions who did not join the Prophet in an expedition and for whom judgment would be deferred [*arja'a*] and thereby left up to God to decide.) *Murji'a* doctrine suggested that we'd better leave that judgment to God. The majority of the community continued to sympathize with the family of the Prophet rather than with the Umayyad and Abbasid rulers, who suppressed and dishonored them.

20. The Iranians are predominantly Shiite.

21. The debates on compulsory public education in the United States were about the need to educate the future citizens of the republic. The current American concern about the madrasas in Pakistan and Saudi Arabia is that they are educating a generation of passionately anti-Western Muslims.

22. Ibn Khallikan, *Wafayat al-a'yan wa anba' abna' al-zaman* (Obituaries of the Famous, and News of the Sons of the Time) (New Delhi, 1996).

23. "We have revealed it [this Book] as an Arabic Quran, so that you might understand" (12:2); see also Quran 20:113 and 39:28, which say it was sent in Arabic, explaining God's promises, and "without crookedness" so that we might acquire piety

24. Iranian activists could not go to Saudi Arabia because the Wahhabis were anti-Shiah. (Ayatollah Khomeini, for example, took refuge in Iraq and then in France before leading the Iranian revolution of 1979.) The Arab revolt against Ottoman rule in the early part of the twentieth century left a distaste in Turkey, which may have added to Kemal Atatürk's turn to a rapid Europeanization of Turkey.

25. *Encyclopedia of Islam*, s.v. "Indonesia."

26. Their efforts in trying to rid the Sudan of British rule is depicted in the film *Khartoum*, which starred Charlton Heston as Charles "Chinese" Gordon and the late Sir Laurence Olivier as the Mahdi.

27. Caryle Murphy, *Passion for Islam* (New York: Scribner, 2002), 44–49. For a deeper study of Muhammad 'Abduh, see Charles C. Adams, *Islam and Modernism in Egypt* (London: Oxford Univ. Press, 1933), and Yvonne Y. Haddad, "Muhammad Abduh: Pioneer of Islamic Reform," in *Pioneers of Islamic Revival*, ed. Ali Rahnema (London: Zed Books, 1994).

28. See Muhammad Iqbal, *The Reconstruction of Religious Thought in Islam* (1934; repr., Lahore, Pakistan: Kazi Publications, 1999).

29. *New York Times Magazine*, April 20, 2003. See also Paul Berman, *Terror and Liberalism* (New York: Norton, 2003).

30. "Whoever forges a way by which to seek knowledge, God will forge for him or her a way through that knowledge toward paradise. The angels unfold their wings with

pleasure upon the seeker of knowledge. All in the heavens and in the earth—even the fish in the ocean—pray for his or her forgiveness. The excellence of the seeker of knowledge over the mere worshiper is like the full moon over all the stars. Indeed, the people of knowledge are heirs of the prophets. The prophets bequeath neither *dinar* nor *dirham* [figuratively, neither dollar nor penny] but bequeath knowledge; so whoever takes of it has taken hold of an abundant fortune"; Abu Dawd, *Sunan*, "Kitab al-'Ilm," Bab al-Haththu 'ala Talib al-'Ilm, hadith no. 3157.

31. "The believer who has power is better and more beloved to God than the believer who is weak—and both are good"; Muslim, *Sahih*, "Kitab al-Qadr," hadith no. 4816.

32. Max Weber, *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism* (1930; repr., New York: Routledge, 2001), xiii.

33. I owe many of the ideas in this section to the excellent book by John Micklethwait and Adrian Wooldridge, *The Company: A Short History of a Revolutionary Idea* (New York: Modern Library, 2003).

34. Micklethwait and Wooldridge, *Company*, xv.

35. Micklethwait and Wooldridge, *Company*, 43.

36. Quoted in Micklethwait and Wooldridge, *Company*, 54.

37. Quoted in Micklethwait and Wooldridge, *Company*, 18; see also Stephen Innes's comments on 201.

38. Thomas A. Tweed, "Islam in America: From African Slaves to Malcolm X, " National Humanities Center, Chapel Hill, NC, available at www.nhc.rtp.nc.us/tserve/twenty/tkeyinfo/islam.htm (accessed February 4, 2004).

39. Tweed, "Islam in America."

40. *Microsoft Encarta Encyclopedia 98* (electronic resource) (Redmond, WA: Microsoft, 1997), s.v. "Affirmative Action."

41. C. Eric Lincoln, *The Black Muslims in America* (Boston: Beacon Press, 1961), iii.

42. Lincoln, *Black Muslims*, iv.

43. Louis E. Lomax, *The Negro Revolt* (New York: Harper & Row, 1962), 184.

44. Lomax, *Negro Revolt*, 190.

45. Armstrong, *Islam*, 16.

46. Alim Islamic Software, *Al-Tirmidhi*, hadith no. 4939.

47. Armstrong, *Islam*, 16.

48. At one of the most important milestones in Islamic history, known as the Treaty of Hudaybiyah, the Prophet Muhammad took his wife Umm Salama's advice on what to do. The Prophet led his followers to perform the pilgrimage in Mecca for the first time since they had fled to Medina. They stopped at a place called Hudaybiyah, about twenty miles from Mecca. After intense negotiations, Muhammad agreed that the Muslims would wait another year before making the pilgrimage to Mecca. The pilgrims were disappointed, their expectations dashed. They stood in a group staring in shock at the Prophet and didn't make a move even when he commanded them to sacrifice their animals and cut their hair (rites traditionally done at the end of the pilgrimage, and only within the sacred precincts of Mecca). Concerned that he would lose their support, Muhammad retreated to his tent, where Umm Salama had been watching the events transpire. He asked her advice. "Go forth," she said, "and say no word to any man until you have performed your sacrifice" (see Martin Lings, *Muhammad* [New York: Inner Traditions, 1983], 254). Seeing the Prophet perform the ritual act, the Muslims immediately raced to perform their sacrifices, thereby releasing the tension that had built up. As

Karen Armstrong notes, Umm Salama had evaluated the situation exactly (see Armstrong, *Muhammad: A Biography of the Prophet* [New York: HarperCollins, 1992], 222). Umm Salama recognized that the Prophet's followers would emulate his actions even more readily than his verbal instructions. The Prophet Muhammad succeeded here based on her advice.

49. Alim, Prophet's Last Sermon.

50. *Encyclopedia of Islam*, s.v. "Khadidja."

51. *Encyclopedia of Islam*, s.v. " 'A'isha Bint Abi Bakr."

52. American Muslims generally believe, rightly or wrongly, that the Patriot Act is primarily targeted against them.

53. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 142.

54. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 143.

55. Theodore Maynard, *The Story of American Catholicism* (New York: Macmillan, 1941), 285.

56. Thomas Sugrue, as expressed in Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*.

57. In addition to educational institutions, there were Catholic hospitals, homes, and orphanages; Catholic charities and welfare agencies; Catholic Boy Scouts and War Veterans, Catholic associations of doctors, lawyers, teachers, students, and philosophers; Catholic leagues of policemen, firemen, and sanitary workers; and a Catholic Youth Organization. The immense system constitutes a self-contained Catholic world with its own complex interior economy and American Catholicism's resources of participation in the larger American economy; see Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 154.

58. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 149.

59. James Cardinal Gibbons, "The Church and the Republic," quoted in Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 150.

60. "The Catholic Church in American Democracy," press release of the National Catholic Welfare Conference, January 26, 1948.

61. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 152.

62. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 161.

63. The Jewish Reform movement was set in motion in America by Isaac Mayer Wise, who among his accomplishments compiled a new prayer book and order of service according to the American Custom (*Minhag America*). In 1873 he formed the Union of American Hebrew Congregations and in 1875 established a theological seminary, the Hebrew Union College in Cincinnati. In 1889 he launched a rabbinical association under the name of the Central Conference of American Rabbis.

64. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 177.

65. See Norman Bentwich, quoted in Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 202.

66. Oscar Handlin, quoted in Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 288.

67. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 191.

68. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 222.

69. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 198.

70. Herberg, *Protestant, Catholic, Jew*, 236.

71. Quoting the Beth Din Web site, http://www.bethdin.org/services.htm (accessed January 20, 2004).

72. Quoted in David Fromkin, *A Peace to End All Peace* (New York: Henry Holt, 1989), 257.

73. Fromkin, *Peace to End All Peace*, 258.

74. Fromkin, *Peace to End All Peace*, 259.
75. Quoted in Fromkin, *Peace to End All Peace*, 262.
76. Quoted in F. Forrester Church, *The American Creed* (New York: St. Martin's Press, 2002), 90.
77. Quoted in Church, *American Creed*, 92.
78. Church, *American Creed*, 91.
79. See Kinzer, *All the Shah's Men.*
80. *Microsoft Encarta Encyclopedia 98*, s.v. "Afghanistan."
81. John Micklethwait and Adrian Wooldridge, *A Future Perfect: The Essentials of Globalization* (New York: Crown Business, 2000), xix.
82. Francis Fukuyama, *The End of History and the Last Man* (New York: Perennial Reprint, 2002), xii.
83. Michael Novak, "The Most Religious Century," op-ed piece, *New York Times*, May 24, 1998.
84. Novak, "Most Religious Century."

CHAPTER SIX الفصل السادس -

1. In it he said,

> It should be clear to all that Islam, the faith of one-fifth of humanity, is consistent with democratic rule. Democratic progress is found in many predominantly Muslim countries: in Turkey, Indonesia and Senegal and Albania and Niger and Sierra Leone. Muslim men and women are good citizens of India and South Africa, the nations of Western Europe and of the United States of America. More than half of all Muslims live in freedom under democratically constituted governments. They succeed in democratic societies, not in spite of their faith, but because of it. A religion that demands individual moral accountability and encourages the encounter of the individual with God is fully compatible with the rights and responsibilities of self-government.

The text of Bush's speech is available at http://www.nytimes.com/2003/11/06/politics/06TEXT.BUSH.html.

2. Unlike in the United States, in many Muslim countries the government owns certain industries, like the oil, transportation, and communication industries. These industries need to be privatized and broken up, as has happened in America.
3. Anwar Sadat of Egypt, for example, was assassinated within a year of having himself proclaimed president for life.
4. "Mixing Growth with Islam," *Wall Street Journal*, November 7, 2003.
5. This problem is now being played out in France with the scuffle about headscarves in French schools. The best way to solve this is to create a win-win situation. My wife suggests, Why can't the French authorities ask their top designers, such as Cacherel, Hermes, Yves St. Laurent, and others, to design a headscarf for Muslim schoolgirls that addresses Islamic concerns and is in keeping with French aesthetics of haute couture? Headgear has always been a fashion item throughout human history; this can grow into a billion-dollar business, meaningfully contribute to a culturally French Islam, and be an economic boon.
6. Marc Gopin, *Holy War, Holy Peace* (New York: Oxford Univ. Press, 2002), 181–82.

7. One example of such a workable framework that might be implemented was provided by the Geneva Accord, negotiated between Yossi Beilin and Yasser Abed Rabbo, who were parties to previous negotiations between Israel and Palestine.

8. *New York Times*, "Top Evangelicals Critical of Colleagues Over Islam," Laurie Goodstein, May 8, 2003.

9. "China and India Move Closer, Seeing Trade Gains," *Wall Street Journal*, November 11, 2003.

10. "China and India."

11. Barely four weeks after I wrote this passage, the *Wall Street Journal* published an article under the headline "China Steps Up Diplomatic Role," by Jay Solomon, Charles Hutzler, and Zahid Hussein, with subtitles "Beijing Takes the Initiative with India and Pakistan" in pushing for a peace pact and "From Guns to Butter, Better China-India Ties . . . Could speed détente between South Asian rivals." The article is full of ideas that demonstrate, in effect, how to apply Varshney's insights on associational ties and Dawkins's insights on increasing the payoffs to avoiding violence that I have tried to highlight in building peace.

12. Quran 3:112–16. This teaching is similar to Jesus's parable of the weeds mentioned in Matthew 13:24–30.

13. The Quran points out, for example, that even "among your spouses and your children there are enemies to you" (Quran 64:14).

14. These points apply as well to adherents of other faiths.

15. Arthur Schneier, "Religion and Interfaith Conflict," chapter 7 of *Interfaith Dialogue and Peacebuilding*, ed. David Smock (Washington, DC: U.S. Institute of Peace Press, 2002), 112.

16. I am indebted to the following: Daniel Yankelovich, *The Magic of Dialogue* (New York: Simon & Schuster, 1999); Mary Jacksteit and Adrienne Kaufmann, *Finding Common Ground in the Abortion Conflict: A Reference Manual*, available from Search for Common Ground, http://www.sfcg.org, or the National Association for Community Mediation, http://www.nafcm.org.

17. I noted earlier that early Muslim history is replete with learning gained from the non-Arab communities among whom Muslims lived and that later Jewish scholars such as Maimonides and Ibn Paqoda applied principles learned from their Sufi Muslim contemporaries such as al-Ghazali.

18. For example, when I studied the field of Islamic law that categorizes the differing laws in the Islamic schools of jurisprudence and the reasoning that led each jurist to his opinion, classically called *'ilm al-khilaf* (literally, "knowledge of differences"), it gave me a deeper appreciation of the compelling reasons of each school, resulting in my being more tolerant and accepting of differing views within Islam.

ف: 6026 ت:29/1/2009

هذا الكاتب وهذا الكتاب

- ولد فيصل عبد الرءوف لعالم أزهرى نابه، نشر أفكاره فى مصر، وفى أقصى الغرب فى الولايات المتحدة، وفى أقصى الشرق فى ماليزيا، حيث كان له سهم كبير فى إنشاء الجامعة الإسلامية هناك.
- تعلم فيصل فى مدارس مصر وماليزيا وإنجلترا، وتخرج من جامعة كولومبيا فى الولايات المتحدة، وعاش ثلاث ثقافات كبرى .. فى مصر، وفى ماليزيا التى تمثل عصارة آسيا بعناصرها الكبرى: الملايويين والصينيين والهنود... وأخيرًا فى الولايات المتحدة الأمريكية.
- وقد هام بالثقافات الثلاث ... فهو مسلم مصرى عربى آسيوى أمريكى ... ويفتخر بكل ذلك.
- درس فيصل المسيحية واليهودية والبوذية والهندوسية.
- وتوج الإمام فيصل ثقافاته وتجاربه المتنوعة بسلوك طريق الإنسان العالمي.. والعمل الدائم على معرفة الآخر وتمهيد السبل للعيش معه فى وئام وتناغم وازدهار إنسانى. توترت العلاقات بين الغرب والإسلام لقرون طويلة، وجاءت أحداث ٢٠٠١/٩/١١م وما تلاها لتصنع عالمًا جديدًا، أشد تناحرًا واشتعالاً، إن لم يكن عداءً. ومع هذا، يرى فيصل أن هناك أوجهًا شبه كثيرة بين جوهر الإسلام، وجوهر الثقافة الأمريكية .. ويرى أنه بالعمل المخلص المدروس - الذى يبدأ بمعرفة الآخر. وبالحفاظ على حقوق الإنسان المشروعة لدى الجانبين، يمكن للإسلام أن يأخذ وضعه الصحيح فى أمريكا كما حدث للكاثوليك، وكما حدث لليهود، ولغيرهم على مر الزمان.
- يعمل الإمام فيصل - من خلال مؤسسة " مبادرة قرطبة " التى يرأسها - ع
الفهم والمعرفة بين أتباع الأديان الإبراهيمية، وبينهم وبين الآخر
- ويضع الإمام فيصل يده على المشكلات الرئيسية: فلسطين وإسرا
الأمريكى. مساندة الإدارة الأمريكية للحكومات الفاسدة المستبـ
الإسلامى. عدم ثقة الشعوب العربية والإسلامية فى الإدارات
المتعاقبة. العنف والعنف المضاد الذى يقتل الأبرياء.
- هذا كتاب جدير بالقراءة، يعكس معرفة إنسانية رحبة، ومس
حالمة وجريئة، وبالطبع غير تقليدية.

عادل المعلم

